

الطريق إلى
مكة
رواية
دار العين للنشر
محمد الغربي عمران

الطريق إلى مكة

الطريق إلى مكة

(رواية)

محمد الغربي عمران

الطبعة الأولى / ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس:٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail . com

الغلاف: محمد عبد العزيز

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٣/٤٦٢٥

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 218 - 5

الطريـق إلـى مكة

روايـة

محمد الغربي عمران

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عمران، محمد الغربي.

الطريق إلى مكة: رواية/ محمد الغربي عمران.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٣

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٢١٨ ٥

١- القصص العربية.

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٤٦٢٥ / ٢٠١٣

جـزيـل الشكر
للأستاذ دكتور عبد العزيز المقالح

وللأساتذة الأصـدقـاء:
دكتور/ محمد الحصماني.. جامعة ذمار
دكتور/ عصام واصل..
الناقد/ خالد الشامي.. جامعة ذمار
الإعلامي/ فائز البخاري.. صحيفة الثورة
الباحث/ محمد الحوثي
الناقد/ علي أحمد قاسم
من أمدوني بملاحظاتهم القيمة.



إلى وطني التواق للعدالة والحرية..

صنعـــاء

صعصعة

"الحمدُ له المتعالي عن أن يكونَ لثواقب العقول والأفكار مَـرَاسٍ لآفاق عظمته، المتجلل عن أن تعبر مختلفاتُ الألسنِ واللغاتِ عن كُـنْـهِ صفته، المتقدس عن الصفة ونفيها اللائقين بإبداعه وخلقه الذي عجز عن إدراكه العقلُ السامي على أبناء جنسه بشرف سبقه، فهو إذا نهض ملتمساً ذلك غشيته أمواجُ الحيرة فغرق في تيارها وجذبته يدُ العجز إلى حضيض القصور وآض ملتجئاً إلى جوارها معتصماً بذروة الاعتراف، التي هي النجاة مستحقاً كونه منشأ الأمر الذي قامت به الأرضون والسموات وأشهد عن عجز إدراكه، هو حقيقة الإدراك المحفوفة طريق توحيده بسُرَادقات التعطيل فمن سلكها بغير دليل وقع في الضلال ومن أمها بغير هادٍ ضاع في مسالك الأباطيل والمتاهات.

فالحمد له الذي نِعَمُه لا تحصى على من أطاع وعصى، فذو الطاعة لما به من نعمة يُملأ، وذو المعصية إلى حد ماله يُملأ، يستفيدُ هذا من شكره رحمة ورضواناً، كما يستزيد ذلك بكفره إثماً وعدواناً، وكل سوف يؤتى كتابه ثم لا شك يوفى حسابه".

أما بعد.. أنا جَـوْذَر بن...... عشت كما شاءت لي المشيئة.. أجيراً في صباي.. تعلمت رسم الحروف ونقش الزخارف على يدي معلمي صعصعة.. وَخلط الأزهار بالصمغ والجير ومسحوق الفحم بمقادير مختلفة وغليها لاستخراج ألوان الكتابة والتصوير.. كما حذقتُ تحضير رقوق الكتابة من جلود الماعز.. وتحضير الكاغد من القنب الأبيض.. وكذا جمع وحباكة الورق وتجليدها كُتباً.

العاشرةُ صَـبَـاحاً.. جُـمُـوعُ عُـمَّـال الأرصفة.. باعةٌ يفترشون نهر الشارع.. مكبِّرُ صوت عَرَبة جمع النفايات.. مقاه يحتلُ زواياها عاطلون.. أسراب المتسولين.. دخلنا بابَ اليمن.. دكاكينُ عتيقة.. شوارع ضَيقة.. مبانٍ موغلة في القدم.. حاذينا جداراً أسود للجامع العتيق ينتهي عند شجرة تين هرمة.. بوابة حَديد دُهنت بلون رمادي.. دخلنا عبر فرخ البوابة.. إلى يميننا غرفة حراسة من طوبٍ عارٍ.. جُنديٌّ لا يتجاوَزُ الخامسةَ عشرةَ:

– ماذا تـُـريدون؟.

أجبته بصوت باسم:

– صباحُ الخَير.. نـُريدُ مُديرَ الدار.

– لم يأت بعدُ.

– سننتظِرُه .

– ممنوع الانتظار هنا!.

وقفنا حيثُ كنا. عاودت حديثي للجندي:

– نحن في مهمة.

– مَن أنتم؟.

– نحن لجنة من وَزارةِ الثقافة.

– تغيَّـرت ملامحُ الجـنـدي وخَـفـتـت حِـدَّةُ صوته.

– سأبلغ مدير مكتبه.. انتظروا.

حمل رشاشَه مهرولاً عبر الساحة المشمسة الفاصلة للمبنى.. صعد درجات إسمنتية.. اختفى في مدخل علقت فوقه لوحة بلاستيكية (الجمهورية اليمنية.. الدارِ الوطَنية للمخطوطات والوثائق).. سيارات بألوان مختلفة في الساحة الأمامية للمبنى.. فسائلُ خضراءُ عند الأطراف.. نوافذُ موزعة على واجهة المبنى.. يعكس زجاجُها ألوانَ الدُور القديمة المحيطة.. قاعِ غرفة

قضيت عمري أبحث عن مسالك بواطن الأمور.. ومسارب الحقيقة.. وهذا أنا أدوِّنُ بعضَ ما عاش بي الزمن.. بعد أن ظللت أنسخُ ما يريده الناسُ وما يخصهم. سأعود بحكايتي إلى قادم الأيام.. إلى يوم جمعة من شهر محرم الحرام 435 للهجرة.. يومها انتشر خيالة ملثمون في أحياء وأسواق صنعاء.. يبحثون عن ضحاياهم.. لتصل مجموعة منهم إلى سوق الوراقين.. لحظتها صرخ بي المعلم صعصعة لمرآهم..: "أهرب ياجَـوْذَر بسرعة.. أُنجُ بحياتك". حينها رأيتُ الموت في عينيه.. وسريعاً ما سدت الخيالة باب الحانوت.. دفعني.. تسللت تحتَ لهيب سياطهم.. ورَكَلاتهم.. من بين سيقان خيولهم، اصطدمت بأجساد السابلة وقد تجمعوا خلفَ الخيول.. رأيته يتلوى تحت ألسنة السياط.. تتطايرُ نِـتَـفُ ملابسه الممزقة.

في صباح اليوم الثالث تسرب خبرٌ من أن الإمام الملثم قد هرب ليلاً بأموال طائلة.. وأن قبائل ورجال الداعي الجديد الإمام الشريفَ قد ملأت شوارع وأزقة صنعاء وأسواقها ذعراً.. خيم الرعب على المدينة.. فاحت روائح القتل والنهب والسلب والحرق.

الحراسة .. أُغصان قات جافة.. بقايا بطانية مهترئة.

عاد ذلك الجُندي مهرولا يتقدمُـه شابٌ ببدلته السوداء.. هابِـطاً درجات الدار.. اقترب منا وعلى وجهه ابتسامةٌ باهتة.. مصافحاً ومرحباً.. بادرته:

– نحن في مهمة.. وهذا أمرُ تكليفـنا.!.

– أنا مدير مكتبه.. وهو ينتظرُكم في مكتبه.. اتبعوني.

حين خطط الملثم للتسلل والهروب خارج صَـنْـعَـاء.. كان قد أمر عسكره الملثمين بقتل عدد من وجهاء المدينة ومشايخها بتهمة خيانتهم وتعاونهم مع أعدائه.. كان المعلم صعصعة شيخ مشايخ صَـنْـعَـاء على رأس من أمر ملثميه بقتلهم قبل هروبه.

كنت وأمي نتوقع في كُـلِّ لحظة أن يُـكسَرَ بابُ بيتنا.. نسمعُ صرخاتٍ وعويلا.. وَقْـعَ خطوات متلاحقة.. تعكفُ أمي في بيت صلاتهاً.. تناجي ربها.. تكرر صلواتها.. لا أعرفُ ما أصنع.. تنصحني ألا أفكر بمواجهة مَن سيكسرون الباب.. وتتكرر أصواتُ الاستغاثات من دُور تجاورنا.. كانت المدينة قد عاشت حصاراً لأكثر من شهر ونصف قبل اقتحامها.. حينها سد السكانُ مداخلَ الشوارع والأزقة.. مات البعض جوعاً وخوفاً.

حين كنا نحتمي ببيتنا سمعت وأمي قرعَ طبول.. قالت لي: هل تسمع ما أسمع.. لقد استجاب الرب لصلواتي.. لقد نجونا!.. طلبتُ منها أن تفتحَ البابَ لنعرفَ ما يحدث.. تمنت عليَّ الحذر.. سرتُ أبحثُ عن مصدر قرع الطبول.. أناس يتبعون نافخي الأبواق وقارعي الطبول.. يسيرون ليقفوا.. يقرأ أحدهم الأمر الإمامي الجديد.. بالأمان لجميع السكان.. تحيطهم مجموعة من العسكر.. يتبعهم أناسٌ كُـثُـرٌ.

اعتلينا درجات الدار.. عبرنا بابه الزجاجي.. استقبلتنا صالة فسيحة مضاءَةٌ سقوفُـها بعدة لمبات نيوَن رغمَ ضوءِ النهار.. لوحة إعلانات على الجدار.. صورٌ فوتوغرافية لكبار زوار الدار.. مكتبٌ عريضٌ عند الزاوية الموازية للباب يجلس خلفه شابٌّ يعبثُ على أزرار (كيبورد) وعيناه على شاشة الجهاز.. عدة أبواب حديدية على الأطراف.. دخلنا صالة أخرى

عُدت إلى زُقاق بيتنا.. حدثت أمي بما رأيت وسمعت.. لفت طرحتها حول رأسها.. طلبت مني مرافقتها إلى دار المعلم.. سرنا وسط خراب دُور كثيرة.. رائحة الموت والتراب.

وقفت جوار قبرالمعلم هناك جوار جذع شجرة فسحة المدخل.. الحزنُ يغلف دار المعلم.. يسكنه العويل.. نساء كثر ينتحبن.. شاركتهن أمي.. أما (شَـوْذَب) فلم تقوَ على الحديث.

قبل تسع سنوات كان هناك طفلٌ في الثامنة أرى أمه تُمسك بذراعه.. تقفُ أمامَ هذه المصطبة الحجرية.. يجلس المعلم مشغولاً بما بين يديه.. أسمع صوتها رغم ضجيج السوق:

واسعة حجَبَ زجاجُ الفترينات جدرانها الجانبية.. وعلى الجدار الأمامي صورةٌ بإطار ذهبي لزعيم البلاد يصافح رجلا قصيراً معتمراً عمامةً بيضاءَ.. هبط من سلم الدور العلوي رجل ستيني مبتسماً يُشبهُ ذلك الذي يصافحُ الزعيمَ.. قال بصوت فخيم أبوي: كـُـلُ مَن يزورُنا تُلفتُ انتباهَه صورة القائد تلك.. لقد أُخذت لنا أثناءَ حفل افتتاح الدار.. كنتُ في استقباله كما ترَون هذه كفي تصافح كفه. قالها وهو يُشيرُ بسبابته.. مواصلاً كلماته: القائدُ صديقٌ قديم.. جمعتني به أيامٌ مبكرة و لم نكن نعلمُ بأنه سيكونُ زعيما عظيمًا.. هو من عيَّـنني مديراً لهذه الدار.. بعد أن أضحى قائداً للبلاد.

أكملَ توضيحَه وابتسامته الأبوية تفترسُ ملامحَنا.. خمَّـنتُ بأنه يعلمُ غاية قدومنا.. لم يتح لنا الحديثَ أوْ مصافحته.. مد له رئيسُ اللجنة بمذكرة تكليفنا.. تمعنها بصمت راسماً على ملامحه علامة التعجب.. ثم رفع وجهه محافظاً على ابتسامته التي شابها الفتور.. قال: أرحبُ بكم.. وأعلم أن هناك مؤامرات تحاك للنيل من سُمعتي.. وأود التوضيح لكم بأن كـُـلَ ما تحتويه هذه الدار من جُهدي.. لقدْ بنيتها على مدى أكثر من ثلاثة عقود.. ولن أتركها للعابثين.. وكما ترَون لقد أفنيت عمري مخلصاً للقائد.. ثم أشار أن نتبعَه صاعدين.. دخل بنا قاعة جانبية مربعة.. رُصَّـتْ على جوانبها ستة مكاتب تربعت فوقها أجهزة الحاسوب.. وقاعة أخرى وزعت المكاتبُ على أطرافها.

– سلام عليك يا جار.

يرفع المعلم وجهَه مبتسماً.

– وعليك السلام يا جارة.

تتسع ابتسامته حين يرى وجهَ الطفل ملتصقاً بثوب أمه.. يبتسم الطفلُ بعينيه الصغيرتين.. قالت الأم وهت تشير إلى طفلها:

– هذا ابني أتيتُ به إليك.

هبط بنظره يتفحص ملامحَه مرة أخرى.. انكسرت عينا الطفل.. حرَّك شفتيه وقد نقل نظره إلى وجهها:

– أليس صغيراً على العمل!.

– يمكنه البقاءُ في الحانوت عند خروجك.. حتى عودتك.. أَوْ أن يجلبَ لك بعضَ الأشياء..

عاد يتفحص قامة الطفل.. ثم قال موجهاً كلامه إليه:

– لا بأس يا صغيري.. فلنرَ ما سنصنع سوياً بهذه الحياة.

تشبث الطفل خوفاً بأصابعها. وقد خشي أن تتركه لدى ذلك الشيخ وتمضي.. يسترق النظر، فيرى عالـَماً من رفوف عديدة.. يرفع ذلك الشيخُ كفه مشيراً بإصبعه المرتجفة.. وهو يقول:

– سأنتظر قدومَـك غداً يا مساعدي الصغير؟.

ردت عليه وأصابعُها تعبثُ بوجه الطفل.

– سيكون برفقتك منذ الصباح الباكر.

***

تنفستُ بعُمق حين ودَعَتهُ مستديرةً من حيثُ أتينا.. ممسكةً بمعصمي.. حدثتني في طريق العودة:

– لماذا كنت مضطرباً؟.

– خفتُ أن تتركيني وتمضي!.

– ألم أحدثك بأنك ستعمل مساعداً لرجل لطيف؟.

– بلى، ولكني لم أتخيل أن يكونَ اليوم.

– عليك بحفظ الطريق فغداً ستأتي وحيداً.

لا زالت تسكنني لحظة اضطراب ذلك اليوم.. أخذت تقطعُ بي الأزقة والشوارعَ الفاصلة بين بيتنا وتلك الحوانيت المتداخلة ذهاباً وإياباً عدة مرات.. مسالك غريبة.. تشير إلى واجهة تلك الدار تأمرني أن أحفظ ما عليها من: زخارف ياجُوريَّة.. بروز مشربيات دار مقابلة.. قناطر وعُقود حَجَرية نسير تحتها.. تلك السواني التي تسيرُ في منحدراتها أثوارٌ هبوطاً وصعوداً.. بعير تحت سقيفة معصوب العينين يدورُ حول صخرة سوداء.. مئذنة عالية تزينها زخارفُ ناتئة.. جدران طويلة من الطين لبساتين نرى فروعَها تتدلى.. حوانيت متراصة في كُلّ اتجاه.. سقوف

مخزَّمة.. وأخرى تحيلُ ممرات السوق إلَـى سراديب معتمة.. أصوات.. ألوان.. روائح. كـُـل تلك العلامات اختزنها عقلي.

صوتُ أمي وهي تشير بأصبعها أن أحفظ معالم الطريق. تحدثني عما يجبُ أن يتحلى به الولدُ الطيبُ الذي تحبه أمه قالت لي" حين تكون هناك لا تتحدث كثيراً.. استمعْ لما يقال لك.. لا تصدق كلَّ مَا تسمعه.. لا تتسرع في الحديث أَوْ الرد.. ابتسم دوماً.. لا تجادل مَن كان أكبر منك.. تجنَّــب كـُــلَّ غريب". قضيتُ ليل ذلك اليوم في تخيل الغد ورهبته حتى غشاني نوم عميق.

عندَ الصباح الباكر ألبستني أمي ثوبا نظيفاً،احتضنتني عند عتبة البيت.. علقت مِـزْوَدَتي على عُنقي.. كسرة خبز.. أحتضن كفها أصابعي قائلةً وهي تبتسم:

– أنت تعلم إلى أين تتجه.

هبط بنا سُـلـّـماً رُخامياً. صالة مماثلة في اتساع القاعة العليا، فتح أقفالَ أحد الأبواب.. لندخل خلفه.. قاعة مستطيلة امتلأت بأعمدة صناديق قصديرية.. وثالثة اصطفت على جوانبها دواليبُ زجاجية وقد امتلأت رفوفُها بالمجلدات والمخطوطات.. ورابعة رُصت فيها صناديق خشبية فوق بعضها.. قاعة واسعة أخرى امتلأت أرففها باضبارات مجلدة.. تطل ملازم الأوراق والمغلفات بشكل عشوائي.. هبط بنا درجات عشرٍ نحوَ قاعة سُفلية تحتَ الأرض.. وقف بنا أمامَ باب خشبي عتيق.. قال: هذا هو بابُ المخزَن السفلي الذي يحتوي على كنزٍ من المخطوطات القديمة.. ويبدو أن الموظفَ الموكل إليه حفظ مفاتيحه لم يعُدْ من إجازته. سندخله مَـعاً متى ما توفر المفتاح.

هبط يودعنا وهو يكرر: سأكونُ لكم عَوناً حتى إنجازَ مهمتكم.. وَدَّعناه.. وقد بادر لمصافحتنا والتربيتِ على ظهورنا بوُدٍّ مبالَــغ فيه.. قال له رئيسُ اللجنة: سنكونُ هُــنا في تمام الثامنة من صباح يوم غد للبدء بتنفيذ ما أوكلَ به إلينا وزيرُ الثقافة والتراث الوطني.

هززت رأسي مرتبكاً وبرودة الصبح تلفحُ وجهي.. أشعرُ بخوف يرتجف في صدري.. إحساس بالعجز من المجهول.. كانت تهمس وهي تدعك يدي بيديها "أنت تحفظ علامات الطريق أليس كذلك؟". تذكرني بتفاصيل الأمس إلى حانوت ذلك الشيخ.. مشجعة إياي أن أذهب.. قالت في أذني: تذكر دوماً بأني إلى جوارك.. لم تعد صغيراً.. اليوم أنت رجل.. والشيخ في حانوته ينتظرك".

إصبعُ يدي ترتعش حين انزلقت من قبض كفها.. كُنتُ مشتتاً وأنا أخطو أولى خطواتي بعيداً.. الشمس لم تشرق بعدُ.. أسيرُ في طرُق معبأة بالبرد والخوف.. خالية إلا من البعض.. يخفق قلبي وحيداً وسَطَ أزقة متشعبة.. أستحضرُ علامات الأمس: صوت أمي.. الروائح.. واجهات

انقضت أيامٌ على بدء أعمال لجنة حصر محتويات القاعات.. أنجزنا خلالها حصرَ محتويات قاعة صناديق القصدير.. كانت خطواتُ الجرد والفهرسة تمُرُّ بعدَّة مراحلَ.. تبدأ بحصر محتويات القاعة.. ثم حصر محتويات كل صندوق.. لنضعَ لكل صندوقٍ رقماً جديداً، إضافة إلى رقمه السابق.. تصنف كل وثيقة بحالتها وإعطائها رمزاً خاصاً بها.. لتأتي مرحلة المُطابقة مع الكشوفات السابقة للدار.. وبعد استكمال الحصر والتصنيف ورقياً يتم نسخها ضوئياً.. ثم أرشفتها إلكترونياً.. ثم تشمَّعُ الصناديقُ بالرصاص.. وهكذا ما إن ننتهي من صندوق حتى نبدأ بصندوق آخر.. وعند الانتهاء من القاعة تُقفل بأقفال جديدة وتختم بالرصاص.
أثناء حصر أحد الصناديق.. لفت انتباهي عنوانُ مخطوطة كتب على غلافها بلون أحمر قان "ظلمة اللـه" ثم دون تحته "جَـوْذَر صانع كتب" وعلى صفحته الأخيرة.. "والمتمم لهذا في غرة رجب 462 من الهجرة".. كانت المخطوطة في حالة جيدة.. وأوراقها من الرقوق المصقولة.. تبرعمت بداخلي عدة أسئلة.. كيف يكون في ذلك الزمن صانع كتب؟. وكيف كان يفكر ويعيش رجل امتهن مهنةً لها صلة بالكتاب؟.. جلست على أحد الصناديق المغلقة.. مستغلاً عمود ضوء من فتحة بقرب السقف.. فتحت أوراق تلك المخطوطة.. أدهشتني ألوانُ حروفها ونقوشها.. خطها.. ملمس أوراقها.. أخذت بقراءة الصفحة الأولى.. لتقودني الحكاية إلى حيث وقفت.

الدُور العالية.. أسوار طينية.. أبواب.. مآذن.. قباب.. سبل للماء.. ارتجفت مرتبكاً حين وقفت بين عدة أزقة متشابهة.. محتاراً أبحث عن علامة تدلني.. ألتفت لأتأكد من موقعي.. كدت أن ابكي لرؤية أمي ترقبني هناك.. هزني خجلٌ بداخلي.. هممت بالعودة إليها.. لوَّحَتْ لي أن أسيرَ منعطفاً شمالاً. صفوفُ الحوانيت لا تزال مغلقة.. عدا بعضها.. ميَّزْتُ حانوتَ البارحة.. لا يزال بابُه مغلقاً.. جلست أمرجحُ قدمَيَّ من على مسطبته الحجرية.

حينها ظهر ذلك الشيخُ يسيرُ بخطى منتظمة.. حين رآني وقف متأملاً.. ابتسم.. رفع صوته: هذا أنت يا صغيري.. الآن تأكد لي أنك مساعدٌ نشيط.

لم أجد ما أقوله.. هبطت واقفاً.. مد يده مصافحاً.. ألتفتُ عَلـّي أرى أمي.. كنت أشعر بأنها في مكان ما ترقبني.. تبتسم. يصعد الشيخ المصطبة الحجرية.. يُخرِجُ مفتاحاً طويلاً.. يُديرُه في بطن الباب.. مردداً: يا فتاح يا عليم.. يا رزاق يا كريم.. يا هادي يا عظيم. وكلما دار به دورةً أضاف دعاءً بنفس الإيقاع.. أراقبُه: يسحبُ مصراعَي الباب الخشبيين الصغيرين.. يجذبني إلى الداخل وهو لا يزالُ يتمتمِ أدعيته.. رائحة الحانوت دافئة.. يجلس متكئاً في زاويته.. يُشيرُ إليّ أن أجلسَ على صندوق يحتلُّ نصفَ المساحة الداخلية للحانوت.. مغارة صغيرة غطت جدرانَها أرففٌ عالية.. تدلت بعضُ رقوق ولفائف.. أقمشة.. وكتب.. أدراج أتكشف محتوياتها يـَوْماً بعد يوم: خيوط.. سيور.. مخارز.. أواني

مليئة أحباراً.. أصماغاً. أراقب انهماكَه بسن يراع.. صرير متقطع يرسُمُ أحرفاً على صفحة بين يديه.. يرفع رأسَه بعد حين، يتأملني كما لو أنه يكتشف وجودي:

– أنا اسمي صعصعة.. وأنت ما اسمك؟.

ظننت أمي كانت تسخرُ مني حين قالت لي بأن اسمه صعصعة!. لكنه اسمه بالفعل.. أبحث عن علاقة بين وجهه المستطيل وهذا الاسم.. أتذكرُ قولَ أمي "الأسماء تشبهُ أصحابَها". فما أن تتعرفَ على أحدهم عليك بالبحث عن التشابه بين ملامحه واسمه.. ليبدأ بداخلي تأثيثُ تلك الأسماء بتفاصيلَ صغيرة تلتقطها حواسي من سِحْنَـة أَوْ بسمة أَوْ صوت.. تداركت انتظاره لردي:

– جَـوْذَر.. اسمي جَـوْذَر.

– نعم جَـوْذَر لقد تذكرتُ.. أمُّـك أخبرتني بذلك.

لم استسغ اسمه ذاك.. سرحت أبحثُ له عن اسم.. عاد صوته الهادئُ وكأنه يقرأ ما يعتملُ بداخلي: سنكون صديقين. لم أدرِ ما أرد به.. أدرك ارتباكي.. أردف: اسمك جميل.. لكنني سأطلق عليك صديقي الصغير. كما لو أنه هو الآخر لم يستسغ اسمي.. أنَّ كـُـلاً منا قد قرر اختيارَ اسم جديد للآخر.. لم تمر غيرُ أيام حين أسعفني أحدُهم مخاطباً له بالمعلم.. اعتقدت أنه اسم.. إلى أن عرفتُ بأنه صفة.. بينما استمر هو يخاطبني بصديقي الصغير.. كنت أنا أخاطبُه بالمعلم.. لم أكن قد سمعت أحدَهم

يصفني بالصديق غيرَ أمي.. فحين تكون مغتبطة.. تحتضنني وهي تقول: مرحباً بصديقي.. خليل روحي. فأشعر بالزهو والفرح.

***

بعدَ أيام من مقتل المعلم صعصعة كلفتني زوجتهُ بإعادة بناء الحانوت.. استشرت أمي.. نصحتني بخوف أن أتريَّث.. صوتها يُربكني.. لا أرى لي عملاً غير ما تعلمته على مدى سنين من المعلم.. أذهبُ خلسةً عبر الشوارع والأزقة المليئة بالأنقاض والمخلفات إلى السوق.. أتأملُ الحانوت.. بقايا جُدرانه.. الدِّكـّة الحَجَرية الأمامية لا زالت متماسكة.. كَومة عيدان متفحمة مختلطة بأحجار وأتربة أنقاض السقف.. كـُلُّ شيء بلون الحريق.

يسألني بعضُ جيراننا في سوق الوراقين: هل ستعيد بناء الحانوت؟ البعض: ربنا يعينك.. ويرحمه!. وآخر:إن رغبت أن تعملَ معي فأنا أرحب بك.

صممت على إعادة الحانوت إلى سابق عهده.. حذرتني أمي من الانقياد للعاطفة.. لم أدرِ أيَّة عاطفة كانت تقصد.. حُبي لعملي.. أم للمعلم.. وهي مَن كانت تحب أن تستمعَ لحديثي عنه طوال الوقت.. أم أنها تعلم بتلك المشاعر التي أحملها لـ (شـَوْذَب).

جاءت زوجة المعلم إلى السوق.. هي المرة الأولى التي أراها فيه.. وابنتها شـَوْذَب إلى جوارها، لتريا ما صنعت.. وقفتا أمامَ المسطبة..

تأملتا باباً جديداً.. أرففاً وخزائن من الخشب.. صندوقاً شبيهاً بذلك الصندوق الذي احترق.. تبحث عيون شـَوْذَب عن شيء، كانت تجده كلما جاءت إلى الحانوت: صوته.. ابتسامته.. وجهه.. عينيه.. تنظر إلى مكانه الخالي.. لاحظت عينيها وقد فاضتا بالدموع.. أظهرتُ تماسكي.. لم أبكِ منذ مقتله.. اغرورقت عيناي لحظتها.. هرع البعضُ من حوانيت الوراقين المجاورة.. تجمع المارة حولنا.

حدثت أمي عن زيارة زوجة المعلم وابنتها.. قلت لها: أشعر برضا دفين حين أكون هناك.

أمسكت بيدي.. متأملةً وجهي.. رأيتُ على وجهها لأول مرة بقعاً فاقعة الحُـمْـرَة تحاصر عينيها: لا أريد أن أفقدك.. أنت سَلْـوَتي وكل دنيتي.. أخاف أن يقتلوك يـَوْماً كما قتلوه.. لا أتخيل حياتي بدونك. أكملت كلماتها وقد أشاحت بعينيها بعيدا.. حتى لا أرى دمعتها، ملامح الخوف.. تعرف بأن حديثها لن يُثنيني.. وقفت تدمع صامته.. ثم اتجهت لتدخل بيت (الوهيم) .

أخترق نفسَ أزقة الأحياء التي تعودت أن أسلكها في طريقي إلى الحانوت صباح كل يوم.. أتوقع أن أراه هناك.. أفتح مصراعيه الصغيرين.. أُقتعد الصندوق حيث تعودت اقتعاده طوالَ سنواتي إلى جواره في الحانوت.. أتأملُ مكانه.. تصلنا أصوات الباعة.. أقف، أمد عنقي أرفعُ نظري مترصداً صَفـَّـي الحوانيت المتلاصقة.. حركة المارة.. أتوقعُ ظهورَه في كـُـلّ لحظة من طرَف زُقاق السوق.. كما كان يظهر قادماً..

ليصعد الدكة الحَجَرية.. يخطو داخلَ الحانوت.. يجلس في زاويته تلك.. بين الجدار ومصراعِ الباب.. لينهمك بسن يراع.. راسماً حروفاً على صفحات جديدة.. أوْ ناقشاً حواشي بألوان الدهشة.

اليوم ها هو ذا مكانه بارداً.. ويراعه لا تتحرك.. المداد في قنانيه راكد.. لم يعد من صوت.. أو عين تجول فيما حولها مبتسمة.. روحه.. نعم روحه حين ألتفت ألمح ظلالاً.. لا تلبث أن تتوارى.. أنفاسا لها رائحة الأمس تلفح خدي.. ملامح إنسان يخيل لي بأنه يجلس، يسألني عن حلتي.. تتماوج تقاطيع وجهه عن ابتسامة غامضة.. صوته المختلف.. أنهض.. لا أجد أحداً.. تجول عيناي في عمق زقاق الوراقين.. تبحثان.. نفس رتابة الأيام.. الأصوات.. حركة الناس.. أحدهم يخرج من حانوته.. وآخر يقف يتمطى.. متسكعون يتفيئون ظلالاً شحيحة.

أنسى وحدتي.. أجد نفسي تتحدث إليه.. أو أنها تتحدث إلى ذاتها.. أسأل.. لمن ألجأ حتى أعرف جودة ما أصنع؟ لم أتصور يوماً بأني سأكون وحيداً.. أو بالموت يزورني يوما.. أم أن ما أعيشها ليست حياتي؟ وأن الإنسان عليه أن يفكر ويتصور حياة ليعيشها كما يريد.. لكني لا أتخيل.. و لم أسأل المعلم أو أمي عن ذاك الشأن.

حين قال "اهرب ياجَـوْذَر بسرعة.. انج بحياتك". هل كان يدرك موته.. و لم يخذله ذلك الموت حين جاء في موعده؟ أم أنه خذله وهو يراه يأتي قبل أن أوانه.. أم أن إلهه أنتقم منه وهو يراه يخلص لغيره.. يعكف متفانيا ليل نهار.. يذوب فيه رسماً ونقشاً.

عليَّ أن أفكر بالموت من اليوم وأن أستعد له.. أن أجد وسيلة للاقتراب منه؟ أو أن أفنى فيما أحب من عمل كما حاول المعلم عمل ذلك.. أن انهمك فيما كان قد علمني إياه.. كنت أرى نشوة العمل في عينيه.. كلماته.. رضاه.. وخير العمل ما كان رسما ونقشا.. ما أحسه بعشق يتغلغل مع روحي.

أشعر بجوع لا يسده ما أتناوله من كسر الخبز وجرع الماء.. أشكو لأمي فتنظر إلي متعجبة.. أبحث في نفسي.. فلا أجده إلا قُرب من أهوى.. أو أن بداخلي شجناً يدفعني للبكاء فلا تخرج الدموع.

يأتي ذلك الرجل قبل أن يختفي.. يطوف الحوانيت بأسماله ورقع الجلد التي بالكاد تستر جلده.. أرقبه يسير الهوينا يقف أمام حلق كل حانوت.. ما إن يصل إليَّ حتى تشير ابتسامته من بين شعيرات وجهه.. يلقي السلام.. ودون أن يستأذن يجلس على زاوية الدكة متأوها.. أراقبه.. منهمكا في إحصاء غنائمه.. يمد لي بكسرة خبز.. أو بحبات لوبيا.. أشير برأسي ممانعا.. يغمغم بكلمات غير واضحة وهو يقضم لقيماته.. يمد لي بعنقود عنب دون أن ينظر إلي.

لم تكن العلاقة بيننا فيما مضى واضحة.. حين كان يأتي لم أكن أهتم بما يدور من حديث بينه وبين المعلم.. و لم أتفرس يوما في ملامحه.. لكنني اليوم أدرك كم هو لصيق الشبه بالمعلم.. وكم كلماته القليلة تشبه كلماته.. يوما بعد يوم أستمع إليه يحدثني دون أن أطلب منه.. كمن يحدث نفسه.. عن الجنة التي تنتظرنا والتي هو فيها –يقصد المعلم– وأنها بعرض السموات

والأرض.. فأسرح عنه متخيلا فضاء تلك الجنة.. أعدت للمتقين.. فلا أستطيع تحديد صفات المتقين.. لكنها من المؤكد في فضاء بعيدا عن عرض السموات والأرض.. وإلا لاحتلت مكانيهما ولما وجدت سماؤنا وأرضنا مكاناً.

يوما بعد يوم أنتظر قدومه، فقد كانت حكاياته التي أسمعها منه حين يريد الحكي غريبة.. يحكي لي عن معرفته بالمعلم.. وعن حكاياته معه على مدى سنوات.. قال بأنه كان يخاف عليه في آخر أيامه من الملثم.. وأن المعلم تمادى في تضليله.. لكنه بالفعل أوصله إلى حافة الهاوية حينها قرر الانتقام.. ثم هرب فاقداً إمامته.

لم يكن لذلك المتسول سكن محدد.. حين أتذكر أول مرة رأيته كان بتلك الرقع والأسمال.. وحتى اختفائه ظل بها.

اليوم أتذكر هيئته.. كأنه ولد باليا.. مكتمل التكوين لا يكبر.. يمد يده للعابرين.. وشفتاه تهذران بالكثير.. في آخر مرة قال لي بأن رسول الصُليحي صاحب الكتب سيأتي لأخذ الكتب وما نسخناه.. حذرني من أني سأخدع.. قال لي "إن ثمن الخديعة الموت" ثم نهض من على الدكة ينفض يديه وهو ينظر إلي بطرف عينيه وعلى وجهه ابتسامة لم أنسها.

بيت اللـّــه

حانوتُ المعلم هو الثاني بين صَفـَّـين متقابلين من حوانيت الورَّاقين.. ثم تبدأ تشعُّــبات سوق العطارة، لينتهيَ مع بداية سوق الطعام.. ثم الملح.. الصاغة.. البــزّ.. يجاورُه سوقُ السلاح.. إلى يمينه إيقاعُ مطارق الحَدَّادين المصاحبة لأصواتهم الملحونة.. وخلفه النّحاس.. المـَـدَر.. ساحة الخشب.. سوق البقر.. سوق العبيد.. وهكذا كنت أكتشف يـَـوْماً بعد يوم عوالمَ لم أكن قد تخيلتها في أوردة صنعاء يوماً.

في أول أيامي بالحانوت كان المعلم يُحَيِّرُني.. أرقبُه غارقاً بصمته.. منهمكاً في ما بين يديه.. أَنشغلُ بمراقَبة حركة المارة خارج الحانوت.. يُعيدُني صوتُه.. بعد أن يكونَ قد رفع وجهَه.. ينظرُ إليَّ مبتسماً.. لتزدادَ ابتسامةُ عينَيه.. حينها أعرفُ أنه سيتحدث: تلك الأدراج.. أَخرِجْ ما بها من رقوق وورق.. ثم أعدْ ترتيبَها. أَوْ: أعدْ ترتيبَ قناني المداد.. وأواني المخارز والإبَر.. وكذلك اليَرَاع انقلها إلى موقع آخر. ويوماً ثانياً يشير إليَّ بإصْــبَعه: "تلك الأرفف أنزل ما بها من كُتُب.. وأعد ترتيبَها. يبتسمُ مشجعاً.. بعد أن أكمل مهمتي أتجه كالجرو الصغير أقبعُ على سطح

الصندوق.. أعاود مراقبة المعلم. يـَوْماً بعد يوم أكتشفُ بأني أستأنسه.. أتحدث مع هذا الكائن الغريب الذي أحبه.

حانوتُ المعلم وما تحتويه أدراجُه ورفوفه وأوعيته. أصبح عالمي ألَمتُ بتفاصيله الصغيرة.. قوارير الأحبار.. محتويات الأرفف.. وما تحتويه تلك الأدراج من أواني الصمغ والعجين ذي الرائحة النفاذة.. خِـباء اليراع وعِيدان الكتابة.. أوعية الإبر والمخارز والسُّيُـور.. مساحيق ملونة.. أدراج شفرات صغيرة.. خيوط... محتويات الأدراج السفلية والصندوق الكبير.. وجدت نفسي بعد مدة جزءاً من المكان. لم تكن محتويات الحانوت تحتاجُ كـُـلَّ ذلك الترتيب، لكنها حيلة المعلم في أن ألم بكل تفاصيله الصغيرة.

في إحدى الليالي أصيب جسمي بحُمَّىً شديدة لا أعرف سببها.. منعتني أمي من الخروج لعدة أيام.. فاجأنا المعلم بحضورهإلى منزلنا.. نهضت من أغطيتي.. احتضنني.. ثم بَعْـثَـرَ شعرَ رأسي.. هامساً وهو يداعبُ أصابعَ كفي:

– يا صديقي الصغير.. لقد شعرتُ بافتقادك.

اعتذرت له متلعثماً.. وهو يُعيدُني بين أغطيتي.. واضعاً كفـّـه على جبهتي.. محدثاً أمي التي لَمحتُ في عينيها ألَـقاً وابتسامةً رشيقةً تضيءُ ملامحَها: بعد أن يُشفى جـوْذَر من وعكته سأعلمُه الأحرفَ ورسمَها.. وإن أتقن ذلك سأدربه على نقشَ الزخارف وتلوينها أيضا.. قد تنفعُه في

قادم أيامه. ثم استدار بوجهه نحوي، وقال مداعباً: الجديرُ بي أن أتحدَّث إليك إن كنتَ ترغبُ بتعلـُّـمِ ذلك. ترك بعض الفاكهة ومضى.

بعد أيام عُدت إلى الحانوت.. يُشيرُ عليَّ بصَوته الهادئ بفتح الصندوق الذي أجلسُ عليه: أتحبُّ تعلـُّـمَ رَسْـمِ الحروف؟

لم يتبينْ ما عليَّ قوله، ووجدتني أَهُـزُّ رأسي مبتسماً.. قال وقد لمعت عيناه واتسعت مساحة ابتسامة فمه: إذاً اخرِجْ اللوحَ الأسود.. أرني كيف ستحتضنه.. وذلك هو وعاءُ الجيْر لقد أعددته لك بالأمس.. وتلك هي يراعُــك.. هيا ماذا ستصنعُ يا صديقي الصغير؟.

تعاركت مع لوح أسود له سطحٌ أملسُ.. كان أكبرَ من أن تحوطه ذراعي.. قهقهَ المعلمُ وهو يتابعُ محاولاتي.. وقال: تعالَ إلى جواري هُنا.

هذه هي المرة الأولى التي أسمع قهقهتَه وهو يُرَبِّتُ على أرض الحانوت بأصابعِ كفه اليُمنى.. وبعد أن جلستُ.. قال: ناولني لوحَـك.. اجلسْ متربعاً. أمسكَ بذراعي الأيسر فَرَدَهُ في الهواء.. وضَعَ اللوحَ على أسفلِ أضلاعي.. ثم وضع أصابع كفي على أعلى حَوافه.. وقال: يمكنكَ الآن التقاطَ يَرَاعِك بيُمناك، اسقها من وعاء الجير.. هيا ابدأ.

تقارنُ أنفي بين رائحة اللوح ورائحة المعلم حين جلستُ ملاصقاً له.. رائحة الجير نفاذة.. أعجبني لمعانُ سطح ذلك اللوح: خـُـط ما تريد.. هيا لا تتردد. قال لي ذلك بعد أن لمح ترددي.. لم أكن أعرفُ ما يُريدُه مني.. وضعتُ سِـنـَّـةَ اليَرَاع على وسط اللوح الصقيل لأرى خطاً أبيضاً يميلُ

للانحناء.. قال مبتسماً: ها أنت قد بدأت يا صديقي الصغير.. استمر في نقش خطوطـــك.. كرر.

وَجَّهني أن أكررَ سقي يراعي بالجير.. خطوط متجاورة تبدأ من اليمين وحتى الشمال.. خطوط من أسفل اللوح وحتى أعلاه.. يقول:

– أتراها مستقيمة؟.

– لا أعرف!.

– اطمسْها وحاولْ من جديد.

حكيتُ لأمي مغامرتي مع اللوح.. أخبرتها بما صنعه المعلم:

– لقد أهداني لوحاً ويراعاً..

– ألم أقلْ لك بأنه رجلٌ طيب..

قالتها بغبطة وسرور.. احتضنتُ وجهَها وقد طوقتني بذراعيها.

***

تلك الخطوط أضحت لُعبتي.. أحلم طوال ليلي ونهاري بأشكالها.. كنتُ سعيداً وهي تُبرِزُ أشكالاً متناهية الصِّغَر، تتوالدُ بكثرة فيما بينها.. مربعات.. مثلثات وأشكال أخرى متداخلة.. لأكتشف يَـوْماً بعد يوم أنها أشبهُ بمتاهة بدون حدود.. أستطيعُ أن أوجِّهَ خطوطي التي أجدت استقامتها في اتجاهات مختلفة لأنتج أشكالاً جديدة غيرَ مربعة.. كان المعلم

يراقب انهماكي فتشرق ابتسامتُه من وجهه الطويل.. يـَوْماً بعد يوم تبهرُني كلما أوغلتُ في التلاعُب باتجاهاتها ومدى قُربها وبُعدها.. أمسيتُ أرسمُ في مخيلتي أشكالاً جديدة.. بل وتزورني الأحلامُ ليلاً لتحملني إلى عوالم من الخطوط والأشكال السحرية.. أينما أكـُـنْ أرَى كـُـلَّ ما حولي مجرَّدَ خطوط تتداخَـلُ وتتباعَـدُ لتـُـنتجَ أشكالاً مدهشة.

عندَ مغيب شمس أحد الأيام اصطحبني المعلم.. لم أكن قد رأيتُ مسجداً من الداخل يوماً.. سرنا فوق مدخل مرصوف بأحجار ملساء، عبرنا بين مصراعَي باب هَرِم.. يعلوه قوسُ أحجار عالية.. أطل علينا مبنىً أبيض.. وسط جلال عتمة المساء.. يحوطه صرْحٌ مغطـَّـىً بأحجار سوداءَ.. اعتقدت أنه مسجدُه.. بل أحببتُ أن تظلَّ بداخلي تلك القناعة.. تبعت المعلمَ الذي سار باتجاه باب يتسلل منه ضوء.. مصابيح ومسارج معلقة.. روائح زكية.. أنين يملأ الفضاء.. لأناس يهتزون وثـَـمَّـةَ أوراقٌ بين أيديهم.. يستندون على جُـدران مُلئت بأحرُف ملونة متداخلة.. وآخرون في دوائر يهتزون في وقت واحد.. مخرمات بيضاء كروية على الجدران العالية.. أسقفٌ منقوشة بألوان زاهية.. صفوف أعمدة ترسم أشكالاً بديعة.. تشبه تلك الخطوط المتوازية التي أجدت توليدَ أشكالها.. تتكرر كلما سرنا بينها.

وقفت أمامَ عالـَم من المتاهات.. عقودٌ متداخلة تحمل بعضها بعضاً.. كوة في عُمق المسجدَ وقد احتشدت الألوان والأحرف والأشكالُ على حوافها.. وقف المعلم متمتماً كالمسحور.. وقفت متهيباً.. لم أدرِ ما عليَّ

فعله.. أتابع المعلم.. مستمراً في صلاته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.. مال برأسه إلى الأمام، ليعود لاستقامتِه ثم يركع ساجِداً ليستقيم من جديد، يصلي بصوت خفيض: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ ثم يهوي جاثياً ليسجد.. كرر ذلك مرات.. ليجثم بُرهة ثم يلتفت يميناً قائلاً: السلام عليكم.. ثم كررها في الجهة الأخرى.. بعد لحظات سمعت صوتاً حاداً من عُمق المسجد يدعو الجميع للصلاة.. ترك كـُـلٌ مَن في المسجد ما بين أيديهم.. سارعوا يتسابقون.. شكلوا صفوفاً خلف بعضهم.. ليرتفعَ ذلك الصوتُ الحاد من مقدمة الصفوف "اللـّـه أكبر". يكرر الجموع ما يصنعه صاحب الصوت الحاد.. يرددون بصوت جماعي مهيب.... عرفتُ فيما بعدُ أنها صلاة مغيب الشمس.. لم أكن قد رأيتُ أحداً يصلي غيرَ أمي.. و لم أدخل مسجداً.. كنت أرى ذلك المؤذن من باب الحانوت يطوفُ أعلى مئذنته.. لاصقاً كفيه بأذنيه.. يناجي السماءَ بصوت مرتفع.. وأرى أناساً يدخلون ويخرجون من ذلك المسجد.. لكني لم أتخيل ما يدور بداخله.

كان المعلم في كل مرة يمسك بيدي ويقول هيا يا صديقي الصغير إلى بيت اللـّـه. وكنت أسير جواره وأنا أبحث بين الجموع عمن يكون صاحب ذلك البيت.. قد يكون المعلم.. أو صاحبَ الصوت الحاد.. وقد يكون شخصاً آخر.. أدخلُ لأبحث بين تلك الجموع.. لكني في النهاية أجزم بأنه المعلم.. هكذا كنت.

تسحرني رسومُ الجُدران.. ألوانُـها.. تداخلُ خطوطها. سقوفها.. أعمدتها.. لأكتشف بأن ما أُنقش من خطوط على لوحي الأسود ليس إلا قطرة في محيط خطوط وزخارف تلك الجُدران والسقوف.

لم يتركني المعلم لذهولي.. حين أشار عليَّ ذات يوم.. أن أحاولَ رسمَ تلك الأحرف.. في البدء لم أفهم قوله: إن كُـلَّ صوت وكل كلمة هي من تكوين الحرف.. وإن الحرفَ يختزل كُـلَّ شيء. وهكذا أدخلني في متاهة جديدة.. أشهر من رسم الأحرف حرفاً حرفاً.. ليضيف إلى ألعابي متاهةً جديدة.

ذاتَ صباح ناولني كتاباً كبيراً.. بالكاد احتويته بين ذراعَي.. قال مبتسمًا: قلب أوراقه.. وأخبرني بما تراه. وضعته على فخذيَّ بعد أن جلست القرفصاء.. انشغلت حواسي في ما رُسم ونُقش على تلك الصفحات.. لم أدرك بأن المعلم كان يراقبُ ملامحَ وجهي.. عينيَّ.. كفي وهي تقلب صفحاته.. أيقنتُ بأن المعلم هو مَن يصنعُ مثل ذلك السحر.. حين ينهمكُ في زاويته.. وأن لكل منا متاهاتـه وألعابَـه.. لكن يبدو أن ألعابه أكثرُ سحراً.. رفعت وجهي.. لأضبط عينيه التي كانت ترصدني.. بادرني باسما:

– هاه ما رأيُــك؟!

خيب ظني حين تابع قوله: لا ليس أنا.. لقد جاءني بها ذاتَ يوم شخصٌ لأنسخه له نسخة أخرى.. لكنه لم يعد حتى اليوم.

ترك لي حرية تصفح تلك الأوراق.. غرقت بحواسي من جديد في حواشيه المؤطرة لصفحاتها.. بهاء تلك الألوان.. دقة رسم حروفه.. أسمع حديثاً يأتي من أقاصي نفسي.. أتماهى في صفحاته صفحةً بعد أخرى.. وسؤالٌ يحتويني: لماذا أراد المعلمُ أن أتصفـَّـحَ هذا الكتابَ؟. أشعُرُ بالتـّيه.. حواسي تذوب.. وتلك الزخارف والأحرف تتداخل لتحضرني حروفُ جُدران المسجد وسقوفه.. وما عليها.. أسأل نفسي: هل جُمعت وصُبَّتْ في هذه الصفحات؟.. عجزت عن الفصل بين بداياتها ونهاياتها.. كانْ كأنه يقرأ ما يدورُ بذهني حين لامست أصابعه كفي.. قال مواسياً:

– لا عليك يا صغيري. يمكنك أن تبدأَ بجزءٍ صغيرٍ من أول صفحة.

– ماذا أصنع؟!.

– أن تتهجاها وأنت تكتبها على صفحات الرق.

أتـْلـَفـْتُ العديدَ من صفحات الرقوق والورق.. أرقت الكثيرَ من المداد.. قال لي: لا تكفي الرغبة.. على المرء أن يُجيدَ استخدام أدوات عمله.. وأن يُدخلَ ما يراه مناسباً لإنجاز ما يُريد.. وأن يعملَ على مزاوجة ما بين يديه وما يعتمل في تلابيب ذهنه.. وتلك الخيالات التي تهيمُ ليلَ نهارَ في باطن عقله.

علمني استخدامَ فرشات الوبـْر الناعم.. متى أضغط عليها وأميلها بخفة.. ومتى أراقص سِن البوص على صفحة ميتة فأملؤها بالحياة.. وأين

أغرسُ رؤوسَ المخارز لنقش مُنَمنمات دقيقة.. سِن العُود.. اليَرَاع.. مقاديرُ تلك السوائل لأخرج ألواناً جديدة.. لقد أَطلق لي الخيارَ في أن أجرِّبَ ما أراه.

* * *

حين بلغت العاشرة من عمري اكتشفت تأثيرَ النقوش على روحي.. أتخيلُ من يكونُ صانعُ كُــلِّ ذلك السحر على صفحات تلك الرقوق.. ارتجاف أصابعه.. عيناه وهما تتابعان توليدَ تلك الأشكال.. مزجُ الألوان.. تخيلها في ذهنه قبل نقشها.. ملامحُ وجهه حين يُــكمل صفحةً بعد أخرى.. قلبُه الذي أنتج تلك التفاصيل الصغيرة.. ترى هل لا يزال ينبضُ في الوُجود.. أم أن روحَه تسكن متاهاتِ هذا المصحف؟..

واليوم أتذكر كيف تعلمتُ من ذلك المصحف أن الكمالَ مستحيل.. وأن النقصَ هو الاكتمال.. أَوْ هكذا تيقنت.. وأصبحت أنتظرُ ما هو أجمل.. أتوقع فِي كُــلِّ لحظة أن أجدَ ما يُلغي قناعاتٍ كنت أعتقدُها حقيقةً مطلقةً.. أوْ نهايةً ما بعدها نهاية.

لم يكن سوقُ الوراقين بالسوق المتشعِّــب.. مثل سوق العطارين المجاور.. فحوانيته الصغيرة تتقابل في صَفــَّين كما لو أنها تناسخت بشكل وحجم واحد بداية من سوق السلاح وانتهاء بسوق العطارة الذي لا يتجاوز عددُ حوانيته الاثني عشرَ حانوتاً أشهرُها حانوت (آل معيض) الذي لا يختلفُ عن غيره من تلك الحوانيت الصغيرة المحيطة.. إلا أن

موقعَه جوارَ حانوت كاتب عدل المدينة كان له ما يميِّـزُه.. وكون الإمام يرسل إليه ما ينسخه.. تلك الحوانيت تغصُّ في صمت دائم إلا من صوت هنا أو هناك.. أَوْ أن تأتيَ إيقاعات مطارق الحدادين من بعيد.. ينشغل مَن فيها بنسخ الكتب.. نقش الصور.. بيع الورق والمداد والرقوق.. اليراع والعيدان.. رِيش.. مخارز وخيوط.. الحباكة والتجليد.

مضت السنة الرابعة مذ ألحقتني أمي بحانوت المعلم.. كنتُ قد وعيت شوارع المدينة.. وأسواقها.. خاصة سوق الوراقين.. ظل المعلم وأمي هما اللذان يزيدان من معارفي بما يدور حولي.. ومن خلالهما أتعرفُ على ما يحيط بي من تغيرات ومن معارف.. في الحانوت أستمع إلى كلمات المعلم القليلة ومعظمُها حول ما بدأت أتعلمه من خطوط ونقش.. أَوْ أن يصفَ لِي حانوتَ أحدهم وموقعه وماذا سأقول له حين أسلمه ما حملني إليه من أوراق.

* * *

لم أكن قد وعيت لما يدورُ من حروب على صَـنْـعَـاءَ.. حتى ظهيرة ذلك اليوم.. لحظة تعالى هديرٌ من بعيد.. ما لبث أن اقترب.. نهض المعلمُ مذعوراً.. قفز بخفة غير معهودة إلى دِكَّـة الحانوت.. ارتفعت أصواتُ جيراننا.. رأيت الكلَّ يغلقون حوانيتَهم.. أناساً يتدافعون مُعَفَّـرَةً وجوهُهم.. فاغري أفواههم.. الكل يأتي من اتجاه سوق العطارة.. يتصارخون بأصوات غير واضحة.. وآخرين ملثمة وجوهُهم يحملون سكاكينَ.. وفؤوساً وعصياً وحِراباً.. والبعض يلوِّحون بسيوفهم.. وآخرين

بمشاعل النار.. اختطفني المعلم من معصمي مهرولاً باتجاه بيت اللـه.. هرولنا بين أناس كُثـر.. مَن يسقـط يُداسْ بالأقدام.. عبرنا من تحت قوس المسجد.. الصرح لم يعد له سكينته.. نحيب.. وصراخ.. أطفال ونساء ورجال من كـل الأعمار.. دخلنا بيت الصلاة.. لم تمر لحظات حتى اكتظ بروائح أجساد الفارين من الأحياء المحيطة والأسواق.. استمر سيل البشر يتدفق على المسجد.. والمعلم يرتل ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ﴾.

مَرّ موعدُ صلاة الظهر والعصر والمغرب لم يؤذن المؤذنُ و لم تُـقـَـمْ صلاة.. ظل الناسُ يرددون وسط الظلام بصوت جماعي:

"ما في الوجودِ سواك رَبٌّ يُعبَد

كلا ولا مولى سواك فيُقصَد

يا مَن له رنت الوجوهُ بأسرِها

وله جميعُ الكائنات توحّد

يا مَن له وَجَبَ الكمالُ بذاته

فلذلك تُشقِي العبادَ وتُسعِد"

ما إن ينتهيَ الرَّتـْـمُ حتى يُعيدَ أحدُهم "ما في الوجود....." وهكذا حتى ضوء الفجر.. بلحن يُشبه النحيب.. ثم ينشدون وهم ينتحبون:

"يا توّابُ تـُبْ علينا

وارحمنا وانظر إلينا..

يا تواب تُبْ علينا

وارحمنا وأشفق علينا."

في نهاية اليوم التالي انتشر خبر رحيل القبائل المغيرة بأسلابها.. تناقص مَن كان في المسجد.. قبيلَ غروب الشمس كنت والمعلم قد خرجنا منه.. عبرنا أزقةً وشوارعَ موحشة.. أبواب المنازل والدُّور مهشمة.. الحوانيت.. فاغرة أبوابها.. نحيبٌ يسكنُ المسامعَ.. كلابٌ تنهشُ أطرافاً آدمية.. أدخنة تتصاعد من بقايا أنقاض محروقة.. سرت ممسكاً كفه حتى وقف أمام باب منزلنا.. ينظر في وجهي بملامحَ غائمة.. طرق البابَ.. جاء صوتُ أمي متقطعاً باكياً.. قال المعلم: افتحي، أنا صعصعة وابنك جَـوْذَر.

لم تكن هي أمي التي عرفتها.. ركعت تحتضنُ ساقَـي المعلم.. تهذي بكلمات غير مفهومة.. جاثيةً على ركبتيها.. طوقتني منتحبةً.. لم يتوقف بكاؤها حتى داهمني النوم.

كانت تلك القبائلُ قد رحلت عن المدينة بغنائمها.. بعد أن اجتاحتها بفتوى من إمام صعده أبي الفتح الملثم عقب أن أرسل رُسُلَـه إلى إمام صَـنْـعَـاء يدعوه للدخول في طاعته.. وحين رفض.. أفتى بإباحة المدينة للقبائل المناصرة له، شريطة إيصال رأس مَن يدَّعي إمامته عليها.

اقتيد إمامُ صَـنْـعَـاء ليُسجَـنَ في سراديب القلعة حتى يرى فيه أبو

الفتح الملثم ما يستحق من عقاب بعد أن يستقر له الأمر.

نُهبت محتويات الدُّور والحوانيت والدكاكين من سلعها.. وحُملت الأبوابُ والنوافذ.. وقُشعت مفارشُ المساجد.. وأُحرقت الدُّور التي دافع أهلُها عنها بمن فيها.

تعرضت مساكنُ اليَهُود للتخريب بعد نهب محتوياتها، لتُحرَقَ وتمتدَّ ألسنةُ اللَّهب إلى دُور الأحياء المجاورة، ومنها حي الدباغين المطل على مجرى الغيلِ الأسود غرب صَنْعَاء.. تفرق من بقي حياً وفر إلى القرى المحيطة كُثر.. انتشر الخوف.. وهربت أعدادٌ كبيرة من السكان إلى الأرياف.

دارُ المعلم والدُّور المجاورة له نُهبت وقُتل عددٌ من سُكانها.. اقتلع أحدُهم عينَ زوجة المعلم اليُسرى بسن خنجره لحظة دفاعها عن شَوْذَب.. ولم تفلح فقد مضوا بشوذب بعيدا.. غشي المعلم صمتٌ مخيف حزناً على اختطاف شوذب.. أقفل حانوتَه.. وظل معتكفاً في داره حزناً على ابنته.

أبحث عن مكان آمن لإخفاء المخطوطة.. حتى يسهل عليَّ مواصلة قراءتها في الأيام القادمة.. فكرت بأن أساوم فني التصوير على استنساخها.. حتى تصبح في حوزتي خارج الدار.. لكنها فكرة قد تضعني تحت رحمة عناصر الأمن والنيابة.. أبعدت الفكرة عن رأسي.. فضلت بقاءها داخل الدار.. إذ لا حيلة لي بإخراجها.

شوقني ما قرأت في تلك الصفحات.. نهضتُ قبل أن يلحظَ أحدُهم ما يقيِّدُني عن العمل في ذلك المكان.. طويتُها وأعدتها بحرص إلى صندوقها.

عدت لمتابعة عملي مع الزملاء في تصنيف وجرد محتويات الصناديق.. مع نهاية النهار سرتُ خارجاً وأنا أتمنى لو تركوا لي حُرية الاختيار بين المبيت بالداخل أوْ الانصراف خارجَ الدار.

نُهبت كل سلعِ الأسواق.. و لم يُصَبْ سوقُ الوراقين بأي ضرر.. عدا حانوتين بأطرافه كُسر باباهما وبعثرت محتوياتهما على أرضية السوق.

تولى مَن بقي على أفق الحياة مواراةَ جُثث وبقايا أشلاء آدمية في الساحات الخلفية وبساتين المساجد.. والمقابر القريبة.. وتُرك مَن كان تحت الأنقاض.

* * *

انتشرت أخبارُ قرب وُصول الإمام أبي الفتح الملثم ترافقُه جَحَافلُ قبائله المناصرة.. طافت أحياءَ صَـنْـعَـاء وأسواقها جماعاتُ قارعي الطبول.. يتبعُهم الدَّهْمَاء.. نساءٌ من نوافذ الدُّور ومخرماتها.. يرتفع قرع الطبول" دم دبب دم دبب دم" يعقب صوت رجل: على جميع السكان الصغير قبل الكبير الاستعداد للخروج لاستقبال مولانا أمير المؤمنين أبي الفتح الملثم.. نصره اللـّـه.. القائم بالحق.. والذي سيشرِّف صَـنْـعَـاء يومَ بعد غد.. لينشر الحقَّ ويُبيد الباطل.. وعلى الجميع إشعالُ المواقد ليلاً على أسطح الدُّور والمنازل.. والحوانيت.. والمنارات. دم دبب دم دبب.. على جميع الناس.. دم دبب دم دم دب.

الأخبارُ تقول بأنه وصل قرية (المنظر) وأن اللهب شوهد ليلاً متوهجاً على دورها.. الطريق الفاصل بين صَـنْـعَـاء والقرية ملأته حركة دؤبة.. يسير الناسُ بين أشجار الأَثْـل والكُرُوم وبساتين الورد.. للتقرُّب أَوْ نقل ما يُقال ويدور بين سكان صَـنْـعَـاء.. أذانُ الفجر في مساجد صنعاء يتبعُـه

الدعاءُ للإمام أبي الفتح الملثم.. وسط غبش ضباب الصباح تزداد جموعُ الخارجين باتجاه القرية محملين بالهدايا.. مع توهُّج ضوء الشمس تتزاحم أقدامٌ وأظلافٌ كثيرة يتسابقون للَثْـم أطراف أبي الفتح الملثم الكامن في أحد دُور قرية المنظر.. امتلأت شوارع وبساتين القرية بالمتوافدين من صَـنْـعَـاء والقرى المحيطة.. القبائل المرافقة للملثم تسير جماعاتٍ في محيطِ وبساتين المنظر.

شـوذب

تعود ذاكرتي إلى آخر زيارة لشوذب للحانوت قبل أن تُخطف.. كان وجهها مضرجاً بحمرة.. وقفت خارجا.. تخيلتها وقد صعدت الدكة.. اقتعدتُ أنا الصندوق.. طلبت أن أريها ما أنسخه.. لتطلق ابتسامتها المخبوءة خلف شفتيها.. بريق عينيها.. لمعان وجنتيها.. وقد نظرت إليّ بإعجاب.. لكنها انصرفت سريعاً.

لم أذُق مشاعر الأخوة.. و لم أعرفها في حياتي.. شَـوْذَب كانت هي الأخرى تبحث عن شيء ما.. لنكتشف مع مرور الأيام انشغالنا مَـعاً ببعضنا.. حين قال لي المعلم:

- اذهب مع شَـوْذَب وعُد بما ستحملك.

ترددت قليلاً، كثيراً ما أرى بنات زقاقنا حين أخرج من بيتنا.. وحين تزور النساء أمي.. لكنني لم أتذكر أني سرت وصبية عبر أزقة متداخلة.. كنت ألعبُ مع إحداهن ريثما تنتهي أمي من حديث مع أمها داخل بيتنا.. اليوم أسير جوار شَـوْذَب.. من يتبع الآخر أحاول ألا أتقدمها.. ويبدو

أنها تفكر بما أفكر به.. نسير وسط ألوان السوق.. أصواته.. روائحه.. أشكاله.. في البدء لم نتحدث.. لكنها نطقت ونحن نعبر ظلال عقد قنطرة تربط بين دارَين:

– رأيتك تنقش زخارف.. وترسم حروفاً جميلة.. متى تعلمت ذلك؟.

– منذ شهور عدة.. المعلم وراء كُـلّ ما أقوم به.

كنت سعيداً وهي تسألني عما أخط.. واصفة ذلك بالجميل.. لم أتمالك حين حدثتها عن استعدادي لتعليمها ذلك.. ابتسمتْ وقالت:

– أعرف كيف أخط وأنقش..

هممت أن أسألها.. أن أرى ما لديها.. وأن تحدثني كثيراً.. وقفت أمام دار عالية.. تشير علي أن أتأمله.. كَثيراً ما أمر من جوارها.. ضيق الزقاق لا يمنحنا فسحة تأمل واجهة تلك الدور.. أخذت تشيرُ بإصبعها:

– أترى ذلك الحزام الحجري المنقوش.. هل يلفت انتباهك واجهات مثل هذه الدار؟ أجبتها:

– إنها مبهرة.

حدثتها بشغف عن تلك النقوش التي أرانيها المعلم على جُدران وسقوف المسجد.. حروف الكلمات المرسومة.. الواجهة الأمامية وما تحتويه من أشكال وخطوط.. ألوان لافتة حول المحراب.. تداخل

الأقواس الحجرية صفوف الأعمدة.. حدثتها عن تأثير أصوات المرتلين.. دوائر القراء.. اصطفاف المصلين.. وتداخل تلك الأشكال والحروف بالزخارف الملونة.

بعد اختطاف شوذب حملتُ أنا وأمي أوانيَ أطعمة.. سرنا إلى دار المعلم.. أناسٌ أشاهدهم لأول مرة.. عرفتُ فيما بعدُ أنهم أقرباؤه قدموا من همدانَ لنجدته.. ضاقت الدار.. بنحيب زوجة المعلم وبعض النسوة وأمي التي زادت تلك البقع الفاقعة على وجهها ويديها.

يحتد عويل زوجة المعلم.. لا أعرف هل تبكي عينها المفقوءة أم شَـوْذَب التي لا يُعرَفُ لها سبيل؟! الكل في حيرة.. تشاور الجميعُ لتنضج فكرة أن يخرُجَ الرجالُ للسؤال بين الناس.. والنساء في بيوت الأحياء.. الكل يبحث عن خيط قد يدل على مكان وجودِها.. عدة أيام يخرج الرجال والنساء.. ليعود الجميع مساءً دون خيط أوْ شعرة.. أمي ترابط ناظرةً في عين زوجة المعلم.. تطببها بزيوتها.. أسمعهم يتحدثون عن أناس يبحثون عن نسائهم وأولادهم.. ومن أن بعضَهم قد وجد ضالته لدى بعض النخاسين.

كانت مشاعري تجاه ما حدث مضطربةً.. أحسستُ بأني أفتقدها.. افتقادها حرك مشاعرَ كامنة بداخلي.

أستمع إلى نقاشاتهم.. فلا أفهم شيئاً.. أنظر إلى وجه المعلم الذي تجمدت ملامحه.. يتحدثون باسطين ما يقولونه بين يديه.. يستمعُ إلى

أحاديثهم كما لو أن الأمر لا يعنيه.. بشرته جفت.. عيناه.. شعر وجهه بدأ أكثر بياضاً.. لم يعد يحدثني.. ينظر إليَّ كما لو كنت غريباً.. أشعر بأني لم أعد ذلك الصبي.. كلُّ مَن حولي يتحدثون باحثين عن وسيلة لاستعادة شَــوْذَب.

* * *

أعود بذاكرتي إلى ذلك اليوم الذي رأيت تلك الصبية لأول مرة تقف أمام باب الحانوت.. بعينيها الباسمة.. وبشرة وجهها الوردي.. تلبس على رأسها قرقوشاً مزيناً بالترتر.. كان المعلم منهمكاً كعادته بما بين يديه.. وكنت أقتعد الصندوق.. لم أكن يومها قد بدأت بتعلم اللعب بالخطوط المستقيمة أَوْ بنقش الزخارف ورسم الكلمات.. عرفت فيما بعدُ لماذا كانت نظراتها تتفرسني.. وقد أطالت الوقوف أمام الحانوت.. نهرتها:

– ماذا تريدين؟.

رفع المعلم نظراته لصَوتي ثم التفت لتنفرج ملامحُـه عن أكبر ابتسامة شاهدتها.. بدد حيرتي وهو ينهض مادّاً كفه ليلتقط ذراعَها حتى تصعَدَ الدكة.. قائلاً:

– أهلاً بابنتي الغالية!

– أرسلتني أمي بهذه المطوية إليك.

أدرك المعلم حيرة نظراتها المصوبة نحوي.. أشار إليَّ مبتسماً.

– هذا مساعدي الصغير جَـوْذَر، مَن حدثتك عنه.

اتسعت ابتسامة فمها الصغير.. ابتسمتُ منتشياً.

في تلك الليلة حدثتني أمي عن شـَوْذَب وأنها وحيدة أبوَيها.. سألتها أن تصف لي طعم الأُخوَّة.. وهي التي عاشته في طفولتها.. ضحكت متعجبة من كلمة طعم.. موضحة أن الأخوة مشاعر.. وليست مذاقاً.. وأنها لا تستطيع وصفَ ذلك بدقة، إذ أن الأخوة إحساس بالأمان، وشعورٌ بامتلاك كنزٍ خاص.

– ماذا لو اتخذت من شـَوْذَب أختاً لي؟.

– الأخوة ليست قراراً.. قد تكون صداقة.. والعلاقة بين الناس تـُبنى بالتعامل والمشاركة والإحساس المتبادل.

كنت متعطشاً لأن يشاركني أحدٌ بعضَ أحاسيسي.. وكانت شـَوْذَب في مثل عُمري أَوْ أكبرَ قليلاً.

مضى وقتٌ لم تعد فيه لزيارة الحانوت.. كدت أنسى ذلك.. يومَها بدأت أتعلمُ لعبة الخطوط المتوازية ورسم الحروف.. أجلس جوار المعلم يراقبني أرسم حروفاً من سورة مريم على صفحة الكاغد.. يومَها رفعت رأسي حين سمعتُ صوتَ المعلم:

– مرحباً ابنتي.

نظرت من تحت كتف المعلم.. نظراتها تبحث عن شيء.. بدا لي وجهها

أكثرَ استدارة وامتلاءً.. نفس القرقوش المطرزة أطرافه بالترتر.. صعدت الدكة رافضة مساعدة أبيها.. دخلت الحانوت.. واقتعدت الصندوق.. عُدت أنا إلى رسم حروفي والمعلم يتابع اهتزازَ أصابعي.. تخيلت عينيها تراقبان جلستي.. انكفاءَ وجهي.. ما أخطه. رمقت قدمَيها العاريتين.. أطرافَ ثوبها المقلَّـم بالأحمر والنيلي.. أطراف سروالها الأسود.. لم أكن يومها قد امتلكتُ سروالاً.. أَوْ حذاء.. فقط مئزر وطاقية على رأسي.. رفعت ناظري في حذر.. لمحت لمعانَ عينَيها الصغيرتين.. أنفها يماثلُ حُمرة وَجنتيها. فمها الصغير كما لو كانت تخبئُ بداخله ابتسامتها.

حين عُدت إلى بيتنا في نهاية ذلك اليوم.. حدثت أمي عن حاجتي إلى سروال.. رجوتها أن تحيكَ لي قميصاً.. فاجأتني بقهقهة متواصلة حتى دمعت عيناها. ما إن تصمت حتى تنظر إليَّ وتنفجر بضحكة متواصلة.. حاولت إخفاءَ فمها وعينيها.. ثم غطت وجهها.. هرولت وأقفلت على نفسها بيت الصلاة وأنا أسمع قهقهتها المتقطعة.. جلستُ محتاراً.. سمعتها تفتحُ البابَ عائدة بملامح مدعوكة وعينين منهكتين.. وقد رسمت على وجهها مسحة من الجدية.. لتقهقهَ بشدة من جديد ممسكة بخاصرتها تشهق.. ارتمت تحتضنني.. وصوتها تخالطه قهقهات خلتها لن تتوقف.

قالت وعيناها تدمعان: لا أدري من أين جاءني كُـلّ هذا الضحك.. لم أضحك هكذا منذ وعيت. واصلت البحث عن مبرر. قالت: كدت أن أموت من فرط ألم بطني، حين أكتشفك التو رجلاً. لقد أذهلتني وأنت تحدثني عن قميص جديد.. وسروال وحذاء.. ذكرتني بذلك اليوم الذي

رأيتُ فيه (بشاري) دون سروال!. سألتها: من تعنين ببشاري؟. ردت دون اكتراث: هو شاب أحبني.. كنا نلتقي على حواف مجرى السيل خلف حي الدباغين المجاور لبيتنا.. في ذلك اللقاء انحسر قميصه.. لم أجد الكلمات لأنبهه.. أدرت وجهي بعيداً.. اغتاظ مني.. ضحكت قليلاً.. نهض غاضباً. عندها لم تكمل حديثها.. سيطرت عليها نوبة ضحك جديدة.. انفجرت باكياً وأنا أحتضن وجهها خوفاً.. هدأت رويداً رويداً منهكة على أرض الحُجرة.. ارتميتُ جوار طولها.. بكفها تمسح وجهي: لا تخف.. لقد أخرجني بكاؤك من دوامة ضحك كادت تُميتَني.

ما إن تأتي أمي على ذكرياتها.. حتى يتغير صوتها.. لا أعرف بأنه يبعث فيها الحزن.. حاولت أن تهرب لتتحدث عن غلاء خيوط الحرير والخرز.. وعن أن ناسجي الأقمشة يطالبون أضعاف ما كانوا يتقاضونه.. اتكأت قربها أنصت لها.. تحدثت عن عشق النساء للتبرج ورغبتهن بكل جديد.

ارتفع أزيز خيط التطريز بين أصابعها خلف الإبرة.. رفعتُ ناظري.. رأيتُ دمعة هابطة تستقر على مفرق شفتيها.. رمقتني بابتسامة باهتة.. رفعت أصابعَها تمسح خديها.. كنت محتاراً. أَيّ جرح لامسته كلماتي.. إلى أَيّ عوالم سرحت بها؟!. لحظات الإحساس بالغربة والوحدة تجعل الفرد ضعيفاً منكسراً.. يبحث عما يشجيه.. يبحث عن عطف من حوله دون أن يبوح.

– لو عرفت أَيّ كلماتي عذبتك لما نطقتها.

- صديقي.. خليل روحي.. لم تكن كلماتك إلا نافذة إلى جهلي بما تحيكه لنا الأيام.. حين أراك رجلاً، وأرى امرأة تخطف قلبك.. أرى سياجَ الوحدة والغربة يقتربُ يحاصرني.. فمن أحبني رحل يوماً عن دنياي.. ومن هُم لي أهلٌ رفضوني ونبذوني.. وثقتي أن الرب معي وأنا مخلصة له.. ومؤمنة أنه لن يتركني.. وعزائي أنك اكتشفت نضوجك دون أن أدرك.. حين سمعتك تريد سروالاً.. هززت بداخلي أجراساً صامتة.

كنت أستمع إليها وقد تمددت في مكاني.. أفكر في ما إذا قد طرأ عليَّ أي تحول.. وكيف تكون رغبتي بسروال يعني لها تحولي الذي لا أشعر به.. ومَن أراهم في مثل عمري بالكاد يسترون وسطهم بقطع الجلد.. أَوْ مئزر حتى الركبة.. والكثير من الصبيان دون ملابس.. هل هي شَـوْذَب السبب.. من أراها تسقيني مشاعر الأخوة؟.. أم أنها مثلي تجهل ذلك!. تلك الصبية التي أنتظر زيارتها.. لتنقطع شهوراً.. تفاجئ حواسي بحضورها وكأنها لم تنقطع.. أخجل أن أسأل المعلم عنها.. فهو قليل الكلام كثير التبسم.. وإن تحدث فبكلمات تفي بغرض ما يريد.. دوماً ما أتمنى لو أنه يتحدث عن شَـوْذَب دون أن أطلب منه.

انهمكت كَثيراً في ما تعلمته.. رسم الكلمات.. نقش الصور والزخارف.. تلوين الفراغات والأشكال.

* * *

لم يعد في منزل المعلم غيرُ زوجته وأمي.. وهوَ لا يخرج منذ سُبيت

شَـوْذَب.. حدثت أمي بما سمعته من الناس.. ومن أن السكان يستعدون لاستقبال الإمام أبي الفتح الملثم.. سمعت مناديه ينادي: "يدعو مولانا الإمام أمير المؤمنين أبو الفتح المؤيد بنصر الله: من له حاجة أَوْ مظلمة.. فإن مولانا الإمام سيدخل صَـنـعَـاء غداً بعون الله في لحظة مباركة كما حددها أهل المعرفة بطوالع النجوم.. مع نجمه الشمس القاهر.. وسيخطب ويؤم المؤمنين صلاة الجمعة في جامعها الكبير".

هلل من سمع تلك الدعوة وقرعت الطبول.. سارع الناس ليلاً بإشعال النيران على أسطح منازلهم.. صعد مؤذنو المساجد بأصوات التهليل.. وخرج الناس يتأملون نيران صَـنـعَـاء وقد توهجت سماؤها.. لم ينم من كان في ساحة قلعة القصر الكبير.. أمست الطبول تقرع والقبائل صفوفا متقابلة تهزج و(تزومل).

قلت لأمي بأن علينا إقناعَ المعلم بالخروج لاستقبال الإمام وتقديم مظلمتنا حول اختطاف شَـوْذَب من قبل رجاله.. أشركنا زوجته.. لكنه رفض الحديث إلينا.. تشاورنا في الخروج ثلاثتنا.

الناسُ يتوافدون من القرى المجاورة طوال الليل إلى صَـنـعَـاء ليكونوا عند الصباح في شرف استقبال إمامهم الجديد.. صَـنـعَـاء غانية تقودها شهوة اللقاء.. امتلأت ساحات المدينة.

عند الفجر خرج الإمام من قرية المنظر على حصانه يسبقه حملة المشاعل يحيط به الخيالة وعدد كبير من الهجانة.. تسير خلفه القبائل المناصرة له وخليط من البشر.. تحركت الجموع وسط بهجة الأفق بيوم

جديد.. تَـسابق نافخو الأبواق.. وَضاربو الطبول.. ينظرون إلى مطلع الشمس حين يدخل الإمام المدينة عند بزوغها.. حسب ما أجمع عليه المنجمون.. وكان له ما أراد، فحين اقترب الركب من صَـنْـعَـاء أشار عليه كبير المنجمين أن يتوقف الموكب خارج صنعاء.

"الوقت لا يزال مبكراً.. وعلى الفقهاء ترتيل يا أيها الكافرون والكرسي". قالها أحد مرافقيه.. سرعان ما تحلقت جموع العميان والمبصرين في دائرة واسعة على مقربة من حوافر خيل الملثم.. رفع أحدهم صوته واقفاً "بفضل بسم الله الرحمن الرحيم" ليردد الجميع: ﴿اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، حين توهج الأفق وظهرت منارات صَـنْـعَـاء ودُورها وجبالها ظهر سهلها ممتداً غرباً وجنوباً.. أخذ الإمامُ يسأل من حوله عن اسم تلك الجبال.. عن الوادي الموازي له. وعن تلك المنارة لأي مسجد تكون.. وذلك البرج البارز.. يتأمل من فتحة لثامه بعينَين غائرتين.. بهاء يغلفه الضباب ولون الأفق المائل إلى الفضي.

في الوقت الذي أشار كبير المنجمين على الجموع بدخول صَـنْـعَـاء مع بزوغ قرص الشمس من ذرى جبل (غيمان) المهيب.. كانت فرقٌ من الملثمين تجوب شوارع القرى المحيطة بالمدينة.. تهدد السكان باقتحام زرائب المواشي.. وعرائش العنب.. بساتين الفاكهة.. ينادي أحدهم:

باسم مولانا الإمام نأمركم بجمع ضيافته وإعاشة قبائله وعسكره من غنم وبقر وحبوب ودجاج وفاكهة. يقف ثلة من الرجال في ساحة القرية ينتظرون لحظات حتى يُسلم لهم ما فُرض عليهم.. وإلا هجم الملثمون لسلبه عنوة.

مَن رفض الاستجابة.. يُقتلع زرعه وأشجار بستانه، وتنهب مواشيه.. يتبعها عويل مُدَوٍّ.. وتهُدم منازل مَن يقاوم.

تجمع سكان صَـنْـعَـاء عند أطرافها الشمالية لاستقبال الملثم.. مع بزوغ الشمس اقترب موكبه ليدخل شوارعها.. يكرر سؤاله عن أسماء تلك الأحياء والمساجد والدُّور العالية.. يشير مشدوهاً إلى تلك الزخارف التي تغطي واجهات مبانيها العالية.. عبر حارة الزُّمُر وحي القطيع. ثم حارة القليس والأبزر وحارة الميدان.. وهو يسأل.. وأعيان المدينة يُجيبونه.. ترجل خيله لفترة وسار على الأحجار التي غسلتها النساء ليلة البارحة.. سار الموكب متجهاً إلى قلعته في صنعاء.. أمام بوابتها ذبح السكان الكباش والثيران.. ونحروا الجمال.. غاصت حوافر خيله في وحل أحمر.

خرجت مجموعة من الملثمين من داخل القلعة يقودون رجلاً عارياً من كـُـلِّ شيء يحاول سترَ عورته وثماني نساء.. ومجموعة من الصبيان.. أقدامهم غاصت في دماء المواشي.. ترتجفُ أطرافهم.

الجموع تهلل في دائرة كبيرة.. صيحات متعالية.. يتأملون إمامهم السابق ونساءَه وأولاده وجواريَه وغلمانه المغلولة رقابهم إلى حبل واحد..

مكبلةً سواعدُهم إلى الخلف.. أمره أحد الرجال أن يركع معتذراً.. أن يتذلل ويطلب العفو من مولاه أبي الفتوح -هكذا كان يسمى أحياناً تفخيما- جثم على الأرض باكياً يمرغ وجهه بالوحل صارخاً راجياً الرحمة والعفو معتذراً لتعنته.. تعالى نحيبُ حريمه وأطفاله.. أشار الإمام رافعاً يدَيه إلى السماء ثم أنزلها.

ارتفعت صرخاتُ الحشد بالقصاص حداً.. ظهر رجلٌ ذو قامة مديدة.. ملثماً بالسواد.. عاري الساعدين والصدر.. ممسكاً بسيفٍ يلمع تحت خيوط الشمس.. رقص رقصة السيف.. حام حول المكبلين.. يرقص بنشوة و جموع ينعالى صراخها.. في لمح البصر يهوي بسيفه على إحدى النساء.. لينسل الحبل من رقبتها بعد أن بتر رأسها.. وزغرد الدم الفوار.. عاد لرقصته وهياجه وهو يلعق السيف بلسانه.. تختلط أصوات الجموع.. يتقافز.. ينقض هاوياً بسيفه يقسم جسدَ إحدى النساء الصغيرات من الخاصرة.. تلوحُ بذراعين بُترت كفاهما.. تحاول دون وعي الاتكاء والهروب.. أنات من وسط الجموع.. تلتفت لترى جزءَها الأسفل يبتعد.. تخور قواها ثم تهمد أنفاسها والدم يشخ بصوت واه.. استمر يُبتر الأطراف يكوِّمُها بقدمَيه.. يلعق قطرات الدم.. لم يتبقّ غير الإمام المجرد من ملابسه.. أطال السياف الرقص والهيجان.. حتى سقط أرضاً مغشياً عليه ولا يزال ممسكاً بمقبض السيف الكبير.. تحت ذهول وصياح الجموع المحتشدة.

تقدم الإمام الملثم على خيله.. مجرداً سيفه.. شد رسن خيله.. وقف العاري ينظر الجموع.. تغيرت ملامح وجهه.. جال بنظره في كوم

الأشلاء.. قهقه بصوت عالٍ.. نظر إلى السماء.. غير مبال أو أنه فقد عقله.. تقدم الملثمُ بسيفه.. وبضربات خبيرة بتر رأسه العاري.. الذراعين.. القدمين.. بقر بطنه ليترك سيفه كالوتد.. ومضى مترجلاً ليختفي خلف أبواب القلعة.. تتبعه قبائله وعساكرُه الملثمة.. تبعته القطعان المجلوبة من القرى المحيطة والدواب المحملة بالحبوب والطعام.

تكاثرت أصواتُ التهليل والدعاء من مآذن المساجد المتفرقة.. تجمع الناس استعداداً لصلاة الجمعة.. الكلاب تلعق حفر الدماء المتجمعة.. حُملت أشلاء الإمام العاري وأسرته بداخل (غرائر) الصوف لتُرمَى من شفة هاوية خلف القلعة.

انتظرنا بين الجموع خروجه للصلاة .. لنسلمه مظلمتنا.

امتلأ الميدان الأمامي بدوائر الرقص وضاربي الطبول.. أسطح ونوافذ الدُّور امتلأت بالنساء. فُتحت أبواب القلعة.. ظهرت صفوف من العسكر.. تسبقهم حرابهم.. الإمام على ظهر خيله يتسربل بثوبه وقفطانه الأسود.. رجل طويل يحمل مظلة حمراء تظلل الإمام.. صفوف من رجال القبائل راجلة خلفه.

زغاريد متواصلة.. يخترق الموكب أسواق صَـنْـعَـاء ازدحمت الأزقة.. يتأمل الإمام من فتحة لثامه الواجهات السامقة.. الزخارف البيضاء.. يتوقف قليلاً يطيل النظر في أفاريز طوابق الدُّور العلوية.. مخرمات الياجور المطلي بالبياض.. النوافذ وما يحيطها من نقوش.. تداخل فتحات المرمر والشواقيص.. يسير الموكب بصعوبة بين الجموع

أمام الجامع الكبير.. يترجل.. يشق العسكر الملثمون الطريق وسط اكتظاظ لم يسبق له مثيل.

دخلت مع الداخلين إلى الجامع.. اعتلى الملثم المنبر.. نظر إلى الصفوف الأمامية التي خصصت لوجهاء صَـنْـعَـاء وتجارها وكبار رجال القبائل.. يراقب الصفوف المشرئبة من فتحة لثمته.. يخرج صوته متقطعاً.. متسللاً من بين طبقات لثمته.. تهز الصفوف الأولى رؤوسها علامة الرضا بما يقال.. يلوح بيده لتهتز رؤوس الصفوف الخلفية.. يلوح رجاله بعصيهم وفؤوسهم أمام صفوف صرح المسجد والساحات المحيطة فيهز الجميع رؤوسهم بالرضا والقبول.

لم نحدث المعلم حين عُدنا إلى الدار.. سكن خجل عيني وأنا أستحضر ما رأيته.. بداخلي رغبة لأحكي له ما شاهدته.. كنتُ على يقين من أنه سينصت كَثيراً ليستمع.. قد يسأل بكلمات قليلة.. لكنه تركنا وارتكن للصمت.

بعد شهور جمع الإمام الملثم مشايخ الأسواق والأحياء.. أمر بتكوين مجلس منهم.. وأضحى لصَـنْـعَـاءَ مجلسٌ مكونٌ من خمسة عشر شيخاً.. يمثلون أحياءَ وأسواق المدينة بما فيها أحياء اليَهُود.. وعين الإمام شيخاً على الجميع.

في اليوم التالِي انزويت جانباً مواصلاً قراءة المخطوطة من حيثُ انتهيت بالأمس.. مستغلا انشغال زملائي بما بين يديهم.

أغيــار

لم أكن يـَـوْماً قد خرجت من صَـنـْعَـاءَ.. و لم أدر كيف أستعد.. حين طلب مني المعلم الاستعداد لمرافقته صوب الجبال العالية لجمع حاجتنا من مواد إعداد المداد وألوان الكتابة واليراع.. و لم أعرف أنه كان ذاهباً للبحث عن شوذب.. أخبرت أمي مساء ذلك اليوم بما طلب مني المعلم...، أدركت أنها كانت تعلم بالأمر.. فقد ناجت ربها: فليباركم الرب. ثم أوصتني: كن مهذباً ومتفانيا كما أنت لمعلمك، فأنت لم تعد صغيراً.. اعتن بنفسك.

تأملت كلماتها لأكتشف بأني قد بلغت الرابعة عشرة من عمري.. وأن مرافقتي له تعني أنه بدأ يعتمد عليَّ.. وإلا لَمَّا طلب مني مرافقته إلى جبالٍ لم أرها.. كما قال لي الجبال التي تعتصر من السحب رغوة السيول في مواسم الأمطار.

* * *

في يوم العودة من تلك الجبال.. همس لي المعلم بأنه سيلحق بنا وعليَّ

المضي مع العائدين إلى صَـنْـعَـاء بدونه.. وبأنه سيلحق بعد انجاز بعض أعماله هناك.. لم أتوقع أن أعودَ وحيدا.. سرنا خلفَ الدواب.. طوال الطريق انتظر ظهورَ المعلم.. أتلفت في مواقع استراحتنا علّي أراه قادماً.. في ملامح الأماسي أتنظر رؤيته.. أبحث في وُجوه الصباح حين نتأهب للرحيل من محطة إلى أخرى.. قد أسمع صوت أحدهم فأظنه هو.

يـوْماً بعد يوم أكتشف أني أعيش وفق أحكام مسبقة للأشياء ذاتها.. وأننا نبدد أيام أعمارنا في صفحات ميتة ليست من الحياة في شيء.. فلا نحن تركنا الحياة ولا نحن عشناها بعيداً عن تلك الأحكام التي تفرض أن نعيش لنكرر حياة أسلافنا.

* * *

سبع سنوات تمضي منذ اصطحبتني أمي إلى العمل في الحانوت صغيرا.. أرى اليوم بأن ذلك الحانوت أصبح عالمي.. وأن أمي قد كبرت بعض الشيء.. بيتنا أمست مساحته ضيقة.. سنوات عشتُها لصيقاً بها لا يمكن أن أعيدها.. أوْ أن أعيش كما كُنت.. لا زالت ذاكرتي تقارن بين ما كنته بالأمس وما أعيشه اليوم.

بيتنا يتكون من حُجرتين يفصلهما ممر.. ينتهي ببيت (الصِّلي) وإلى جواره بيت (الوهيم).. ثم (المِـطْـهَــار).. مكان ينكمش.

لأمي جُلـمُودُ صخرٍ بطول خطوةٍ كبيرة.. يحمله وثنان مغروسان في القاع.. يتدلى من السقف جلد يحجبه عن بقية الحُجر.. حين أنهض

من منامي فلا أجد أمي.. أعرف أنها ببيت (الوهيم).. أسمع صوتها تناجي ربها وسط ظلمة دامسة.. وفي النهار تنكفئ فوق إحدى النساء.. تمددها على ذلك الجلمود وقد جردتها تماما.. تنتف عانتها.. إبطيها.. أطرافها.. تغمس أصابعَها في وعاء زيت.. تهرس بشرتها.. تتأوه بين يديدها.. تقلب جسدها.. تُدلكه.. تذر مسحوق الكركم وقشر الرمان.. تضع جمراً متقداً تحت الجلمود.. تغطي المرأة بلحاف.. يتعرق مسام جسمها.. تزيل اللحاف.. تجده دبقاً.. تدلكه من جديد مبتدئة برقبتها.. ذراعيها.. ظهرها.. أردافها.. الأفخاذ.. ساقيها.. لتُعيد الكَرَّة.. تستغرقُ وقتاً لفرك ما بين فخذيها.. تساعدها بعد ذلك على الوقوف وقد توردت بشرتها.. تصب على رأسها ماء يفوح منه شذى الورد.. تغسلها.. تلفها بلحاف آخر.. تخرجها تلبسها لباساً جديداً.. تمشطها.. تنقش كفيها وقدميها.. تختم تزيين وجهها.. تنظر في عينيها تهمس: مبروك ياجارتي الآن يمكنهم اصطحابك.. إلى عريسك.. عليك أن تتغنجي لمن تحبين.. تتدللي.. تتبرجي دوماً.. تفحشي على الفراش قولاً وفعلاً.. أن تتبسمي.. تهمسي بكلمات اللذة في خلوتكما.. أن.... فبهذا يزداد مكانتك في قلبه.

دَوماً ما كنت أسمعُها تنطق "جارتي" على كُـلِّ النساء والصبايا.. و"جاري" للذكور حين تتحدث إليهم.. وهم أيضاً يطلقون عليها.. جارتي.. بالرغم أنهم يأتون من منازل بعيدة وبعضهم لا نعرف أين يسكنون؟. بعد سنوات عرفت ما تعنيه تلك الكلمة.

تظل في حديثها مع العروس ما استمرت أصابعها في تزيينها.. تكشف لها عن طبيعة الأنثى وما يحبه الذكر منها.. عن الكلمات والتصرفات.. وما يعجب الرجال وما لا يعجبهم.. تكرر ذلك العمل مع كـُـلّ عروس.. لم أرَ أمي تنصح الرجال.

وكثيراً ما تزورها متزوجات.. يشكين فعل الزمن بمفاتنهن.. لأمي حُفرة صغيرة في بيت الصلي دوماً تملؤها بجمر حطب له رائحة نفاذة.. تصب ماء على جمر الحفرة.. تجلس المرأة عارية على فوهة الحفرة وقد لـُفت بجلد رقيق ليتسلل صاعداً دخانُ وبخارُ الماء بشقوق مؤخرتها ويتخلل بشرة جسمها حتى ينز من الجسم سوائله.. وهكذا لعدة أيام تكرر.. تزيدُ لكل من كانت بعد نفاس.. وأسمعها تقول لها بعد أن تكمل: ها.. هل ضاقت؟. فتهز المرأة رأسَها بخجل مبتسمة: بل ضِـقـْـن!!. لأمي أوانٍ كثيرة.. لا تصلُ يدي إليها.. أراها منذ وعيت على أرفف قرب السقف.. فكرت كَثيراً باكتشاف محتوياتهن.. لتفاجئني يـَـوْماً بإنزالهن على أرضية الممر.. تفتح إحداها تقرب أنفها.. تدخل إلى آخر إصبعها.. تفرغ البعض.. تصب محتوى بعضها إلى أوانٍ أخرى.. أوراق شجر جافة.. قشور فاكهة.. عروق نبات.. مسحوقٌ.. معجون.. زيت.. طلبت أن أساعدها يوما. ومن لحظتها لم تعد محتويات تلك الأواني مبهمة .

كان بيتُنا عالمي الفسيح.. أَوْ هكذا كان يتراءَى لي.. لم أشعر بضيقه إلا حين جلست أنتظر عودة المعلم من الجبال العالية.. لم أشعر بصغر بيتنا إلا حين أغلقت أمي باب الغرفة وهي تهمس في أذني: "لدي ضيوف".

أقفلت باب الغرفة علي. تمددت على فراش الغرفة.. سقفها عيدان مخبوءة بالطين.. جيرٌ ناصع البياض.. تحرص أمي على نظافته.. جُدران بنفس اللون.. تلك الأرفف العالية.. وهكذا الممر.. هو الآخر جُدرانه مليئة بالرفوف العالية.. إلا أنه يختلفُ بأرضيته الحَجَرية.. أما الغرفة الثانية فصغيرة وقد خصصتها أمي كبيتٍ للوهيم.. هي الأخرى مليئة بالأرفف وكوة إشعال الشموع ومساحة صغيرة حيث ترقص أمي حين تصلي لربها.. وفي زاويتها صندوق كبير مغطى بسجاجيد قديمة وأقمشة.. تخبئ بداخله أشياءَها.. كما تحتفظ بأقمشة وأدوات شغلها.. تحرصُ حين تفتحه أن تكون وحيدةً.. أسمع أصوات حركتها في منتصف الليالي.. ترتب محتويات ذلك الصندوق.. تخرج منه أقمشة.. قناني زجاج.. وتعيد إليه ما تراه.. لها قطعة قماش مزخرفة تضع بداخلها الثوب الذي أكملت حياكته أَوْ تطريزه لتسلمه لصاحبته.. ولها وعاء من جلد الماعز (زكوة) تضع بداخله قناني الأعشاب وأدوات زينة العرائس.. وصندوق آخر تخبئ فيه أدوات عبادتها.. ولفائف التوراة المنسوخة بلغة تجيدها هي.. وقطعة مخمل مطرزة بخيوط لماعة.. عليها ما يشبه النجوم والشموع.. وبذلك الصندوق عيدان البخور وأصابع الشمع.. وأشياء تهتم بها.

في تلك الأيام طال انتظاري لعودة المعلم.. اكتشفت خلالها أشياء ما كنت لأكتشفها لو لم أظل لصيقا بأمي.. لم أعد ما كنته وهذا ما تأكده نظراتها وتعاملها.. أمي هي الأخرى أضحت امرأة بطباع مختلفة أو هكذا بدت لي.. قد تكون كذلك طوال عمرها.. لكنى أكتشفها امرأة أخرى.. كائناً يعبد العمل.. لا يوجد عندها أي اعتبار أمام العمل.. بل أنها كانت

تجعلني في مكانة أدنى.. أو هكذا بدت لي.. لم تكن أمام المال ضعيفة بل أكثر من ذلك.. وقد حاولت غرس حب المال فيَّ دون جدوى.. أرادت أن أكون مثلها حتى لا أقع في عبودية العوز.

لم يكن لأمي وقت تضيعه.. ما إن تفرغ من عمل حتى تبدأ بآخر وبقية الأوقات تناجي ربها.. تنتحب في بيت الوهيم.. وكأني أسمعها تحاكي كائناً يجلس إلى جوارها.. لا أعلم كيف كانت تفرق بين ما تحفظه من لغة لا أفهمها ولغة أنا أفهمها.. ولا كيف سيفهم الرب تلك اللغات أو أي لغة هي لغته.. لكنها كانت تناجيه دون ملل دون أي ذرة شك.. بل كان اليقين يفيض من صوتها.. يفيض من أنفاسها.. لتصمت بعد أن تكمل صلاتها.. أرى وجهها يتهلل بنور بعد خروجها.. بمسحة الرضا التي لم أرَ على وجه غيرها تلك المسحة.

لم أجد ما أفعله لأيام وأنا أنتظر عودة المعلم من الجبال العالية.. أجلس جوار أمي، ألح بالسؤال عن ذلك المعبود.. وهل هو غير معبود المعلم؟... أحدثها عن مصاحبتي للمعلم إلى المسجد.. في البداية كانت تصغي إلى عيني صامتة.. ثم سألتني: هل صليت معهم؟. لم أعرف إن كان دخولي ذلك المسجد صلاة.. ابتسمت مرتبكاً.. لامست كفي بحنان.. وقالت لِي: وماذا بعد؟. واصلت وصفَ ما كنت أراه بداخل المسجد.. تحدثت كَثيراً عن تلك الصفوف.. وعن الأناشيد التي ينشدونها.. أعجبني صمتها.. تصغي وكفها يمسد يدي.. ناظراً إلى وجهها.. أرى دموعها.. أفزعتني.. تركتني أمسح خدَيها بأصابعي.. وهي تبتسم.. قالت لي:

وصلاتي ألا تروقك؟!. لم أجبها حين سبح صوتها.. تغني كما أسمعها منذ كنت صغيراً: " اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد، فتحب الرب إلهك من كـُـلّ قلبك، ومن كـُـلّ نفسك ومن كـُـلّ قوتك.. ولتكن هذه الكلمات التي أوصيناك بها اليوم على قلبك، وقصها على أولادك، وتكلم بها حين تجلس في بيتك وحين تمشي في الطريق، وحين تنام وحين تقوم، واربطها علامة على يدك، ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على أعمدة بيتك وعلى أبوابك".. تردد تلك الأناشيد عند الصباح.. وفي بداية سكون الليل.. تقف أمام تجويف الجدار في باطن حجرتها تناجي لهب الشموع بتلك الكلمات دامعة.

لا تدعوني لمشاركتها.. إلاً أني كنت أقترب لأقف جوارها.. أحاول تقليدها دون اكتراث منها.

يُبهرني منظرُها وهي تهتز بهدوء.. تترنم.. تؤدي صلاتها الليلية أمام لهب شموع التجويف.. لا أعرف من زخرف جدرانه بتلك الألوان.. فقد وعيت وأنا أرى لهبَ الشموع ينعكس على تلك الزخارف الذهبية.

كنت أعتقدُ أن كـُـلَّ الأمهات مثل أمي.. رغم سماع البعض ينعتني بابن اليهودية.. أحدثها بذلك.. تتأملني مبتسمة.. تمسح على رأسي.. تدعك كفيَّ الصغيرين بين كفيها.. تمددني جوارها.. أنام وصوت صلواتها يسافر طوال الليل.

للسبوت تلبس لباساً تُخرجُه من صندوقها الذي يفوح منه روائح تعجبني.. تُشعِلُ شموعاً عديدةً تصنعُها بنفسها من شحم الخراف..

تضعُها حولنا على الأرض.. تردد: "يا اللــّـه يا ربنا.. يا مالك الكون، يا من قدستنا بوصاياك، وأوصيتنا أن نضيء لك شموع السبت".. تردد تلك الكلمات وأرددها بعدها وأنا إلى جوارها في زاوية الحجرة متدثرين.. تهتز واهتز طرباً لصوتها.. نتناول طعامنا من أوعية الفطير.. نقيع العنب.. وعاء الزبيب واللوز.. وفتة السمن بالعسل.. تدمع عيناها وهي تغني.. تضمني بقوة مواصلة صوتها: "يا اللــّـه بارك أولادنا وأرضنا واجعلها مثمرة وكثر خيراتها". تكسر الخبز تغمسها في وعاء السمن الفضي.. تضعها في فمي وهي تواصل صوتها الشجي. كانت أمي تختار أياماً لنفرح بها.. وليالي تشعل فيها دموعها بعد أن تعد الأطعمة في أواني الخزف الملوَّنة.. وكؤوس الحياسي.. بعد أن تعلق أشرطة ملونة على الأبواب والنوافذ.. تشعل عيدان البخور.. تغني مبتسمة.. أردد مع صوتها وأنا أحجلُ حولها فرحاً.

* * *

لأمي أعيادُها.. أساعدُها في غسل ملابسنا.. تنظيف زوايا البيت.. تنقية الحبوب.. طحنها بحجر الرحى.. تعد الفطير المحشو بالزبيب.. تسلق البيض.. تعد الخبز.. شراب العنب.. تنتهي من أعمالها يوم الجمعة.. تضع الأطعمة في (الصلّي) حتى تظل ساخنة لليوم التالي.. عند المغيب تجلس على فراشها .. تغني بصلواتها.. أكون منتشياً لصوتها.. أجلس جوارها.. تعجبني ملامسة يدها ليدي.. تهمس بحكايات من طفولتها: سأحكي لك حكاية قديمة.. حينها كنت صغيرة حملني أبي على كتفه وخرج بنا.. أمي وأخوتي يحملون أطعمتنا إلى الكنيس.. الذي امتلأ

بالصغار والكبار جلست وأمي بين النساء ننظر ونستمع إلى الرجال الذين تجمعوا في قاعة الكنيس يترنمون ونحن نردد ما يقولون من صلوات.. لم يكن يوم عيد.. ولا سبوت.. لم أعرف ما نحن فيه إلا حين صمت الجميع وأرتفع صوت الحبر "نجتمع اليوم في بيت الرب ويلتقي بقية أبناء ملتنا في كنسهم.. اليوم نحن في محنة.. محنة أن يطمع بنا الأغيار.. وأن يتجاذبنا دعاة الإمامة.. فهل نستطيع أن نحدد ما علينا فعله؟. لقد عانينا من جشع إمام صنعاء كثيراً.. واليوم يدعونا داع جديدٌ لمساندته.. بالمال والمشورة.. ويدعونا إلى مشاركته دخول صنعاءً.. وهذا ما لم يعتده من سبقوه.. و لم يعتده أسلافنا.. فنحن ندفع ما سنته شريعتهم من مال.. ولا نشاركهم القتال.. لا نريد أن تشغلنا صراعاتهم على الإمامة.. كما لا نريد أن يعاملونا كقبائل همجية تقاتل من أجل الغنائم لدعوة داع جديد أو في صف من يفتي لهم بنهب وسلب سكان المدينة.. اليوم نلتَقي.. فالخطر داهم بعد أن وصلنا خطاب الداعي المظلل بالسحاب.. وهدد فيه إن لم نستجب فستكون بيوتنا وحوانيتنا عرضة للنهب والتخريب.. بل إنه هدد بأن قبائله ستقتل من لم يقاتل معه".

أرتفع عويل النساء وعاد الرجال إلى إنشاد صلواتهم.. لم أعرف إلا أن قلة من الرجال ظلت بعد أن خرج الجميع إلى منازلهم.. كان أبي من بين من ظلوا يتشاورون في الكنيس.. عرفت حين عاد أبي أنهم التقوا بأناس آخرين من أهل ملتنا وأنهم خرجوا من صنعاء لملاقاة المظلل بالسحاب القادم على رأس القبائل المناصرة لدعوته.. وأنهم استطاعوا إقناعه بالاكتفاء بما حملوه إليه من مال.

لا يدري أحد كيف وصلت الوشاية إلى إمام صنعاء، ليأمر عسكره باقتياد من شك بهم في تلك الخيانة وجز رؤوسهم.. طاف العسكر يبحثون عنهم.. اقتادوا أكثر من خمسين يهودياً.. وقبل قتلهم طافوا بهم مكبلين أزقة الأحياء والأسواق.. والمنادي ينادي أن يخرج السكان للفرجة على أهل الكتاب من خانوا أمان مولانا إمام الدنيا والدين.. الأشقياء من اليهود.

ثلاثة أيام يسيرون بهم في أزقة الأحياء والأسواق، يرددون ما شاء لهم إمام صنعاء.. وهو بذلك يوجه رسالته إلى بقية السكان ممن تقبلوا رسائل الداعي المظلل بالسحاب.. ولجوره وظلمه خرج عددٌ كبيرٌ من سكان صنعاء لنصرته.. وبقي الكثيرون لاستقباله عند مشارف صنعاء.

كان أبي وجماعة أخرى من اليهود قد هربوا خارج المدينة.. وكان عمي قد أعلن تخليه عن ملته مع من أعلنوا من أبناء ملتنا.

لم يعد أبي إلا بعد أن أمسى المظلل بالسحاب إماما على صنعاء.. بعد أن سبقته قبائله لإخضاع مناصري الإمام السابق.. وملاحقة إمامها الذي فر نحو الجوف.. ومع ذلك لم تسلم منازل وحوانيت أبناء ملتنا من نهب قبائل المظلل بالسحاب.. بل أن القبائل قتلت من دافع عن بيته أو مانع من تسليمهم متاعه.. وخطفوا صبايا وصبياناً.. ليست هي المرة الأولى التي أعيش سلب قبائل صاحب دعوة بإمامة.. فمرات عديدة تهب القبائل لنصرة داعٍ جديد.. يبيح لهم مقابل نصرتهم له نهب المدينة.

بعد دخول المظلل بالسحاب صنعاء واستقراره في قلعة الحكم ظل

يدعو كبار أبناء ملتنا إلى قلعته.. وعين كبير الحاخامات مستشاراً له.. لم يكن ذلك تقديراً لموقفهم من دعوته.. بل من أجل المزيد من المال.. فهو لم يكتف بالجزية كما نص عليها دينهم.. بل فرض مبالغ سنوية أخرى، سماها العناية بأهل الملة.. وحين لاحظ تململهم من طلباته.. أخذ بعض أبنائهم إلى سراديب قلعته بحجة تعليمهم مبادئ شريعة موسى.. وأدرك اليهود بأن المظلل بالغمام أسوء من سلفه.

* * *

عمي الذي ترك ملتنا.. لم يعد إليها مثل غيره، أستمر حتى بعد مقتل المظلل بالغمام ودخول إمام جديد إلى صنعاء. شكاه أهل ملتنا إلى الإمام الجديد.

بعد ذلك أعلن أبي بأن ذاك الأخ لم يعد أخاً له.. كنت في حيرة مما يدور.. حتى أنني لم أعد أراه.. ويقال بأنه تزوج منذ سنوات.

قبعت تلك الحكاية في أعماق نفسي.. وكثيراً ما تزورني.. أفكر في الإجابة عن أسئلة عمن ترك ربه ليعيش دون رب.. أو ليختار رباً أقل قدرة من ربه.. هكذا كان يحدثنا العيلوم "أن من يترك ربنا من أبناء ملتنا يعيش في شقاء دائم.. وأن ربنا يتخلى عنه.. لتهوي روحه كما تهوي الصخرة في فضاء دون قرار"

ماذا لو أعلن والدي تخليه عن ملتنا مثلما فعل الذي كان أخاه.. هل سيرغمنا على اتباعه في دينه الجديد.. وكيف أكون أنا.. أفكارٌ وكوابيس كانت تزورني قبيل النوم.. أحدث أختي الكبرى.. التي كانت تزجرني

عن مثل ذلك تفكير.. حتى أنني لم أعد أشركها في أفكاري التي لا أستطيع منعها من التسلل إلى رأسي.

مع مرور الأيام اكتشفت أنني أختلف عمن حولي.. وأن تلك الأفكار لا تزورهم.. أو أنهم لا يفصحون.. وأني حين أفكر بأخ أبي السابق.. أتمنى أن أسمعه يحدثني عن عذاباته وشقائه.. أن أسأله: لماذا اختار طريق الشقاء بينما كان بمقدوره أن يعود إلى نعيم الرب الأزلي. لم تكن للعيلوم أو أبي مشكلة مع الأغيار ممن ولدوا وهم على غير ملتنا.. لكن أن يخرج يهودي عاش في البيت الذي أنا أعيش فيه.. فذلك ما ظل حديث أبناء ملتنا.

بعد أن نشرت إحدى الصحف تحقيقا عن حدوث سرقات في دار المخطوطات.. وعن شبكةً من تجار المخطوطات تضم بين أعضائها مواطنين من دولٍ شقيقة.. ورجال أمن من الداخل وموظفين في الدار ونافذين.

أحكمت اللجنة الأمنية قبضتها على الدار.. وأصبح لا يدخل جميع العاملين في اللجنة أو ينصرفون إلا بعد تفتيش دقيق.

كما نشرت بعض التقارير بأن تلك العصابات قد نشطت على مدى سنوات مضت بتهريب عدد كبير من مخطوطات الدار الثمينة.. وقد شوهدت بعضها تُعرضُ في دُور مماثلة في عدد من إمارات البترول.. وبعضُها حُققت خارجَ اليمن.. وأن عدداً ليس بالقليل من المخطوطات القديمة قد بيع لهُوَاة اقتناء المخطوطات النادرة ممن يترددون على صَنْعَاءَ.. ولذلك صدرت توجيهاتٌ عليا بتشديد الحراسة والمراقبة.

وأضحى أملي ضعيفاً في إخراج المخطوطة أو استنساخها.

كنت أستغل فترات تجمعهم لتناول القات والقيلولة لأنزوي وحيدا بالمخطوطة وأواصل قراءتها.

غويـم

في ذلك المساء تأملت وجهي.. ابتسمت وهي تقول لي: سأريك شيئاً. سارت خارج الغرفة.. أسمعُ صريرَ مفاصل صندوقها من بيت الوهيم.. تعودُ وفي قبضتها سيفٌ وبيدها الأخرى أقمشة نظيفة.. تعلقها على الجدار.. أتأملها انبهر لرؤية ذلك السيف.. تجلس جواري وفي عينيها بريق ابتسامة.. ناظرة إلى ذلك السيف المعلق.. تهمس بشجن: أتعرف سيف من هذا؟. وحين ترى نظرات التعجب في عيني تواصل كلماتها: سأحكي لك اليوم عن صاحب هذا السيف.. من أحبني. أصغيت لها مرهفا.. أنظر إلى عينيها استحثها.. واصلت وقد استقرت في مكانها:

في إحدى الليالي البعيدة منذ خمسَ عشرةَ سنة هربت ليلاً من بيتنا مع فارس كان في السابعة عشرة من عمره.. وكنت أنا في السادسة عشرة.. امتطيتُ خلفه جواده.. طوَّقت خاصرته بساعـدَيّ.. المرَّة الأولى التي أركب فيها جواداً.. ألصقت قلبي خلف قلبه.. كان الليل في أوله.. مرق بنا الخيل وسط ريح شتوية باردة.. السماء صافية.. النجوم تتابع سيرنا بوميضها.. سناء القمر يخالط ظلال دُور صَـنْـعَـاء.. خرجنا من أزقة

حي بيتنا.. عبرنا أحياء أخرى.. أزقةً مظلمة إلاَّ من بعض النوافذ المضاءة.. صوت حوافر الخيل يبعث فيَّ الأمان.. لم نتبادل أيَّة كلمة.. فقط حين ركبت خلفه قال لي هامساً "تمسكي بي جيداً". كان كـُـلٌّ منَّا في حوار مع ذاته.. لم أكن لأعرف ما يفكر به.. عبرنا أحياء لم أكن قد عرفتها.. أوقف الفرسَ أمام باب دار كبيرة من عدة طوابق.. إلى جواره اصطفت أشباح الدور تتوسطها ساحة خالية إلاّ من بعض الخيول والمواشي الموثقة إلى جُدرانها.. ترجل.. أخذ يساعدني على النزول.. قال "سندخل هذا الدار.. سنتزوج.. كوني شجاعة".. رددت صدى طرقه مدقـَّـةَ الباب.. بعد لحظات سمعنا صوتاً من خلف الباب:

- مَن القارع؟.

- نريد مقابلة القاضي.

- من أنت؟.

- أخبره أن هناك من يريدونه لأمر هام.

كنت أقف خلفه صامتة.. سمعنا قرقعة مغلقة الباب الخشبية من الداخل.. أطل علينا ضوءُ ذبالة.. ووجهٌ مجعد لمسن يحمل عصى غليظة.

- ما هو الأمر المهم حتى نبلغه؟.

- من يأتي في مثل هذا الوقت إلا لأمر ضروري.

- إذاً اتبعاني.

على درجات حجرية متربة صعدنا.. روائح الجير ممزوجة بعفن غريب.. وروائح أخرى لم أميِّزها.. فتحات الجدران تدخل منها ريحٌ تحرك أعشاش العناكب.. عدة لفَّات للسلم الحجري وذلك الدليل يصعد بنا.. حتى وقف بنا بحجرة واسعة خالية من الأثاث.. أشار علينا بيده:

– سأستأذن لكما.. انتظرا.

لم نرد عليه.. اختفى مخلفاً ظلاماً حالكاً.. للحظات.. عاد يسبقه الضوء مُشيراً إلينا بكفه دون أن يتفوه بأية كلمه.. تبعناه.. غرفة مستطيلة.. تغطي جزءاً من أرضيتها بألحفة مهترئة.. مقلمة بالبياض والسواد.. في وسطها أوان نحاسية رصت بعناية. وفي الزاوية البعيدة يتربع رجل يبدو في الخمسين.. انحسر شعرُ رأسه.. متكئاً.. تكوَّرت وجنته.. تناثر أغصان القات حوله.. على ركبته اليُمنى عِمَّةٌ بيضاء.. تبعثرت عدة لفائف ورقية إلى جواره.. يطالع إحداها.. تتوارى أجزاء من الجدران خلف سجاد زاهٍ.. لم يرفع وجهه إلاَّ حين خاطبناه.

في ذلك اليوم نسيت نفسي وأنا بين يدي المخطوطة.. لأ فاجأ بزميل من أعضاء اللجنة الأمنية يقفُ فوقَ رأسي.. أفزعني.. عاد الهدوءُ إلى نفسي.. تجرأت بأن تركت المخطوطة مفتوحة فوق فخذي.. نظرت إليه مبتسماً:

– أراك تتركنا وتنزوي.. ماذا تقرأ؟.

– تعجبني الحكايات.

– ارني.. فأنا أصادف الكثيرَ الكتب والحوليات.. يمكنني أن أدلك على بعضها.

مددت له بالمخطوطة متعمداً عدم الاكتراث.. كنتُ كأم موسى.. حين تركت طفلها في اليم.. متردداً هل أترك المخطوطة بين يديه وأمضي إمعاناً في عدم الاهتمام.. لم أغامر وأظل واقفاً لأستعيدها منه.. نازعتني عدة تصورات واحتمالات.. أخفيت اضطرابي وحنقي.. حين أخذ

- مساءُ الخير.

نظر إلينا بتعجُّب.

- وعليكم السلام.. ما حاجتكم؟

- أنا وهذه أتينا لتعقِـدَ لنا. قالها رفيقي منتظرا رده.

استوَى في جلسته.. أخذ يتأملنا بملامحَ جامدة.. وضع كوب قهوة القشر جانباً.. التقط عمامته.. أخفى أعلى رأسه.. لا أعرف لماذا نظر إلى حزامه المعلَّق على الجدار وقد تدلت (جنبيته).. ثم إلى ذلك العجوز الواقف عند الباب.. لم يتفوَّه بكلمة.. بادره رفيقي موّضحاً:

- أنا وهذه خطيبتي.. نريدك أن تزوَّجنا!!.

انكمشت محاجر عينيه الضيقتين.

يقلب صفحاتها.. يتلصص لما أقرأه.. أوْ أنه يريد أن يمتلك ورقة ضغط يذلني بها..!. لكن ما أدراه باهتمامي؟!. لماذا أضخم الأمور؟. هل القراءة ممنوعة؟!. لكني أخاف فقدان المخطوطة.. أريد استكمال قراءتها.. قد يأمر المراقب بسُرعة استكمال فحص محتوى الصندوق وتشميعه بعدَ وضع المخطوط في مكانه.

أخرجني من دوامة جزعي وإحباطي حين مد لي المخطوطة.. دون أن يتحدثَ عنها.. فقط قال لي:

- هيا بنا قد نكونُ آخر المنصرفين!.

ابتسمت له في حبور:

- سألحق بك.

- ولماذا ضع ما بيدك وهيا نخرج سويا.

كنت أود أن لا يعرف مكان المخطوطة.. لكني فضلت وضعها دون اكتراث بداخل صندوق مفتوح ومضيت قلقاً.

- لا زلتما صغيرين على هذا.. أين وليّـا أمرَيكما؟!.

- نحن!.

- هل هي ثيب؟!.

في صباح اليوم التالي وصلت الدار مبكراً.. دخلت.. هبطت درجات الدور الأسفل دخلت الغرفة المعتمة.. لم أجدها بداخل ذلك الصندوق.. أدركت أن قلقي كانَ في محله.. ترددتُ هل أسأل ذلك الزميل.. أم أراقب الموضوع؟ بل من حقي أن أسأل عمن أخذ تلك المخطوطة.. سيكون سؤالي من باب الحرص.. فضلت أن أنشغل بعمل الحصر.. أراقب زميل الأمس.. بل أراقب الجميع.. وأن أركز على تلك الزاوية التي بها ذلك الصندوق.. لم يطـُـل انتظاري حين اقترب مني زميل البارحة مبتسماً:

- رأيتك تبحثُ عن ضالتك.. أتريدُها؟!.
- نعم.. أريد إكمال قراءتها.
- هل هي مهمة بالنسبة لك؟.
- ليست مهمة.. لكني أحب الإطلاع.
- فلو يعلمون بأنك شمعت الصندوق دون أن تعيدها إلى مكانها.
- مَن قال هذا؟.
- دعك من المراوغة.
- لا يزال صندوق المخطوط دون تشميع.
- ولماذا تتركه دون تشميع؟.
- مثل كـُـل الصناديق التي لم نكمل حصر محتوياتها.
- لكنك أكملت حصر محتوياته من أيام.. سأتركك تتخيل بأني طرحت الموضوع على اللجنة الأمنية.. ويمكنك أن تتوقع أيضاً نتائج ذلك عليك.
- وما هو المطلوب؟.
- أن تكون معنا!.
- فيمَ؟.
- في أمرك به!.
- ما يجبرني على ذلك؟!.
- إذاً معك اللـّـه!.
- ومعك!!.

نظر إليَّ متعجباً ثم أردف.

– أعني هل تزوجت قبلك؟.

– لا!.

– لا بد من حضور والديكما!.

ظلَّت عيناه تبحث عن شيء ما في ملامحنا.

– لقد أتيناك خِفية.

– خُفية.. لماذا خفية.. ما اسماكما؟!.

– خطيبتي (يائيل) وأنا (بشاري)!.

– يهود!!.

– أنا مسلم.

– وهي!.

– يهودية.

عاد يتأمل في وجوهنا.. حاولت استنتاجَ ما يفكر به.. ففكرت بالرد عليه.. رفع وجهه مخاطباً (بشاري):

– عليكما بالانصراف.. ألم تجد مسلمة.. عودا إلى بيتيكما.. من هو أبوك؟!.

– أبي عبدالرب النهاري.. المهتدي.

– يهودي.. أسلم.

– نعم.. أسلم.

– وأنت تريد العودة إليها!.

– فقط أن أتزوجَ بها.. فهي ابنة عمي!.

– أَيّ عمك؟.

– أبوها!.

– هكذا إذاً.

– أيمنع الدينُ مثلَ هكذا زواج.

– في مثل هذه الحالة يمنع!.

– لماذا؟.

– لا شيء.. فقط أن يحضر وليا أمريكما ويعلنا الموافقة على اقترافك هذا.. وعندها أزوجكما.

– هما يرفضان!.

– وأنا مثلهما.!.

- لجأنا إليك حين سمعنا عن حكمتك وعدلك.. ومساندتك للمحرومين.. أنت أملنا.. فإذا رفضت ستتحمل وزرَنا أمام اللّـــه.. نرجوك أن تساعدَنا على أن نسلك الطريق القويم.

نظر إلينا صامتاً لبُــرهة وقال بصوت هادئ موجهاً كلامه إليَّ:

- ما هي حكايتكما؟.

نظرت إلى وجه (بشاري) الذي ابتسم.. وأومأ برأسه أن أتكلم. قلت:

- هي حكاية طويلة.

- إن سمعتها منك.. ورأيت بأنها تستحق التعاطف.. سأزوجكما.

أبديت تماسكاً ورباطة جأش.. بينما كنت أهتز من الداخل.. كما قال بدأت أتخيل.. هل سأحال للتحقيق.. أرتب ما سأجيب.. هل أكذب وأنكر علاقتي بتلك المخطوطة.. أم أقول الحقيقة.. أخاف من أعضاء اللجنة الأمنية وعناصر النيابة أن يلبسوني تهمة ما.. أوْ أن يضعوا في تقاريرهم ما يُدينني.

أراقب تحركات ذلك الزميل.. أتوقع حصولَ ما هددني به.. أدركت أنه يُجيدُ التلاعبَ بالأعصاب.. حين تلتقي عينانا يبتسم.. مَن يرانا يعتقد أن لا شيء بيننا.. نار القلق تصطلي بداخلي.

رضخت في نهاية الأمر لما يريد.. ليدلني على مكان المخطوطة.. ها هي عادت أخيراً إلى بين يدي.. انزويت في قاعة أخرى.. لم تكن مكتملة.. ولا أدري أين ذهب بما أجتزه منها.. لم يعد للغلاف الأخير أي وجود وقد أنتزع منها أجزاء.. لم أصدق ما أنا فيه.. سألته عما حصل فقال: أنه لا يعرف إلا أنها هكذا!.. اقلب ما تبقى منها.. ذلك المؤشر حيث وضعته آخر مرة.. أستنشق رائحتها التي تصالحت معها حساسية أنفي .. أواصل لذة القراءة وأنا أفكر في ما أنتزع منها ولماذا.

قال لي بشاري مشجعاً: هيا حدثيه. صمتُ قليلاً.. أشار علينا ذلك المعمم بالجلوس.. أدركت أنَّ حدته قد خفت.. جلسنا قبالته متجاورين.. طال الصمت.. لكزني (بشاري) وأنا أحتضن ذراعه.. رمقت عيني (بشاري) وقد كست وجهه غلالة ابتسامة رقيقة.. ذلك المعمم ينتظر كلماتي صامتا.. نظرت إلى القاع.. وبدأت أفكر في انتقاء كلماتي حتى نكسب تعاطفه.. قلت أحكي له:

منذ كنتُ صغيرة.. كان أبي يكرر علينا قصة احد إخوته الذي ترك ملتنا قبل سنين.. وأختار أن يكون (غويم) يتعرض لغضب الرب.. أبناء ملتنا امتنعوا عن التعامل معه.. ما جعله يفكر بالرحيل عن مجاورته لهم وعرض نصيبه في البيت للبيع.. رفض أبي شراءَه.. ولم يتقدم أحد.. شكاهم للحاكم طالباً قيمة بيته الذي هجره.. استمر النزاع سنوات.. ليقضي الحاكم بإرغام أبي على دفع قيمة بيت أخيه.. وأصبح البيت بطابقيه ملكًا لأبي.. كنت دوماً أسأل نفسي.. لماذا اختار ذلك القريب إغضابَ الرب.. وقد وعد الرب لرعيته من يسير على شريعته بالغنى والحُسن.. كنت أتخيل هيئة ذلك الذي تحول إلى غويم.. ملامح وجهه.. هيئته.. لم أسمع أن أحدا من ملتنا قد ترك يهوه ليُرضي غيره.. بعد سنوات جاء ذلك الغويم.. رأيته أمام بيتنا يتحدث مع أبي ممسكا بيده اليسرى كف صبي.. لم يكن مختلفا عنا كما تصورته.. حتى أن ملامحه هي ملامحنا.

حدثنا أبي أنه حضر مطالباً بثمن بيته.. لم يكن ذلك الصبي مختلفاً عنا في شيء.. ولا أبوه عن أبي في شيء غير بعض الملابس.. وقد وضع على خاصرته خنجراً كسائر الأغيار.

بعد عدة أشهر جاء ذلك الصبي وحيداً يسأل عن أبي.. كنت أنا من فتح له الباب.. يسأل في خجل.. تأملت وجهه.. يكبرني قليلا.. اكتشفت بأن عينيَّ تشبه عينيه.. ولون بشرته هي نفسها.. تردد عدة مرات.. تارة برفقة أبيه وأخرى بمفرده.. لم يكن أبي يعي أن مماطلته لسنوات طويلة.. ومعاوَدة رؤيتي لذلك الصبي قد جعلت قلبي يتعلق به يـَوْماً بعد يوم.. أنتظر مجيئه.. أتمنى أن لا يفي أبي بما عليه.. في يوم لاحق أخبرنا أبي فرحاً باستكمال سداد ما عليه.. اضطربت مشاعري لذلك الخبر.. عرفت بأني لن أشاهد ذلك الصبي بعد ذلك اليوم.

لم أكن أعرف أنه سيعود يوما.. حتى رأيته ذات صباح.. يتسكع في شارعنا.. ارتعشت عيناي.. اضطرب قلبي.. هبطت درجات بيتنا مسرعة.. خرجت لا ألوي على شيء.. رآني.. ابتسم.. عرفت لحظتها بأنه جاء من أجلي.. ومن يومها كنت أنتظر قدومه.. أسير مبتعدة خلفه.. نخرج أطراف الحي.

لم يدرك أبي أن ابنته قد تعلقت بذلك الشاب.. وأننا كنا نهيم مَـعاً بَـعِيْـداً عن أزقتنا.. حتى ذهب من يخبره.

في تلك الليلة خيم الصمت على بيتنا.. ليخرج أبي عائداً بالعيلوم إلى بيتنا الذي علمني القراءة.. جلس أبي وأمي وجلس أخي وأخواتي البنات.. أمراني بالتطهر.. ثم حدث الجميع بفضل الرب علينا.. وتمييزه لنا عن سائر الأغيار وأن عطفه وكرمَه باق ما بقينا على عهدنا به.. ثم وجه الكلام إليَّ.. وهم يسمعون "لكِ خلَقٌ خصك به ربنا وطهرك..

فلماذا ترفضين خلقه وتبحثين عن ما يقبح جمالك الرباني.. لك روح وهبك إياها من روحه فلماذا تستبدلينها بروح فاسدة.. ولك عقل هو من عقله.. فلماذا تتركين عطيته.. هل تجحدين عطايا ربك وترفضين رضاه عنك.. تبحثين عن غضبه.. ترفضين أمك.. تستغنين عن أبيك وإخوتك.. تستغنين عن رضا من يحبونك؟". ظل يحدثني طويلاً كنت خلالها قد قاربت على البكاء.

في الليلة التالية خرج بي أبي وأمي يُحيط بنا إخوتي وأخواتي إلى بيت الحاخام.. بحضور العيلوم.. الذي تحدث عن حب يهوه.. قائلاً: "إن جسد اليهودية وقلبها.. وعقلها حَرَمه الرب على الأغيار.. تغشاها لعنته عندما تمنحه لغير اليهودي.. وإن أيّ تفكير مخالف لنصائح الرب يعد رجساً وفسوقاً لا يُغتفر.. وإن اليهودية لم تخلق إلاّ ليهودي.. واليهودي ليهودية.. وما عداه زنا يجلب غضب الرب وعقابه.. وعليها أن لا تفكري بعيداً عن عناية يهوه".

وضع الحاخام يده على رأسي.. تمتم بكلام غير مفهوم.. همس أبي أن أستسمح الجميع بسماع توبتي.. كان قد لقنني ما سأقول.. قلت وعيناي منكسرتان: " لم أكن أعي نصائح الرب.. و لم أعرف بأن ما اقترفته يغضبه.. أرجو مساعدتي في أن أكون فتاة يهودية صالحة وطاهرة.. وأن تباركني بصلواتك.. وأتعهد بعدم تفكيري بما يغضب يهوه.. أمين" ابتسم الحاخام.. احتضنتني أمي، قبَّـلَ أبي رأسي.

خرجنا وسط برد ليلة حالكة.. يسير أبي أمامنا حاملاً سراجه.. طلب

مني قبل خلودي للنوم عهداً بأن لا أفكر بذلك الشاب.. حفظني الوصايا السبع كي أتلوها كل مساء قبل أن أنام.. ترجّى أمي وأختي الكبرى أن يعتنيا بي.. وأخي أن يرافقني دوماً.

لم يفِ عقلي بعهده.. كان نبض قلبي يصارع.. لحظات استماعي للحاخام كان بشاري يسكن عقلي.. طوال طريق عودتنا وأنا أراه يقترب مني وسط الظلام.. حين أخلو بنفسي يكون معي.. انقضت سنةٌ وأنا أسيرة البيت.. يذهبون بي إلى الكنيس.. ظننت بأني استطعت الشفاء منه.. حتى ذلك النهار حين نظرت من نافذة الغرفة.. شاهدته يسير أمام بيتنا.. تخلخلت مفاصلي.. تفصَّدَ جسدي عَرَقاً.. خرجت متناسية كُلَّ ما سمعته من العيلوم والحاخام لشهور طويلة.. سرت خلفه.. لم يلتفت.. عبر عدة أزقة.. خرج نحو مجرى السيل.. أسير يطربني وقع أقدامه.. أحاول اللحاق به.. أسأل نفسي: هل جاء من أجلي؟.. اقتربت منه حتى أستنشق رائحته.. سرت في صمت خلفه كالممسوسة.. وصل بي أطراف المجرى.. كان موسم الصيف قد ملأت أمطاره مجرى السيل مياه بلون التراب.. جلس طرف منحدر السائلة.. لم يلتفت إليَّ.. تجرأت وتقدمت نحوه.. وقفتُ دون أن أنظر إليه.. بادرني:

– أخاف أن يراك أحد.

تلك الكلمات هزت مشاعري.. بددت شكوكاً تسكنني.. لم ينسني.. هرعت دموعُ عيني.. جلست باكية أستند عليه:

– لماذا جئت إلى شارعنا.. لماذا تريد موتي؟!. بكيتُ كَثيراً.

–اسمعيني.. لقد شكاني والدك إلـى والدي.. وحُبست في دار الإمام الذي أعمل لديه عسكري.. ثم خرجت بعد أن التزم أبي بعدم تعرضي لك.. لكني أجد نفسي مسكوناً بك.. حاولت أن أنساك فما استطعت.. لا أريد أن آتي.. لكني وجدت نفسي أمام بيتكم.

ثم أخذ يبكي.. وأنا أبكي جواره.

في صمت نهض كـُـلٌّ منا يسير في اتجاه.. أشار إليَّ أن أعودَ إلى بيتنا.. ورأيته يسير وهو يلتفت نحوي.. لم نتواعد.. لكنني أخرج من بيتنا كالمسحورة.. أسير حتى الأطراف حيث مجرى السيل.. علـَّي أجده.. أظل أبحث عنه حتى أراه قادماً دون موعد.. نجلس صامتين.. نتأمل ذلك السهل الأخضر.. أغاني صبايا الحقل.. تدفق مياه السايلة.. عصافير الحقول تتجه إلى أعشاشها.. الشمس تميل نحو الجبال الغربية.. ينهض كـُـلٌّ منا في طريقه عائداً من حيثُ أتى.. على مدى ثمانية أشهر نلتقي عند مجرى السيل دون موعد أوْ حديث. لا أعرف كيف عرف أبي بذهابي إلى مجرى السيل.!.

هذه المرة عاد بي أبي ليلاً مكبلة إلى بيت الحاخام الذي أمر بحبسي داخل بيتنا سنة.. وكلف العيلوم بزيارتي أسبوعياً لتلاوة الصلوات بحضور إخوتي وأمي وأبي.. ومحاولة إخراج روحِ سكنتني.

قضيت لياليَ طويلة أشعر بالذنب.. أصلي ليهوه ليساعدني على

النسيان.. صُمت أياماً.. حضر الحاخام مرات ليتأكد من حالتي.. حاربت التفكيرَ بالصلوات.. أغرقت أوقاتي بالعمل والصلاة والصوم.. نحل جسمي.. كانت أمي تقضي الليل جواري باكية.. أختي تلازمُني النهارَ، تتأملني وتدمع عيناها.. أبي يعطفُ عليَّ يجالسُني وهو يردد صلواته.

تجاوزت السنة وجسمي ينحل.. تيقن الجميعُ بأني سأموت.. بعد أشهر زفت أختي الكبرى إلى شاب من ملتنا.. خرج أبي وأمي وأخواتي لإيصالها.. عيناي تدمعان.. ودعتني أختي وهي تبكي.

في ذلك اليوم طرقت امرأة بابنا.. لأكتشف بصعوبة بأنها "بشاري" شهقت.. ضاق صدري كدت أختنق.. سقطت أرضاً، لم يتماسك بشاري.. بكى بين يدي.. كنت في كابوس.. أصرخ مرتعبة: سيعودون اخرج سيعودون. أرتجف بشدة.. وأنا أهمُّ بالخروج: سأترك لك البيت وأخرج قبل عودة أبي وأمي. كنت أصرخ وأنا أبكي.. قال وهو يتأمل نحولي وهياجي.. بعد أن قبل وجهي: سأنصرف الآن.. لكنني سأعود.. انتظريني بعد أيام سأحملك لنذهب بعيداً بعيداً.

حين عادوا كنت أبكي دون أن أرد على أسئلتهم.. تركوني بعد أن عجزوا عن فهمي.. نمت عميقاً.. حين صحوت غمرتني حالة من الرضا.. تذكرته كالحلم.. كنت أبتسم في وجوههم.. عادت شهيتي لتناول الطعام.. كيف عرف أني بمفردي؟... أسأل نفسي.. عاد الشعور بالطمأنينة.. بدأ الخوف يبتعد.. بدأت أحس بأن بشاري قدر لا يمكن

أن أخادعَ نفسي دونه.. يكمن بداخلي.. عشت أياما وكلماته تتردد "انتظريني سأعود لأحملك بعيداً".

بعد أيام.. رأيت امرأة في الشارع.. كانت تجلس هناك أمام بيتنا.. تجلس وقد تدثرت بأرديتها.. انشغلت عنها ببعض الأعمال المنزلية.. أعود إلى النافذة.. أراها في مكانها.. يخفق قلبي.. العابرون أمام بيتنا قلة.. اقترب النهار من نهايته وتلك المرأة جاثمة في مكانها.. زجرت نفسي.. لماذا لم أفكر من ذي قبل؟. بحثت عن قطعة خبز.. لم أستأذن أحداً.. هبطت وقلبي يخفق.. لم تحرك يدها حين اقتربت.. كتمت صرخة وأنا أتلفت في اتجاهَي الشارع.. أنظر إلى واجهة بيتنا.. تلك النافذة التي رأيتها منها.. عرفته!. إنه هو!!. من أجلي لبس لباس متسولة.. ظل جاثماً ينتظرني طوال النهار.. خوف يهبط عليَّ.. حين لاحظ اضطرابي.. همس لي: لقد عُدت لنذهب مَـعاً بعيداً. اضطربت أكثر.. واصل همسه: سآتيك بُعيد مغيب الشمس.. استعدي.. سأقف عند منعطف الشارع!. صعدت درجات بيتنا تحملني ابتسامة روحي.. أخاف أن يرى أحدهم قلبي.. أن يكتشف ما أنوي عمله.. بحاجة إلى من يشير عليَّ.. ماذا أصنع؟ أيّ طريق أختاره؟. احترت بين أحب الأشياء.. اخترت: لفائف توراة أبي.. وصايا الرب.. ثوب.. قطعة قماش أهدتني إياها أمي في احتفال بلوغي.. بعض الأشياء تلح عليَّ.. لا شيء آخر.. نافذتي تلمست أركانها.. الغرفة.. فراش الأرض.. الحُجرة الوسطى.. جلست جوار نافذتي مضطربة.. دنت الشمس نحو مغيبها.. ارتفع نبض قلبي.. تبلل جسدي عرقاً.. تمنيت أن أحضن أمي أبي أخواتي قبل أن أهرب.. ارتجفت

ساقاي وأنا أخرج من غرفتي.. الدرجات الطينية.. ترددت كادت سيقاني تخذلني.. أفكر أن أعود إلى غرفتي.. لا أعرف أين كانت مشاعري تقودني؟. داهمتني سحابة دموع غزيرة وأنا أفتح بابَ بيتنا.. لم أعد أرى شيئاً، خطوت دون هدى.. أسير نحو ركن بيتنا.. لا أعرف كيف هبط عليَّ بجواده: هيا اصعدي خلفي. مد يده لا أعرف من أين له تلك القوة حين التقطني لنسبح على ظهر الجواد سوياً وسط عتمة المغيب.. أغمضت عيني وأنا أتخيل فجيعة أبي وأمي.. صراخ إخوتي.. خروج جيراننا.. الكل يبحث عني.. حتى العيلوم والحاخام.

* * *

بعد أن أكملت حديثي لذلك المعمم كانت الدموع قد بللت وجهي.. وصوتي يستغيث باكياً.. خلتُه صنماً وصمته يجثم أمامنا.. نظرت إلى وجه (بشاري) الذي كان يراقبُ ملامحَ العجوز الواقف عند الباب يرقب القاضي ساهماً.. حينها رفع المعمم وجهه ناظراً إلينا مبتسماً.. وقال:

– لا تدمعي.. سأُساعدُكما.. فقط على (يائيل) أن تغير دينها واسمها!.

نظر إليَّ (بشاري) مبتسماً.. يبحث عما يدور بخلدي.. خيَّـمَ الصمت من جديد.. لم أكن أعرف ما أرد به عليه.. وخلت أن زواجنا مستحيل لأني لا أعرف ديناً غير ديني.. لم أكن قد فكرت مجرد التفكير بذلك.. ولا أعرف كيف سينظر إليَّ الرب..

أنقذني صوتُ "بشاري" يحدث المعمم:

– لكن الإسلام أباح للمسلم الزواج بكتابية، و لم يشترط تغيير دينها.

– شريعتهم لا تجيز زواجَ اليهودية من غير يهودي.. إن شكاك والدها بصفته ولي أمرها فسيبطِل العقد. حضرني صوت الحاخام "زواج اليهودية بغير يهودي زنا.. وإن أيّ عقد باطل لغير اليهودي من يهودية".

قال بشاري يقنعه:

– لن يعرفَ لنا قراراً.. نحن نريد شرع اللــَّـه ورضاه.

ابتسم.. وهو يأمرنا أن نركع أمامه متقابلين.. أن ينظر كل منا إلى عيني الآخر.. وأن نبتسم ونحن نردد ما يقول "قبلت بك زوجا على سنة الله ورسوله.. وأعاهدك على الوفاء ماحييت.. والصبر والإخلاص.. والله على ما أقول وكيل.....". بعد أن رددنا ماقال لنا.. أمرنا بأن ننهض وننصرف في رعاية الله زوجين.

في تلك اللحظة لم أصدق بأننا لن نفترق.. وأننا زوجان.. وأنني قادمة على حياة جديدة.

خرجنا من بيت ذلك المعمم زوجين.. نحمل عقداً يثبت ذلك.. كان قلبي مرتبكاً.. ومشاعري مضطربة.. أسأل نفسي.. أين سنمضي؟... وكيف سنعيش.. لم أصدق أنني سأتجاوز مرحلة ما قبل الزواج.. خلت نفسي سأعيشها إلى آخر عمري.. كادت وقع حوافر الجواد تصم آذاني..

هدير يجتاح عقلي وكياني.. أبكي صامته.. أتخيل أمي تبحث عني.. أبي تدمع عيناه.. أختي المتزوجة.. تعلم بالخبر.. كنت جثّة مبعثرة.. أقاد إلى المجهول.. أسئلة تتخلل رأسي: هل ما أقدمت عليه صحيح؟ .أدعو ربي صامتةً أن يؤنسَني.. ويحميني.. وأن يظل إلى جواري.. دموعي تنسابُ بغزارة.. أشعر بالضياع.. لا أدري لماذا اضطربت مشاعري فجأةً؟. خوف يكبلني!. في حين كنت أعتقد أنني سأتخلص من الإحساس بالشقاء.. قلبي يكاد ينفطر.. لم أتوقع أن نصبح زوجَين بهذه السرعة.. مشاعر قاتلة.. كنت أكبتها وأنا أحتضنُ خاصرتَه.. صمتٌ وظلامٌ دامس يحاصرني.. شعورٌ بالضياع والخيل تسير بنا لا أعرف إلى أين؟!. أتشبثُ بخاصرته أكثر.. لا أجرؤ على البَوْح بانقلاب مشاعري.. وكان هو الآخر صامتاً لا يتحدث.. كنت أتمنى أن أسمع صوته.. أن يبوح بمشاعره.. أواسيه.. لأبوح ويواسيني مما طرأ على مشاعري.

ذلك الفارس يا جَـوْذَر هو أبوك.. وتلك هي مغامرتي. في تلك الليلة أمسيت وأبوك زوجين.. هذه هي أثوابه وذاك هو سيفه.

صمتت.. خلتها تبكي.. شعور داهمني جعلني أبكي جوارها.. احتضنتني:

– لَم تبكي هل أحزنتك مغامرتي؟.

تبتسم.. تغمس شفتيها في دموعِ عيني.. تقلبها.. زاد نشيجي.. تضمني بقوة.. هدأت رويداً رويداً حين سمعت صوتها تهمسني.. وكأنها عرفت كيف تسحب اهتمامي.

يـائيــل

قُتل بشاري وأنت في الثانية من عمرك.. كان عسكرياً مع إمام غريب الأطوار.. إمام قضى أيامه على ظهر فرس.. يحارب شرقاً وغرباً.. كان يدعو إلى تحكيم العقل على النقل.. ويبشر بزمن يتفوق فيه أهل الفكر على أهل المال والسلطان.. ويدعو الناس إلى التفكر والتأمل في كتاب الله.. ظل يدعو لدعوته تلك ونسي أن يتزوج حتى تجاوز الأربعين.

جاء من يطرق بابَـنا.. كان الليل بعد المنتصف.. طلب من بشاري موافاة ذلك الإمام عند الفجر.. لم ننم. أخذت بتجهيز ما استطعت تجهيزه له من كعك.. رقعت له ما كان قد تمزق من ألبسته وجلوده.. أتأمل ملامح وجهه على انعكاس لهب نور المسرجة.. كان كـُـلٌّ منا منهمكاً في عمله يراقب الآخر.. اغتسل.. لم أكن أعرف أني لن أشاهده بعد تلك اللحظات.. لا تزال رائحته تسكنني.. قبّل كفك وأنت نائمٌ.. ابتسم وهو يودعني بقبلة عند الفجر.. خرج تحت وطأة برد الشتاء.. ليحل صمت لم يفارقني حتى اليوم.

كان قد حدثني عما يدور من قتال في منطقة شمالي صَـنْـعَـاء.. وعن إمام آخر قادماً من بلاد (وادعة).. منح مناصريه من القبائل الحق في ذبح الأسرى أَوْ استعبادهم.. والقبائل تستجيب لكل دعوة جديدة.. كان الأئمة يتناسخون يـَوْماً بعد يوم.. كلٌّ يعمل على إقناع القبائل بدعوته.. والكل يطمع في السلب والنهب.. قال لي إن الإمام الجديد اقترب لإخضاع صَـنْـعَـاء بعد أن استنصر قبائل (خولان.. وجُماعة.. وبكيل..) بمراسلات ولقاءات مع مشايخهم.. وأن إمام صَـنْـعَـاء يحاول استمالة مشايخ تلك القبُـل بالمال.. إلا أنهم يأخذون ما يُعطى لهم.. ثم يراسلون إمامَ (وادعة) يَعدونه بالنصرة وعيونهم على نهب وسلب صنعاء.. قال لي إن أخباراً تتحدث عن تقدم تلك القبائل وأنهم وصلوا الليلة إلى (أرحب).

بعد خروج بشاري في ذلك الفجر بأيام.. انتشرت أخبارٌ عن تسلل إمام (وادعة) وقبائله تحت ستار الليل إلى صَـنْـعَـاء.. أحرقوا الكثير من دُور أطرافها.. وأعملوا بسيوفهم في المدافعين حتى وصلوا أسوار قلعة القصر.. قبيل رحيلهم بغنائمهم اقتادوا إمام صَـنْـعَـاء وساروا به في الأسواق.. ثم خرجوا به بعيدا.. و لم يعرف أحد بمصيره.

انتظرت عودة بشاري أياماً وشهوراً.. لم أجد بعدها ما أطعمك.. فكرت وحيدة فيمَ يمكن عمله.. سألت إمامَ المسجد المجاور الذي مَدَّني بالقليل من الحبوب.. أوصاني بالصبر.. بدأ الخوف يحاصرني.. كوابيس تقلق منامي.. ساعدتني جاراتي.. مرت شهور كثيرة و كاد العام ينقضي..

تيقنت من أني فقدت بشاري.. أقفلت على نفسي بابي.. لم يعد بي رغبة للحياة.. لكنها صرخاتك تعيدني للتفكير.. كنت محتارةً بين رغبتك بالحياة وميلي للموت.. أسمع صوت بشاري أنهض من منامي.. أتخيله قد عاد.. أبحث عنه في جُدران البيت.. آثار أصابعه على طين جسدي.. رائحته.. يتردد صدى صوته بداخلي.. يزور منامي أراه كما كان.. يتبادر إلى ذهني أن أسأله.. كيف عُدت.. هذا أنت حي؟!. ثم أراه يقيناً في منامي.. فأخجل من سؤاله.. أصحو وسط الظلام لأواجه الحقيقة القاتلة تقول لي لقد رحل.. رحل.

فكرت أن ألجأ لأبيه.. حضرني ذلك الموقف.. ليلة طردنا من داره.. تركت التفكير باللجوء إليه.. فبعد عقد زواجنا لدى ذلك المعمم.. خرج بي بشاري من داره فرحاً.. متوجهاً إلى دار أبيه.. عبر الأزقة المظلمة.. وأنا لا أعرف أأغني أم أبكي.. ردد معي بشاري وهو يضحك تلك الأغنية التي حفظتها من أعراس الحي.. حتى وصلنا الفسحة الأمامية لبيت من دورين.. توقف وهو يهمس: هذا بيتنا. كنت أغالب خوفي.. قال لي هامساً بفرح: ستكون مفاجأة لأبي.. سيحتار في ما قمنا به.. لكنه شهمٌ سيضمني إليه.. ثم سيتركنا ليتشاور مع أمي في معالجة المسألة مع أبيك.. ربط رسن الخيل في حجر ركن البيت.. تحسس خرمَها وسط الظلام.. طرق الباب.. بعد برهة فُتح الباب، نور سراج يعكسه وجه فتاة في سِنّي.. عرفت في ما بعد أنها إحدى شقيقاته.. ابتسمت لرؤيتي.. هامسة له: أهي من حدثتني عنها؟. ابتسم هازاً رأسه بالإيجاب.. تبعناها وهي تصعد صارخة يااااأباه... يااااأماه.. هذه ابنة عمي اليهودية في دارنا..

يااااااااا.. أمسك بشاري بمعصمي وسط الظلام.. لا أعرف لماذا وخزني رعب صوتها.. كانت تصرخ.. ثم خانتني ساقاي.. حاول أن يرفعني.. نهض ظلامُ روحي.. لحظات وسمعنا دوي وقع أقدام وأصوات تهبط مسرعة .. ظهرت الفتاة وبيدها السراج.. عدة وجوه.. ذلك الرجل الذي يشبه أبي.. سأل بشاري بصوت هادئ:

– مَن هذه يا ولدي؟.

– زوجتي!.

– كيف زوجتك؟

عقدت بها للتو عند القاضي!

صمت الجميع.. ينظرون إليَّ.. يتبادلون النظر:

– هل هي من نهيتك عنها؟.

– هي!.

– أين ستذهَـبُ بها؟.

صرخت امرأة تستعطفه.. عرفت أنها أم بشاري:

– الله يحفظك.. دعهم يصعدون!.

التفت إليها بنظرات جامدة.. رافعاً كفه ليهوي بها كيفما هبطت على وجهها.. انهارت تلك المرأة على الدرجات.. فر الأطفال صعوداً..

ارتفع صُراخهم.. حل الظلام.. و لم أعد أسمع غير الأصوات.. انفجرتُ باكية.. استعدت ما كنت أفكر به منذ أن سمعت عن أخ سابق لأبي.. وأنه يعيش في شقاء منذ ترك ملته.. بل إنني رأيت لحظة رؤيته عذاب الرب في عينيه.. شقاء يصعد من شفتيه. سحبني بشاري من يدي هابطاً.. وصوت ذلك الرجل يرتفع: اسمع.. أنا متبرئ منك.. ويشهد اللـّـه بأنك سبق شيطاني.. فلا أنت ابني ولا أنا أبوك.. وهؤلاء ليسوا إخوتك ولا أنت أخوهم.. وزوجتي إن خرجت عن طوعي فهي طالق.. طالق.. طلاقاً نفاذاً لا رجعة فيها.. اللـّـه الحكم بيني وبينك يوم لقياه. خرجنا يلاحقنا صوته وبشاري يسرع بي عابراً ساحة الدار.. سرنا نهيم في أزقة مظلمة.. تدمع عيني بحُرقة.. يقف ليضمني صامتاً ثم نعاود السير.. لم يكن له صوت.. لكنها دموعُـه الباردة تبلل وجهي.

مضت علينا ثلاثة أيام من البحث عن مأوى، وصلنا أحياء بعيدة بأطراف المدينة.. نـُـمنا في سمسرة بعد أن وضع بشاري جواده رهناً.. لم يكن لأحد أن يعرف عن حالنا.. في اليوم الرابع تركني أبوك ليعود متهللَ الوجه سعيداً.. أخبرني بأنه ذهب إلى إمام مسجد تعلم عنده القرآن صغيراً.. شكا حالته.. قال لي بأنه تأثر بما سمع.. اصطحبه إلى قيم مسجد في حي آخر.. طلب منه إسكاننا.. فوافق على أن يسكننا في مبنى ملحق بمسجده.

قال لي: اليوم لدينا منزل وقف. ذهب بي لأجده منزلاً يتخفى جوار دار من عدة طوابق.. يلاصق مسجداً صغيراً.. له باب على زُقاق خلفي..

غرفتان مهجورتان.. ومطهار.. وبيت (الصلي) تراب الجدران تتآكل.. خشب السقف تظهر عروقه.. أصيب بشاري بخيبة.. قلت له: هذا أفضل من ضياع الشوارع.

قضينا أول ليلة كعروسين وسط ذلك الخراب.. شاركتنا الفئران.. كنا سعداء بوجودنا معاً.

في الأيام التالية أصلحنا جدرانه وسقوفه بالطين.

نفضت فكرة اللجوء لوالد بشاري.. ماذا سأقول له لو ذهبت إليه اليوم؟. ثم استقرت فكرة أن أعودَ إلى طرق باب أمي وأبي.. فأنا لا زلت على ملتي.. وأنت طفل صغير.. والطفل ينسب لأمه في ملتنا.. قلبت تلك الفكرة كَثيراً كثيراً.. رأيت وجه أمي السموح.. خواتي.. أخي.

حملتك.. خرجت في الصباح الباكر.. كانت مشاعري بين الخوف والرجاء.. عبرت الأحياء الفاصلة. هي المرة الأولى التي أتجه فيها إلى بيتنا منذ هروبي.. دخلت شوارع أعرفها.. أخفي أطرافي ووجهي بطبقة من الأغطية.. تجنبت أن يتعرف عليَّ أحد.. أخفيك بين أحضاني وأنا أسير في أزقة أعرفها.. وجدت نفسي أقرع باب بيتنا.. أصلي لربي ألا يخذلني.. تدمع عيناي بغزارة... لم يتغير شيء فهذه واجهة البيت كأني فارقته للتو.... كررت الطرق.. فُتح الباب.. كان أخي من يقف أمامي بطول لم أتوقعه.. أزلت غطاء وجهي.. نظرت إليه مرتبكة.. ظنني من الجارات.. نطقت باسمه.. تهلل وجهه بابتسامة عريضة.. كما لو أني لم أفارقه.. صعد أمامي صامتاً.. رائحة المكان لم تتغير.. تلك الدرجات.. وقف في

طرف الحجرة المكشوفة للسماء.. بصوت فرح: يا أماه لقد عادت يائيل ابنتك. وقفت أنتظر وجه أمي.. خرجت من باب بيت الصلي ومن خلفها دخان يتصاعد.. وقفَت من بعيد تتأملني.. وضعت كفها على فمها.. لم تتقدم.. ارتفع صوتها بالنحيب.. هبطت أختي الصغرى من السطح.. احتضنت أمي مرتبكة هي الأخرى.. تبلدت أحاسيسي.. كنت أنتظر أن تتقدم أمي خطوة نحوي.. أن تقول شيئاً.. لكنها تكومت على الأرض تبكي.. وهي تردد بصوت منكسر: مبارك أنت يا رب الذي خلقتني بحسب مشيئتك. جثوت في مكاني.. للحظات تجمعت نساء الجيران.. ازداد صخب العويل.. لا أدري كم امتد الوقت.. حتى سمعت صوت أبي:

– ما أتى بك؟.

– ....!.

– لم تعد لنا ابنه اسمها يائيل!.

زاد عويل النساء.. زادت أعدادهن.. زدت إحباطاً.. هدأت الأصوات قليلاً حين قال:

– ماذا تريدين منا؟.

خفتت أفواه العويل حين قلت:

– جئتُ تائبة..

قاطعني.. صارخاً:

– لقد تبتِ كثيرا.. لكنك كاذبة.

– أنا لم أغضب الرب يوماً.. تزوجتُ كما تتزوج النساء..

– على أيَّـة ملة تزوجتِ.. ارحلي عنا كما هربت معه.

– لكنه قُتل.. و لم يعد من أحد ألجأ إليه.

– هيا انصرفي.. لم يعد لك مكان بيننا.. اذهبي.

حاولت النهوضَ.. أفزعك كان صراخهن الحزين وأنت في حضني.. ضممتك إلى صدري.. حاولت تهدئتك.. لم يساعدني أحدٌ كي أنهض.. غطيت وجهي.. زحفت على ركبتي حتى الدرج.. وأنت في حضني.. أخاف أن أضغط عليك.. خطوت هابطة كالعمياء على الدرج.. رُوَيداً رُوَيداً خفتت الأصوات.. خرجت من باب بيتنا تغطي عيني سحابة سوداء.. سرت وأنا أشعر بأن هناك من ينظر إليَّ من نوافذ المنازل.. عيوناً كثيرة تتابعني.. تمنيت لو تنبت لي أجنحة كي أطير بك بعيدا.. سرت دون هدى.. تذكرت ذلك الوجه الباسم.. وجه العيلوم الذي علمني قراءة التوراة.. اقتربت من بيته.. لم يكن بابه مغلقاً.. دلفته كالغريقة.. طرقت باباً داخلياً:

– مَن يطرق؟.

لم أتعرف على الصوت.. قد تكون إحدى بناته.. و لم أرد.. خطوت

للداخل.. عرفتها.. إنها زوجته وقد سمنت قليلاً.. رفعت صوتي من تحت الأغطية:

– أُريدُ السلامَ على العَـيْـلوم.

– هنا امرأة تُريدُك.

رفعت صوتها وقد لوت بعنقها نحو الداخل.. كانت منشغلة بنتف ريش دجاجة على وعاء مفلطح.. جاء الصوت من الداخل:

– من هي.. وماذا تريد؟!.

– ستعرف حين تسمعها.

اقترب مني.. خفق قلبي تماسكت قليلا.. ثم شهقت بالبكاء.. حاولت النطق خانتني عبراتي.. تأملت وجهه الذي زاد شعره بياضاً.. أجاب بصوته:

– لا تبكي.. تمالكي وتحدثي بما تريدين.. هيا.

حاولت التكلم وسط نحيب متقطع.. لم يفهم ما أقول.. كررت كلامي:

– أنا يائيل.. ابنة صامح شرياني.

– أنت يائيل إذاً.. مبارك أنت يا رب لأنك لم تخلقني وثناً ولا امرأة، ولا حيواناً.. للأسف لم أعد أعرف فتاة بهذا الاسم!.

نهضت زوجته وقد تركت ما بين يديها.. تنظر إليَّ ببلاهة واضعة إصبعها بين شفتيها تتأملني صامتة.. قُلت له:

– لقد عدت ولا زلت على عهدي وإيماني بيهوه.. عُدتُ ومعي ابني.. والابن ينسب لأمه في ملتنا.

قال في صوت هادئ:

– أنتِ نقضتِ عهد ربك.. وما بين يديك ابن سِـفَاح.

حاولت أن أوضحَ له:

– ليس سفاحاً.. لقد تزوجت:

– بل قولي زنيتِ!! أنت تعرفين بأنـك زنيت حين تزوجت بغير يهودي.. لقد خالفتِ الشرائع.. نقضتِ عهود ربك وأبيك.. والحاخام.. لا تُقبل منك توبة.. هيا اخرجي ولا تعودي إلى بيتي.. لا حاجة لنا بأمثالك.

خرجت من بيت العيلوم.. تحاملت على نفسي.. تركت وجهي دون أغطية.. تعمدت أن أسير في تلك الشوارع مكشوفة الوجه.. كابرت وقلبي يقطر حزناً.. أنظر إلى تلك النوافذ الصغيرة وأنا أكابر بابتسامة مزيفة.. نوافذ بيتنا.. تلك نافذة غرفتي.. ابتسمت لها.. لا أعرف كيف خرجت ضحكتي عالية أجزم بأن من يترصدني قد سمعها.. حنيت إلى تلك النافذة التي كانت يـوْماً لي.. إلى باب غرفتي وجدرانها.. لا أحد.. لكني كنت أعرف بأنهم يتلصصون من خلف النوافذ.. التفتُّ

يميناً وشمالاً حتى يرى الكل وجهي الطافح بسعادة حقيقية.. ثم سرت خارجة من شارع بيتنا.. سرت في تلك الشوارع.. فقط أفكر فيك.. دخلت باب منزلنا.. أغلقته.. أتأمل وجهك.. غشيت روحي ابتسامة لم أطعم مثلها.. انفجرت باكيةً بصوت عالٍ بكيت حتى كدت أن أهلك.. بعدها اجتاحني إحساسٌ جديد.. إحساس من تخلص من إثم عظيم.. صليت لربي ناجيته.. احتضنتك أمامَ الرب.. سألته ماذا عليَّ فعله وقد تخلى الكل عني؟. سألته الرضا.. حاورته، فهو الذي أرسل في قلبي حب ذلك البشاري وكنت أقاوم مشاعري.. وهو من وهبني ذلك الطفل دون حول مني ولا قوة.. كنت أشعر بأنه يسكن روحي. وأنه لن يتخلى عني.

جلست أفكر.. فكرت في كل ما يحيط بي.. أن أذهب إلى إمام المسجد الذي أسكن إلى جواره.. كنت أقاومُ الحاجة إلى التسول.. أخاف نظرة عطف الآخرين.

وأنا في الطريق تذكرتُ معرفتي بما علمته لي أمي من خطوات الحياكة.. فكرتُ من أين أبدأ.. إمام المسجد.. طرحت عليه مشكلتي.. ومن أني أعرف بعض الحياكة.. رجوته أن يدلني على طريقة البداية.. يا لعون الرب.. هذا هو معي.. لم يبخل عليَّ.. سار بي إمام المسجد إلى السوق.. عرفني على صاحب حانوت في سوق الوراقين يبيع خيوط وإبر الحياكة.. وعلى آخر صاحب حانوت في سوق البز يبيع أنواع الكلف ولوازم التطريز قال له بأنني إحدى قريباته.. بل إنه قال بأنه ضمنني في سداد ما أحتاجه من سلعهم.

أستمعُ لأمي وأنا أقاوم النعاسَ أسرتني حكاياتها. لا أعرف هل صمتت أمي.. أم أن النوم غيبني؟!.

صحوت وسط ظلام حالك.. صوتها يضيء من غرفة الوهيم.. تناجي ربَها.. لا أعرف كم بقي من الليل .

* * *

في ليال عديدة أتأملها.. تهتز.. تغني بصلواتها: "الرب إلهنا قطع معنا عهداً في حوريب.. ليس مع آبائنا قطع الرب هذا العهد.. بل معنا نحن الذين هنا اليوم جميعا أحياء.. وجهاً لوجه تكلم الرب في الجبل من وسط النار.. أنا كنت واقفاً بين الرب وبينكم في ذلك الوقت لكي أخبركم بكلام الرب.. لأنكم خفتم من أجل النار.. و لم تصعدوا إلـى الجبل فقال: أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك إله آخر أمامي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً صورة مما في السماء من فوق وما في الأرض من أسفل وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن؛ لأني أنا الرب إلهك إله غيور.. أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء وفي الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضونني.. وأصنع إحساناً إلـى ألوف من محبيّ وحافظي وصاياي".

في كـلّ يوم سبت تقفل على نفسها الباب لتظل تردد صلواتها المغناة.. لا تقوم بأي عمل.. وهذا العيد طلبت مني مشاركتها.. قالت لي بأنها تود أن تتقرب لربها بالإجابة عن أيّ سؤال مني إليها.. كما قالت

بأنها تود أن تتحدث إليَّ في أشياء تشغلها.. صمتت قليلاً وهي تمسك بكفي.. ثم قالت اسمعني:

أتعذب وأنا أراك تعيشُ حياة دون أن تعرف وصايا الرب وشريعته.. حتى أنا لا أعرفُ منها إلا اليسير.. أتعذب حين أراك جواري تتأمل تصرفاتي.. تحدثني عن ذهابك وصعصعة للمسجد.. دهشتك من تلك الحروف والألوان.. وصفك لتلك الجموع وهي ترتلُ أدعيتها.. نحن لنا دُوْرُ عبادتنا.. لنا معابدُنا وكنيسُنا.. منذ كنت صبية ذهبت إلى الكنيس مرات قليلة.. حين تصف لي اليوم ما يدور بالمسجد تعيدني إلى مشاهداتي حين كنت أراقب المصلين في كنيس شارعنا.. تذكرني بصلاتي جوار أمي في البيت.. بما علمه لي العيلوم.. كان عليّ أن ألقنك ما لديّ.. فأنا أمك.. الذي ينسبك الرب إلي.. ويوم الدينونة ستسمع من يُناديك بـ"جَـوْذَر بن يائيل"!.

فليغفر لي الرب إن نقضت عهدي ببشاري.. وعلي أن أمارس قناعاتي.. مثلما نقضت عهدي مع أبي.. تغفر لي روحه التي تحلق حولنا.. لا أريد أن تهيم روحك يـَوْماً معذبة.. أريدها أن تصعد إلى ملكوت الرب وهو راض عنها.. وقد نفذت وصاياه.. واتبعت شرائعه.. هل طيشٌ مني أم سذاجة حين عاهدت بشاري على تركك للفطرة؟!. تركتك كما كان يريدك.. لم أكن أعلم بأن بشاري سيرحل عن دنيتنا بهذه السرعة.. يمضي ليتركنا دون سند.. لقد تقيدت بعهدي كـُـلّ هذه السنين.. واليوم أنت لم تعد طفلاً.. أنت ابني.. وعند الرب ينسب الابن لأمه.. فأنت منا نحن ذرية يعقوب..

وعليك أن لا تكون غويماً.. ولن يكتمل رضا الرب إلا إذا انتظمت في شعائره.. وطبقت شرائعَه.. وعليك أن تبدأ من اليوم ياجَـوْذَر. سألتها في سعادة: كيف؟. تابعت كلماتها الهامسة: أن تنهضَ من توك لتغتسل.. ليس كما تغتسل دوماً.. بل تغتسل تطهيراً لروحك.. وليتقَبل منك الرب صلواتك.. هيا صديقي انهض بنية صادقة وقلب متذلل.. لقد مضى على بلوغك سنتين.. وها أنت اليوم تكمل الخامسة عشرة من عمرك.. اغتسل وعُـد إليّ.

نهضتُ حين رأيتُ عينَي أمي وقد غشاهما الدمع.. مضيت إلى الـمطهار.. سمعت صوتها: أغمر جسمك ثلاث مرات ولا تترك بنانة في جسمك إلا وغمرتها بالماء تماماً".

عدت إليها أرتجف برداً.. رددت بعدها "باركني يا سيدي.. يا ربنا.. يا ملكَ العا لم.. يا من عظمتنا بنزول التوراة"، وهي تناولني لفافة.. قالت لي: افتحها لترى ما بها.. فضضتُها.. كان شالاً أبيضا.. قالت مبتسمة: لقد اشتريته لك منذ حين، هذا الـ(طاليت).. الذي لا يجوز لي أن ألمسه فلا تدع امرأة تلمسه حتى يظل طاهراً.. تقبله مني في هذا اليوم المبارك وتبقى عليك أن تبحث عن (تيفلين) لتضعه على رأسك ومعصميك".. صمتت ثم غنت بصوت هامس: "يا اللـّـه بارك أولادنا وأرضنا واجعلها مثمرة.. وكثر محاصيلها".

لم أرَ بهاءَ أجمل من بهاء وجه أمي في تلك اللحظات.. كنت مستسلماً لها.. تدمع عيناها وسط ملامح ابتسامة عذبة.. تردد صلواتها تارة وتارة

تلقنني بما تعرف.. وهي تعترف بأنها لا تمتلك إلا اليسير.. وأن هناك الكثير من الوصايا والعبادات والشرائع التي تجهلها.. تقول لي: "عليك بالسعي لاكتسابها يا جَـوْذَر.. ما أنا إلا امرأة تحب وليدها.. تخاف عليه.. تريد لحياته السلام.. ولروحه السكينة".

سبعة أيام هي أيام عيد الفصحِ.. أصلي جوارها أردد ما تتفوه به.. أركع.. أترنم بما تترنم به.. تنظر إلي وقد توسطت فمها ابتسامة وضاءة.. أتذكر بأني حفظت تلك الترانيم والصلوات منذ سنين.. لكنني أشعر اليوم بدخول روحي عوالم من الرضا والسعادة.. قلت لها:

– أود المزيد.. المزيد.

– المزيد لدى العَيْـلوم والحاخام هناك في معابد اليهود.. هناك في الكنس المنتشرة في صنعاء.. وعليك أن تفكر في طريقة للوصول إلى غايتك.

أحببت حرصَ أمي.. وتلك الشعائر اليهودية والتي أمست تحثني على مشاركتها.. كنت في حاجة للمزيد.. وكنت أدرك بأنها بذلت كـُـلّ ما لديها.. ذات صباح خرجتُ في طريقي.. عبرت تلك الأحياء إلى حيث شوارع اليهود.. عبرت عدة أحياء.. بيوت اليهود لم تكن مختلفة عن بقية البيوت التي سرت خلال صرحاتها.. أزقتها.

حين عدت أخبرت أمي بأني ذهبت إلى شوارع اليهود وأسواقهم وأني تعرفت على بيت العيلوم.. لكني لم أخبرها بأنه توفى منذ سنين.. وأني

توقفت أمام بيت صامح شرياني.. وعرفت بيت الحاخام يوسف المنزلي.. لكني حدثتها عن دخولي كنيس أبو كوفية.. القريب من صرحة حي اليهود الجنوبي.. كانت تستمع إلي وعيناها تتسعان وقد فتحت فمها بشهقات متتالية.. لتبدل ملامحها بين الضحك والبكاء.. تستنطقني وكأني أحملها بكلماتي إلى طفولتها وذكرياتها الدافئة والمريرة.. تشجعني على المزيد من الكلام.

بعد ذلك كنت أتردد على كنس اليهود ولا أحدثها بما أراه وأعيشه.. كنت في كـُـلِّ زيارة ألم بتفاصيل جديدة.. كنت أتردد على كنيس أبو كوفية.. الكل يرمقني.. حدثت أحدهم بأني زائر عابر لصَـنْـعَـاء.. وأني أبحث عما يقربني إلى الرب.. عدل من وضع الطاليت على كتفي.. سألني عن تيفلين جبهتي، وعصائب كفي ومعصمي.. همست إليه بأني فقدتهما.. يا لروعة الأقدار حين اصطحبني إلى الحاخام إلى الهيكل ثم طاولة التراتيل.. يعرفني على نفرٍ من خدام الكنيس.. لأكتشف بأني في جلسة اختبار.. الكل ينظر إليَّ صامتاً.. استعنت بما كنت قد اكتسبته من أمي اكتشفت جهلي وجهلها.. اختار لي الحاخام مكاناً على مقعد مستطيل.. بعد أن أشار على أحدهم باصطحابي في صلوات متتالية.

جدران دون زخارف.. منصة الحاخام إلى جوار خزنة غطيت بقماش حريري مطرز حوافه.. قالت لي أمي في ما بعد بأنها خزنة لفائف التوراة المقدسة التي تحمل بعد حين إلى مثواها الأخير حيث قبر الأبدية بإجلال لا يماثله إجلال.

تحدث الحاخام إلي، ثم تلا صلواته الشبيهة بخطبة جمعة المسلمين.. قرأ من لفافة كبيرة.. والجموع تردد بعده آمين.. يركعون.. يسجدون.. يبسطون بطونهم على الأرض.. ترتفع أصوات المصلين.. يهم الجميع بالانصراف.. يشير عليَّ الحاخام أن أبقى.. حدثته بكل وضوح عمن أنا وعن تمسكي بحقي في أن أكون يهودياً.. لم أخف عليه ذهابي إلى المسجد.. وَضَّحْتُ له دَوْرَ أمي في تنبيهي وتزويدي بما لديها.. كان متفهماً لي.. حريصاً على الاستماع لكل ما أريد قوله.. قال لي بأنه يلزمني إعلان كُـلّ ما سمعه مني في جلسة اعتراف أمام الجميع. وحين أشار علي أن أتحدث إلى من كانوا يصغون لي.. أعدت ما كان موجهاً كلامي للجميع.. غمغم الجميع بكلام لا أفهمه.. أخذني جانبا ثم أخذ يريني كيف ألبس ملابس الصلاة. قال وهو يتحدث إلي بكلام أفهمه: قبل أن تلبس الطاليت قل "باركني يا سيدي – يا ربنا– يا ملك العا لم يا من عظمتنا بنزول التوراة"، رددت بعده. ثم رددت بعده "مبارك أنت أيها الرب إلهنا ملك العالم، الذي قدسنا بشرائعه وَأمرنا أن نضع (التيفلين) الذراع" ثم ربط التيفلين الخاص بالرأس وقال: "مبارك أنت أيها الرب إلهنا ملك العالم، الذي قدسنا بشرائعه وَأمرنا بشريعتة"، ثم أدخل شريط (التيفلين) الخاص باليد في إصبعي الأوسط.. ومرة حول العظمة الوسطى.. ومرتين حول العظمة السفلى.. ثم حول المعصم الأعلى.

وقال لي عليك بفك (التيفلين) بعد الصلاة حسب الترتيب الذي وضعته به لك.. فتفك لفات الإصابع أولاً، ثم (تفلين) الرأس.. ثم لفات الساعد وَالذراع.. ثم الحافظة والطاليت الكبير في النهاية.

ودعني .. شكرته وأنا أهم بالخروج.. ما أثار اهتمامي أنه كان يعلم بقصة أمي.. وأنه لم يتطرق للسؤال عنها.. كان اهتمامُـه ينصب حول شأني.

طلبتِ من أمي أن تشاركني التجوال في أحياء اليهود.. كالأرنب تقافزت أَوْ كطفلة صغيرة فرحاً.. ثم تغيرت ملامح وجهها رافضة الفكرة.. قلت لها سأنتظر موافقتك يوماً.. دعينا نسيرُ مَـعاً هناك تحكي لي عما لم تكن قد حكيتِ لي من قبل.. كررت لها بأني سأنتظر موافقتها.[11]

اخترت مكانا أخبئ فيه المخطوطة درج أحد المكاتب.. أعود إلى أعمال الحصر والمطابقة.. عند اقتراب وقت انصرافنا.. أقفل عليها درج المكتب.

أسير خارجاً وأنا أفكر في تزايد تدخل مدير الدار والعناصر الأمنية في أعمال اللجان.. بل إن الجميع يلجئون إليه في أيّ خلاف يطرأ بينهم.. والبعض يذهبون إلى بيته إن تأخر في المجيء. فجأة صدر أمر بمنع دخول المدير الدار.. وقيل بأنهم أوقفوه للتحقيق.. على اثر توقيفه نشرت بعض الصحف من أن مقتنيات الدار تتسرب وأن لجان الحصر تشترك مع المدير السابق في تسهيل تهريب مخطوطات الدار.

دار همس بين الجميع.. مفاده أن بيننا من يسرب تقارير إلى عدة جهات وصحف.. وأن تلك التقارير تفضح ما يدور داخل الدار.

الملثمون

أقتنص الوقت فيما أنا أنتظر عودة المعلم من حراز.. أذهب إلى مسجد مجاور.. أبحث عن خطوط ونقوش جديدة.. أعود محاولاً محاكاتها على الورق.. زرت عدة مساجد في أحياء مجاورة.. كُـلّ ما فيها يدهش مسجد القبة الخضراء.. بضريح وليه الذي احتشدت على جدرانه آيات من القرآن.. وقد رسمت حروف كلماته على شكل أوراق نبات ومربعات هندسية بديعة.. وخطوط ملونة.. ونقوش لم أرَ مثلها من قبل.. جدران المسجد غطيت ببياض مخرم في أشكال غامضة ومبهمة تثير في النفس التأمل والاستنتاج لمغزى تلك المخرمات.. حاولت استيعاب ما على تلك الجدران.. استأذنت أمي أن أظل بداخل ذلك المسجد طوال النهار وشطراً من الليل.. أعود لأريها ما نقلت من نقوشه.. تتأمل منبهرةً ما تراه على الورق.

عرضت عليها أن نذهَبَ سوياً إلى القبة الخضراء.. ارتعشت أصابعها وقد كسا وجهها مسحة قلق.. أَوْ كمن غشيتها حُمى.. ثم تمتمت.. تناجي الرب بغفران شطحات عقلها.. بكت كَثيراً في تلك الليلة.. وفي

صباح اليوم التالي طلبت مني أن لا أُريَها ما أصنع على الورق.. وأن لا أحدثها عما أراه في المساجد.. كنت ألاحظ على صفحات القماش ما تطرزه إصبعها من أشكال تشبه كَثيراً ما أراه على جدران المساجد.. تزين حَوَاف الثياب بأشكال جميلة.

قالت لي:

– أخاف إغضابَ الرب.. أن أخطوَ في طريق تثير غضبه.. ما يدهش قد يكون مكنونه زلتي.. أنا فقدت في هذه الحياة كـُـلّ شيء.. أبي وأمي وإخوتي.. فقدت بشاري...

قاطعتها جاداً:

– أَوْ أنه خذلك وهرب...

قاطعتني محتدمة.

– كيف يكون هذا كلامك وأنت لا تعرفه؟ دعك من كلام قد يؤلمني.. ترانا نعيش كما ترى.. ولا يوجد مُعينٌ لي سواك بعد ربي.. لا أعرف إلا ما عرفته.. ولا أحد يزودني بما يرضيه.. فلا تدعوني إلى زيارة المساجد والأولياء.. وأنا التي حرمت من زيارة كنس أبناء ملتي.. ولا تجعل من رسوماتك ونقوشك طريقاً لإغوائي.

– لكني أراك تطرزينها على الثياب.

– ماذا أصنع؟ تلك الزخارف تعجبهن كثرتها على الثياب.. لا بأس

من إرضائهن.. وذلك لا أعتقده يغضب ربي.. أما أن تدعوني إلى زيارة المساجد ومشاهدة زخارف حوائطها.. أن أقف في مكان يقودني إلى الجحيم. كُن لي معيناً ولا تستغل حبي لك.. أنا وحيدة بحاجة إليك.

لم أدرِ من هو في حاجة إلى عَون الآخر.. ولا في أي أرض تقفُ قدمي.. ولا أين يسكن ذلك الرب.. أفي تلك المساجد ومصليها.. أم في كنس أبناء ملة أمي.. أم أنه يقبع في بيت الوهيم.. في لفائف التوراة.. أم هو في صفحات القرآنّ؟!. من سيسكن رضا اللـــّـه؟. ملكوت اليهود في السماء.. أم جنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.. ولا خطر على قلب بشر.. هذه أمي تخاف من زلات أفكارها.. من إغضاب ربها.. فما أصنعه أنا بعقلي.. وما يسافر به ذهني دون دليل.. أين سيكون مكاني منهم؟. أم أن لي معبوداً غير معبوداتهم.. معبود يقودني دون أن أدرك.. تشدني تلك الألوان.. الحروف والتخريمات.. الزخارف.. تقود روحي أصوات الصلوات المتداخلة.. مع أشكال رُسمت ونُقشت في أزمنة متداخلة.. حتى لكأني أشعر بتداخل الصوت والضوء والنقش مع روحي.. أيّ طريق تسلكه روحي وقد سلبتها تلك المشاهد حريتها.

* * *

عاد المعلم من الجبال العالية مع بداية أمطار الصيف.. جاء لزيارة أمي ليلاً ترافقه زوجته، وكانت المفاجأة عودة شـَوْذَب.. بكت أمي كَثيراً وهي تحتضنها.. لم يتكلم المعلم.. احتضنني يعبر هامساً عن حبه لي.. يتأمل وجهي.. رأيت في عينيه بريقاً لم أرَه من قبل.. شـَوْذَب كانت

محورَ حديث الجميع.. أسترق النظرَ إليها.. جسمها أكثر امتلاء.. أَوْ هكذا يبدو لي.. تتابع أحاديثَ أمها وأمي.. تنظر إلينا بحيادية.. لم نتحدث عن غيابها.. كأنها لم تكن بعيدة.. المعلم لا يريد أن يتحدث عن الأسابيع التي قضاها هناك في الجبال العالية.. فقط قال: جئنا لنطمئن عليكم.. وأدعو صديقي الصغير لمعاودة العمل صباح يوم غد.. قبيل انصرافهم.. ترك لنا كيس ذُرة.. وسلة صغيرة عنب.

بعد خروجهم انكفأت أمي وسط ظلام تلك الليلة تبكي.. لا أدري ما علي فعله ظل تفكيري يدور حول شَـوْذَب.. أين كانت؟ مع مَن؟ كيف وصل المعلم إلى خاطفيها؟! وكيف عاملوها؟.. لم تتحدث أمي تلك الليلة معي.. أَوْ أن لها ما يشغلها.

قال لي المعلم حين بسطت بين يديه نقوشاً وخطوطاً أكملتها في غيابه:

- أرى روحاً لم ألحظها من ذي قبل في خطوطك!.

أسعدتني كلماته.. لكني كنت أتمنى لو أنه يحدثني عن شَـوْذَب.. أين وجدها؟ أن أسمع منه عن أشياءٍ لم أفكر بها. عُدت إلى أوراقي أبحث عن تلك الروح التي يقصدها المعلم في ما نقشته ورسمته.. لكن اختفاء شَـوْذَب وعودتها كانت تهيمنُ على عقلي طوال الوقت.

مرت الأيام ونحن نعمل على نسخ كُتب جاء بها المعلم بعد عودته من حراز.. لأول مرة أقرأ تلك العناوين المختلفة: الهداية الآمرية.. عيون

الأخبار.. نزهة الأفكار.. زهر المعاني.. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.. أسرار النطقاء.. مسائل في الحقائق.. الاسم الأعظم.. تحفة المرتاد وغصة الأضداد.. حقائق ودقائق.. الأسرار السامية.. كان المعلم قد أعاد توزيع إنجاز مابين أيدينا.. كان هو يعمل وزوجته وشوذب طوال الوقت في البيت على النسخ.. وأنا قسمت وقتي بين الحانوت والنسخ في البيت.. قال لي:

– قد تتساءل.. لماذا لا نستعين بغيرنا في نسخ ما هو مطلوب منا؟ اعلم أن صاحب الكتب هذه طلب مني السرية التامة.. وعدم إطلاع أحد غيرنا على فحواها. وعلينا يا صديقي بالإنجاز.

– لكنها كثيرة!

قال لي مقاطعاً:

– لا نستطيع الاستعانة بأحد!!.

لأيام يعتذر المعلم عن استلام أيّ طلب للنسخ.. يدلهم على وراق مجاور.. لم يكن من عادة أحد في سوق الوراقين أن يعتذر.. ما جعل بعض أصحاب الحوانيت يتساءلون عن سر تغير المعلم.. خلال أشهر تلك السنة أنجزنا ما علينا من نسخ و لم يتبقَّ غير القليل.

في تلك الفترة زاد بطش مشايخ المدينة على الأسواق والأحياء.بما فيهم حاخام اليهود الذي اعتبر شيخا لأهل ملته بأمر الإمام الملثم.. يجوبون الشوارع والأزقة.بمعية العسكر لجمع المال والطعام والعتاد الكافي لتسيير

القبائل المحاربة لإخضاع اليمن الأسفل.. لا يجرؤ أحدٌ على الرفض.. وإن تهامس سكان الأحياء وأصحاب الحوانيت عن ذلك الظلم في مضاعفة الزكاة المشروعة.. كذلك ضُوعفت على اليهود الجزية.. كان بعض المشايخ يحتفظون بجزء مما يجمعون من الرعية.. وكان أول ضحايا المشايخ حاخام اليهود وشيخ سوق الملح وشيخ سوق المواشي.. الذي أمر الملثم باقتيادهم ليلاً إلى القلعة.

عُلقت أَذْرع آدمية على الحائط الجنوبي الشرقي للجامع الكبير.. وست أكف سمرت عالياً.. شاهدها الناس على يمينهم وشمالهم بعد خروجهم من أداء صلاة الجمعة.. البعض قالوا بأنها ليست إلا خشباً لترويع الناس.. وآخرون قالوا بأنها بالفعل أذرع الحاخام والشيخين.. وأنها بُترت في القلعة.. انتشر الذعر بين سكان صَـنْعَـاء.. اختفى بعض مشايخ الأسواق والأحياء.. وقيل إنهم هاجروا خوفاً على أطرافهم إلى مناطق بعيدة عن متناول يد الإمام الملثم.. كان شيخُ سوق الوراقين معيض ضمن من حمل أسرته وهاجر من صَـنْعَـاءَ.

* * *

بعد أيام أخبرني المعلمُ بأن الإمامَ أرسل في طلبه.. وحين مَـثُـلَ بين يديه أخبره بتعيينه شيخاً على الوراقين.. سألتُ نفسي: شيخ! من أين للإمام بمعرفة المعلم؟. في سوق الوراقين مَن يتهامسون بشماتة حول تعيين المعلم شيخاً عليهم.. حاولت أن أفهم سبب تشفيهم. سرت أمام الحوانيت بتكاسُل غير معتاد.. أتلكأ بعد السلام على هذا.. أسأل آخر

عن العمل.. أجالس ثالثاً.. أعرض مساعدتي لرابع. لم تكن عادتي و لم أزُرْ أحدَهم قبل اليوم.. فحين أمرُّ من وسط صفي الحوانيت وهذا نادر.. عادة ما تكون خطواتي سريعة.. لكنني اليوم أريد أن أسمع.. خاصة بعد أن أحسستُ برغبة بعضهم للحديث معي: مبروك المشيخة.. اليوم أنت صبي شيخ السوق.. غداً ستجده بدون كف.. وآخر يقولُ: ألم يجدوا إلاَّ هذا الباطني.. يسمع تعليقات كثيرة ويظل صامتاً.

في صباح اليوم التالي تأخر المعلم.. لمحته قادماً.. يرد التحية ناظراً للأرض دون اكتراث.. أخذ زاويته.. بادرته:

– اعتقدت بـأنك لن تحضر اليوم.

قاطعني مبتسماً:

– من اليوم سيكون المفتاح بحوزتك.. تفتح الحانوت لتجلس تقضي أعمالك ثم تقفله وتعود إلى بيتكم. هذه هي المرة الأولى التي يبقى المفتاح لديّ.. جلس مهموماً ساهماً.. لم ينشغل بشيء.. و لم يرفع نظره عن الأرض.. يلتقط ورقة ليعيدها.. يتصفح كتابا ليغلقه.. أصابع كفيه تتداخل لتفترق.. جلست هادئاً.. نهض.. أشار عليّ بإغلاق الحانوت.. تبعته.. اتجه نحو المسجد المجاور.. لم يكن ميقات صلاة.. عبرنا تحت بوابة العقد الحجري إلى الصرح.. شمس تعكس بياض الجُدران.. دخل باب بيت الصلاة.. لا أحد عدا قلة متفرقة في الزوايا.. سكون بارد.. وقف المعلم بداخل كوة الإمام أطال في سجوده.. ابتعدتُ قليلاً.. أتأمله.. اختلط

عليَّ الأمر وأنا أسمعه يُناجي الفراغ بصوت منكسر: "الحمد لك ربي القدير القديم، المبدع البديع، القوي الرفيع، الفرد الأحد، العزيز الصمد، الذي أجل من أن تدركَه الظنون، ولا يدرك أدنى صفاته الواصفون، قاصم كُـلِّ جبار عنيد، وقامع كُـلِّ شيطان مريد، لم يبتل أولياءَه بما ابتلاهم تعنتاً ولا هضماً، بل اختباراً وإن كان قد أحاط بكل شيء علماً، ووسع أعداء دينه أناة وحلماً، ليحتقبوا بالاستدراج حوباً وإثماً، وصل على محمد نبيك سيد المرسلين خاتم أنبيائك الطيبين، وأسكن من اتبعه جنات عدن، وعلى أخيه ووصيه أمير المؤمنين وسيد الوصيين علي بن أبي طالب، محيي شريعته وأمينه ومأمون وهارونه، قمر الشريعة وشمسها وذروة الملة ورأسها، ساقي شيعته من حوض عترته بكأسها، وعلى عروسه فاطمة الزهراء، معقد رحمتك الذي تعقد به كُـلِّ عاقل وسدة كُـلِّ حافٍ وناعل، الحبة التي أنبتت سبع سنابل، وعلى الحسن والحسين ثمرة شجرةِ طوبى، وعلى الأئمة من ذرية الحسين المنقولين إلى محل الرضوان، والنازلين في غرف الجنان، سَدَنة التنزيل وخزنة التأويلِ، بحق أوليائك المطهرين وأسرارك المقدسة أزل عني الغمة وامنحني شرفَ الهمة.. وطهر قلبي وروحي من الهم.. اللّـــهم آمين".

نهض المعلم بوجه وَضّـــاءٍ باسم.. مسحة الابتسامة علت ملامحه.. لم يعد بذلك الوجه المتجهم الذي دخل به المسجد.. مد لي يده.. قبضتُها.. سرتُ جواره.. خرجنا يحدثني:

– اليوم نستطيع أن نعد بعضنا بالوفاء.. أن نعتمدَ على بعضنا.. أن

نكون صادقين كما يكون الكبار.. هل تعدني؟!. كنت سعيداً لكلماته:

– أعدك!.

– لن أخفيَ عليك.. صباحاً جاء من يصطحبني إلى القلعة.. هذه المرة الثانية التي أمثل أمامَ إمام مُلثم لا أعرف وجهَه.. وقد لبس السواد.. حتى من حوله كلهم ملثمون.. قال لي بصوت حازم: أكره الكذب والخداع وأقتص ممن يشاركني في مالي.. أريد منك أن تضاعفَ ما كان يجبيه سلفك.. وأن تنقل لي ما يدور لدى المشايخ الآخرين.. أريدك أن تكون يدي وعيني.. إلا إذا أردت أن تفقد يدك وعينيك. صمت قليلاً ثم واصل حديثه الهامس:

لا أعرف كيف تم اختياري شيخاً للوراقين.. ولا من أشار بذلك.. ثم اليوم يكلفني الملثم شيخاً على جميع مشايخ صنعاء.. أعلم بأنها مكائدهم.. هناك من وشى بي للإمام وقال بأني أروج للمذهب الباطني.. وضعوني في موضع المراقب، فأما أن أثبت ولائي من خلال مضاعفة جمع الأموال.. ورفع ما يقال ويُعمل.. وقد تكون نهايتي إن تكاسلت.. ولهذا قررت القيام بواجباتي كشيخ على الجميع حتى يأذن اللــه بزواله.

سأتفرغ يا جوذر لخدمة الملثم أبي الفتح.. سأتغيب عن الحانوت كثيراً.. فأنت اليوم وجه الحانوت .. بحكم تواجدك في الحانوت بشكل دائم.. وأنا أحضر متى وجدت الوقت ملائما.

وما أتمناه أن تركز على إنجاز نسخ ما اقتربنا من إنجازه من الكتب

التي بين يديك.. سأكون صلة الوصل بين من ينسخ في الدار وبينك في الحانوت.

* * *

قال لي هامساً: أريد أن أريك سراً على أن يظل ذلك السر بيننا.. هيا أغلق باب الحانوت!. أشعل فتيلَ مسرجة.. أشار عليَّ بإزاحة ذلك الصندوق الذي أتخذه مقعداً لي.. أزحته بصعوبة.. ظهر خلفه تجويف بحجم نافذة صغيرة أسفل الجدار الداخلي.. ناولني قضيباً حديدياً وأشار بخلخلة حجارة طين التجويف.. بعد وقت ليس بالقليل فتحت ثغرة صغيرة في ذلك التجويف.. أمرني بإزالة ما تبقى.. نافذة تقود إلى ظلام.. ناولني المسرجة.. أشار علي أن أسبقه.. رائحة تكتم الأنفاس ركع بعدي.. زحف بقوائمه.. كدت أختنق.. كاد سراج الفتلة أن ينطفئ.. حُجرة خلفية صغيرة بحجم الحانوت أَوْ أصغر قليلاً.. عدة صناديق بأحجام مختلفة.. ذرات الغبار تلون المكان.. قال هامساً: هنا يمكنك إخفاء ما تشاء من كتب. أخذ يفتح أحد الصناديق.. تملكني الرعب.. وأنا أحدث نفسي.. وما عسانا أن نخفي.. وممن؟... ثم أعقب: عِدني أن يكون هذا سراً بيننا.. وأن لا تبوح به لأحد.. حتى لأمك.

كانت بعضُ الصناديق قد بدأت أخشابها بالتآكل.. كيف تم إدخالها من تلك الفتحة الصغيرة؟ هل تم تركيبها في الداخل؟. أم أن هناك باباً آخر.. لم أسأل المعلم؟!. كانت الصناديق مليئة بالكتب والرقوق المتربة.

لم أتعوَّدْ أن أخفي عن أمي شيئاً.. تنتظر عودتي لنقضي شطراً من ليالينا نستمع لبعضنا.. ذلك السر جعلني أفكر هل حقاً بأني أصبحت رجلاً يعتمد عليه؟. أم أن المعلم في ظروف قاهرة دعته إلى ذلك الفعل!. أسير وأتصرف بإحساس مختلف.. قادني ذلك إلى أن اكتشف أن لي سراً آخر أخفيه عن أمي.. سر مشاعري تجاه شَـوْذَب.. فذاك سري الخاص الذي لم أخطط لإخفائه.. هل لأمي أسرار لا أعرفها؟!. لا شك بأن لكلٍّ منا أسراره الخاصة!. هذا ما سأوطن نفسي عليه من اليوم.. أن يكون بداخلي صندوقٍ دون باب.. قد يكتشف الفرد نفسه تجاه أسرار لم يكن يعدها أسرارا!

أنشغل المعلم عن الحانوت بأعمال مشيخته.. لا يأتي إلى الحانوت إلا قليلاً.. نتخابر في ما أنجز.. وما علينا عمله.. أضحى يهمس لي عن نشاطه.. كنت ألحظ تغيُّـرَه رغم كبره.. أضحى أكثرَ نشاطاً وحركة يجتمع بالمشايخ في بيته يحثهم على جمع المزيد من المال.. يو لم لهم بين فترة وأخرى.. يعرض عليهم خطوات جمع ما يتطلب جمعه.. يجلس بين صلاتي المغرب والعشاء في المسجد القريب إلى مَن يأتي إليه.. يحضر اجتماعات المشايخ بالقلعة.. خلال شهرين عوقب أربعة مشايخ ببتر أطرافهم.. أحدهم بُترت قدمه اليمنى بتهمة محاولته الهرب.. وآخر بترت ذراعه اليسرى لسرقة جزء مما جمع.. والاثنان الآخران فقدا لسانيهما لحديثهما بما يُسيء عن الإمام.. يخرج المصلون من صلاة الجمعة في الجامع الكبير لينظروا إلى أعلى الجدار.. يتوقعون المزيد من الأطراف معلقة.

لم ينقطع المعلم عن المجيء إلى حانوته في أوقات متفاوتة.. يـَوْماً دعاني إلى داره.. قال لي أريد أن أعرفك على صاحب الكتب التي ننسخها منذ فترة.. عرفني على شاب يكبرني بعدة سنوات.. ذي بشرة تميل إلى الحُمرة.. أشقر اللحية.. أخضر العينين.. قال لي المعلم: هذا هو (عبداللـّـه الصُليحي) من الجبال العالية في حراز.. تلك الجبال التي عرفتها.. وتلك الكتب وما ننسخ منذ حين هي له.. عليك بالتعامل معه.. وأن تكتم معرفتك به.

بين وقت وآخر يعاود ذلك الشاب زيارته لنا.. نلتقي في دار المعلم.. يستلم ما أنجزناه.. ويسلم كتباً جديدة لنسخها.. يحتفي به المعلم في كـُـلّ زيارة.

تجرأتُ يـَوْماً بالحديث إلى المعلم عن صاحب الكتب.. وكتبه التي ننسخها.. قلت له بأنها تدعو إلى إعمال الذهن.. وأن جُـلّ ما فيها متشابه.. وأن الفرد بحاجة إلى بصيرة وقادة حتى يصل إلى مقاصد غاياتها.

قال لي بأن ذلك الشاب من أدلاء الحجيج إلى بيت اللـّـه الحرام مكة.. وأن تلك الكتب تخص دُعاة انتقلوا إلى باريهم منذ سنين، ويحب (الحرازي) تجديد دعواتهم بين الناس لتنبيه الغافل وكسب الأجر من اللـّـه.

حدثته عما أسمعه من الوراقين من ظلم الإمام الملثم الصعدي.. ومن أنهم يئنون ويتذمرون من كثرة التكاليف عليهم.. والبعض يفكر بالهجرة

إلى الأرياف البعيدة.. ويستغرب البعض تشيعك له.. يسمعني مبتسماً.. ويهمس:

– وماذا سمعت أيضاً؟.

– البعضُ يشكك في ولائك!.

– كيف؟.

– لا أعرف.. لكنهم يقولون: لصعصعة مذهبه الضد.

– لا عليك.. يحق اللـّـه الحق.

– يقولون بأنك زدت بنشاطك شهية الإمام للمال!

– ماذا بأيدينا فعله.. إمامٌ يُعاقب كـُـلّ متهاون.. وأناسٌ يشكون ويتذمرون.. وأعرف أن كـُـلّ نفق مظلم لا بد له من نهاية.. وَما نحن فيه من محنة تحتاج إلى حكمة وتبصُّر.

– أنتم مَن تلتقون بالإمام وتستطيعون التحدثَ إليه.

– لا نلتقي بشخص بعينه.. الجميعُ ملثمون الم أخبرك بذلك.. الإمامُ مَن يلبس عمامةً خضراءَ وملابسَ سوداءَ.. حوله أناسٌ لا تظهر إلا عيونهم.. كلنا لا نعرف من ينزل العقاب.. كلهم يأمرون.. يزجرون.

– ألم تتعرف على وجه الإمام!.

– الجميع يا صديقي الصغير ملثم.. فمن يعرفهم!

- من هم؟.

- ملثمو القلعة!.

بدا المعلم غريباً عما أعرفه.. كما لو كان شخصاً آخر. أحضر له في المسجد بعض جلساته.. أسمعه يتحدث بحماس عن همة الإمام لسد الشوارع في أطراف المدينة لحماية صَـنْـعَـاء من القبائل المغيرة.

في جلسة أخرى.. أسمعه يدعو الناس إلى محاربة أصحاب البدع.. وثالثة يدعو فيها إلى تسيير القبائل للسيطرة على بلاد التهائم واليمن الأسفل التي انتشرت بين سكانها البدع والشرك باللّـه.. وفي آخر جلسة يدعو المشايخ لتسجيل جميع سكان أحياء صَـنْـعَـاء للعمل كسخرة في بناء حوائط لسد أطراف الشوارع والأزقة المؤدية إلى خارج أحياء صَـنْـعَـاء.

ليبدأ بتنفيذ بناء حوائط في مدخل كـلّ شارع وزقاق.. وفرض على أصحاب الحوانيت في الأسواق توفير الطعام لفرق العمل.. و لم يمتد العمل لأكثر من ثلاثة أشهر حتى سُدت نهايات الشوارع والأزقة وأضحت المدينة مغلقة.. عدا منفذ واحد ترك لدخول وخروج السكان وهو في حراسة العسكر الملثمة.

قال لي المعلم بأن الفرج اقترب.. فقد أوعز من يطرح على الإمام مقترحاً في اجتماعه بمشايخ صَـنْـعَـاء.. لفرض رسوم على السلع التي تدخل المدينة وتلك التي تخرج منها.

لقي المقترح استحسان الأمام وأمر بتنفيذه.. كان هناك بعض المنازل الطرفية يساعد سكانها على تهريب السلع عبر منازلهم.. لم يطل الوقت حتى عُلقت مجموعة من الأيدي على حائط الجامع الكبير.

أمر الإمام بمضاعفة الرسوم على السلع لتوفير المال اللازم لتسيير القبائل المناصرة له لضم اليمن الأسفل وتخليص سكانه من أصحاب البدع والشرك بالله.. يوْماً بعد يوم أخذ سكان صَنْعَاء يهربون من صَنْعَاء ولا يعودون إليها.. أمست بعضُ دُورها مهجورةً.. أمر الإمام بمنع خروج السكان إلا بإذن مكتوب منه.. اجتهد المعلم في تحريض الحراس بملاحقة من يشتبه بمحاولته الهرب.

ودوما ما أسمع المعلم يهمس لي: اقترب الفرج ياجوذر.. أقترب الفرج.

لم يعد هناك ما يشغل السكان.. الأزقة خالية.. صرحات المساجد تنام فيها الكلاب.. علقت أكفٌ وأقدام كثيرة على حائط الجامع بعد أن ضُبط البعض يحاول الهرب عبر الدور والمنازل المهجورة.

ضاقت أحوال البقية الباقية من سكان صَنْعَاء، استمرت أعمال السُخرة.. يساق الناس للعمل خلف أبواب القلعة.. يأمر الإمام الملثم ببناء قصر جديد.. لم ينتهِ العمل به.. حتى تواترت أخبار عن مبايعة قبائل سنحان وبلاد البستان وبني حشيش وبلاد الروس وآنس وألحدا للإمام الشريف القادم بدعوته من الجوف.. شدد الإمام الملثم حراسة المدينة..

هطلت أمطارُ الخريف بغزارة.. انهارت بعض الدور المهجورة.. في الوقت الذي وصلت قبائل الشريف لمحاصرة صَـنْـعَـاء.

* * *

يتردد صدى صوت المعلم في محاجري دوماً حين رأى الخيالة الملثمين قادمين.. صرخ بي: اهرب يا جَـوْذَر بسُرعة.. أنجُ بحياتك. تملكني الرعب لحظتها.. التفت.. مجموعة من الملثمين على خيولهم بعمائمهم السوداء.. اكتظ ممر السوق.. ارتفعت حمحمات الخيول.. ووقع حوافرها.. تجمع خلق كثير.. خرجت إلى دكة الحانوت أرتجف.. صاح أحد الملثمين بي:

– أين المفر؟.

أشار إليّ المعلم:

– اتركوه.. هذا يَـهُـودي تائه!!.

صرخ الملثم بي:

– هيا ابتعد.. لعنة اللـّـه عليك.. ابتعد!!.

وهو يهوي بسوطه على كتفي.. لتتناولني بقية السياط.. أحاول الاحتماء بسيقان الخيول.. مرتبكاً تلسع جسمي ألسنة سياطهم.. خرجت ألهث باكياً.. لا أعرف ما عليَّ فعله.. أرتجفُ خوفاً وألماً.. أمسح خطوط الدم بين ثنايا جسدي التي مزقتها السياط.. حريق يلتهم جلدي ألماً.

وها أنا أجلس اليومَ وحيداً ولا أمل لي بعودة المعلم.. وإن زارني في الأحلام مراراً.. أصحو تحملني شموسُ السعادة بلقياه.. ليؤكد لي صحوي سراب أحلامي.

ثلاث عيــون

"الملك لله الواحد القهار.. يا أهل صَـنْـعَـاء منحكم اللـَّـه سبل الرشاد.. يعلن مشايخ صَـنْـعَـاء موالاتهم ومبايعتهم لسليل الجود.. ربيب المعالي.. الإمام الشريف إماماً على صَـنْـعَـاء.. فوجبت على الجميع طاعته ومبايعته ومناصرته.. نصرة لإعلاء دين اللـّـه وبسطاً لشريعته.. وسيتقبل البيعة يوم غد الجمعة بصرح الجامع الكبير... الملك لله الواحد.....".

اكتظت الساحات الشرقية للجامع الكبير.. امتلأت الأزقة والشوارع.. الجميع ينتظر قدوم الإمام الشريف.. ارتفع صخَبُ العامة.. العيون تصوب.. رجلٌ يحيط به مشايخ المدينة.. قادمين من الجهة الغربية.. يتبعهم جمع غفير.. لم يكن يختلفُ عنهم إلا بعمامة بيضاء مخروطية رُصفت على رأسه بشكل لافت.. وجهُه الأبيض المستدير يرسم عليه تجهماً مصطنعاً.. دخل الجميع من الباب الشرقي.. اعتلى منبر الخطبة تحدث.. مشيداً بمشايخ المدينة.. ووجه جموع المصلين بضرورة التآخي والتلاحُم وتنفيذ أوامر ونواهي اللـّـه رب العالمين.. وطاعة أولي الأمر.. مردداً: سنحمي

المدينة وسكانها.. سنُرسخ العدل.. وسيعاونني الجميع.

كل شيء في المدينة قد تغير.. مقتل المعلم.. حالة شَـوْذَب بعد عودتها.. العسكر هم العسكر يجولون لتنفيذ أوامر الإمام الجديد بتسليم جبايات جديدة.. أَوْ اقتياد أحدهم إليه.

ها أنا أجلسُ وحيداً في زاوية المعلم.. أحلمُ بظهوره بين العابرين كما كان يفعل.. اليوم عرفتُ لماذا علمني متاهات الخط المستقيم.. إسكان روحي في حروف أرسمها.. ذوبان إحساسي بصور وزخارف أنقشها.

لم يعد من عمل مربح.. سوق الوراقين مقفر.. ثلاثة حوانيت يأتي أصحابها بحثاً عمن يسمع شكواهم.. وآخر ليتبادل مع من يصادف الحديث.. أبحث عما أقوم به.. أبحث عما أتسلى به.. أحاول رسم أحرفاً بشكل جديد.. أنقش رسومات كي أقدمها لشَـوْذَب.. أبحث عما يعيد لها مرحها.. لم يكن لي من طريق إلى قلبها إلا ما أحاول ابتكاره من حروف وزخارف.. أن أنقش ابتسامتها.. عينيها.. صوتها.. وأحزانها.. أن أضع ذلك بين يديها.

أتخيل ما يمكن أن تكون قد عاشته أثناء اختطافها. سألتها يوماً.. نظرت إلى عيني ملياً.. خجلتُ.. من عينيها انكسرت نظرتي.. عُدت في اللقاء التالي وقد وضعت ما يمكن أن أطرحه عليها.. وجدت عينيها تائهتين في

أستغلُ لحظات تناولهم القات أنزوي.. أخرج ظلمة اللـه من مكمنها.. أواصل قراءتي من حيث انتهيت.

ملامحي.. ارتبكت كلماتي.. تحجرت حواسي.

يوماً بعد يوم تغرق عيناها في دوائر حُزن لا مرئي.. أعرض عليها ما نقشته.. أشير إلى عينيها الصافيتين على صفحة الورق.. فمها الصغير.. ترمش جفونها.. يزداد صفاءُ عينيها اتساعاً.. تطيل النظر في عيني.. تنكسر نظراتي من جديد.. أبتلع كلماتي.. تقودني أسئلتي إلى العودة.. ما ذلك الشيء الذي يسكنها.. يغرقها.. يجعلها ضائعة وهي تجلس بجواري؟! أينما أكــونْ في الحانوت.. جوار أمي.. أسير في الشارع.. أرسم الحروفَ.. أنقش.. فهي تسكنُ تفكيري.. يتعذب قلبي.. أين ذهبت بذلك المرح.. بكل كبريائها.. بذلك النشاط؟.

* * *

أعودُ بذاكرتي إلى أيام خلت.. حين كنت أسير وشوذب في أزقة صَــنْـعَــاء.. صرحات أحيائها.. نقف نتأمل واجهات دُورها.. نتفقُ أن ينقشَ كُـــلٍّ منا تلك النقوش.. نلتقي لنرى ما صنعنا على صفحات رقوقنا وأوراقنا.. لم يكن من أحد يعرف تلك المشاعر التي تنمو بداخلنا.. وإن كنت أظن بأن المعلم من كان يدفعنا إلى أن نجلس سوياً لننسخ الكتب معاً.. أن ننقش نقشا ونحتكم إليه.. لم يُظهر يوماً رغبته بالكلام.. اليوم أجزم بأنه الفاعل الأول لكل ما بيننا.. أن نتبارى في من يبتكر نقوشاً جديدة.. قالت له يوماً:

– أنت دوماً تحكم لجَــوْذَر بالتفوق!.

– لأنه يأتي بالجديد.. وأنت تبرعين في دقة ما ترسمين وتنقشين.

– لكنك لا تصطحبُـني إلى المساجد.. فهناك يرى ما لا أراه.

– يمكنه اصطحابك هو إلى أحدها.

– أحقاً!.

– أنت تستحقين أن تشاهدي ما تريدين.. ونرى بعد ذلك.

نظرت إليَّ باسمة وقالت:

– لم يعد لدي من عذر.. غداً تختار لي مسجداً.. ثم يحكم أبي بعد ذلك.

كنا في الضحى.. أمسكت بكفي.. تداخلت أصابعنا.. نشوة لذيذة سرت من أصابعها.. ملمس يدها يختلف عن ملمس يد أي كائن.. رائحة عطرة تنبعث من أعماقي.. أراها بوَجْد وشوق.. أحرك أصابعي لأتخيل مكان كـُـلٍّ منها.. أنظر إلى عينيها تتضاعف بداخلي غبطة.. تستقر على ملامح وجهي.. لم يعد المسجد مقصدنا.. عبرنا أزقة وصرحات مساجد عدة.. كنا نبحث عن مسجد لا يوجد إلا في أخيلتنا.. صادفنا يـَوْماً هطول مطر غزير.. احتمينا بمسجد.. طال هطول المطر ونحن بداخله.. حين دخل وقت الصلاة رآنا الناس معاً.. شتمنا البعضِ.. وآخرون هموا بضربنا.. خفنا أن تهرسنا أكفهم.. احتوتني شـَوْذَب أَوْ أني من احتضنها لنخرج هاربين.. أصابعنا لم تنفرط.. سمعنا مؤذن منارة أخرى يؤذن لدخول وقت الظهيرة.. قالت في خجل:

- أيّ مسجد كنا نبحث عنه؟!.

- سنجده حتما.. أو أنك تخبئينه بداخلك.

لا أدري كيف خرجت تلك الكلمات.. لم أكن قد فكرت بترتيبها.. دفعتني كلماتها دفعاً.. أضاء وجهها برق ابتسامة.. فلتت أصابع يدها من بين أصابعي.. لم تلتفت إليّ وهي تبتعد.. تركتها وأنا أصيح بملء صوتي: سأنتظرك غداً بالحانوت.. وسنبحث عن مسجدٍ لم نزره.

نلتقي تتسابق أصابعنا.. سالت بأفواهنا أحاديثُ كثيرةً.. زال حاجزٌ كنت أتوهم وجودَه.. لم نسِرْ في الأزقة كثيراً.. كنت قد اخترت مسجداً زرته من ذي قبل.. خطونا الحجر المعترض تحت أقدامنا.. عبرنا ممراً طويلاً.. أحكمت من تسوية قرقوش رأسها.. لم نكن منتعلين أحذية.. أحواض ماء الوضوء على جانبي فسحة مرصوفة بالأحجار المشذبة.. بركة بيضاء مشبع ماؤها بلون الاخضرار.. غطى معظم وجهها حبيبات البيلسان.. وورق بحجم كف يطفو على وجه الماء.. سرب عصافير يقفُ على أطراف الفسحة.

تركتها تتأمل بياض المحيط وقد انعكس ضوء الشمس.. اتجهتُ نحوَ باب بيت الصلاة، ضغطتُ على مصراع بابه محاولاً فتحه.. لم يكن هناك ما يعيق.. لفحتني رائحة برد صامتة.. لا أحد.. فضاء من السكون.. تبعتني في خطوات هادئة.. شهقت وهي تتأمل سماء القبة العالية.. تشير هامسة:

- هل رأيتَ تلك النقوش الملونة؟.

هززت لها رأسي، علامة الإيجاب.

- وتلك الكلمات المرسومة بحروف رشيقة!.

لم أجبها.. كنت أتابع شهقاتها.. أشير عليها بأن تنظرَ إلى أعمدة ضوء الشمس المتسلل من كوات عالية.. أحزمة حروف الحيطان.. قناديل زجاجية منقوش عليها منمنمات دقيقة.. نقوش خشب السقف المتصالبة بأشكال هرمية.

سكون يحتوي حيطان المسجد.. حروف همسها.. الأعمدة المتراصة.. الألوان المتناغمة.. سرت جوارها في أرجاء المسجد.. أرى بعينيها.. لا أدري متى ولا كيف تعانقت أرواحنا؟

في محراب المسجد.. اندمغت أصابع يدها بطبقة الألوان.. أعمدة مرمرية منحوت عليها أوراق كروم.. أدهشتني عيناها الطافحتان بالرضا.. رفعت يدي الممسكة بيدها.. قبلت إصبعها.. ابتسمت.. ضمت كفي إلى صدرها:

- أشكر اصطحابك لي.. لم أكن أتخيل بأني سأجول يـَوْماً هكذا.. أن تريني كل تلك الخطوط.. والزخارف.. وتلك الألوان.. حين كنت أرى نقوشك وألوانَ أحرفك.. كانت أصابع الحيرة تلهو بي.. أبحث عن سر ذلك السحر في نقوشك.. عن مصدر تلك الفتنة.. واليوم أشركتني لرؤية كنوزك.. لقد حملت روحي كنوزاً لا تراها العيون.. قد تأتي إحداهن

لتصلي خلف ذلك الحاجز.. وقد تأتي مجموعة للصلاة.. لكن أن تلمس إحداهن هذه الألوان.. أن تستنشق روائحها عن قرب.. أن تطأ قدماها الحافيتان هذا المحراب.. فلا أظن غيري قد عاشت هذه الأحاسيس.. أنا ممتنة لك.. وأرجو أن تشركني في رؤية كل مسجد جديد.

فردت ذراعيها كما لو كانت تطير.. التقفتها.. درت بها عدة دورات.. صدى ضحكاتها تردده حيطان وأسقف المسجد.. ندور وندور حتى سقطنا معاً.. ليصمت كـُـلُّ شيء.. كنت سعيداً لتلك المشاعر التي تدفقت بصدق.. وسعيداً لأني اقتربت منها كثيراً.. وبالمقابل كنت أبحث بداخلي عن نفسي.. أشعر بأني أعرفها منذ حين.. أكبر من عمري وعمرها.. تشتاق حواسي لتعيش ما تصنعه أصابعنا.

كل تلك الذكرى تدفقت في لحظة وحدتي في الحانوت.. أعادني رجلاً يقف أمام الدكة .. يتفرس في ما حوله.. قال لي وهو يقترب برأسه يهمس لي:

- اهذا حانوت صعصعة؟!.

- نعم!.

- وأنت جَـوْذَر!.

- نعم.. أنا مساعدُه.

- جئتُ لأنقل إليكم تعازي صديقكم الحرازي في وفاة صعصعة.. وأرجو نقل ذلك لزوجته وابنته.

لا أعرف سبب إزرِآب جسمي لحركة عينيه يميناً ويساراً وهو يحدثني. قلت له.

– من تقصد؟.

تغيرت ملامحه متأملا وجهي.. ثم همس:

– الحرازي.. يقرؤك السلام.. وقد حملني إليك كتباً لنسخها.. وهذه الدراهم لتستعين بسُرعة نسخهن.. كما طلب مني أن أحمل إليه في طريق عودتي كُتباً كانت قد سُلمت لكم مع ما تم نسخُه.

ثم مد لي بخباء، أدخلتُ يدي لإخراج ثلاثة كتب.. مشيراً عَلَيَّ أن أتصفحهن في فسحة من أمري

وقف قليلاً ثم قال: عليك بالحذر؛ حتى لا تقع هذه الكتب في يد غيرك!.

ظلت ملامحُ وجهه.. صوته الهامس.. نظراته تلاحقني طوالَ الوقت.. ذكرني بالمعلم وهو يُحذرني يومَ عاد من الجبال العالية.. كنت في حيرة.. أسأل نفسي: هل من أسباب قتل المعلم علاقته بتلك الكتب؟

كان الخوفُ يتدحرَجُ بداخلي محدثاً أزيزاً مقلقاً.. أبحثُ عمن يُعينُني.. يشاركُني أو ينصحُني.. فكرتُ بأمي.. لكنها ستضخم المسألة، وأزيدها خوفاً.. ولن أستطيع ثنيها لو أمرتني بما لا أحب.. أقفلتُ الحانوت.. حملت مخاوفي.. قصدت دارَ المعلم.. في الطريق هودجتني ظنونٌ حين قال بأنه سيعود.

لماذا لم أسأله عن صديقنا عبدالله الحرازي؟ ماذا لو لم يكن مرسَلاً من قبله؟!، لما لا أسافر إلى الجبال العالية لأتأكد، أخاف أن في الأمر مكيدة؟!.

التقتني زوجة المعلم عند باب الدار .. وقفت أسترد أنفاسي .. أدركت ارتباكي.. قالت:

– ماذا تحمل؟.

صوتها بدا لي جافاً.. مشروخاً.. على عكس بريق بشرة وجهها.. تداري عينها المطفأة. قلت لها وقد أعدت عيني إلى الأرض:

– جاءني رَسُـــوْلٌ يقول إنه من قبَـل صديق المعلم.. صاحب حراز.. سلمني هذه الدراهم وهذه الكتب وطلب نسخها.. كما طالب بتسليمه ما تبقى من كتب سُلمت في ما مضى للمعلم.

– ألم يذكر لك أسماءَها؟!.

– بلا ذكر كتابَ الزينة وأعلام النبوة وَالينابيع والإمامة والسياسة.. لا أتذكر أنني رأيت تلك الأسماء بعد نهب الحانوت وتخريبه.

– و لِمَ أنت قلق؟.

– أن يكون في الأمر مكيدة!

في كـُـلّ الأحوال عليك بالحذر.

كانت شـَـوْذَب تقفُ ساهمة بنظراتها على درج السلم.. وكأن الأمر لا يعنيها.. اغتنمت صعود أمها للبحث عن تلك الكتب.. سألتها بلهفة:

– أرجو أن تكوني بخير.

رفعت ناظرَيها إليّ:

– أنا بخير!.

فردتُ أمامها ورَقاً كنت قد أنجزت بعضَ النقوش عليه:

– هذه نقوشٌ نقلتها لك من جُدران مسجد زرته مؤخراً.

– مسجد جديد!.

– نعم.

فردتُّ أوراقاً أخرى.. ذكرتني ابتسامتها الباهتة بابتسامة أمي حين تكون حزينة.. صرخت حين رأت وجهها على صفحته.. التفتت بعيداً خجلة.. وقالت:

– مَن نقش هذا؟.

– أنا!.

– أنت ساحر!.

– هي لكِ!.

كنت سعيداً وقد انتزعت تلك الكلمات.. ابتعدت قليلاً حين سمعت خطوات أمها تقترب من الداخل.. قالت تلفت انتباهي:

– لم أجد تلك العناوين.. قد تكون ضمن ما أُحرق ونُهب!.

عدتُ يحمل قلبي سعادة غامرة.. لم تفارق كلمات شَـوْذَب مسامعي.. أرسم أملاً بعودة عافيتها.. أن أعرف حكاية اختطافها.

* * *

جاءتني شَـوْذَب في اليوم التالي إلى الحانوت.. خجلت حين رأتني أجلسُ في مكان المعلم.. استقمت مرتبكاً.. رأيت عيون الحوانيت المجاورة وألسنتها تهمس.. أتوقع بأنهم يسنونها.. ظننت الشوق قادها إليّ.. خفقت أفكارٌ كثيرة تحلقُ فوقَ رأسي.. توقعتها ستناقشني عن نقوش البارحة.. وأنها حضرت لرُؤيتي.. ظلت تقف صامتة.. تمنيت لو أنها تصعد على العتبة لتجلس كما كانت تفعل.. تحدثني عما يؤلمها.. تحكي لي ما جرى لها أثناء غيابها.. لم يعد جسمُها المخروطي الناحل ذاك.. بدا كأنه نضج .. أوْ أنها تلبست مفاتن امرأة ناضجة.. صدرُها يصطخب.. قوامها أكثر امتلاءً.. لكن عينيها توحيان بحُـزن عميق.

قطعت أفكاري.. قالت لي بصوت منكسر:

– أمي تريدُك الآن في الدار!.

– لماذا الآن؟.

صمتت قليلاً لتقول:

- لا أعلم!.

لم تنتظر لما سأقوله.. استدارت منصرفة.. فكرت أن أستوقفها لنذهب سوياً.. خشيتُ عيونَ الوراقين.. أغلقت الحانوت كي ألحق بها. أسأل نفسي لماذا لم تنتظر؟.

قطعت أزقة السوق لألحق بها.. قد تكون اختارت طريقاً آخر.. سرت كالمجنون دون أن أجد لها أثراً.. وقفت أمام باب السور الطيني للدار.. تراجعت أتأمل واجهته.. اكتشفت ما فيه من خطوط وأشكال وكأني أراه لأول مرة.. طرقت مدقة الباب.. صدى أجوف يتردد.. شَـوْذَب مَن أطلت من نافذة الدور الثاني.. لوحت لها بيدي.. أشارت بأن أدفع الباب.. خطوت على الطرقة القصيرة متحاشياً أغصان الشجيرات.. عبرت إلى باب الدار.. تأهبت للقياها.. قعقعة سَحْب مَغلَقة الباب من الداخل.. أرتب نفسي أرسمُ ابتسامة.. انفتح الباب.. فاجأني نَصفُ وجه أمها يطل من عتمة الدهليز.. رائحة الرطوبة الممتزجة برائحة الجير.

- أهلاً جَـوْذَر.. نظرت إِلَيَّ بعينها الوحيدة.. وقد غطت نصف وجهها بطرحة رأسها.. سارت أمامي صاعدة دَرَجات السلم بخفة لم أعهدها.. لا أعرف لماذا كنت أردد:

اللـّـه.. اللـّـه.. يا ستارَ العيوب.. الله....

أرددها كما كنتُ أسمعُها من المعلم.. وهو يصعَدُ أمامي.. آخرُها قبل

أن يُقتَــلَ بعدة أيام حين دعاني لمقابلة صديقه الحرازي صاحب الكتب.. بعد مقتله تهبط أم شَــوْذَب لتحدثني حول إعادة بناء ما تهدم من جدران الحانوت.. أوْ تمدني بالقليل من الدراهم ثم أنصرف.

صعدت بي هذه المرة حتى الدور الثاني.. الحجرة المتوسطة للغرفتين.. التفتت نحوي ولا زالت تغطي نصف وجهها بغطاء رأسها.. مشيرة بكفها إلى بعض المخطوطات التي لم تُنسخ.. وكومة الورق التي قُصت.. وأواني مواد تحضير المداد والصمغ.. قالت لي:

– أريد أن نتدابر في!

فيم؟

– أرى أن تخصص يوماً لمشاركتنا العمل هنا في البيت. صمتت وهي تنظر إليّ مبتسمة بعينها الوحيدة.. تنتظر ردي.. بينما وقفت شَــوْذَب صامتة.. التفتت إليها أمها.. لتتوارى خلفَ أحد الأبواب.

حرصت على إخفاء فرحي بتلك الفرصة التي ستوفر لي رؤية شَــوْذَب.

حدثت أمي بأني سأمر صباحَ كُــلِّ يوم جُــمُــعة على بيت المعلم لتقديم بيان الأعمال المنجزة خلال أيام الأسبوع.. لم تعلق عليَّ بشيء.. ثم أخبرتها بأن عمل الحانوت يتحسن.. وأن أكثر الحوانيت قد فُتحت.. لم أخبرها بذلك الرسول.. طمأنتها بأني أبتعد عن دسائس أصحاب الحوانيت.

كان قلبي يرقص كلما ذكرت بأني سأكون في بيت المعلم.. وذهني يعد اللحظات التي تقودني إلى هناك.. أحاولُ أن يبدوَ مظهري عادياً ،حين أخرج صباح كـُـلِّ جُــمُــعة تحملني سعادة غير متناهية.. أصل متلهفاً.. يُفتح الباب لتفاجئني أمها في كـُـلِّ مرة.. أصعدُ خلفها.. تبحث عينايَ عن شـَـوْذَب.. ينتفض جسدي شوقاً لسماع صوتها.. لكني لا أراها.

أصل فلا أجدها.. أسأل أمها التي تشاركني إنجاز ما تراكم: خرجت لقضاء بعض الأعمال وستعود!. لكنها لا تعود.

أحاول أن أجد لحالتها أجوبة.. أمها لا تفارقني.. يفوح شذى رائحة زكية.. لم تعد تغطي نصفَ وجهها.. تتعمد أن تكون عينها الغائرة في الجانب الآخر.. تـَـظهرُ جدائلَ شعرها.. تتحدث بصوت هامس.. تنثني لتلتقط بعض الأوراق ممعنةً في إبراز طراوة جسمها.. تمد لي وعاءَ القهوة دالفةً صدرَها أمام عينيَّ.. تستديرُ لتلفحني أنفاسُها.. تعتصر كفي راجية أن أشاركها الطعام.. تبتسمُ في دلال.. تفاجئني عند فتح الباب وقد كشفت عن شعرها الأسود الطويل.. تمد يدها مصافحة.. تسحبني صعوداً حتى الدور الثاني دون أن تتركَ يدي.

أجلس مستغيثاً.. أرهف السمع عَــلَّ شـَـوْذَب تظهر.. لا أحد.. أنهمكُ بما بين يدي من عمل.. أحاول أن أهرب بتفكيري.. الأمل يراودني بأن شـَـوْذَب ستظهر علينا.. أتشوق أن أحدثها عن قلق يعتصرني.. عن مشاعري.. أتوقع سماع صوتها.. أن تحدثني عما يعصف بها.. وعن

سر صمتها وجنوحها للتخفي.. لكنها أمها تملأ عليَّ حواسي.. تودعني مصافحةً في دلال.

أنصرفُ وكفاي تحملان رائحة يديها.. أفكرُ طوالَ الأسبوع: هل تختبرني؟.. لماذا أتواطأ معها؟.. ماذا عليَّ فعله؟.. لماذا يتلاشى عن مخيلتي: المعلم.. شـَـوْذَب.. أمي.. ولا تبقى إلا هي.. رائحتها.. رنة ضحكتها.. تغنج صوتها.. إثارة حركات جسدها.. بريق الرغبة في عينها.

* * *

ضاق صدري بما يفتك بي.. لم أعد أطيق تخفي شـَـوْذَب.. ولا مقابلات أمها.

في صباح تلك الجمعة.. خرجت من بيتنا.. لم أتجه إلى دار المعلم.. دفعت نفسي بالسير عكس الطريق.. توجهت هارباً.. سرت باتجاه الجبال القريبة.. أقلبُ أفكاري.. ونداءٌ بداخلي يردد: أين المفر؟. قبيل غروب الشمس عدت إلى بيتنا.. فاجأتني أمي بسؤالها: أين كنت؟. جمعت كلماتي لأرد عليها.. لم تعطني نفساً.. واصلت تساؤلاتها: لماذا لم تذهب كعادتك إلى بيت المعلم؟. ألجمتني مفردة "كعادتك" التي كنت أنوي نطقها ضمن كلمات بدأت أرتبها كي أضللها بها.. حاولت أن أعيدَ ترتيبَ كلماتي.. واصلت هي: جاءت شـَـوْذَب وأمها.. ظنتا بأن ما أخـَّـرَكَ عن الذهاب إليهما هو المرض. هتملت لنفسي حزيناً.. شـَـوْذَب تأتي إليَّ.. إلى بيتنا.. كيف تأتي وهناك تتخفى؟ أفي الأمر شيء

لا أفهمه!. غيظ يجتاحني.. أخفيت ارتباكي.. لم تضف أمي غيرَ ما قالت.. مواصلة انشغالها بما بين يديها.. يحرقني شوقٌ أن أسألها عما رأته في شَـوْذَب.. هل كانت مرحة.. أم أن الحزن يشرنقها؟.. هل تحدثت إليها.. هل ابتسمت.. ماذا قالت؟!. لكني فضَّـلت الصمت.

في اليوم التالي شعرت بقلبي يسقط حين رأيت أم شَـوْذَب تقف أمام الحانوت تنتظر قدومي.. كان الوقت مبكراً.. للمرة الثانية أراها تأتي إلى الحانوت منذ عملت فيه.. لمحتني.. تقدمت نحوها.. لا زالت أبواب الحوانيت مغلقة.. وقفتُ أمامها.. حدثتني باقتضاب:

– هناك أمرٌ أريدُ الحديثَ به إليك!.

– أعتذرُ عن تأخُّري بالأمس.. شغلتني بعضُ أعمال الحانوت!.

– سننتظرك!.

انصرفت.. حين كنت أفتح الباب رن صوتها وهي تقول سننتظرك، ولم تقل سأنتظرك.. ماذا تقصد؟ هل تعني هي وشَـوْذَب؟ هل عرفت بما أحمله لشوذب من أحاسيس؟ طوال الوقت ظل تفكيري مشتتاً.. تتجاذبني نوازعُ متناقضة.. لن أذهب!!. ولِمَ لا أذهب؟. أنا أعرف ما تريد.. سأصارحُها بضيقي من تصرفاتها.. سَأحدثها.. لكن عَـمَّ سأحدثها؟.. سأحدثها بما أحمله لشَـوْذَب بين جوانحي.. هي أمها ويجب أن تعرف ذلك.. فيوماً سأتقدم لطلب الزواج منها.. نعم سأتقدم بطلب ذلك منها.. لماذا أخفي مشاعري؟ سأقول لها بأني أقدرها وأحترمها كأمي تماماً.. وأني

سأظل مساعداً لها.. نعم كابن تجاهَ أمه.. هي لن تمانع.. وستكون سعيدةً بذلك.. سأحدثها بأني سأظل وفياً للمعلم.. ذلك الإنسان الذي علّمني الوفاء.. فن رسم الأحرف.. النقش.. نعم سأحدثها.. ستكون حتماً سعيدةً لإعلان وفائي لذلك المعلم الرائع.. من علَّمنا أن نكون مغايرين.. نعم سأذهب إليها ولن أتردد.. فالمواجَهة خيرٌ من الهروب.

أخذ رئيس اللجنة الأمنية يلوح معرفته بمصدر الخساسة الذي يسرب التقارير من داخل الدار.. وأن على ذلك الواطئ أن يتحمل مسؤولية أفعاله.

لم تمر أيامٌ حتى حضر رئيس جهاز أمن الدولة لزيارة الدار والاجتماع بنا.. تحدث إلينا بمفردات لاتخلو من التهديد والوعيد.. وقال إنه لن يرحمَ بعدَ اليوم.. ولن يتسترَ على أحد.. ولوَّحَ بأن من يخون الأمانة.. عليه أن يتحمل نتائج ذلك.. كان كـل زميل ينظر إلى الآخر كمن يسقط عن نفسه تهمة.

قرأتُ بعد أيام ما نشرته إحدى الصحف الأهلية مقالاً بعنوان "من ينقذ مخطوطات اليمن من متنفذي الدولة" كان المقال تحت إمضاء (أبو سهيل..) أعقبه سلسلة مقالات في أعداد متلاحقة لتلك الصحيفة الأسبوعية.. عناوين بعضها "المخطوطات اليمنية النادرة في مهب الريح".. وآخر "مقتنيات دار المخطوطات نسخ مقلدة".. كما قرأت مقالاً لاحقاً حول الصراع بين أعضاء اللجان.. وعن شخصية متنفذة تتحكم بتلك اللجان.. ووعد القراء بفضح المزيد في مقالات تالية.

لِـذَّةُ اللــِّـه

عينها تبتسم بصفاء غريب.. مدَّت يدَها.. صافحتها.. أمسكت بكفي.. شذى عطر.. تبدو أصغر من سنها.. أو أنها من النساء اللواتي تتماهى أعمارهن.. هصرت أصابعي.. الخجل يسحقني.. جلست حيثُ أجلس وسط أدوات العمل.. أعمدة الورق.. تخت النسخ.. دَواة المداد إلى يميني.. جراب اليراع.. أفكر بما سأقوله لها.. أستجمعُ شجاعتي.. أفكاري.. كلماتي.. أستحضر المعلم.. عادت تحمل وعاء القهوة والخبز تحجل حولي.. تبتسم في طلاوة مثيرة.. استجمعت حواسي.. تفوهت مستهلاً حديثي بسؤال عن صحة شـَـوْذَب.. ولماذا لا تحضر لمشاركتنا؟. قالت: دعك من شـَـوْذَب وما يشغلها!!. صدمتني كلماتها.. لم تدع لي مجالاً واصلت هي: ماذا تريد من شـَـوْذَب؟. أريدك أن تسمعني اليوم فحسب.. أنت لا تعرف عنا شيئاً!. قد تقول بأنك عرفتنا منذ سنين.. صعصعة.. ماذا تعرف عنه؟!ماذا تعرف عني.. أو حتى عن شـَـوْذَب التي أراك منشغلاً بها؟.

عرفت من صوتها العالي وهي تحدثني أن لا أحد سوانا.. أو أنها

جُنت.. لم تترك لي مساحة للرد.. واصلت كلامها: "ماذا تعرف عني؟. صحيح أنت تعمل معنا منذ كنت صغيراً.. وأنا أقدر إخلاصك. كم تقدر سنوات عمري؟. أتعرف أن صعصعة تزوج قبلي عدة نساء.. تزوج الأولى وطلقها بعد حين.. ثم الثانية.. فالثالثة.. ثم.. الرابعة والخامسة.. وهكذا.. ستتساءل لَم ادعوك إلى بيتي؟ ولماذا أتحدث إليك عن كل ذلك؟. وما يهمك أن تسمع.. لكن أنا من يهمها أن تعرف أنت.. بي رغبة أن أحكي لك.. قد أشعر براحة بعد ذلك.. أو أن يكون غير ذلك.. وأعرف بأن بداخلك تساؤلات.. أَوْ هكذا أظن، أسمعني إذاً.. دعني أضع الأسئلة وأجيب عليها.. لماذا طلق صعصعة كُـلّ نسائه واستبقاني؟! يهمني أن تعرف أنت.. تزوج بي.. ولم أكن قد تجاوزت الثانية عشرة.. ولم أكن أعرف من الحياة إلا أني زوجة مثل كل النساء.. أوصتني أمي بطاعته.. عرفتني كيف يجب أن أتصرف كي أكسب رضاه.. قالت لي: "كلٌ ما هو لذيذ يا بنيتي أوله مؤلم فلا تخافي!".

كان عطوفاً معي كان.. كريماً.. صبوراً.. تعلمت على يديه أن أقرأ وأكتب.. تعلمت رسم الحرف وصناعة الكتاب.. كان خبيراً بفن المتعة.. عرفتُ على يديه كيف أكون أنثى.. لأكتشف أنني أسيرة ما علمني إياه.. وأن المعرفة شقاء.. كان عليَّ أن أنجب له وأن أثبت فحولته وإلا فمصيري

قبل أن نبدأ بأعمالنا.. وقفت أتأمل ذلك المكتب حيث تقبع ظلمة اللثـه.. راقبت الجميع وهم يأخذون مواقعهم.. فتحت الدرج ليطمئن قلبي لوجودها.. انشغلت في أعمال الحصر.. وأنا أتحين فرصة انهماكهم حتى أعود لمخطوطتي.. وبالفعل وجدت فرصة استراحة شرب الشاي... فتحت الدرج .. انزويت جانبا.. واصلتُ قراءتي.

كسابقاتي.. لا أدري كيف تجاوزت طفولتي.. حين اهتديت إلى أن تكونَ لي طفلة.. وكانت شـَوْذَب.. الجميع يعلم بأنه لم يكن مخلصاً لزوجاته السابقات.. ولا لي.. وأنه كان كثيرَ العلاقات بالنسوان.. أنا على يقين من أنك تكذبني الآن!!. لكن يمكنك أن تسأل أمك!. نعم يائيل، هي تعرف مثلَ تلك الخيانات..!!. أتعرف لماذا كان صعصعة يخون زوجاته.. بل ويتفاخر بذلك؟. كان بذلك يدافع عن رجولته بتلك العلاقات لا أكثر.. عيون الناس وغمزهم كان يذبحه كما يُذبح الطير.. يهمه أن يتحدث الناس عن علاقاته.. خياناته تلك تعيد له الثقة أمامهم.. وبأن عدم الإنجاب إنما يعود لزوجاته العواقر.. وبوجود شـَوْذَب أسكتت الأفواه التي تطعن فيه.. احتفى بي كأم لشهور.. كنت أعتقد أنه سيكف عن خياناته.. لم أدرك بأن الخيانة أمست في دمه ولا يرى نفسه إلا فيها.

أتعذب حين أسمع همس النساء يعددن أسماءَ غوانيه.. أصمتُ أمامهن ذليلة.. مع تقدمه في العمر أخذت قدراته تتناقص.. وصل به الحال إلى هجْر ليالي وكذا فراشي.. لأعيش معه عذابَ ما علمني إياه حتى اللحظة.!

قد تتساءل.. لماذا أحدثك بهذا؟. وقد تنظر إلى ملاطفتي لك على أنها خيانة له.. وأقول لك لا تنظر إليَّ هكذا!!.

صمتت وعينها تدمع.. لم يكن لبكائها صوتٌ.. نهضتُ مرتبكاً.. انسحبت بهدوء إلى درجات الدار.. خرجت هارباً.. مذهولاً مما سمعت ومن حرقة بكائها.. أسأل نفسي: ما عليَّ فعله؟

كان المعلم يصطحبني إلى داره.. أَوْ يرسلني لإنجاز بعض الأعمال هناك.. أجدها دَوماً مستكينة.. تتحرك دون أن تثير الاهتمام.. قليلاً ما كنت أسمع صوتها.. لم أرَها ترفع صوتها يوماً.. و لم أرَها تأتي إلى السوق.. شَـوْذَب مَـن كان صوتها يجذب الأسماع.. حضورها القوي.. تُلفت الانتباه.. شوذب من شغلتني.. ولا زلت أعتقدُها قدري.

أيُعقَـلُ أن يكون المعلم كما وصفته؟!. لم ألحظ يَـوْماً تردُّدَ النساء على حانوته.. و لم أسمعْ تفاخره.. أيعقل أنه كان يذهب إليهن ليلتقي بهن في بيوتهن؟.. أم أن ذلك قبل التحاقي بخدمته.. نصحتني أن أتيقن من أمي.. من أين لأمي بمثل تلك الأخبار؟. أم أنها تعني الدسيسة.. قد تكون أمي سمعت ما يقال عن المعلم مثلما يصطاد الناسُ أخبارَ بعضهم؟.. لِمَ لَمْ تحدثني أمي بذلك؟.

كان أمامي أن أتحرى ولا أحد غير شوذب.. حاولت ملاقاتها.. ترصدت لها في غير أيام الجمعة خارج دارهم.. لم أرَها تخرج.. لم أجرؤ على طرق الباب.. زادت حيرتي.. أفكر في ما يجري.. كانت أمي ترقب سَرَحاني.. صمتي.. تسألني: لم تعد كما كنت يا بني.. ألن تكلمني عما يشغلك؟. فكرت في أن أبوحَ لها.. أن أبعثها تهامس شَـوْذَب بشوقي.. أن أسألها حول ما حدثتني به زوجة المعلم.. لكني فضلت التريُّـث.. وحتى لا تكتشف ما أنا فيه عالق.

كعادتي ذهبت صباحَ الجُمُعة.. طوالَ الطريق أتمنى أن أرى شَـوْذَب.. أن تمنحني وقتاً للحديث.. أن أستمع إليها.. كنت متألماً لصدى كلمات

أمها.. دلالها.. نواحها.. دموعها تلك.

كانت ربة العين العاشقة في ذلك اليوم تنتظرني خلف باب الدار.. أو أنني ظننت ذلك.. قشعريرة سرت في جسدي قبل أن تظهر حاسرة الملابس عن ذراعيها.. ترددت بالدخول.. أصابعي تتعرقُ في كفها.. هديرُ دمي يصم مسامعي.. وقفنا متقابلين.. تنظر إلى عيني كالمسحورة.. ذكرتني تلك النظرات بيوم شَـوْذَب في محراب المسجد.. ارتعش وجهي من فكرة أن تقبلني.. خلصت يدي من بين يديها.. خطوت صاعداً وهي تلاحقني.. أسأل نفسي إلى أين الهروب.. في حُجرة الدور الثاني جلستُ في مكاني أمام أكوام الورق.. كانت تلهث كما لو كنا نلعب.. قالت بصوت طروب: لقد قطعت أنفاسي. كانت بيننا أكوام الورق.. صمتت كمن يعاتب نفسَه.. هي المرة الأولى التي أتأمل ملامحها.. تبدو امرأة غريبة.. بشرة وجهها أكثر نضارة.. تلوك شفتيها.. تصطدم نظرتها بعيني.. برق يعبر مجاريَ دمي.. عينها الغائرة بدت أقل قبحاً.. أحاول تفادي نظرتها.. تجتاز أفق الصمت بثبات وتحدثني بتودد منكسر:

- أعرفُ عُمق محبتك لصعصعة.. لكن الحقيقة لا تموت لمجرد عدم معرفتنا بها.. قال لي يوماً "ليس منا من هو ملاك أَوْ شيطان مطلق". تعلمت منه كما علّمك الكثير.

ثمانِ عشرةَ سنةً وأنا أنسخ.. أنتهي من كتاب لأبدأ بآخر.. لماذا علمني صعصعة القراءة والكتابة؟. وأنا وأنت نعلم أن أكثر أصحاب الحوانيت يستلمون ما يصلهم من كتب ليوزعوها على النُساخ لينسخوها.. وعلى

الحابكين ليحبكوها ويُجَلـّـدوها.. وهكذا بقية الأعمال.

يجوز أن صعصعة كان يحافظ على أسرار تلك الكتب.. وأنه كان مخلصا لمذهبه ليدفع ثمن ذلك حياته.. لكن ما يهمني هي حياتي.

وأنا أعيش لأكثر من ثمانيَ عشرةَ سنةً أسيرة هذه الجُدران.. دوامة النسخ لا تتوقف.. أعيش ما لا تعيشه النساء من شقاء المعرفة.. أغبطهن على نعيم الجهل.. بل أنه أوغل في تعليمي مزاجه و لم يكتفِ بذلك بل زاد أن علمني مُتعة الفراش.. لم أكن لأتذمر فيما مضى حيثُ كان يقسِّـمُ لياليَـه بين غوانيه وبيني.. لكنها شيخوخته من جعلتني مهجورةً من رجل عاجز.. بعد أن جعلني عجينة من لذة.

من ذلك اليوم البعيد.. يأتيني صوت أمي أسمعه الآن كالحلم.. قبلتني في جبهتي وهي تحتضنني تُريني ما أحضره لي عريسي.. صُرة بها ملابس وطرح وخرز وكحل.. كنتُ مسرورة أن يكون كل ذلك لي.. ابتسمتُ لابتسامتها.. فَرِحتُ لسعادتها.. انشغلت أمي بي على غير عادتها.. غسلتني.. ظلت تطلي وجهي وسيقاني بمعجون الكركم الممزوج بسمن دافئ.. دهنت جسمي.. هي المرة الأولى التي ألبس سروالاً وحذاءً وطرْحَة وثوباً.. تستضيف نساءَ وبناتَ الجيران للجلوس معي.. ينشدْنَ.. يغنين.. يرقـُـصْنَ.. يضعن أربطة الحناء على كفَيَّ وقدمَيَّ.. لم أكن أفكر بأني سأترك بيتنا وأمي وإخوتي.

"اصْحي يا عروسة".. سمعتُ صوت أمي يأتي كالحلم.. قبَّـلتني وهي تحتضنني ذات صباح.. أزالت أربطة الحناء من يدي وقدمي.. غسلت

جسدي.. دهنت جسمي بالسمن.. دعكت حولَ شرخي.. وشوشتني "حين تكونين مع عريسك.. اتركيه يخلَعْ سروالَك.. يلامسْ جسمك.. يقبِّـلك.. احتضنيه واتركي أصابعَه تدعك جسمك حتى شرخك.. أنتِ (حتامية) لا تخافيه.. وهذه قماشة امسحي نزفك واحتفظي بها". امتلأ بيتنا بزغاريد النساء... ألبستني ثوباً أسودَ.. الصبايا والنساء يتحلقن حولي.. ضفرت شعري .. كحلتني.. نقشت وجهي.

أركبوني حماراً أبيضَ.. أمي تسير جوار الحمار ممسكةً بفخذي.. نساء يتقدمن بمباخرهن وبأواني الشذاب والرياحين على رؤوسهن.. امرأة مُسنـَّـةٌ تحمل صندوقي على رأسها.. أقراني ينظرون إليَّ من أطراف الشارع.. أبي مُـمْتَطٍ حمارَه يسير خلفي.. جيران وضيوف راجلون.. بكيتُ لشعوري بأني أفارق شارعي.. أرى صديقاتي من خلف الطرحة بعيدات ينظرن إلي.. موكب صغير شق أزقة بعض أحياء صَـنْـعَـاء.. بعض النساء يطللن من نوافذ الدور يحملقن.. يزغردن.. ينثرن الملحَ فوق رؤوسنا.. وبعضهن يرششن الماء في السماء.. استقبلتنا مجموعة من النساء بالمباخر وأواني البيض.. ينثرن حبوبَ الطعام على رأسي.. همست أمي الممسكة بساقي: وصلنا دارَك ياعروس.. لا أعرف مَن كسرت عدة بيضات على عتبات الدار.. صعدت بي الدرج المعتم – هذا الدرج الذي تعرفه– زغاريد تصم الآذان.. دخان المباخر، روائح النساء المتزاحمات حولي.. رجل طويل يشبه أبي بوجهه الطويل ولحيته يُخرِجُ جنبيته.. يقترب مني.. يلوح بها فوق رأسي بشكل دائري.. اقترب أكثر.. تدفعني أمي نحوَه،

يمسك بذراعي، تتركه يقودني.. أخطو بجواره إلى هذه الحجرة.. يُدخلني ذلك الباب.. أجلسني على مرتبة عالية.

حل المساء.. توقف كل شيء.. خرج كل من كان حولي.. تبقت أمي لتودعني.. دخل الرجل الذي هو صعصعة.. أمي تغالب دموعَها هامسةً بصوت باكٍ "ابنتي أمانة في رقبتك"، تشبثت بساقيها وأنا أبكي.. احتضنتني.. وشوشت في أذني "ابنتي حتامية لا تبكي أبداً.. سأعود إليك صباحاً"، تخلصت هي من أصابعي.. رفعت صوتها "هذا عريسك من أحضر لك الهدايا.. اجلسي إلى جواره".

يمكنك أن تتخيلَ ياجوذر.. صغيرة بين ساقي رجل كبير.. قبل أن أراه تخيلته بعُمر أحد أقراني.. لا أعرفُ لماذا أطفأ السراج.. أنفاسُه تقترب مني.. رائحتُه.. أصابعُه تلامس وجهي.. التصق بي.. ذراعُـه تحتضنني.. انتظرت.. صدى صوت أمي.. "ابنتي حتامية لا تخاف".. أن تهبطَ أصابعَه.. وصمتُ مرتعشة.. أغمضت عيني أنتظر انزلاقَ أصابعه إلى الأسفل.. لامس صدري.. سُرَّتي.. بين فخذَي.. أزالَ سروالي.. رَجْـفةٌ اجتاحت جسمي حين جَـسَّـت إصبعُـه فخذي.. حملني فوقه.. أحسستُ بإصبع أخرى أكبرَ ترجرجني.. ثم عاد وبسطني.. نهض فوقي.. صوت أمي يتردد.. "ما تخافيه". أخذ يمرغُ ذيله فيَّ.. وخزٌ مؤلم.. لم أستطع السيطرة على رَجفة أخرى اجتاحت جسدي.. تحررت صرخةٌ من حنجرتي.. أخذ يسحبُ جسمه.. صوتُ أمي يرتفع "ابنتي حتامية" تحاملت على آلامي.. مددت يدي.. تشبثت به دامعة وأنا أتوسل

إليه: "إدحله.. إدحله.. دالت أمي أنا حتامية!" عاد يمرغه كَثيراً.. يضغَطَ لينزلقَ وَتد يمزِّقُ أنفاسي.. صرخت وقد التوى لساني لألم يجتاح روحي: احلجه.. احلجه.. حلجت لوحي. لم يكنْ وتداً بل رمحاً مزق أحشائي.. وأقسى منه لحظات إخراجه.. ليَسيلَ سائلٌ حارٌّ.. عرفتُ أنه دمي الذي حدثتني أمي عنه.. أحسستُ به ينزعُ حياتي.. أُغمي عليَّ بعدَها.

سألتُه يـَوْماً عمن دَلـَّـهُ كي يختارَني زوجةً.. قال إن مداوياً نصحه بأن يتزوج من فتاة لها أم ولاّدة.. وكانت أمي من أشهر ولادات حَيـِّـنا.. إذ لا يمر العام والنصف إلا وتأتي بجنين.. اثنا عشر ولداً وبنتاً قضوا إلا أنا وبنت تصغرني.. وولد لم يرق لعزرائيل سلب روحه.

* * *

من الليلة الثانية.. ينقشُ على جسدي صوراً يلونها.. وحروفاً بطعم العسل.. هذه الحجرة وتلك الغرف.. والسلالم.. وحجرات الطوابق الثلاثة.. نتحرك بداخلها دون ملابس.. يتحرك أمامي بهيكله عارياً.. عوَّدني ألا أخجل من عُريي أمامَه.. تفتح جسدي يـَوْماً بعد يوم له ولأفعاله.. علمني كلاماً فاحشاً لا أقوله إلا على الفراش.. وعند إحساسي باللذة.. علمني كيف أغمغم وأنوح.. أصرُخُ وأعض.. أخربش وأنخر.. أشتمه وأهتز بعُنف.. كان يأتي بماء رائحته الورد وزيوت من السوق.. ندهن جسدَينا.. نستحم معاً.. يجلب لنا شراباً من شارع اليهود.. نأكل ونشرب حتى النشوة.. لم يكن لنا موضعٌ نمارس فيه اللذة أوْ وقتٌ بعينه.. فتارة في المطهار.. وأخرى في الدهليز الأسفل.. ومرة

على درجات السلم.. ورابعة في السطح ليلاً.. لم يبقَ في الدار مكانٌ إلا وتلاحقنا فيه.. ولا وقتٌ إلا وتداخلنا فيه.. نعيش طوالَ الليل عرايا.. علمني أخذَ المبادرة.. وكيف أقتحمه.... كنت أعتقدُ أن كـُـلّ الأزواج مثل صعصعة.. وأن كل النساء مثلي.. لكن كثيرا ممن كنت أحدثهن عن طرائق سعادتي.. لا يتوانين عن وصمي بالفجور.

أخذت أخبارُ خياناته تصلني.. جاهدت للحفاظ عليه.. كانت طريقي غير مأمونة.. لم أترك حيلة.. حتى جئت له بشـَـوْذَب.. بدأت حياتي بالسكون.. زاد زوارُ دارنا.. زادت أعمال النسخ.. العناية بالطفلة.. اختفت تفاصيلُ لذيذة من حياتنا.. زاد تغيُّـــبه عن الدار.. أمي تقول لي "الرجل لا يعيبُه إلا الفقر أوالمرض.. وللمرأة حسنها وسُمعتها.. حافظي يا بُنَيتي على بعلك".

لم تدُمْ لي أمي طويلاً.. أخذها مولودُها الأخير.. تزوج أبي بأخرى.. رحل مع أولاده إلى منطقة بعيدة لا أعرفها.. ومن يومها أعيش في دوامة النسخ.. لتتخلق بداخلي أسئلة وتجافيني الأجوبة.

توقف حديثُ ذات العين الوالهة.. نظرت إليَّ.. ارتمت بحـِـجْـري نائحةً.. تركتُ أدواتَ النسخ.. دمعت عيناي.. لا أحب تلك النهايات الدامعة.. ولست في لهفة للبحث عما يبكيني.. لقد فقدت المعلم.. وها هي تفجعني بمعرفة ما لا أحب اكتشافه.

هبطتُ درجات الدار تحوطني بذراعيها.. أسأل نفسي: سأخبرها في المرة القادمة أن تتوقفَ عن إصرار الطمس الذي تمارسه على جُدران عقلي؟ لا أريدها أن تسير على نهج المعلم حين يقحم النفس في مجاهل مبهمة! وكأنها بصنيعها تؤكد أن لكل فرد أسلوبه في تقديم ذاته.. وأنها حين تطمس المعلم تكون قد أدت ما عليها في تقديم ذاتها.. وأن ذاكرتي أمامها مجرد جدار تمارس عليه نزعاتها.. أو لوح أسود شبيه بذلك الذي بدأتُ فيه تعلم خطوطي المتوازية. هل نحن مجرد نقوش على هذه الحياة.. يلونها القدَرُ كيفما يُريد؟ ليطمسنا ويعيدنا نقشاً آخر.. كما يريد!.غرقت في أسئلتي ونسيت كل شيء.

* * *

اشتقتُ إلـى المعلم الذي عرفت لا الذي تصوره لي ذات العين الثالثة.. سرت أحمله كما عرفته في ذاكرتي.. أبحثُ عنه في الأماكن التي كنا معاً فيها.. تخيلته يقف مصلياً داخل مسجده. سرت إليه.. أريد أن يسمعني.. دخلت المسجد.. جلست بين الجموع.. أستمع لخُطبة الجُمعة.. أتلفت عَلـيّ أراه.. وقف الجميع صفوفاً طويلة.. أبحث بين الوجوه.. لا أحد.. خرجت وأنا احفظه بداخلي.. مضيت أسير باتجاه أمي.. رغبت أن أتحدث إليها.. أن تسمعَني.. تساعدَني.

وجدتها تُكملُ تطريزَ ذلك الثوب الذي بدأت به منذ أسابيعَ.. هكذا مُذ وعيت لا أراها إلا تطرّزُ.. أَوْ وسط كومة من النساء تزين إحداهن.. تداوي أخرى. حين رأتني توقفت أصابعُها.. نظرت إلى عيني مبتسمة:

اشتقت لصوتك يا صديقي.. لكلامك.. من أخذك مني؟. نظرت إلى وجهها صامتاً.. وقد جفت الكلمات بين شفتي.. عادت بعينيها لمتابعة إبرة تغوص في ثنايا قماش أسود.. تسحب خيطاً ناصعَ البياض.. تراقص الإبرة بين أصابعها.. تبدو أمي هي الأخرى كائناً آخر غيرَ الذي عرفته.. كنت أعتقد أن من حولي لا يتغيرون.. أمي.. شَـوْذَب.. المعلم.. زوجته.. حتى أنا لم أَعُـدْ أنا!.

قررتُ أن أواجهَ تسلطها علي.. أن أكون واضحا معها.. كنت متحمساً.. قبيلَ بزوغ الشمس.. كنت أمام دار المعلم.. سأتحدث بدون خوف.

فُتح لي الباب.. لم أرفع نظري لكن رائحتها.. يدها الممدودة أربكت كلماتي.. لم أنظر إلى عينها.. ظلت يدها ممدودة لأصافحها.. أمسكت بذراعي.. سحبتني للداخل.. خطوت.. مضت بي على الدرج. أخذت مكاني أمامَ أدوات النسخ.. انشغلتُ بما بين يدي.. عقلي كان ينتظر معجزة إطلالة شوذب.. سافر تفكيري فيها.. الصمتُ أعادني إلى ما حولي من ورق وكتب.. كانت أم ثلاث عيون تتفرس حالتي.. لمحت شعرَها يغطي نصفَ وجهها.. دونَ طرحةٍ.. رقبتها عارية.. أطرافها.. تنتظر أن أتأملها.. هكذا أوحت نظرتها إليَّ.. بادرتها:

- شَـوْذَب.. أين تذهب؟.

- دعك من شَـوْذَب!.

– منذُ حين وأنا أريد أن أتحدث إليك.

وضعت سَبَّـابتَها على شفتَيها، وكأنها تقول إن كنت ستتحدث عن شوذب فاصمت .. ضاغطةً على شفتيها وهي تبتسم.. كانت نظرة عينها الوحيدة تُذيبُ مشاعري.. كمَن تتوسل.. قلت لها بصوت هادئ

– لكني أريدُك أن تسمعيني.

– أنا أسمعُـك.

صَمَتُّ قليلاً أستجمع أفكاري.. فكرت أن أسألها.. سأتحدث عن مشاعري .. اخترتُ أن أبدأ حديثي عنها هي.. نظرتُ إليها:

– أنا سعيدٌ باهتمامك بي.. وأقدرك وأشعُـرُ بمعاناتك لفقدان المعلم.. وأتمنى أن تكوني لي أماً ثانية و....

لم تتركني أكمل.. عرفتُ بأني اخترت بداية خاطئة حين نهضت منفعلة:

– يبدو أنك لم تدرك بأنك لم تعد صغيراً حتى تبحثَ عن أم أخرى.. ثم إني لم أخلق لأكـون أُمّاً لأحـد.. فلا تكن عديمَ الإحساس.. ولا أحب أن تذكرني بتلك الليالي التي كنت أهدهد فيها شـوْذَب إرضاءً لأبوة مزيفة. كانت تحدثني وهي تسير في الحجرة دون أن تنزل عينها من وجهي.. واصلت هيجانها: وبعدها كنت أستعد لصعصة بالتطيب والتزين.. لينشغل صعصعة عني طوالَ الليل بعيداً عني.. وحين يعود أتمدد

جوارَه.. أريد أن يمارس ما علمني.. ينظرُ إلى عُريي.. يُمعنُ في ابتسامته وهو يتأملني.. يأخذ أحَدَ الأغطية ليستر جسمي.. تستعرُ النارُ لبرودة أعصابه.. أوْ أنه نسي ما أرضعني سنينَ.. كنت أعد نفسي بسؤاله "لمن علمتني كُـلّ تلك الفنون؟". لكنني لم أجرؤ يوما أن أسأله.. أبكي بصمت.. يطفئ ذبالة السراج.. يحتضنني في الظلام دون أن يخلعَ قميصه.. أنام بين أحضانه عطشى.. مع الليالي هجرت التعري.. التطيب.. تناسيت كُـلَّ تلك الكلمات الفاسقة.. ثم هجرت غرفتَه إلى غرفة أخرى.. هي تلك غرفتي حتى اليوم.. أهملت التزين.. لتمسي ليالي متعة لذكريات كأنها لم تكن.. وتلك التفاصيل الحميمة كما لو كانت رؤيا منام.

سنوات كنت أراك فيها صبياً جميلاً تتردد على الدار.. لم أفكر في أحد.. لكن اهتمامك بشَـوْذَب.. خوفك عليها.. ملاحقتها.. ملاحظتي لصعصعة وهو يراقب تلك المشاعر التي كنت أدرك بحدس الأنثى أنه يرعاها.. بل إنه كان يدفعكما إليها.. مرة يكلفكما سوياً بنسخ كتاب من عدة نسخ.. وأخرى يرسلكما مَـعاً إلى المساجد.. كُـلُّ ذلك حرك بداخلي أحاسيسَ مبعثرة.

أنا لا أريد تشويهَ صورة صعصعة بداخلك.. لكن المرء هو أفعاله.. هو ذلك الأسلوبُ الذي يتبعُه في الحياة.. ولذلك حين قلت لك إنك لا تعرفنا فأنا أعني ما أقول.. في هذا اليوم لم تبكِ.. توقفت عن الحكي وهي تفرد ذراعيها.. لا أعرف هل أقف وأفرد ذراعي.. أم أظل على مقعدي.

رَسُـــوْل

خلالَ الأشهر الأولى لدخوله صنعاء كان الإمام الشريف يعتمد في تصريف أمور إمامته على مشايخ المدينة.. وكانوا قد اكتسبوا قدراً كبيراً من خبرة تعاملِهم مع الإمام الملثم.. ليحولوا المدينة إلى مشيخات صغيرة.. أضحى كُـلُّ شيخ هو الآمرَ الناهي في مشيخته.. و لم يعُد للشريف من سُلطان سوى الجانب الاسمي.. بل وتمادَوا حتى أمسى ألعوبة بين أيديهم.. و لم يعد يتجاوز نفوذه محيط القلعة. وصار لكل حي حدوده.. وأصبحت دعواتُ الإمامة تظهر هنا وهناك.. وأضحت صنعاء تحاصرها الخلافات.

تدارسَ مشايخُ صنعاء أمرَ المدينة.. وسُبُلَ إعادة الأمان إلى طرقها.. فكان أن اتفقوا على خلع الإمام الشريف، وتنصيب واحد من بينهم سلطاناً على المدينة كخطوة أولى.. ثم يقومون كخطوات تالية لضم المشيخات المجاورة لصَـنْـعَـاء حتى تُؤمن الطرق إليها.

أشرقت شمسُ أحد الأيام على منادٍ ينادي بأن السلطان أبي حاشد هو سلطان صنعاء بأسرها.. وقد تم اختِياره من بين مشايخ المدينة وتم

خلع الإمام الشريف الذي خرج هارباً من المدينة يستنصر قبائل الجوف لاسترداد إمامته على صَنْعَاءَ.. لم يهتم السكان لتلك الأخبار.. وظل وضعُ المدينة كما هو، بل إن كُلَّ شيخ أعلن نفسه سلطاناً على حيه.. وتجزأت المدينة إلى سبعِ مشيخات.

* * *

خلال تلك الأشهور تردد عليَّ ذلك الرَسُوْلُ القادم من جبال حراز.. وكانت زوجة المعلم قد وجدت الكتب التي يطالب بها.

تزايد الطلبُ على نسخ بعض الكتب المذهبية.. استعاد سوقُ الوراقين بعضَ نشاطه.. لم أكن أعلم أن هناك عيوناً ترصُدُ نشاطي.. وتتابع تردُّدَ رَسُوْل الحرازي على سوق الوراقين.. أخذت أخبارٌ تنتشر بنشاط دُعاة الحرازي سراً في صنعاء.. وأن تلك الدعوة تختلف عن مثيلاتها من دعوات الأئمة.. وأنه يبث مناصريه في كُلّ بلاد جزيرة اليمن.. لم يكن الأمر جديداً عليَّ.. فتلك الكتب التي جمعها المعلم في مخبئه.. وذلك الرّسُوْل الذي يأتي بالمزيد لننسخ منها كانت تنير طريقاً مختلفاً.. وأجزم بأن المعلم كان أحد دُعاة الداعي الحرازي.

وصلتُ دار المعلم.. عاودني التردُّد في طرق الباب.. لكني تشجعت وطرقته.. رفعت ناظري حين سمعت صوتاً يأتي من الأعلى.. كان وجه شَوْذَب من نافذة بالدور الثالث.. بعد بُرهة فُتح الباب.. اقترب وجهُها المدور وعيناها الصغيرتان.. تخفي فماً صغيراً بطرَف كفها.. تسمرت

أمامها صامتاً.. لم ترفع ناظريها عن الأرض.. تمالكت نفسي وأخذت أرتب قلقي:

- أتيتُ لرؤيتك؟.

- أمي ليست في الدار!.

تشظت جَذوةُ الحديث.. كان إحساسُ لص يتحرك بداخلي.. لص يستغل غيابَ الحارس ليمد كلماته إلى ثمار بستانٍ داني القطوف.. مددت يدي.. لم ترفع ناظريها و لم تغلق البابَ.. أمسكتُ بكفها.. كانت تحركها كعصفور يحاول فك أسره..

- أرجو أن تسمعيني.. لقد أتلفتني بحثاً عنك.. لا أعرف كيف ألتقيك.. أنا في محنة غيابك أتخبط كالذبيح.

خطت خارج باب الدار.. تراجعت لها قليلاً.. وقفنا على طرقة حجرية موصلة بين باب السور الطيني وباب الدار.. أغصان شجيرة متسلقة.. وعيدان شجرتَي البرقوق والرمان دون ورق كان الفصل شتاء.. بادرتها:

منذ حين وأنا أود الجلوسَ إليك.. أن أسألك.. حين عجزت.. فكرت بمفاتحة أمك حول شعوري نحوك.. أعرفُ مقدارَ ألمك لمفارقة أبيك.. لكني أجهل عذابات أيام اختطافك.. أريد أن أسمعك.. هل تحكين لي لأشاركك فيما أنت فيه؟ ما يسعدك ياشوذب يسعدني وما يحزنك يحزنني.. هل تثقين بي؟. هل تشعرين بأني صادق معك.. اعلمي بأني أحلم ليل نهار بك.. أتعلمين بأني لم أخبر أمي حتى اليوم بتلك المشاعر.

أتعجب من غيابك حين مجيئي إلى الدار.. أُريدُك أن تبوحي بما يؤلمك.. أريد أن تسمعيني أتحدث إليك.. يُحيرني صمتُك وتهرُّبُك مني.. فهل تسمعين؟.

صَـمَـتُّ ناظراً إلى ملامح وجهها الذي لم يتغير.. قطرات الدمع التي انسلت على خديها دون أن تنطق.. انتظرتُ كلماتها.. لكنها اكتفت بالدموع.. واصلت كلماتي وأنا أتأرجح بين التماسُك والانهيار: يجب أن تتحدثي إليٍّ.. أن تبوحي بآلامك.. نحن شركاء في كـُـلّ ما يؤلمك.. هيا حدثيني.. تراجعت خلف الباب تنتحب وهي تصرخ:

- أنا في مشكلة لا تقوى عليها!.

رفعت صوتي كي تسمعني:

- حدثيني بها.

- لا أستطيع .. اتركني الآن.

- إذاً عديني بأن نلتقي.

- لا أستطيع.. لا أستطيع أن أعدَك!.

لحقت بها إلى الداخل، احتضنتها وهي تبكي:

- سأنتظرك أمامَ صرحة الجامع الكبير.. سأكونُ هُناك قبيل صلاة الجمعة.. ولن أتحرك من مكاني حتى تأتي.

عاودتها نوبة الدموع.. ابتعدت عني قليلاً.. صمتُ حزيناً.. أحاول أن أتخيل أيَّ جرح عذَّبها.. وأحالها إلى نقيض ما كانت.

هل نحن نتغير؟ هل كُـلُ فردٍ غيره بالأمس؟ هل نعيش وهْمَ أننا أنفسنا دون إدراك أننا كيان متحولٌ.. وأن الشكل يحتوي كياناً يتغير ويتغرب حتى على نفسه.. تخلقه الأحزان والآلام.. ويتخلق بالفرح.. لغته الدمعة والابتسامة؟

امتزجت مشاعري بين الأسى والأمل.. ودعتُها بقُبلة على جبينها:

– نحن مَـعاً لن أخذلك.. وسترين.. سأنتظرك غداً، أرجوك لا تتأخرن عليَّ. سَعُدت حين نظرت إليٍّ وهي تهز رأسها بالموافقة.. خُـيِّـلَ إليَّ أني رأيت طيف ابتسامة بين الدموع وهي تغلق باب الدار.

حلّت السكينة على روحي بعدما انتزعت منها موعداً.. أفكر بلُقياها غداً.. سأستمعُ إليها.. ستكون شريكتي في كُـلّ شيء.. في الحياة.. في كنز الكتب المخبوءة في صناديق الغرفة الخلفية.. سنكتشف محتوياتها معـاً.

سرت ذهاباً وإيابا أمام سور الدار بانتظار عودة أمها.. لم يعُد يهمني شيءٌ .. حتى تصرفات أمها سأتحملها.. تقرُّبَها مني.. حركاتها المغرية سأقاومها. كلماتها.. حكاياتها. ظهرت أمامي فجأةً.. كنتُ غارقاً مع نفسي.. تحمل على رأسها قـرْعَةً كبيرةً.. أرخت خمارَها مبتسمة.. تخفي عينها بطرف طرحتها التي تشدها بأسنانها.. فتحت فمَها، دلت

طرَفَ طرحتها تغطي عينها الغائرة:

- تنتظرُ قدومي أليس كذلك؟.

هززت رأسي مبتسماً.. تتابع حديثها بصوت هامس: ألم تقرع الباب؟. عرفت ما ترمي إليه. بادرتها:

- بلا.. وقالت لي شوذب بأنك خارجَ الدار وستعودين.

- ما أتى بك اليوم؟.

- جئتُ أحمل كُتب الصُليحي.. أن أحدثَك في أمر يشغلني.

- لا مجال اليوم للحديث.. سأنتظرك صباحَ غد الجُمُعة.. فلدي ما أحكيه لك أيضاً!.

- لن أستمع إليك قبل أن تستمعي إليّ!.

- وأنا لن أستمع إليك إلا بعد أن تدركَ أنك لست بحاجة إلى أم ثانية.

- أوافقك.. لستُ بحاجة إلى أُم ثانية.. لكن دعينا ندخل الدار و....

- كيف لا تصبرُ عليَّ إلى الغد وقد صبرت عليك شهوراً طوال؟

لاحظتُ بأن كُـلاً منا بدأ يعرفُ الآخر.. أدركتُ بأني قد تغيرت.. و لم يعد يهمني شيء.

حملتني ما جئت من أجله.. وعدتها بمجيئي غداً بعد أن أودع رسُـــوْل الحرازي.. "سينتظرك قلبي فلديه ما يبوح به"، قالت ذلك وهي تغمز بعينها الوحيدة قبل أن تغلق باب الدار.

قضيت بقية يومي هائما في أطراف صنعاء.. حيث تناثرت مواقدُ الطين الشبيهة بالقلاع الضخمة.. يتصاعد دخان أبيض كثيف حيث تشوى قوالب الطينِ وصخور الجير.. أسير وسط حقول يابسة لشتاء شديد البرودة.. أشجار الأثـــل تتجمع هنا وهناك.. أفرع السفرجل والمشمش والرمان جرداء.. عروق عرايش الكروم جافة.. أرى قرية المنظر وسط سهل منبسط تبرز مآذنُ مساجدها الملونة.. أصعد سفوح الجبل الشرقي.. أجمع عيدان حطب يابس.. صَـنْـعَـاءُ من تلك المرتفعات تبدو هرمة.. سهلها في الطرف الغربي.. مجرى السيل يجري غديره صاف في أشهر الشتاء.. لم أكن أعرف أن رُوحي تدفعني لرؤية المزيد من النور.. أجمع عيدان الحطب كي أغتسل على جمرها.. أمي تسعد إن عدت إليها بتلك العِـصِـي لنحرقها ونضعها في موقد المطهار.. هي تعمل ذلك في الأعياد.. وفي معالجة النساء.

لم تكن أمي موجودة حين دخلت بيتنا.. أشعلت تلك العيدان.. انتشر الدفء في المطهار.. دخلت وسط دخان كثيف.. خلعتُ ما عليَّ، جلست حتى تفصد جسدي عرقاً.. أسكب على عربي.. أغني.. أرفع صوتي:

"إذا صدحت فوق الغصون حمامةٌ فعن كُـلّ ما أخفيه باللحن تعرب
وقد مر دهرٌ كم حلا لي قربهم ولا اشتكي هجراً ولا أتعتب

فما الأنس إلا بالتداني لأنه كمدح جمال العصر للناس يعذب"

بعد برهة سمعت صوتَ أمي وقد عادت: يسعدك يا صديقي.. ويسعد صوتاً يشيع الفرح في روحي. خرجت من المطهار.. رأيت وجهها الذي أخذت تلك البُقَعُ الفاقعة الحمرة تتسع حول عينيها.. لتصل إلى أطراف فمها الذي يبتسم ليزيد قلبي خجلاً:

– لا بد أن لصوت غناك حكاية.

– كيف ؟.

– ألم تدرك كيف كنت في أيامنا الماضية؟ هل تتذكرآخر مرة سكنت الابتسامة ملامحَك؟!.

– لا أعرف.. لكنني اليوم سعيد.

– سعيد أَوْ تعيس، كـُـلُّ إحساس وراءَه حكاية.

– لا أعرف من أين أبدأ.

– لا يهم.. اليوم أشعر أن ابني عاد إليَّ.. تكلم من أينما أردت..

– أتعذب كثيراً.. ولذلك علي بأن أحكي لك.

– أنا أسمعك.. احك لي.

– دعيني أجمع أطراف حكاياتي، فلدي ما أود حكيه.. وأن أختار من أين أبدأ، فلدي ما أقوله!.

قاطعتني بمَرَح:

– ظننتك ستحكي لي حكاية جعلتك تُغني.. كان حدسي خاطئاً.. حين أوحى إليَّ بأنك ستحدثني عن قلبك.. دعني أسألك.. أتعرف من هي شَــوْذَب؟.

– أمرُكم غريب.. زوجة المعلم تسألني إن كنت أعرفهم فرداً فرداً.. ثم تحكي لي ما يدلل على عدم معرفتي بهم.. وأنت اليوم تسألينني إن كنت أعرف شَــوْذَب!!.

– لا ضير، سأستمع إليك حين تريد أن تحكي لي ما تريد.. وعندها سأبادلك الحكايات.

– بحقي عليك أن تحدثيني الآن عمن هي شَــوْذَب!.

– ألم تقل لي بأن زوجة صعصعة قد حكت لك.

– لم تكمل حكاياتها.. ركزت في ما حكت لي على ظروف زواجها من المعلم.

– لماذا هي تحكي لك؟.

– تريد أن تثبتَ لي مثلك بأن معرفتي ناقصة.

– فقط.. أم أن في الأمر غايةً أخرى؟.

نهضت لتستقبل إحدى المترددات.. انزويت مفضّلاً الصمت حتى

لقائي بشوذب غداً.. قد تنير كلماتها بعض الجوانب.

* * *

خرجت من بيتنا مبكراً.. إحساسي باختلاف هذا اليوم في حياتي.. ويستحق أن أزن فيه كلماتي.. أن أُسمعها كلاماً يتحدث به قلبي.. عبرتُ أزقة أعتدتُ عبورها.. وصرحات أحفظ أركانها.. لم يفتر تفكيري في استحضار وجهها. فتحت الحانوت.. وضعت كتبَ الحرازي جانباً.. التقطت كتابَ الألوان.. فتحته.. أتأمل صفحاته، زادتني ألوانها بهجة.. كنت بَعِيْداً عمن حولي.. لا أسمع ضجيجَ أزقة الأسواق.. شَـوْذَب تملأ حواسي..

الوقت يمر بليداً.. وأنا أستعجله.. أن يمر سريعا حتى أسير إلى موعدي بها، اقترب الضحى.. قلبي يزداد نبضاً.. أتمنى حضور رسول الحرازي حتى أنصرف.. رأيت ذلك الرّسُــوْل قادماً.. وقف أمام دكة الحانوت.

ابتسمت له.. وقلت ممازحاً:

– ألا تلقي السلام أيها الرسول. ثم أعقبت وأنا أحمل إليه الكتب: ها هي الكتب التي جئت من أجلها.

التقط الخباء.. أدخل يده.. أخرج إحداها، قلب صفحاتها.. كنت قلقاً من تصرفه.. وهو من حذرني السرية.. أغلق أجنحة الأول، أخرج كتاباً آخراً.. يقلب صفحاته في صمت.. أنظر ملامح وجهه حركة أصابعه.. تقدم ذلك الجارُ الذي يثقل عليّ دوماً بكلامه.. التقط هو الآخر

كتاباً يقلبه.. ثم ثالث ورابع وخامس.. شممت رائحة مؤامرة.. مددت يديَّ حاولت جمع الكتب من بين أيديهم.. فاجئني ذلك الجار يصرخ لمن حوله مشيراً عليَّ:

– هذا هو ابن اليهودية، إنه مثل معلمه صعصعة الباطني عدو اللـــه.. يروج حانوته لكتب الشرك والزندقة.. انظروا هذا حانوت مليء بكتب فقهاء الباطنية.

سريعاً ما تجمع المارة.. وصبيان الوراقين.. قدم مجموعة من العسكر.. التفت إليهم رَسُـــوْلُ الحرازي.. وقال بصوت لا يخلو من صرامة:

– ماذا تنتظرون.. هيا احملوه؟.

احتوتني الدهشة من كلماته.. قلت مستجيراً:

– إلى أين يا صاحبي يحملونني؟!.

– لتتشرف بالمثول بين يدي مولانا السلطان.

نزلت كلماته عليَّ كالصاعقة.. صعد ثلاثتهم الدكة.. وآخرون وقفوا أسفلها.. كنت أقاوم دخولهم.. أنظر إلى عينَي ذلك الرَّسُـــوْل.. لم يلتفت إليَّ.. ظل يأمرهم بتفتيش أرفف الحانوت.. كنت قلقاً من أن يكتشفوا ذلك السر القابع خلف الجدار. لم يتركوني.. سحبوني بعنف أمام من تجمعوا من جيران الحوانيت.. نظرات ذلك الجار الجَلِف يتابع ابتعادي.. تذكرت موعدي مع شَـوْذَب.. دمعت عيناي.. انفتح فمي قهراً ببكاء صارخ.. حاولت التملص، جثوت أرضاً، أوثقوا معصمي.. سحبوني بحبالهم،

عبروا بي الأزقة حتى أطراف الأسواق.. بدأت تتفرع منها شوارع إلى أزقة أخرى.. صُفوف لدُور متشابهة.. صرح الجامع الكبير.. يقف الناس ليتفرجوا وآخرون يتساءلوا.. يرجمونني ويبصقون ويلعنون لمجرد أن العسكر يقودونني.. أتفحص أطراف الصرحة علي أرى شوذب.. أتكون في طريقها حسب الموعد؟.. أرى باعة يفترشون الزوايا البعيدة.. عبروا بي سوق البقر.. كلابٌ تعوي فارة.. تخاف عسكر السلطان.

أرتجف أملاً أن يكون في الأمر خدعة.. تارة يسوقونني وأخرى يسحبونني، أحدهم يتقدم الجميع ممسكاً بالحبل.. والآخران يتبعانني بهراوتيهما.. أفكر كيف أكون في حضرة السلطان مغلولاً.. هل سيتركني أعود؟

اقتربنا من الأزقة المفضية إلى لساحة الأمامية للقلعة.. عبروا بي سحباً.. صَفَّـا عسكر بحرابهم الطويلة أمام البوابة.. صاح من يقتادني أن يفسحوا الطريق.. ثُلة من الخيالة تخرج من البوابة.. حَمَلة البيارق والمظلات الملونة يتبعونها قال بأنه موكب السلطان الذاهب إلى الجامع الكبير.. فإلى أين يقتادوني كان السلطان مشغولاً بصلاته في الجامع الكبير.. دخلوا بي خلف قلاع البوابة.. رأيت مساحة واسعة، يقف مبنى مرتفع متداخل مع عدة مباني سوداء.. كانت تلك هي قلعة القصر الكبير.. في الأطراف عدة دور حجرية.. قادوني في طريق ملتوٍ خلف القلعة.. الآن تيقنت أنها ليست خدعة.. وأني سأركع ذليلاً لبتر رأسي.. ارتعشت أطرافي وأنا أسمع صوت المعلم يأتيني من الماضي "اهرب ياجَـوْذَر بسرعة.. انج بحياتك"،

لم يكمل جملته حتى تناولوه بسياطهم دون رحمة.. ثم يسحبونه خلف خيولهم إلى المجهول يتشبث بأظافره والخيول تسحبه.

حدثت نفسي.. قد يكونون صادقين فالسلطان لن يظل بالجامع.. سيعود إلى قلعته بعد الصلاة.. قد يحملوني إليه لن أجروَ على القول له إنني وشَـوْذَب على موعد.. سأسترحمُه وأستعطفه بأمي الوحيدة أن يتركني.. سأخبره بأنها تنتظرني حتى أعود.. وحينها سأذهب لأبحث عن شوذب سأطرح لها سبب تأخري وما جرى.

العسكري الذي يسحبني يربط رأسَه بشال أسود تطير أطرافه كلما اهتز مسرعاً...

بدأت أشعر برهبة لنظرات العسكر وأحدهم يُخرج سوطا لم أره من قبل.. يحثني على النهوض.. ساروا بي خلف القلعة.. صفوف الخيول أمام الجدران.. وأخرى تشرئب بأعناقها في الجهة المقابلة.. لا أحد يهتم لعويلي.. اقتربوا بي من شفّة جرف يطل على وادٍ غائر.. تأكد لي بأنهم سيقذفون بي من شاهق.. كانت الرياح تهب قوية.. والجبال البعيدة تتماهَى تحت غلالة زرقاء.. التفوا بي بمحاذاة الجدران الحجرية للدور.. دخلوا بي باباً حجرياً دون ظُلف.. عبرنا ممراً طويلاً.. رائحة عفن خانقة.. اختفى الضوء.. أنزلوني عبر درجات لا أراها.. صَمت مخيف إلا من صوت أنفاسنا تختلط بارتطام أقدامنا.. ظلام حالك.. عقلي يعمل في عدة اتجاهات.. يضع أسئلة دون أجوبة.

سألتهم مفزوعاً:

– إلى أين تمضون بي؟.

– إلى جهنمَ. قالها أحدهم لاكزاً أضلعي بهراوته. سرت قشعريرةٌ في جسدي.. الآن يقف عقلي أمام أسئلة دون أجوبة.

– لكنكم قلتم بأنني سأقابلُ السلطان.

– ستقابله.

– أين؟..

– نحن ماضون بك إليه.

– هو يصلي في الجامع الكبير؟.

– سيعود!.

كانوا يسحبون قدمي سحباً.. تعرف أقدامهم أين تهبط.. شعرت بميل الأرضِ نحو الأسفل.. أخيراً توقفوا.. أحدهم بدد الظلمة بإشعال نار كان يِمسك بطرف شعلة.. سرداب بارد، جُدران صماء.. يزداد الصمتُ قسوة.. توقفوا بي قليلاً أمام باب وسط تجويف صخري.. أخذ أحدهم يسحب مصراع من الحجر.... صرير أوتاده وقعقعة سلاسل جعلتني أتبول على نفسي.. فُتح الباب.. هوة مظلمة.. صراخ يصم الآذان.. أطفأ شعلته.. في بادئ الأمر اعتقدتُ أن الأصوات تأتي من خلفنا.. لكنني اكتشفت مصدرها حين قَذفوا بي في فضاء تلك الهاوية المظلمة.. ارتطمت بظلام صلب.. ثم صمت كـُـلّ شيء.

ظلمة الله

عفـــن

يا ترى ما هو الوقت؟ هل عرفت شوذب إني لم أخدعها؟ أمي تنتظر أن أعود لأحكي لها ما كنت قد بدأته.. وأن أسمع المزيد من حكاياتها.. هل تعرف ما أعيشه وشوذب من مشاعر؟.

أين أنا؟. كـُـلُّ ما حولي ظلام أسود لم أرَ مثيله.. هَمَهَمَات.. كلماتٌ متفرقة.. حاولت فتح عيني على اتساعهما.. علّي أميز شيئاً.. تتردد كلمات العسكري في مسمعي حين سألته.. إلى أين تذهبون بي؟ "إلى جهنم"!!.

إن كان صادقاً فجهنم ضياء ودفء.. وهذه ظلمة وصقيع.. أم إني في الطريق إليها...؟

أشعر بآلام شديدة في كـُـلّ جسمي.. قد أكون في البرزخ.. أنفي يستقبل روائح تؤلم رأسي.. هل أنا في ظلمة القبر.. وما تلك الأصوات والروائح إلا لجثامين الأموات؟!. إذا أنا ميت.. لكنهم لم يقتلوني.

فضاء بارد الظلمة.. عفن.. أشياء تتلمس جسدي المبلل مصدرة طقطقة.. تزحف فوقي.. قد تكون زواحف تحت الأرض.. أو أنها ثعابين قرع التي حدثنا عنها فقهاء المساجد.. أم أنني في كابوس وسيزول؟

لساني بطعم الدم.. رأسي ينزف لزوجة.. كل ما التصق بجسمي رائحة خمجة.. قد تكون عيناي فقدتا قدرتهما.. أَوْ أن ما أنا فيه ظلمة اللحـــه.. حاولت النهوض.. جسدي شظايا متكسرة.. تخللته رعشة باردة أفقدتني الوعي.. غُصتُ من جديد في خدر سخونة جسمي.

أتمنى معرفة كم مكثت في تلك الغيبوبة.. لم أعبر ظلام البرزخ البارد بعد.. أرفع ذراعي.. أتلمس ما حولي.. تصطدم أصابعي بأطراف لدنة.. تعاود أطرافي رعشة الحمى.. أغرق في خدر غيبوبة من جديد.. أصحو على أذرع تحتضنني.. أنفاس تقترب من وجهي.. تمسك بأشيائي.. تعبث بكل شيء.. لا أقوى الدفاع عن نفسي.. أو أني في كابوس.

تيقنت أني قد رحلت عن الحياة.. وأني في مجنة الموتى.. وكل ما أشعر به هو الموت.

تبقت بين يدي عدة أوراق بعد قراءة هذه الورقة.. كنت قلقاً من إكمال قراءة مابين يدي دون الوصول إلى بقية أوراق الحكاية .. وكان علي أن أبحث عنها.. وأن أفكر في حيلة لإقناع ذلك الزميل.

خلال أيام أكملنا حصر محتويات صناديق تلك الحجرة.. لنجد أن محتوى بعض الصناديق نسخ مصورة وليست الأصلية.. يـوْماً بعد يوم نكتشف أن بعض الصناديق فارغة.. وأن كشوفات جرد السنوات الماضية لا تطابق ماهو في الواقع.

كان الأمر غريباً.. ورئيس اللجنة الأمنية يمارس على الجميع أساليب التهديد والترهيب.. والجميع يوقع على كشوفات الحصر والمطابقة مقابل إتاوات ومبالغ لا يعرف أحد مصدرها.

لا أعرف كم مضى عليَّ هنا.. يبدو أن وقتَ المقابر دون ملامح.. يا ترى ما هو الوقت الآن؟.. ماذا ستقول عني شَـوْذَب...؟.أمي .. ذات العين العاشقة.. أم أنهم قد عرفوا ما جرى لي.. وهن الآن يندبن موتي!

العسكر دوماً لا يوفون بوعودهم.. يكذبون بأنهم سيقودونني إلى حضرة السلطان.. هل كان سيأمرهم بتركي أذهب لأعيش بعد أن يوبخني بكلمات سلطانية لا ينطقها إلا الملوك.. كلمات هي خاصة به.. الآن مات الأمل بموتي، وإلا كيف يقابل الميتون سلاطينهم؟. آه.. كنت على يقين من أنه لو سمع حالتي ووحدة أمي.. سيأمرهم بطردي من أمامه .

هل لا زالت شمس صَـنْـعَـاء تشرق وتغيب أم أن الظلمة غطت كل شيء؟. وأمي هل ستُظهر قلقها عندما تزورها زوجة المعلم سائلةً عني.. ستودع شَـوْذَب مبتسمةً ولن تبكي إلا وحيدة كعادتها حين تحاور ربها.. وزوجة المعلم هل ستلعنني وتعتقد بأني هربت من شيطناتها؟. شَـوْذَب، آه لو تعرف بحالتي حتى تعذرني!.

لو لم يقدني العسكر.. ماذا كنت سأحدث شَـوْذَب؟. من المعيب أن أجلس جوارها بلسان عار.. لكنه برد الشتاء كان سيدفعني لاحتضانها خلسة ونحن نسيرفي أزقة مقفرة.. سأنتظر ابتسامة عينَيها.. صوتها يتدفق.. ماذا كنت سأقول لها؟. دائماً ما تقول لي أمي بأن لي ابتسامة آسرة.. تكرر لي "إن مفتاح حب الآخرين لك ابتسامتك.. فلا تبخل بها".. وقالت لي بأن الكلمة الحلوة غذاء الروح.. لكنها لم تقل لي أنني أمتلك الكلمات الحلوة. هل تكفي مشاعري ورغبتي لتوليد ما يجذب

شَـوْذَب إليَّ؟.. هل ستُغيِّرُ من طبيعتها الصامتة والمتجهمة.. فدَوماً ما تتركني في حيرة.. تنظر إليَّ دامعةً.. حزينةً، حين أحدثها لا ترد عليَّ.

أتخيلها وقد جلست في موعدنا.. تستمع لحديثي كعادتها دون اكتراث.. ستنظر إلى وجهي وأنا أتكلم.. لكنها لن تتكلم.. تثيرُني بذلك الأسلوب الحزين واللا مبالي.. هل كانت ستبتسم في لقائنا؟.. عيناها حين ترفعهما إلى وجهي تشعلان في أوردتي حرائق.. ثم تنشغل بالنظر إلى ما بين يدَيها.. وحين تكون شاغرةً تتلاعَـبُ بأصابعها وكأنها في عراك مع شيء بداخلها.. كفها بين يدَيَّ، عصفورة دافئة.

* * *

أذكر تلك المرة حين اصطحبني المعلم إلى داره، أنا وأمي ضيفين عليه.. تحلَّـقنا حول الطعام كأننا في يوم عيد.. أرمق شَـوْذَب.. وترمقني أمها.. بصمت غامض.. هي لا تشبه أمها في شيء.. قال المعلم وهو ينظر إليَّ: اليوم أستطيع أن أعتبر جَـوْذَر بحق مساعدي.. وقد جمعتكم لتكونوا شهوداً على ذلك.. هذا هو يُـكمل سنته الثالثة معي وقد استوعب الكثير.. أنا فخورٌ بهذا الصبي الذي لا غنى لي عن مساعدته بعد اليوم. ثم وجه كلماته مبتسما إلى أمي: أتذكر ذلك اليوم الذي جئتِ به إليَّ.. حينها قبلته لخاطرك وأنا أقول الله يعينني على تربية هذا الصبي.. قبلته من أجل المعروف الذي بيننا. يا ترى ما كان يقصد المعلم بذلك المعروف؟!. والآن أتذكر كلام زوجته حين حكت لي حكاياتها مع المعلم وقالت "يمكنك أن تسأل أمك".

في ذلك اليوم كنتُ منتشياً بكلام المعلم.. وتعرفت أكثرَ على شَـوْذَب بعد أن كنت أراها تأتي إلى الحانوت.. في الدار ظهرت كالفراشة تحتضنها أمها تارة وأخرى أمي وثالثة المعلم.. وفي كـُـلّ حركاتها كانت عيناي تتابعانها وهي تنظر مبتسمة إليَّ في الدلال.. جلسنا مَـعاً بعد تناول الغداء.. تمنيت لو كانت لي أخت في مثل عمرها.. حين ودعناهم مدت لي بوعاء مليء بالكعك.. لم أنسَ طعمَه.. لم أتكلم يومها.. و لم يطلب مني أحدٌ أن أتحدث.. لكن كان بداخلي الكثير. لقد جعلني المعلم أتخيَّل نفسي معلماً كبيراً.. منحني صوراً من الأحلام.. رأيت نفسي معلماً في سوق كـُـلّ من حولي صغار سن.. كنت أعلمهم حروفاً جميلة.. وزخارفَ ملوَّنةً.. ورسوماً متعددة.. والناس تبدي اندهاشها لجمال ما أصنع.

حين كنا على دراجات الدار تبعنا المعلم وزوجته لتوديعنا.. احتضنني مقبلاً وجنتي.. مداعباً يدي بين كفيه.. مادّاً بثلاث قطع فضية.. سمعت صوتَ رنينها بين يدي الصغيرتين.. قائلاً "تفضل يا جَـوْذَر جائزتك".. لا أعلم لماذا لم أرد عليه.. رغم تلك المشاعر التي ولدتها كلماته.. أن تحتضن أصابعي شيئاً من مال يخصني.. أُمُّ شَـوْذَب ناولت أمي كيساً من الطعام حملته فوق رأسها.

طيلة الطريق تحدثني أمي عن اعتزازها بي.. وعن تلك الفرحة التي زرعها المعلم بكلماته في قلبها.. حين وصلنا أغلقت البابَ.. طوقتني بذراعيها بقوة.. تنظر إلى عينَي.. تتمتم بشفتيها الباسمتين.. ألصقتني بصدرها تقبلني ورائحتها تعصفُ بروحي.. حين تصنع ذلك تمتلئ نفسي أماناً.

تنتقي كلماتها.. تلك الكلمات التي تختلفُ عن غيرها.. لا تحدثني إلاَّ لتوجه إليَّ النصائح.. كيف أتحدث.. كيف أنظر بعيني في من حولي.. أثر كـُـلّ كلمة أوْ فعل على المستمع.. قالت :ألا ترى أنك تحصد نتائجَ ما تمارسه من خلق وأفعال.. أنا فخورة بك.. فهذا معلمُــك الذي ذهبت بك إليه بالأمس كالمتسولة ليعلمك.. يستضيفك اليوم في داره.. ويعبر عن تقديره لك.. أرجوك زد من السير على وصايا الرب.. بُني، اعلم أن الرب يبارك كـُـلّ فعل يقترن بالخُلق.. الرب يبادلك بأفعالك الطيبة مزيداً من جمال محياك ومزيدا من المال.. نـَـمِّ من حُسنك ومالك بأفعال وأقوال حتى تُرضيه.

* * *

أعادتني رَعشة الحُمى إلى الظلمة.. شيء ما يسحبني حتى استويت على مؤخرتي.. أتمنى اكتشاف ما أنا فيه.. أتحسس مواطن الألم في جسدي.. تجلط الدم وتيبسه على وجهي.. لا أعرف كيف مزقت أسناني لساني.. أنفي متورم.. برودة الصخر من تحتي تزيد رعشة الحمى وتزيدني تبولاً.. أتلمس ما حولي.. أمعن النظر عَلَــي ألمح شيئاً يحدد أبعادَ ذلك القبر.. ظلام أسود أسود.. تُرى كيف يراني رب أمي في ظلمته؟.

آلامٌ تتخللني.. أحاول أن أغير من جلستي.. أن أتمدد، أبحث عما أستند إليه.. حاولت لم أستطع.. شيء ما يسحبني من جديد.. تصاحبه أناتٌ وكلماتٌ غيرُ مترابطة.. أسمع هذياناً متواصلاً.. استندتُ على جدار بارد.. تجرأت على آلامي.. تحسست ما يحيط بي.. أصابع.. ذراع

آدمية تلتفُّ حولي.. كُوع.. كتف.. عُنق.. تضاريس الوجه كتلة شعر.. هبطت بأصابعي.. صدر عارٍ.. مليء بالشعر.. قد يكون كما ولدته أمه عارياً وناحلاً.. أو أنها عظامٍ واهية.. فكرت أن أهبط بيدي لأكتشف.. تراجعت خجلاً.. قد يفهم حركة أصابعي خطأ.

إن كنت في مجنة الميتين سأجد المعلم حتما هنا.. وقد أجد بشاري.. سأطلب منها أن يُكملا لي حكايات أمي.. وسأحدثهما بما لدي.

بعد أن اكتشفت اهتزاز حلقي.. عرفت أن ما كنت أسمعه من هذيان متواصل ما هو إلا صوتي.. ما كنت أسمعه من همهمات، وكلمات متقطعة ما هي إلاَّ كلماتي وأنيني.

الجوع يقتص من بطني.. ألم يَعِظوننا في صَـنْـعَـاء أن الأموات لا يجوعون.. لا يعطشون.. لا يتألمون.. أم أن حياة البرزخ تختلفُ.. تبولت على نفسي مراراً.. هذه المرة شعرت بدفء جريانه على أفخاذي.. ليتحول إلى صقيع مؤلم.. بعد بُرهة سمعت مايشبه العراك.. أصوات صارخة.. صرير.. أوْ هكذا خُيّل لي.. لأجد بين يدَي كتلة لزجة لها رائحة الطعام.. رَخوةٌ دافئة.. تذوقتها بأصابعي.. لم أترك منها شيئاً.. ابتلعها متخيِّلاً لونَها.. وماهيتَها؟!

أنفاس تتزاحم قُرب وجهي.. مددت كفي.. أذرع.. شعر كثيف.. ابتعدت قليلا.. تبعتني أصابع تتلمس صدري تبحث عن شيء.. تهبط. تداعب عضوي.. مؤخرتي حاولت دفعه بعيداً.. لم أقوى.. غيَّرت وضعي.. دَوَّتْ صرخات فوق رأسي.. ضربات متلاحقة على جسدي

المكسر.. لا أدري من أين تأتيني.. سكنت حتى هدأت الضربات.. أسأل نفسي.. هل وقعت بالخطأ في برزخ قوم لوط.. مددت أصابعي أكتشف ما حولي.. الأذرع نفسها.. الشعر.. كنت أتخيل ملامحهم .. لونهم فلا أستطيع.

تضخم لساني حتى سقف حلقي.. تلمست وجهي.. كان متورما.. عدت بأصابعي لأكتشف ما حولي من جديد.. ارتفعت صرخات حادة.. لطم على وجهي.. احتضنتني غيبوبة طويلة.. لم أستطع النطق بعدها.. استسلمت لسيلان دافئ من على رأسي.. أظنه دماً أو بولاً.. تشبثت بأول من اصطدمت به يداي.. استمر انسكاب ذلك السائل الدافئ على رأسي حتى فمي.. كان طعمه مالحاً وقد اختلط بدم لساني.. أحدهم كان يتبوَّل عليَّ!. ثم وضع على رأسي طيناً عفناً.. حاولت أن أتكلم.. يخرج صوتي دون أحرف.. أشعر بأني سأموت! سألت نفسي.. هل بعد الموت موت؟ كيف أموت مرتين.. أو كيف أخرج ما أنا فيه من عذاب خمنت أن من حولي مجانين.. عادت الأسئلة التلازمية لكل تفكير أفكر به.. هل يظل المجنون بعد الموت مجنوناً؟. لم أسمع من فقهاء صَـنْـعَـاء عن ذلك!. لا يتكلم، فقط يضربني بعنف؟!.

أين مَا كان يعبُدُه المعلم مما أنا فيه؟!. أين رَبُّ أمي لينقذني أحدهم ؟. أم أن كل شيء هواء!. كان يقول لي المعلم "إن اللـَّـه في كـُـلِّ مكان.. إذاً أين هو من المكان حتى يكون فيه؟!.

عدت أبكي.. أتلمس رأسي أحاول تخفيف آلامه.. أرى فلقاً بأناملي

في أعلى الجهة اليمنى من وجهي.. تخيلت أن يكون حجم الفلق عميقاً.. أخاف من أن يكون ذلك الطين الذي على جسمي ليس طيناً.. تلمست شعر رأسي ووجهي.. تلمست أنفي الذي كان يتضخم بألمه.. لساني الذي يملأ تجويف فمي.. حاولت النُطق.. أن لا أسمع من حولي.. أن أدعوهم إلى محادثتي.. أن يقول لي أحد أين أنا.. لم أستطع.. ذعرت من فكرة أن أفقد النطق.. لكن ما يفيد النطق لميت.. لا يوجد أسلوب للتفاهم وسط ظلمة صماء سوى الصوت وأنا فاقده.. بعد أن جف النظر.. تبقى لي اللمس.. لم أكن أتصور القبر بهذا السوء.. تمنيتُ لو يتحدث أحد الميتين إليَّ.. فقط أسمع أصوات بعيدة لا أعرف كيف يكون البعد هنا ولا هي أين؟ أسأل نفسي.. من هم أصحاب الأصوات الآتية من بعيد.؟ أم أن ما أسمعه مجرد وَهم!. وما أنا فيه وهم.

* * *

أغمضت عينَيَّ هروباً من جحيمي.. أبحث عن نور بداخلي.. نور يواسي غربتي.... أحاول نسيانَ جسدي وعذاباته.. أن أرحل بخيالي إلى نور الحياة الماضية.. إلى صَـنْـعَـاء حلقت بعيداً.. بعيداً.. أخذت تلك الروائح والأصوات تخفت أصوات ظلمة اللـّـه.. خرجت روحي تسبح خارج تلك المجنة.. رأيت ذكريات الأمس يوم كانت شـَـوْذَب صبية صغيرة.. وكنت في بداية خدمتي لأبوها.. تلقي عليَّ الأوامر حين تأتي إلى الدكان.. أَوْ عندما يكلفني المعلم بشيء إلى داره.. حينها كانت تتآمر عليّ!.. أنفذ ما تقوله بسعادة.. يفرحني التفكير بأن تكون لي صديقه ولو متسلطة.

في دار المعلم.. جلَستُ في زاوية الحجرة، وجلست هي أمامي وبيننا أعمدة من الورق.. كان ذلك ثاني يوم من عملنا المشترك، وكان علينا قَصَها بمقاس واحد.. حين أكملنا القص.. تمنيت لو أنها تدعوني لنلعب قليلاً.. سأقبل بأية لعبة تقترحها عليَّ.. لا تنظر إلى عينَيَّ.. أبحث عن عمل آخر.. أتوقع أن تقول: كفى لنأخذ بعضَ الراحة. أخفي كلمات أود قولها.. مثل "هل تقبلينني أخاً لك"، كان ذلك الهاجس يسيطر عليَّ طوال الوقت.. أتخيلها كذلك.. أحاول أن أعاملها كذلك.. دائماً كنت ألاحظ عنجهيتها.. بعد ذلك عرفت أنها تخرج لتلعب مع ابن جيرانهم في أحد البساتين.. لم أرَ ذلك الصبي.. كنت أود رؤيته.. و لم أعرف أن ما اعتراني من شعور اهي الغيرة.

– أين تذهبين؟.

ترد على الفور وكأنها تريد التخلص من شيء ما:

– وما شأنــك!.

كانت كلماتها قد شرخت وعاءَ أسئلتي.. لَماذا أنا هكذا.. تتحرق مشاعري.. ما شأني؟!.

لم يكن دار ذلك الصبي بعيداً.. رأيته.. لفت نظري بقصره اللافت.. ذا ملامحَ باسمة.. نظر إليّ بشكل عادي.. لا يوجد ما يميزُه.. ما الذي يشُدُّها إلى مصاحبته؟ لا شيء!.

ظلت ملامحُ ذلك الصبي تسكنني.. لساني تود الهذيان لشـَوْذَب

ويلجمُني تخيل ردها.. أقلب الكلمات.. فلا أجروُ على الحديث.. حين يرسلني المعلم إلى الدار أقضي وقتاً باحثاً عن ذلك الصبي.. أدور حول دارهم المكون من أربعة أدوار.. بابه يطل على فسحة واسعة.. يليها بسُتان واسع.. وجدت نفسي أبحث عما يقربني منه.. كان في مثل سني.. اخترت عند ذهابي إلى دار المعلم أَوْ عودتي منه الطريق المارة من أمام دار (قعطاب).. هذا هو اسمه.. قليلاً ما أراه.. في أول لقاء به.. عائداً من دار المعلم وسط تهاطُل مطر خفيف .. رأيته تحتَ عقد باب دارهم .. ألقيت التحية.. انطلق صوته:

– جَـوْذَر.. تعال حتى يتوقف المطر.

شعورٌ بالسعادة أن يعرفَ اسمي.. أن يدعوني إلى عتبة بابهم اتقاء المطر.. ترددت للحظات بين الغبطة وشيء من الكبرياء.. دارت في ذهني أشياءُ كثيرةٌ.. حزمت أمري.. هرولت خجلاً باتجاهه.

شكرته.. وقفت جواره نتأمل قطرات المطر تهبط مسرعةً.. ينظر كـلٌّ منا إلى الآخر.. صبيٌّ مرحٌ يقهقه دونما سبب.. عرفت أن ما يضحكه نظراتي الحذرة.. تكاثرت زخاتُ المطر.. تبللت سيقاننا.. لم نتحدث في شيء.. فتح بابَ الدار هربنا من البلل.. تعالى دويُ صوت العواصف.. سريعاً ما جاء صوتٌ من أعلى درج الدار:

– قعطاب، اصعد يا ولدي.

شعرت بالحرج.. نظر إليَّ وهو يصرخ مجيباً:

– معي جَـوْذَر.. صبي جارنا صعصعة.

– اصعدا بسُرعة.

تبعته متردداً.. خطواته مزهوة.. دخلنا غرفة في الدور الأول.. جوار النافذة المطلة تجلس امرأة تراقب الشارع.. غطت نصفها السفلي بدثار كبير.. ابتسمت لنا وهي ترحب بي.. أشارت إلينا أن نتدفأ بأغطية الزاوية.. جلسنا تحت غطاء واحد.. للحظات سمعت وقع أقدام وأصوات أطفال.. سرعان ما أطلوا علينا.. طفلان وشابة.. قال لي قعطاب بصوت هادئ:

– أختي وأخواي. ثم رفع صوته.

– لدينا ضيف يا عائشة.ثم وجه كلامه اليَّ:

– حدثتني شـَوْذَب عنك.

– ماذا قالت؟.

– لم تقل شيئاً، إلا أنك نشيط وأبوها يحبك.

– هل تقبلني صاحباً لك؟.

– نحن أصحاب.

أكمل كلماته.. ووجدت نفسي أقبل خده كالملهوف.. إحساس جديد لم تتذوقه روحي من ذِي قبل.. هدير من الكلمات يعتمل بداخلي.. كنت أود الحديث فحسب، قُلت له:

- شـَـوْذَب عرفتني باسمك!. طلبت منها أن نكون أصحاباً.. لكنها صمتت.. أنا سعيد يا قعطاب.. سأذهب لأخبر شـَـوْذَب بأننا أصحاب.

يوماً أتى لزيارتي في الحانوت.. عرفت أمي الطريق إلى بيتهم.. نجلس معاً.. أسترق من الوقت لنلعب معاً.. أعلمه ما تعلمته في الحانوت.. يريني ما يتعلمه في المسجد المجاور من رسم الحروف.. لا يمر وقتٌ إلا ونلتقي.. أتناولُ معه ما يأكلُه في بيتهم.. أمُّه تفرَحُ بقدومي.

لم يكن والده الذي يعمل بالتجارة في صَـنـْعَـاء موجوداً.. كان في رحلته إلى مكة بتجارته إلى موسم حج تلك السنة.. في ذلك الشهر اجتاحت صَـنـْعَـاء قبائلُ نهابة.. انتشر الخوف في المدينة عرفت فيما بعدُ أن صاحبي قعطاب قد قُتل.. وأن أمه وأخته اختُطفتا.. و لم يعثر على إخوته الصغار.

همس لي قعطاب في صُحبتنا التي لم تتجاوز أشهراً.. بسره " أنا أحب شـَـوْذَب". حدثني أن أمه قالت له ما زلتما صغيرين.. لكنه أسر لي بأنه أخبر والده قبل سفره وأنه وعده بخطبتها له.. أستمع إليه وبي سعادة الأخ الذي يَغار على أخته.. هكذا كنت أحب أن أقومَ بدوري.. أوبخه فيذعن.. وكأننا نتبادل أدوار الحياة عن طيب خاطر.. كُنت حريصاً على صحبته أتجاوز الكثير من هفواته.. أحمل له هدايا الخبز بالزبدة والفطير التي تجيد طبخها أمي.. قتلوه و لم أخبره مَن يكون أبي.. كان يحدثني عن أمه.. وأبيه وإخوته.. وكنت أنا أنتظر الوقتَ لأحكي له عن كـُـل شيء.

أتذكر يومَ فقدتُ قعطاب.. ظننت أني فقدتُ الحياة.. لم يعُد بي رغبة للطعام.. للخروج.. تتمتم أمي بصلواتها فوق رأسي.. تدمع عيناها. زارنا المعلم يضع يده فوق رأسي يهمس بما تيسر من القرآن.. أكثر من خمسةَ عشرَ يـَوْماً كنت أكابر في تعذيب نفسي حتى جاءت أمي:

– شـَوْذَب تريد رؤيتك!.

سمعت صوتها الحزين كالحلم.. وهي تردد شـَوْذَب.. التفت إليها لأبدد شكي.. قلت لها:

– شـَوْذَب؟.

– نعم هي.

لاحظت أمي حزن عينَي.. شيءٌ في أعماقي تحرك.. ترقرقت عيناي.. انفرجت شفتاي.. غطيت وجهي.. أبكي تحت أغطيتي.. بعد بُرهة انقشع غطاءُ وجهي.. سمعت صوتاً لم أحدد مصدرَه "ليس حلماً إنها هنا".

– اسمعني يا جَـوْذَر.. علينا أن ندعوا له بالرحمة.. لا يُجدي ما تصنعُ بنفسك. زادت دموعي غزارة.

كنت سعيداً أنها تركت بعض غرورها.. حاولت الرد عليها لم أجد الكلمات.. أود أن أتغلبَ على حالتي.. أن أتكلم بسعادتي لمجيئها.. سمعتها تقول:

– لقد فقدناه .. نتذكر بأن رُوحَ قعطاب ستسعَـدُ لسعادتنا.. وتعذب لتعاستنا.

ترى من عَـلـَّـمَ شـَـوْذَبَ تلك الكلماتِ التي أشعُـرُ بأنها تغوصُ في أعماقي.. ومن دفعها لزيارتي؟.

قال المعلم ملاطفا لي حين عدتُ للحانوت: كنت أعتقد بأني صديقك الوحيد!. لم أرد.. واصل حديثه: ابنتي شـَـوْذَب وأمها حزينتان على قعطاب.. لكن هل يعيد لنا الحزن والدموع من افتقدناهم.. علينا أن نتخيلهم بيننا.. أن نستحضر مشاعرهم تجاهنا.. علينا أن نعرف أن أرواحَهم بيننا وأنها تستكين لفرحنا. عند ئذ عرفتُ من أين استقت شـَـوْذَب تلك الكلمات المدهشة.. الكلمات التي أخرجتني من أحزاني.

نُــقْـرَة

مات الوقت وسط ظُـلْـمَة لا تشبه أي ظلمة.. لا أعرف كيف.. أَوْ أنني كنت واهماً بوجوده، أنا على يقين أنها ينبوع الظلمات أو أنها ظلمة الله.. أجثم بجراح جسمي وتكسر روحي.. لا أستطيع الحركة.. قاومت حاجتي للتغوط.. لكنني في النهاية تركته بعد معاناة لم أشتم رائحته.. لكني أشعر به بين ساقي.. أبكي في صمت.... لم أسمع في صَـنْـعَـاءَ أن الأموات يتغوطون.. أم إني نسيت.. يفزعني الصراخُ والعراك الذي أسمعه بين فينة وأخرى.. عراك يمتد كثيرا.. يتخلله صراخ مؤلم.. ثم يعقبه أنين متقطع.. من إلى جواري أتوقع ضرباته في كلِ وقت وبدون سبب. أتساءل: مَن يكون؟. أم أنه أحد ملائكة العذاب!. أَوْ أحد أموات المجنة.. مثله مثل من أسمع كلماتهم وعراكهم الذي لا يتوقف.

بين فينة وأخرى أُسحب من معصمي أحسست بلزوجة مخلفاتي.. لا أعرف لماذا يسحبني فوق صخور لدنة.. حين توقف عن سحبي سمعت صراخاً "هاهي النقرة أيها الـ...!". يركلني بعنف.. أسمع خريرَ ماء عن بعد.. ظننت أن أحدهم يتبول.. عاود رفيقي صراخه "أتسمع؟" ضغطت

بأصابعي على ذراعه علامة الإيجاب صرخ "هيا افعلها ". أقدامي تغوص في أوحال نتنة.. يجرجرني لا أدري إلى أين.. اضطجع فوق جسمي.. أقاومه.. يحاول.. تغلبتُ عليه هذه المرة.. انسحبت مبتعدا.. لحقني محاولاً التشبث بي.. أرفض تمكينه ما يريد.. يعاود لطمي.. تهدأ ضرباته رويداً رويدا.

ارتفع صريرٌ حادٌّ شبيهٌ بصرير سابق أعقبه جلبة وعراك.. لا أعرف ما يحصل.. حين يتكرر ذلك الصرير.. ينهض رفيقي ليجرني خلفه، يناولني كتلة لزجة يصرخ بي: هيا.. كلها.

عرفت أن جفنة العصيد تستقر وسط ظلمة اللــّـه.. حين يرتفع صرير حبالها.. يجهزون عليها بأكفهم وبقايا أوعية خشبية.

نبتت على جلدي دمامل.. أشعر برغبة في ملامستها وحكها.. تتقرح بسائل كريه الرائحة.. أستخدم أظافري لحرث جلدي وأحياناً أتحكك على سطح الجدران.. رفيقي يرفع صوته يشتمني.. يهوي عليَّ بالضرب.. أتكوّم صابراً.. ليعاود الصراخ.. فكرت أن ابتعد من تلك البقعة.. استغليت عدم وجود أحد بجواري.. أخذت في الزحف بآلامي بعيداً.. اصطدمت بجسم نتن، لامسته.. كانت بقايا جثة متحللة.. تجاوزتها فجأةً تلقيت صفعات وركلات أرجل لا أعرف لماذا ؟. زحفت مبتعدا بآلامي..

كنت أبحث على أجد ضالتي.. وأنا أقرأ ما تبقى.

ما إن أخطو خطوة حتى تنهال علي الضربات والركلات.. أخيراً عدت إلى بقعتي.. جوار صراخ ذلك المعتوه .. أتحمل ضربه ونزواته على ركل كل تلك الأرجل!

يعاود صراخه.. ألوذ بآلامي.. أفتح عيني، أنظر إلى الفراغ.. تتراءى لي أشباح سوداء. يرتفع صخب عراكها ثم يتلاشى.. أحدق مليّاً.. أرهف السمع.. أنين حزين من زاوية ما.

* * *

ترحل بي ذاكرتي بَعِيْداً عن ظلمة الله، إلى ضوء أمسي.. أرى أمي تجلس ناظرة إلى عينيَّ، تبتسم.. تقول لي:

– أتحب شَـوْذَب؟.

كان المعلم قد عاد بشَـوْذَب من حراز.. لم أكن قد فكرت من قبل بالإجابة على مثل ذلك السؤال.. صمتُّ أفكر، أدركت أن أمي محقة.. وأنها بسؤالها قد جعلتني أدرك أنني أحب شَـوْذَب.. لامس سؤالُها منطقة قلبي:

– أحبها!! هل ترين في ذلك من بأس؟.

– قد أحدثك يوما بما يجب أن تعرف.

– ولما لا تحدثيني التو؟.

– يسعدني ذلك.. لكني أخاف عليك من مشاعرك!.

تتحدث أمي وأنا أفكر بعاطفتي التي تسير بي.. ليكشف سؤالها مدى جهلي بتلك الطريق التي تحولت من أخت إلى حبيبة.. أَيُّ خيط فاصل بين العلاقتين.. مضت أكثر من عشر سنوات دون أن أدرك بأن مشاعري عبرت من الهامش إلى متن بعيد لم أكن أراه.. قلتُ لها بنزق:

– أترينني قاصراً؟.

– لم تعد قاصراً.. لكنك كنت تحلم بعلاقة مختلفة.

– ألا يجوز أن تتغير المشاعر؟.

– ألا تقلق من اضطراب مشاعرك.

أصابتني جُملتُها بغُصَّة.. لم أسمع مثلَ تلك النزعة من قبلُ.. شعرت لحظتها من أن بداخلها أفكاراً تود البوح بها.. لا أتخيل حياتي بدون أمي.. وأود أن تفهمني وتقدر مشاعري.. لقد بدأت أرى الأشياء على حقيقتها.. أن تنظر إلى مشاعري لتقول لي ماذا أصنع؟. هل تفهم أمي بما أعانيه؟. لم أكن أتخيل حياتي بعيداً عن صوتها.. أن تعترفَ باستقلاليتي.. أن أعيش حراً.. لا يُملي عليَّ أحدٌ ما يجب صنعَه. هكذا جلستُ أحدثُ نفسي متذمراً.. لم أكن أعرف بأنها تراقب حالتي حين همست:

– ألا تعرف بأنـّـا أردناك حُراً.. وأني أحافظ على عهدي على مَضَض.. أردناك أن تكتشفَ الحياة وتختارَ طريقك دونَ إملاءات.. أن تختلفَ عن كــلّ ما حولك.. كلهم يتشابهون إلا أنت لا يشبهك أحد.. ولهذا أخاف عليك.. أخاف حين تنظر إلى محتويات عقولهم، أن تصطدم

بها.. كلهم يعيشون بقناعاتأُمليت عليهم.. وما بداخلك لا يخص أحداً.

كلمات تحيرني "بأنا أردناك حُراً" حين تنطقها، أحتاج إلى وقت كي أفكر بما أرد عليها.. قد أفكر بأني ناتج لأنانيتهم وليس لحرصها وبشاري عليَّ.. أو أنهم أرادوا أن يجعلوني في منأى عن تجاذباته.. وحتى لا يفقدوا تلك المشاعر التي بينهم بسببي فجعلوني ضحية.. لم أحب أن أذكر ذلك بعد صمت، تنتظر صوتي:

– ومعلمي؟.

– هل حدثك عما يعتقد؟.

– لا.. لكنه كان يصطحبني إلى المسجد!

سمعتُ حديثَ محمد النبي: " كل إنسان تلده أمه على الفطرة.. فأبواه يُهَوِّدانه أَويُنَصِّرانه ويمجسانه فان كانا مسلمين فمسلم "،.. فهل سألت نفسك من تكون؟. أم إن فِطرتك التي حاولنا عدم تغييرها لا تعني لك شيئاً!. فطرتك التي قد تسعَدك أَوْ تشقيك.. وهذا أنت اليوم تظن بأني أُملي عليك.. وأحاول توجيه مشاعرك.. و لم تسأل نفسك لماذا لم أملي عليك ديني وأنت ابني؟!

* * *

تعود روحي من فضاء النور.. لأكتشف بأني أسير ظلمة الله المرعبة.. أفكر في وسيلة لأتعرف على ما حولي: أذني.. أنفي.. أصابعي.. أتلمس كل

ما أصادف.. فلا أجد إلا العفن.. أرض لزجة.. جُدران صلدة غطاها دبق عفن.. جرذ يعبر حينا فوق جسمي.. ومخلوقات صغيرة تقرض أطرافي.. براغيث أو أكبر قليلا، تواتيني الرغبة حين أمسك بها أن ألتهمها.. كل ما حولي وَحل عفن. أجلس جوار رفيقي يستسلم لفضول أصابعي.. وأستسلم لفضول أصابعه.. تكتشف.. شعرَ رأس طويل.. وجهاً طويلاً.. أكتافاً عظمية.. أضلاعاً بارزة.. وأطرافاً كأنها عظام دون لحم.

لا يمانع حين أعبث ببعض مناطقه.. تعلمت لغة اللمس.. يحب لعبة الأصابع.. يمرر أصابعه على جسمي، لا أدفعها حين تصل إلى مناطق مؤلمة.. يصرُخ بصوت مُـدَوٍّ. يجدف بكفَيه في الهواء مُحاولاً ضربي.. يترك كـُـلٌّ منا الآخرَ.. أرهف السمعَ.. أُميِّزُ بعض الأصوات البعيدة.. لا أسمع صوتَ أطفال.. أوْ نساء.. لا أسمع أيَّ صوت رقيق.. أصوات شبيهة بالعواء أو الخوار.. أتخلوا المجنة من الأطفال والنساء؟

لا يمكن أن تكون هذه مقبرة.. يخفق قلبي فرحاً.. إن لم أكن في مقبرة أين أكون؟. ما يكون هذا الظلام؟.

أنفي لم تعد تتأفف روائح الظلمة.. تواطأت معها.. أظفاري تجرح جلد رفيقي.. يتمدد لتسرح أظافري بين دماملِه.. ويأتي دوري ليعزق جلدي المدمى.. أصرخ من اللذة.. أمسك بيده حين يرفعها لاعيدها. أزحف أقترب من النقرة يعلق بأقدامي خليط لزج.. تنبعث روائح يميزها أنفي.. أفرغ ضيقي.. أعود أجالس رفيقي تعبق رائحة تقرحات جسمه.

أحدق محاولاً تخيل حدود ما أنا فيه من ظلمة.. أصوات كثر.. أسمع صداها.. أريد أن اصرخ، أين أنا؟. لا ليست مجنة.. شيء لم يخطر على بال بشر.. هي ظلمة اللـَّـه.. نعم ظلمة اللـَّـه.. لكن لماذا خلقها هكذا؟. ولماذا كل هؤلاء؟. أم أننا في حيز الجن!. وأنا الآدمي الوحيد بينهم.. ربما تكون شيئاً غير ذلك.. لكن لماذا أنا؟.

يشقى بي تفكيري متى يُريد، ويتركني قليلاً، لا يوجد ما أفعله. أنجو بذاكرتي من جديد أخرج من الظلمة، إلى فضاء أعماقي.. أكتشف بأني لم أعش كما يجب.. فلم أكن جريئاً بما فيه الكفاية.. هل رب أمي.. أَوْ إله المعلم، أو أي إله سيحسب عَـلـيَّ تلك الحياة؟!. أليس ذلك ظلماً وعبثاً!. لو قُدر لي أن أعيش حياتي من جديد ماذا سأفعل بها؟. أريد أن أكون جريئاً فحسب.. أن أعيش كما أريد، هل سيتركونني أعيشها.. سأدعوهم إلى اغتنام الحياة.. وسأحدثهم عن هذا العدم.. لن يصدقني احد!.. هي مشكلة فعليَّ إذا أردت أن يغيروا من طريق حياتهم أن أقتادهم إلى هنا أولاً.

لا أعرف كم مر على وجودي في الظلمة.. لكن شعَرَ رأسي أخذ يلامس كتفي.. وشعر وجهي وصدري ينمو .. لا وقت.. ولا يعني لي نزول تلك الجفنة وقتاً.

أرهف السمع لخرير الماء.. أقدر المسافة.. أسير على مسمعي بحَذر وسط الوحل.. أتذكر صراخ رفيقي "من يسقط يهوى في نقرة دون قرار" عند حواف النقرة أتغوط.. كلما شعرت بالعطش تتلمس قدمي بمساعدة

أذني الطريق إلى حيث خرير الماء، أعمل من كفي ميزاب.. أشرب من صوت ذلك الماء.. طعمه مالح ضحل.. لا تميز رائحته أنفي.. أتخيل لونه.. أَوْ ما يكون.. من أين يأتي؟.. أعبُّ منه من جديد.. تتحسس لساني مُضَغاً لزجة.. أبتلعها.. أرتوي.. قد تكون بقايا...!

أعود في طريقي إلى بقعتي.. أصطدم ببعض الأجسام.. حين تعترضني عدة ركلات.. أعرف بأني انحرفت عن خطي.. أجلس لاهثاً.. أميز صرير قدوم الجفنة.. أجرب استخدام كفي لغرفها.. عراك شديد.. أقف حتى ينتهيَ العراك.. لا أجد في تجويف الوعاء شيئاً.. أمسك بحبالها الصاعدة.. أفكر من أين تأتي.. وأين تذهب؟. تواتيني فكرة أن أتشبث بها.. أن أصعد.. أظل متشبثاً.. تتحرك.. تصعد بي للأعلى.. أتشبث.. يراودني الأمل.. أصرخ فرحاً.. يتردد صدى صوتي.. تصعد بي أكثر.. فجأةً تنهال على رأسي عصيٌ مؤلمة من الأعلى.. تتراخى أصابعي تلاحقني العصي، أفقد وعيي.. تهبط بي الحبال.. أهوي في فراغ الظلمة.. أصطدم بأجسام كثر.. يتعالى صراخ مفزع.. ركلات وضربات عنيفة على جسدي أنسحب من بين أقدامهم.. يستمر العراك.. أصحو من غيبوبة.. يؤلمني وجهي، أطرافي بعد أن كنت قد بدأت أشفى.. لزوجة سائل بارد على وجهي.. ألعقه.. لا أعرف إن كان دماً أَوْ شيئاً آخر.. أميز صرخات رفيقي.. أتسحَّبُ باتجاه مكانه.. أعود بجوعي وألمي.

في لحظة ما لم أكن لأتوقعها، ضَجَّ نور أصفر من مكان عل بدد الظلام.. بعيني لمحت جُدراناً صخرية بعيدة.. سقفاً حجرياً عالياً..

أشباحاً متفرقة أقرب إلى القردة بشعورهم الطويلة وعريهم.. يتقافزون.. وجوههم باتجاه مصدر الضوء.. يتعاركون صارخين دون وعي.. لم يكن رفيقي إلى جواري.. تمنيت معرفة ملامحه.. رأيت فئراناً كبيرة تتقافز بعيداً في شروخ الصخر.. انطفأ الضوء سريعا كأن ما رأيته حلماً.. ارتطام، تداخل وصراخ وعويل.. ارتفع الهرجُ أكثر.. اختزنت ذاكرتي ما رأيت.. في لحظة خاطفة.. شروخ صخرية أحدها يتصبب ماءً.. عند فوهة نقرة تكومت حولها أكوام المخلفات.

صوت أحدهم يرتفع على الأصوات "أين أنا.. من أنتم.. ما هذه الروائح.. وهذه الظلمة؟". كان صوته يتحرك من مكان إلى آخر يصطدم بالجدران بالأجسام.. ليعود يتساءل ليصطدم من جديد، أسمع ركلات.. يتعالى صوته مهرولاً.. فجأةً يخفت صوته.. يختنق.. أصوات أخرى متداخلة.. "يبدو أنه هوى في أعماقها!". "هو الآن يغرق وسط العفن"."هكذا من يفقد صوابه.. يجري يعتقد أنه يفر من قدره حتى يقع".. حاولت أن أجد واحدا ممن قُذفوا بهم بيننا. لكنها الركلات تعترضني.. عدم قدرتي على الكلام. لكنني عرفت بأنهم مجموعة.. وأن بعضهم قد سقط في النقرة أثناء هيجانه بعد سقوطه.

صمت حزين.. يتخلله خرير ماء خَجول.. يمثل بوصلة تحديد الاتجاهات وسط ظلام دامس.. سريعاً ما عاد همسُ الأفواه.. ليتحول إلى شبكة من الأصوات دون ملامح.. كـُـلُّ شيء أسود.. اللاوَقت يندمج مع المكان.. ليتحول كـُـلُّ شيء إلى كتلة من الفراغ غير المرئي.

التأمَتْ بعض جُرُوحي.. عَدَا لساني الذي لا زالَ متعفناً بجراحه.. تخيلتهم يهيمون في قعر الظلمة.. البعض يسير على الدوام.. ينشرون حيوية دائمة.. والبعض يصرخ بشكل متقطع.

* * *

تمددت عارياً جوار رفيقي.. صرخ فيَّ أن أهرش جلده.. أن أمرر أظافري على دمامل ظهره.. أسمعه يهرهر.. يتقلب من اللذة.. وهكذا في كُــلِّ مرة لا أرفع أصابعي حتى أسمع شخيرَه وقد احتواه النوم.. في هذه المرة.. بادلني رفيقي تمرير أظافره على جلدي.. كانت تلك اللمسات تعجبني.. أشعر بنشوة الحك.. انزلقت أصابعه إلى أماكن جربت أصابعه ارتيادها.. أمسكتها بقوة.. انتفض صارخاً حتى أفزعني.. أمسكني بقوة في خصيتي.. محاولاً تثبيتي أرضاً.. وصوتي ينبح من الألم.. وجدت نفسي أنطق صوتا لا يشبه صوتي.. أعي بعض ما أنطق.. فرحاً بعودة نطقي.. انقطعت أنفاسي من الألم.. بكل قوة يحاول قلع خصيتي.. أفكر عمَّا يؤلمه.. لا توجد غيرُ أرجله قرب وجهي.. أمسكت بأصابع إحدى قدميه بكلتا يدي.. حاولت فصلها.. زاد من محاولات انتزاع خصيتي.. اقتربت أصابعُ قدمه من وجهي.. دخلت أصبعه الصغيرة بين أسناني.. كان طعمها حامضاً ومخاطياً.. أطبقت عليها باستماتة.. تغيَّر طعم فمي.. ازدادت قبضة أصابعه على خصيتي وقد بدأ يصرخ ألماً.. ضغطت بأسناني قدر ألم خصيتي.. ارتعشت ساقه.. ارتفع صراخه.. حاول الاستدارة.. كان الأمر قد انتهى حين وجدت إصبعه بداخل فمي.. تراخت أصابع

كفه عن خصيتي.. تركته يصرخ زاحفاً بعيداً.. بصقت في الظلام دماً وقطعة لحم.

أجر خصيتي المدلاة.. صراخه يدوّي.. لا زال طعمُها عالقاً بحُموضتها.. أسمع صراخه يلاحقني ونحيب ألمه.. أتلمس طريقي زاحفاً.. محاولاً عدم الارتطام بغيري.. أسمع صخباً يتعالى مع صراخه.. ما لبث الصراخ أن تحول إلى عراك عَمّت مَن في الظلمة معركة لا أعلم سببها.. انهالت عليَّ ركلات من كُلِّ اتجاه.. كنت مصمماً على النفاذ.. أن يكون لي مكان خاص بي.. تحملت ضربات الأيدي ورفس الأرجل.. أتخيل الفضاء الذي رأيته لحظات وميض ذلك السراج.. الهياكل المليئة بالشعر.. العيون الغائرة.. أزحف هامسا لنفسي "سأكونُ في منجى".. زحفت بمحاذاة الجدار.. لا تزال خصيتي تتدلى.. أتحسسها.. كاد يمزقها ذلك المعتوه.. يريد إخضاعي.. المهم أن أبتعد عن عراكهم.. صوته يعوي.. أدخل إصبعي فمي.. أتفحص جراحَ لساني.. بقية آثار تقرحات.. الحافة اليُمنى للساني أثخن من الحافة الأخرى.

استقريت في موقع جاف.. هدأ القتال.. إلا من أنين.. أرهف السمع لخرير الماء.. هو بوصلتي.. أسمعه بمشقة وسط خليط الأنين والعراك والصراخ.. لا يهم، الآن أنا في منأى من ذلك الرفيق الخبيث.

أهمس.. أجرب مقدرتي على لفظ الحروف.. يخرج صوتي ثقيلاً.. أجرب الكلمات.

في إحدى نوماتي.. أيقظني دفءُ مؤخرة أحدهم.. برودةِ الجدار من خلفي.. خفت أن يكون ذلك المعتوه قد عرف طريقه إلي.. تلمسته بحذر.. بادلني اللمس.. لم يكن هو. أعجبتني أصابعه.. لذة حك دمامل جلدي.. لا شيء يُضاهي لذة الملامسة.. كـُـلٌ مَن في الظلمة قساة إلا أن الملامسة تخضع أعتاهم.. الجميع أجلاف.. أحدهم يصرخ.. وآخر يتلفظ بأقذع الألفاظ وهو يمسك برأس أحدهم يضرب به على الصخر حتى يموت.. هكذا هو العراك دوماً.. والنقرة تبتلع كل من يجيف.. مع بقائي عرفت كلمات تخدش الحياء.. أستمع إلى تلك المفردات طوال الوقت.

جرَّبت صوتي وسألته عنِ اسمه.. ظننته لم يفهم كلماتي التي تخرج مبتورة من بعض الأحرف.. أوْ أنه فاقد العقل مثل رفيقي السابق.. استمر بلطم جدار الصخر.. لم أجد تفسيراً لذلك.. تركته تراجعت قليلاً.. أسمع نحيبَه.. ثوراته.. بعد حين وجدته جواري ممدداً.. هو من بادرني الحديث.. ماداً يده يتلمسني.. أمسكتها اعتصرتها.. سمعته هامساً:

– الصبر.

مددت أصابعي أواسيه.. لم يكن عارياً.. وجهه قليل الشعر.. ممتلئ.. مد أصابعه تداعبُ دماملَ جسمي.. كدت أنامُ من فرط اللذة حين واصل همسَه:

– يظل الأمل قائماً!.

حدثت نفسي من يكون الذي يتحدث عن الصبر؟.. تجرأت ونطقت:

– من أنت؟.

– أيهمك !.

حين رد عرفت بأنه يعرف كلماتي مبتورة الأحرف.. نطقت من جديد:

– عن أي صبر تتحدث ؟.

– الصبر طريق الخلاص!.

– أَيّ خلاص ؟.

– الخلاص عبر الصراط المستقيم!.

– كيف؟.

– أن تسلك معي الصراط إلى الصبر الذي يقود إلى الخلاص.

– أهي أحجية.

– ذاك شرطي إن أردت مسايرتي.

– لا أجد ما أصنعه هنا ولا ضير من متابعتك.

– على أَيّ مذهب أنت؟.

- لا مذهب لي!.

- أنا أحدُ عباد اللـــه.. أعرف الطريق.. أدعوك إلى أن نسلكها معاً.. لهداية من في هذه الظلمة.

- وما الفائدة من هذه الدعوة والكل ستبتلعه النقرة؟.

- سنخرج لإعادة صنعاء إلى نور الله!

احتضنته.. بعد أن بددت كلماته بقايا الشك.. إذاً ما كنت أتوهمه غير صحيح.. هناك خارج ظلمة الله دنيا وما نحن إلا في مكان شيطاني.. سألته:

- كيف نخرج ومن أين؟!.

- النقرة منها يدخل الهواء!.

- وفيها يختفي الغائط والجثث المتفسخة!

- لا عليك.. اسمعني.

سألت نفسي: من يكون؟. أيكون صادقاً.. استويت في جلستي.. اقتربتُ منه أكثر.. حيَّرتني كلماته.. شعرت بأمل يحيط بي.. قد يكون ما سمعته هذياناً.. وقد يكون حقيقة.. أمسكت بكفه أجهشت بالبكاء، يتمتم بسورة الفاتحة والإخلاص.. وأصابعه تجوس دمامل جلدي.

كان لصوته فعل السحر في نفسي.. رفع صوته يتلو.. بجَلـَـد وصبر

يتحدث.. نهض واقفاً رافعاً صوته مخاطبا البعيد:

"الحمد لله الذي جعل أهل الحق أعلاما يهتدى بها في حنادس ظلام الشكوك والأمثال،وصيرهم مع ذلك أعراضاً لسهام أهل الجحود والضلال فهم لنجاتهم أبداً جاهدون،وأولئك قائمون في معاداتهم، وقاعدون يدعون إلى عبادة الله سبحانه فيفرون، ويرشدون إلى معرفة وليه صلوات الله عليه فينفرون، وتقام عليهم الحجج والبرهين فيسخرون، تصديقاً لما أخبره الله تعالى عنهم في كتابه الكريم مثلاً وممثلاً: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾، نحمده إذ ألهمنا موالاة أوليائه واختصنا بجزيل نعمائه ونشهد أن لا إله إلا الذي لا يعجل على من عصاه بل يمهله حتى يبلغ الكتاب أجله وهو للظالمين بالمرصاد. وأشهد أن محمداً رحمته المبعوثة لعباده، وآياته المظهرة لبلاده، صلى الله عليه وعلى النور المنزل معه، المشرف به أعياده وجمعه، علي بن أبي طالب العلي لمقامه، الهاتك جنن الشك والشرك برهانه وحسامه، وعلى الأئمة من ذريته مطالع الأنوار، شموس دين الله والأقمار، وعلى مقام النور، وبيت الله المعمور، سيد الأشهاد، المنكر له أهل الكفر والإلحاد، المبيد بسيوفه عما قليل ذوي النكوص والعناد، وحجته على الخلق أجمعين.. أما بعد...."

لصوته فعل السحر.. وقفت جواره.. استمر يدعو سكان الظلمة إلى طاعة اللـه.. معلناً بأن الخلاص بفضل الله قريب.. وقد أرسله السلطان أبو حاشد إلى هذه الظلمة بتهمة تآمره عليه.. وأنه يحمد اللـه.. ويُثني على نعمه.. ويدعو الجميع إلى الايمان.. والتمسك بما جاء به نبيه محمد.. وليعلم الجميع أنها محنة وستزول.

بعثت كلماته بعض الطمأنينة في نفسي.. قاوم البعض.. وتبعه البعض.. نشب عراك شديد.. يرفع صوته من جديد، يدعو الجميع للكف عن قتل بعضهم:

"يا معشر الإخوان جعلكم الله ممن جلا بنور التأييد بصائرهم، وصفا في إخلاص الولاء لآل بيت النبوة بسرائرهم، إن السعيد من نظر إلى الدنيا معتبرا، واتخذها إلى الآخرة معبرا، ونكب عن مداحضها ممتطيا للحُرم عن غرورها حذرا قد كشف له الجد عن قناع خداعها.. أما بعد،فإنه ينبغي لمن أسدي إليه معروف أن يقابله بشكره ويتعين على من أُولِيَ براً أن يقوم لمواليه بنشر بره، ولما كنت من جملة الغرقى في بحر الضلال، والمتورط في مهاوي الجهال، وتداركتني رحمة ربي، ومنّ عليَّ بتجاوز خطيئتي وغفران ذنبي صيرني موجودا بعد العدم وأخرجني إلى نور الهداية بعد الظلام، فعلام نختلف؟ وعلا م الخصام..."

صمت من في قاع الظلمة.. كنت مذهولاً من ذلك التحول.. تمسك الجميع بحلم الخلاص.. يرفع صوته ليرتفع التهليل بأصواتٍ موحدة.. بدأ يوجهنا للصلاة.. قال لنا: أن نصلي بالدعاء إلى اللـّـه كلٌ في مكانه.. نهى عن ممارسةِ الفاحشة.. أَوْ الضرب.والقتل.. لم يكن من معترض.. خيمت سكينة على الجميع.. كأنه ساحر كلمات.

* * *

ذات ظلمة ظهر صوتٌ جَهُوري آخر "أنا إمام الزمان!.. أدعو الجميع

لطاعة اللـّـه بإقامة الصلاة الحقة صفوفا والاستغفار.. اللـّـه أكبر.. اللـّـه أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. وأن محمد رَسُــوْل اللـّـه".. صمتٌ إلاَّ من صوته.. "الصلاة قائمة هداكم اللـّـه"، ارتفعت أصوات متقاطعة.. "كيف نستدل اتجاه القِبلة".. صوت ثالث "فأينما تولوا فثمَّ وجه اللـّـه" صوت رابع "لكننا لا َنعرف مكاناً طاهراً في هذه الظلمة.. ولسنا على يقين من طهارة أبداننا" الصوت الجهوري "الصلاة عمود الدين.. من تركها فقد كفر..".

احتار البعض أيّاً منهم نتبع.. وأيّهم صاحب الخلاص؟.. كلٌّ يدعو.. كان الجميع في حيرة.. انقسمت ظلمة الله إلى مجموعتين.

أحال إمام الزمان ظلام القاع إلى ضجيج منظم.. كان يبدأ حديثه "أنا هنا الآمر الناهي"، ثم يكمل ما يريد إيصاله.. لا أحد يعرف كيف كان يحدد مواعيد الصلوات.. يرتفع صوته معلناً دخول وقت صلاة المغرب.. وبعد بُرهة صلاة العشاء.. وفي وقت آخر يعلن بدء صلاة الفجر.

عرفنا فيما بعد أن إمام الزمان ما هو إلا الإمام صاحب دعوة هزمه السلطان أبو حاشد أثناء هجومه على صنعاء.. وبعد فرار قبائله ليسقطه بيننا في قاع الظلمة.

تطورت الأمور بين الداعيين إلى الله في قاع الظلمة ليأمر الأعرج مجموعة من أعوانه بالمرور لتلمس الظلمة إن كان من متخلف عن الصلاة.. ثم أعلن أن من يتخلف عن صلاة الجماعة.. سيُضرب.. ومن تعنت سيقتل ويُرمى في النقرة.. في البدء استجاب الجميع.. كان مساعدوه يجوبون

الظلمة يفحصون القاع.. نقف.. يتلمس مساعدوه وقوفنا يدفعوننا كي نقف صفوفاً متوازية "ساووا بين الأكتاف والمناكب.. إن اللـّـه لا ينظر إلى الصف الأعوج"، يصيح كبيرهم.. ولا أدري كيف يرى في الظلمة؟.. ولا كيف ينظر اللـّـه إلى الصف المستقيم؟.. ظلمة لا يُرى فيها شيءٌ.. ما لبث أن اكتشف أن البعض ينسحبون من الصف قبل إكمال الصلاة.. يدَّعون المرض وعدم قدرتهم على الوقوف.. حدثت مشادات.. بين القسمين.. ثم عراك اتضح أن الداعين إلى الصلاة بالإكراه كثر.. خضع الجميع لتنفيذ الأمر خوفاً من بطش أعوانه.. الذين كانوا يوسعونهم ضرباً.. ومن قاوم أَوْ جاهر بالرفض يُلقى به في النقرة.

يمتلك طاقة لا تنضب من الحديث المتواصل.. فحين يكمل صلاته.. يدعو الجميع إلى استماع موعظته.. يصور في حديثه ما سيلقاه الناكرُ لوجود اللـّـه.. والمسفه لشريعته.. والتارك لفروض عبادته.. لينخرط في بكاء متواصل بعد نهاية كـُـلِّ موعظة.. فأسمع هنهنة بعضهم يشاركونه البكاء.

فَرض على الجميع متابعته في حفظ أجزاء من القرآن الكريم.. يتلو والجميع يرددون بعده عدة مرَّات.. ثم يستمع إلينا.. فنرى بمسامعنا.. وتتحول أصواتُ زملائنا إلى أشكال ترسمُها مخيلاتنا عن ملامح صاحب الصوت.. ووسامته من دمامته.. فكان البعض يتبعون صاحب الصوت الجميل محاولين استمالته لصداقة مشبوهة.

أظـــافر

حين أخلد إلى نفسي.. أغمض عينَيَّ.. تسافر ذاكرتي من قاع الظلمة.. أرى نور الأيام الماضية.. لحظات ذهابي برفقة المعلم إلى المسجد.. كانت روحي تبحث عن شيء خفي.. أتمنى أن يصادفني وجوده.. كنت أتردد على المسجد.. أشارك في صلوات جماعية.. حلقات المواعظ والذكر.. ترتاح نفسي لصلاة مغيب الشمس.. العميان وسط حلقات الصبيان.. شيوخ الزوايا.. المستندين إلى الأعمدة.. قراء القرآن وقد اهتزت أجسادهم طرَباً ونشوةً.. العديدُ من الغلمان يسيرون مطوَّحين بمباخرَ تتكاثف أدخنتها.. فضاء المسجد مثقل بالأصوات الشبيهة بصوت الريح الناعمة.. تعلو أصّوات الترانيمَ.. لتخفت ثم تعلو.

لم أصلِّ يوماً صلاة المعلم أمامَ أمي.. لكني حدثتها في الأيام الأخيرة عن جمال زخارف المسجد.. الأصوات التي تغلفني بالرهبة.. نشوة السير بين صفوف المصلين.. اللحى البيضاء.. قارئي القرآن بأصوات هامسة.

تقول أمي إن ربها غير رب الأغيار.. كنت في حيرة مما أنا فيه.. تمارس صلوات ربها.. تشعل الشموع.. إعداد مائدة السبت.. محاورة خالقها.. أتأملها.. أقترب منها، أحتضن ساقها.. تدخل أصابعها بين شعري.. تحتضن رقبتي.. تمسك بكفي.. أشعر بالسكينة لرقة نغماتها.. صوتها المغنى يهز كياني.. أحاول مشاركتها بعض الكلمات.. جُمَل وفقرات يُطربني إيقاعها.. هي تجيد أن تحول صلواتها إلى أغانٍ تهز روحي.. أسألها أن تعلمني معنى تلك الكلمات.. أن أشاركها أغانيَها الحزينة والجميلة.

ها هو صوتها يصلني التو حزيناً إلى قاع ظلمة الله.. أرفع صوتي مردداً وعيني تدمع: "يا رب، يا خالقنا، يا ملك الكون، يا مَن قدستنا بوصاياك، وأوصيتنا أن نضيءَ يوم السبت.. يا ربنا بارك أرضنا واجعلها مثمرة وكثِّر إنتاجنا.. مساءً وصُبحاً وظهراً.. أشكو وأنوحُ فيُسمع صوتي، يفتديني بسلام إذا اقتربوا ووقفوا بكثرة حولي الرب الجالس منذ الأزل، يسمع لي فيذهلهم".

عجزت عن الوصول إلى مخبأها.. فكرت بمعاودة سؤال ذلك الأمني عل قلبه يرق لي.. لكني فضلت الصمت ومراقبته علي أصل إلى مخبأ بقية المخطوطة.. انخرطت مع بقية الزملاء في عمل الحصر والمطابقة.. إلى ذلك اليوم الذي جاءني ذلك الزميل الأمني يسألني التوقيع على الكشوفات نيابة عن رئيس اللجنة.. وسألني أن كنت في حاجة لمعرفة بقية الحكاية؟ سألته عن أي حكاية؟ فقال مبتسما حكاية جوذر!
وقفت أنظر إلى عينيه.. اسأل نفسي: هل تستحق معرفتي لبقية حكاية جوذر كل تلك الخيانات.. حينَ لاحظ حيرتي قال" فكر إلى صباح الغد".

تغني وأنا أردد وراءها:

"إذا توقفت عن عملك في السبت، وعن قضاء حاجتك في يومي المقدس، ودعوت السبت نعيماً، وما قدسته مجيداً، وأكرمته فلم تباشر عملك ولا سعيت وراء حاجتك، ولا نطقت باطلاً بكلامك، تبتهج بي أنا إلهك وعلى مشارف الأرض أرفعك، وأضعك، ميراث يعقوب أبيك.. ها فم الرب تكلم..". لتصمت قليلاً ثمَّ تعاود إنشادها: "اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد، فتحب الرب إلهك من كُـلِّ قلبك، ومن كُـلِّ نفسك ومن كُـلِّ قوَّتك. ولتكن هذه الكلمات التي أوصيتك بها اليوم على قلبك.. وقُصَّها على أولادك وتكلم بها حين تجلس في بيتك، حين تمشي في الطريق وحين تنام وحين تقوم، واربطها علامة على يديك، ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك".... "احفظ يوم السبت وقدسيته كما أمرك الرب إلهك. في ستة أيام تعمل وتصنع جميعَ أعمالك، أما اليوم السابع فهو للرب إلهك، لا تعمل فيه عملاً، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وثورك وحمارك وسائر بهائمك".

آه يا أمي تمنيت لو كنت قد استطعت أن تورثني لي يقينك بقدرة الرب على الرعاية.. أَوْ ذلك الإيمان الذي يسكنك بوجوده.. لو كنتَ استطعتَ أن تجعليني جاداً وأنا ألبس الطاليت والتفلين.. بيقين وجوده.. لَكنت الآنَ أجلس إليه.. و لَم يتركني وسط ظلمة لا أستحق شقاءها؟!.

أعادتني من تراتيل أمي ضجة بين الجماعتين.. رفضت مجموعتنا دعوة

صلاة الإمام الآخر.. أَو الإنصات لمواعظه.. ارتفع صوته منذراً.. انتشرت أصوات أتباعه لتصطدم أيديهم بآخرين.. انهالوا بالضرب على من لمست أيديهم.. نشبت المعركة.. أسمع الرؤوس تدق على الحيطان وأرضية الظلمة.. ووسط الوحل.. انسحب البعض بعيداً تفادياً وأنا بينهم.. بحث البعض عن شقوق الأطراف الفرار.. لهاث وصراخ.. استغاثات وقع أقدام.. يفر البعض ليصطدم بالجدران.. ينزلق آخر في فوهة النقرة.. أخذ الإنهاك واللهاث يدب بين المتعاركين.. ليتوقف قتال الأيدي والأرجل والأسنان والأظافر.. يُرمى من لفظ أنفاسه في النقرة.

بعد تلك المعركة لم يعد أحد يدعو للصلاة.. أَوْ إلقاء المواعظ.. صمت كـُـلّ شيء إلاً من خرير الماء.. وأنّات ترتفع من هنا وهناك.. يبحث الجميع عن أجوبة لما حدث.

ترتفع أصوات انزلاق حبال جفنة العصيد.. ما يلبث صوت ارتطامها وسط الظلمة أن ارتفع.. أصوات خافتة.. أدركت أن قاع الظلمة قد فقد بعض نزلائه.. بكاء من هنا ونحيب من هناك .. بدأ من لم يشترك في تلك المعركة وبعض الناجين يتحسسون زوايا قاع الظلمة.. المساحات الصخرية.. جمعنا من لا يزالون على قيد الحياة.. تعاونا على قذف من توفى إلى فوَّهة النقرة.

ظل الأمل يراودني بالخلاص.. لم يعد بيننا صوت لأيٍّ من الإمامين.. قد تكون النقرة ابتلعتهما.. أَوْ أنهما يتخفيان بيننا خوفاً.

انكفأتُ حزيناً.. لولا الأصوات التي تظهر بين فينة وأخرى لخلت أنه لم يتبقَّ غيري.. مرَّ وقتٌ ساورني الشك حول سلامة عقلي.. أحاور نفسي بصوت عالٍ.. لم يعد يهمني شيءٌ.. حتى رغبة البَوح ضمرت.. تحسن نطقي للحروف.. وإن ظلَّت بعضها مبتورةً مثل حرف: الراء والتاء والثاء والسين والزاي لقطع في مقدمة لساني.

عُدت لوحدتي.. أشتاق لأظافر تهرش ظهري.. أَحْـك الجدارَ علّه يخففُ حاجتي للهرش.. لم يعد لي من رفيق.. تلبَّسني الجرب.. جلدي تحول إلى قطع جافة.. مرض لا يراه أحد.. أئنُّ لسماع أنين.. أهرش.. أرطب جلدي بالماء.. تزداد رائحتي عفناً ورخاوة.. انتشر ذلك المرض الجلدي بين سكان الظلمة.. أسير صارخاً تتعثر أقدامي بجثَّة أحدهم وقد انتفخت.. جُثة أخرى متفسخة.. يحملون الأولى ثم الثانية ليلقوها في فوهة النقرة.. استمرت النقرة تلتهم جثثَ سكان ظلمة اللـّـه الواحدَ تلو الآخر.. فكرت أن أقذف بنفسي في قعر النقرة حتى أتخلص من شقائي.. أضحت كتلة العصيد تزيدُ عن حاجة من تبقى.. قَلَّت حالاتُ العراك.. انخفض ضجيجُ الأفواه.. زادت أعدادُ الأوعية الخشبية غير المستخدمة.. لم يعد أحد يستخدم كفيه لانتزاع حصته.

يصارخ أحدهم من بُعد: "هل تسمعونني؟ لقد جف جلدي.. فقدت رغبتي بالحك!". صمت الجميع لصوتٍ ينادي.. يجاهد صاحب الصوت كي يرفعه من أعماق الظلمة: "هنا ترابٌ كثير.. يكفي الكل".. زحف من تبقى فوق قعر الظلمة.. تمرغ الجميع.. وأخذ منه البعض بين كفيه يدلكها

على جسده.. فعلت ما يفعلون، حين توقفت رغبتِي بالحك.. وتوقف تفسخ جلدي.. رائحة ذلك التراب كرائحة الروث أوْ مخلفات الطيور.

في لحظة فاجأنا بزوغُ الضوء الأصفر من الأعلى.. ينعكس على الجدران الصخرية البعيدة.. خواء واسع.. شروخ صخرية بعيدة.. ما تبقى من أحياء الظلمة أقل من أصابع اليدين.. وجوه مشعرة.. هياكل عظمية.. شعر كثيف التصقت عليه بقايا الأطعمة.. أذرع تلوح للفراغ.. عراة إلا من شعورهم الطويلة.. الكل يصرُخُ في يأس.. سريعاً ما أنطفأ ذلك السراج العالي.. ابتلعتنا الظلمة من جديد.. تزداد كثافتها على عيني.. أصوات ارتطام.. صرخاتُ ألم.. صراخ متعاقب.. عويل.. عاد الصخب.. وعادت الحياة إلى قاع الظلمة بعد قذف مجموعة جديدة بيننا.. هرول بعضُهم لتصطاده النقرة والبعض أصيب بكسور ورُضوض.

* * *

منزويا أقضي ظلماتي.. أزحف يميناً مفسحاً حتى لا يصطدم بي أحدهم.. أهرب من الصراع والقتال.. لكنني أنا من اصطدمت بأحدهم.. ابتعدتُ حَذِراً.. أصابعه تلامس شعري الذي بدا كثيفاً.. كتفي.. نفرت خوفاً.. همس يدعوني لعدم الخوف.. أرهفت لاستماعه ومخيلتي تعمل على رسم هيئته من صوته.. خرج صوتي:

- من أنت؟.

- إنسان يسألك أين نحن؟.

ترك أصابعي تجوس وجهه برهة.. أنف دقيق.. كوفية.. عنق ناحل.. ذراعان، وصدر هزيل.

- نحن في ظلمة أتقن الباري خلقها.

- كم مضى عليك في هذا الظلمة؟.

- لا يوجد زمن هنا حتى أعرف كم مضى!

- لا يوجد زمن؟

- من أتى بك إلى هنا؟

- لستُ على يقين.. وإن كان السببُ الظاهر لوجودي هنا هو السلطان أبو حاشد!.

حين نطق عبارة "لست على يقين" قادني إلى التفكير بعيداً.. إلى تلك الكتب التي كنت أنسخها لصاحب حراز.

صمت ممسكاً بيده.. لا أدري لماذا أخذت أحدثه عن حياتي قبل دخولي قاع الظلمة.. عن أمي.. معلمي صعصة.. عن يوم مقتله.. عن الكتب التي كانت سببَ اقتيادي إلى هنا.. وعن أحداث وقعت في قاع الظلمة قبل أن يأتي، تحدثت في كـُـلّ شيء.. و لم أجرؤ على الحديث عن شوذب أو أني أرجأت ذلك.. وهو يستمع إليّ مكرراً نطق.. آه ه.. آه ه.. في نهاية كـُـلّ جملة.. لا أعرف لماذا طلب مني التوقف:

- رأسي يؤلمني.. أرجو الصمت.

– هنا لا يوجد ما ينقذنا من الجنون إلا أن نستمع لبعض.

– ولذة التفكير.

– أخاف أن تقودني إلى الجنون.

– ما يحيّر عقلك؟.

– الحقيقة!.

– حقيقة ماذا؟.

– الحقيقة ووجودها من عدمها.

– كيف؟.

– معلمي قال لي بأني السعادة في معرفة الحقيقة.

– أَيَّــة سعادة؟.

– وأمي قالت لي أن السعادة أن تعيش على فطرتك.

– أي فطرة!

– فطرة الدين.. هي تعبد ربها وهو كما تقول ليس رب الأغيار.. والمعلم يعبد اللـَّــه إلهه، ويقول هو إله هذا الكون.. وأنا أبحث عن الطريق و لم أجدها.. كنت أعتقد أن ما تمارسه أمي من طقوس.. تمارسه كـُـلّ الأمهات.. لكني وبعد أن التحقت بخدمة المعلم.. اصطحبني إلى المسجد.. لأكتشف أن هناك طريقاً آخر.. اعتقدت معه أنني تعرفت على

الحقيقة.. بعد مقتله عرفت أن الطريق طويل.. لجأت إلى أمي لتعرفني على عمق معتقدها.. حنثت بوعدها لبشاري.. لقنتني ما اعتقدته حقاً.. ثم ذهبت إلى حاخام اليهود.. حضرت دروسهم.. صلواتهم في الكنيس.. قرأ عَلَيَّ وصايا الرب.. بعد ذلك اعتقدت بأني ملكت الحقيقة وأني إنسان جديد.. لكن ظلمة اللـه هذه جعلتني اكتشف بأني دون طريق مرة أخرى.. كل حين أجد في طريقي طرقاً جديدة ومختلفة تعيدني إلى نقطة البداية.. فكرت هنا كثيراً عَلَيّ أجد الطريق ولا زلت أفكر.. الصمت والظلمة أثرا عَلَيَّ أكثر مما اكتسبته في النور.. خفت أن أجن، أبحثُ عمن يسمعني.

- أتقبلني شريكاً لك؟.

- كَثيراً ما أبحث عن شريك.. لكنهم في النهاية يتركونني أسير واهماً.

- لماذا لا نبتعد عن التفكير بالشهوات؟.. أن نلجأ للعبادات.. أن نتعاهد على الصدق وحُسن المعاملة والأخلاق الحسنة.. والتواضع لذوي الحاجات.. أن نزيل من قاموس تعاملنا الخيانة والغدر والكبر.

ظلَّ يحدثني وأنا أسأله فيجيب عَلَيَّ بأجوبة هي تلك التي كانت تشغلني.. لأول مرَّة أحس بألوان الكلمات منذ وطأت هذه الظلمة.. واستنشقت روائحها.

في أوقات أشعر به ينهنه باكياً.. أتلمس الظلمة فأجده ساجداً.. أسمع

صوته طوال الوقت يناجي منتحباً.. أرهف السمع فيطول المقام.. حين يفرغ يتمتم بالقراءة.. صوته العذب.. يحيل ظلمة الله إلى نور.

أرهف السمع متعطشاً لكلماته.. يحدثني عن مجون سلطان صَـنْـعَـاء أبي حاشد.. وانحلاله وبطشه.. يتحدث عن قرب الفرج ببركة رَسُـوْل اللـّـه محمد.. فأفرح أن أرى أبى حاشد هنا في الظلمة.. حين أتذكر ذلك أدخل في نوبة بكاء متواصل. مع مرور الوقت سمح لي أن أشاركه في ركوعه وسجوده وقراءة القرآن.. أمضينا أوقاتاً حميمة.. قال لي:

–وقتاً بعد وقت يزداد إعجابي بذكائك ورجاحة عقلك وسرعة استيعابك.. ومن أجل الاقتراب من الحقيقة.. علينا تفعيل دور العقل.. ومعرفة أن لكل شيء ظاهراً وباطناً. وأن الظاهر لا يمثل حقيقة الجوهر.. وعلينا أن نطبق العقل لاكتشاف بواطن الأمور. استفسره مستزيداً:

– مثل ماذا؟.

– التعرف على أسرار أنفسنا.. لمعرفة أسرار الكون.

– زدني تبصراً.

–سأسألك: "لماذا كان في رأس الآدمي سبعة ثقوب؟. وفي بقية البدن ثقبان فقط!. ولماذا كانت السموات سبعاً وليست ستاً أَوْ ثمانيَ؟. و لَمَ أيام الأسبوع سبعة دون زيادة أو نقصان؟. و لَمَ جُعل رأس الآدمي على شكل الميم.. ويداه إذا ضمهما بشكل أفقي أصبحتا على رسم الحاء.. والعجز مثل الميم والساقان إذا فردهما على هيئة حرف الدال؟. بحيث إذا جمعت

كـُـلّ الحروف تصبح الكلمة محمد!. ألا ترى أن المخلوق لا يعمل تفكيرَه في الجوهر أوْ الباطن ويكتفي بالشكل والمظهر.. إن تحت كـُـلّ الظواهر أسراراً.. وعلى من يفكر أن لا يستعجل.. بل يمعن التفكير.. خاصة في ما يتعلق بالدين.. فالدين أجلُّ من أن يُعبَثَ به.. أوْ أن يُفهَمَ بشكل خاطئ.. أمَا سمعت عن حديث رَسُــوْل اللــَّـه محمد "إن هذا الدين متينٌ فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى".

دوما ينهي مناجاته لله بصوت يغشى القلوب.. كان حديثه يتجدد بشكل دائم.. ذات حين تلطفت –بعد أن تركني حيناً– وأنا أطالبه المزيد.. همس:

– سأبوحِ لك بأسرار وأخاف أن تفشيَها.. هي أسرار مكتومة ولا يعلمها إلاَّ القلّة من عباده.. ولا تودع إلاَّ في قلوب وعقول كتومة.

– قلبي وعقلي صناديقُ لا تبوح بأسرارها.

– عليك أن توطِّن عقلك وقلبك على حفظ الأمانة.

– وما طريقة ذلك؟.

–عهد اللــَّـه وميثاقه على كتمان كـُـلّ ما أُسِر به إليك.. فإنه الدر الثمين والعلق النفيس وأدنى درجات الراغب في صيانته عن البوح والضياع.. وما أودع اللــَّـه عز وجل هذه الأسرار أنبياءَه إلاَّ بعد أخذه عهودهم ومواثيقهم.. قال عز وجل ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا

غَلِيظاً﴾.. وقال تعالى "من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللـَّـه عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبديلاً" وقال تعالى ﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.. ورَسُــوْل اللـَّـه محمد لم يفش بسره إلاّ بعد أن أخذ العهد على أصحابه وخلفائه وأخذ البيعة من أنصاره في بيعة العقبة.. فإذا كنت راغباً فالحلف والخيار لك وإن أبت نفسك فقد قال الرَسُــوْل المؤتمن: "كـُـلٌ مسيَّر لما خُلق له."

قلت:

– هاك أعاهدك.

– إذاً أنصت إلى ما سألقيه عليك.. ردد بعدي: "جعلتُ على نفسي عهدَ اللـَّـه وميثاقه وذمَّته، وذمَّة رَسُــوْله محمد وما أخذ اللـَّـه على النبيين من عهد وميثاق أن أكتم كـُـلَّ سر أسمعه منك، أوعلمته وأعلمه منك، أومن المقيم بهذه البلاد لصاحب الحق الإمام المهدي وأمور إخوانه وأصحابه وأولاده وَأهل بيته، وأمور المطيعين له على هذا الدين ومخالصة المهدي ومخالصة أصحابه وشيعته من الذكور والإناث والصغار والكبار. ولا أظهر من ذلك قليلاً ولا كثيراً أدل به عليه، إلاَّ ما أطلقته لي أن أتكلم به أَوْ أطلق لي صاحب الأمر المقيم بهذا البلد أَوْ بغيره، فأعمل حينئذ في ذلك بمقدار ما حددتموه لي ولا أتعداه. جعلت على نفسي الوفاء بما ذكره لي وألزمته نفسي في حال الرغبة والرهبة والغضب والرضا، وجعلت على نفسي عهد اللـَّـه وميثاقه أن أتبعك وجميع من تسميه لي وتبينه، وأن أنصح لك وللإمام ولله نصحاً ظاهراً وباطناً، ولإخوان اللـَّـه ولوليه

ولأحد من إخوانه وأوليائه ومن يكون منه ومنا بسبب من أهل ومال ونعمة وأنه لا رأي ولا عهد يتطاول على هذا العهد بما يبطله.

فإن فعلت شيئاً من ذلك وكنت أعلم أني قد خالفته فأنا بريءٌ من اللـَّـه ومن رسله الأولين والآخرين ومن ملائكته المقربين ومن جميع ما أنزل من كتبه على أنبيائه السابقين، وأنا خارج من كـُـلّ دين، وخارج من حزب اللـَّـه وحزب أوليائه وداخلٌ في حزب الشيطان وحزب أوليائه وخذلني اللـَّـه خُذلاناً.. يعجِّل لِي بتلك النقمة والعقاب إن خالفت شيئاً مما حلفت وأقسمت عليه بتأويل أوْ بغير تأويل، فإن خالفت شيئاً من ذلك فلله عليَّ أن أحج إلى بيته ثلاثين حجة نذراً واجباً ماشياً حافياً، وإن خالفت ذلك فحياتي مباحة ودمي يُسفك وكل ما أملكه في الوقت الذي أخلف فيه صدقة للفقراء والمساكين الذين لا رحم بيني وبينهم، وكل مملوك يكون لِي في ملكي يوم أخالف فيه فهم أحرار، وكل امرأة تكون لي أوْ أتزوجها فِي المستقبل فهي طالق ثلاثاً البتة، إن خالفت شيئاً من ذلك، وإن نويت أوْ أضمرت في يميني هذه خلاف ما قصدت، فهذه اليمين من أولها إلى آخرها لازمة علي واللـَّـه الشاهد على صدق نيَّتي وعقد ضميري وكفى باللـَّـه شهيداً واللـَّـه بيني وبينك".

أكملت ترديد القسم وبدني يهتز ويرتعد خوفاً وإرهاقاً برهبة غامضة.. حينها سكنت إلى نفسي.. بينما أخذ صوته يشق الظلمة بتلاوة القرآن.. خمَّنت أنه قد نهض يصلي.. طال في صلاته.. أخذني النوم إلى ملكوته.. رأيت فيما يراه النائم المعلم على طرف بركه واسعة.. يخلع ملابسه ثم

ينزل إلى الماء عارياً.. ثم ظهرت أمي عارية تبتسم.. وقد وجهها هو وجه شوذب .. غمرها الماء.. كنت سعيداً وأنا أسأل نفسي هل لا يزالان على قيد الحياة.

صحوت من نومي فزعاً من ذلك الحلم.. تبحث أصابعي عن ذلك الرفيق.. سألته عن حلمي.. قال لي ستواجه قدرا أنكى مما نحن فيه. لم تزدني كلماته إلا شقاءً وتأملاً. يحدثني ومخيلتي تنقش ملامح وجهه.. لون بشرته.. عيونه.. قامته.. ملابسه.. التي لامست أطرافها متجاورين.

وحين لا أجده أصرخ باحثاً عنه.. أتلمس الجُدران.. أتحرك بحذَر.. أنضرب من أشخاص اصطدم بهم.. أتحمل اللطم والركل.

حين وجدته.. عاتبته.. همس لي:

– رأسُ الجهل اعتماد الناس عقولهم الناقصة.. وآراءَهم المتناقضة وابتعادهم عن إتباع. أصفياء اللـّـه وأئمته الذين هم خلفاء رَسُـــوْل اللـّـه من بعده.. فمنهم من أودعهم سره المكنون.. وكشف لهم عن بواطن هذه الظواهر وأسرارها.. ولذلك قال الرَسُـــوْل.. حين سألوه "من أين لنا بمعرفة الحق بعدك يا رَسُـــوْل اللـّـه، فقال: ألم أترك فيكم القرآن وعترتي" وَعترته هم أعقابه الذين يعرفون أسرارَ القرآن. وكل الظواهر لها بواطن.. ولا يعرف أسرارَ الباطن إلاّ الإمام الذي يفيضُ بمعرفته التي ورثها عن آبائه وأجداده المطهرين.. وهو يفيضُ بمعرفته لأصفيائه وهكذا.

– ومَن إمامُ عصرنا؟.

– المستنصر باللـّـه الفاطمي.

– وأين يقيم؟.

– في قاهرة المعز لدين اللـّـه.

– وما يوصلنا إليه.

– لله رجاله.. وللرّسُـوْل.. وللإمام وهم في كـُـلّ مكان.. وقد أذن اللـّـه أن يظهر نورَه.. في جزيرة اليمن وأشرقت شمس الحق فيها.. وكلف الخليفة المستنصر باللـّـه الداعي علي محمد الصُّـلَـيْحِـي.. الذي عاهد اللـّـه ورَسُـوْله وخلفاء رَسُـوْل اللـّـه وأصفياء اللـّـه.. معلنا الدعوة في جبال حراز، وقد التف الأخيار من حوله وارتفعت راية الدين في جزيرة اليمن.. وأخذ يفتح بلدانها.. لينهزم أعداء اللـّـه ورَسُـوْله.. ويتداعى الناس من كـُـلّ حدب وصوب لنصرة الدعوة.

– الصُّـلَـيْحِـي.. صاحب حراز.

– كلٌّ منا له صفاته.. ومن المستحسن أن تنطقَها قبل اسمه.. مولانا الداعي الأجل.

– أظنني قابلته يوماً.

– فضلٌ من اللـّـه عليك.

– وما أنا فيه هو بسبب كتبه.

– رضا من اللــه.

– وما لاقاه معلمي صعصعة بسبب موالاته.

– ألم أذكر لك قوله تعالى ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ صدق العلي العليم. ومن يقترب من الحقيقة لا تهمه الحياة.. وحزن مولانا الأجل على معلمك كان شديداً.. وقد سمعت عنه الكثير بعد انتقاله لباريه..

– كيف تعرفت على مولانا الداعي؟

– هي حكاية بدأت منذ سنوات.

– كيف؟

– تعود تلك الحكاية إلى الخامسة عشرة من عمري حينها رغب أبي في الحج.. غادرنا همدان إلى صَـنْـعَـاء.. حيث انطلقنا في قافلة كبيرة.. دليلها شاب يعرفُ طريقَ جبال السروات.. وصلنا إلى مكةَ.. أكملنا مناسكَ الحج وزُرنا النبي.. وفي طريق عودتنا مات أبي.. شارك الجميع في دفنه.. وبطول طريق عودتنا لم يتركني ذلك الدليل.. حتى أنزلني ضيفاً في بيته بقرية "قتر" في الأخروج بلاد حراز.

خلال سنوات لاحقة انتشرت أخبار عن داع للإمام الفاطمي سراً.. تواترت الشائعات عن دخول عدد كبير في هذه الدعوة.. يلتقون سراً.. يوزعون مهام الدعوة بينهم.. وهكذا أضحت أخبار تلك الدعوة تشهد

تزايداً بين أوساط الناس.. كنت أحاول التقرب إلى بعض من يشاع بأنهم دُعاة.. ومن يقال إنهم من الأتباع.. ما زادني إصراراً على أن أكتشف تلك الدعوة المغلفة بالسرية.. إلى ذلك اليوم الذي كنا قد انتهينا فيه من صلاة الجمعة .. استبقاني إمام المسجد.. وطلب مني المضي لتناول طعام الغداء في بيته للتحدث في أمر يخصني.

حاولت أن أتصور الأمر الذي استبقاني من أجله.. أهتمل لنفسي.. نظر إلى وجهي وهو يهمسني:

– قال تعالى.. ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

نظرت إليه أستحثه الإيضاح.. واصل همسه: أعرف بأنك في حيرة من أمرك.. تسأل نفسك حول الأمر الذي سأحدثك به.. ألست أنت من تبحث عمن يرشدك إلى جوهر الدعوة الفاطمية؟!... وقد سألت عدة أشخاص عن ذلك.. وهاأنذا أسمع ما لديك.

عند سماعي لتلك الكلمات تهللت ملامحي بالبشر وعرفت أني مع الشخص الذي أتوق إلى لُقياه.. قلت له:

– أتوق إلى معرفة مبادئ الدعوة الفاطمية أن أكون أحد دعاتها.

- على رسلك.. فيما أنت فيه من لهفةْ .. هل التقيت بمَن حدثك عن غاياتها؟!.

- لم التق بغيرك.. و لم أسمع أحداً من قبلُ.. غير أني أسمع ما يشاع بين الناس.. فشدني ما يقال عنها.

وضحَ لي بعد ذلك بأنه ليس هو الداعي.. وأخبرني بأن الداعي سيصل بعد أيام.. ليلتقيَ بمَن والوه في همدان.. وحتى أكون ممن ينالون شرف اللقاء به عليَّ التوجه لمقابلة شخص آخر في قرية أخرى مجاورة.. ذكر لي اسمه.. على أن أقول له حين أصافحه: "من يبتغي وجه اللـَّـه". وسيجيبني: "فله فضلٌ عظيم". فأردّ عليه: "واللـَّـه كريمٌ مقتدر". وتلك عبارات التعارف.

قــــانح:

ألتزمت الصمت في كـُـلّ ما تلقيته وما اعتقدته.. عُدت إلى قريتي أمارس حياتي.. وبعد أيام وصلني رَسُــوْلٌ حدد لي مكان وزمان اللقاء بالداعي.. التقيتُ في صبيحة ذلك اليوم بجمع يزيد عن خمسين رجلاً، جاءُوا من مختلف قرى همدان.. إلى المكان المحدد.. دار بأحدى القرى تطل على وادٍ صغير. يرددون بصوت جماعي: "هو الأمر لله من قبل ومن بعد".

رأيت من النافذة.. أزهار أشجارِ العلب والسمر.. تملأ السفوح.. تتوسد الشمس جبالاً بعيدة، كـُـلّ شيء هادئ.. اتكأ الرجال الذين جلسوا على أعقاب أقدامهم ينتظرون على مقابض سيوفهم وحرابهم.. ذرات الغيوم تبتعد فاردة فروعها البيضاء على الأفق.

فجأةً يقف من في الديوان عند دخول رجُل بعمامه بيضاء علينا.. ووجهه المائل للحُمرة.. يتبعه مجموعة.. صافح الحَضور فرداً فرداً.. خفق قلبي حين اقترب مني.. كأني أعرف ذلك الوجه وتلك اللحية الشقراء..

لم يكتفِ بمصافحتي.. بل واحتضنني بين ذراعيه هامسا بفرح: قانح.. رفيقي إلى الكعبة.. ها نحن نلتقي مرة أخرى.. كيف أنت؟. طفرت من عيني دمعة وأنا أبتسم.. تركته يُكمل مصافحة بقية الرجال يتهامس الجميع ناظرين إلي.. أتأمله.. كما عرفته لا تفارق الابتسامة وجهه.. منتقلا بناظريه من شخص إلى آخر.. قال: اليوم نلتقي لنجدد عهدنا باللـّـه ورَسُــوْله.. على موالاة سيدنا معد بن أبي تميم الإمام المستنصر باللـّـه أمير المؤمنين.. صلوات اللـّـه عليه وعلى آبائه الطهر الميامين.. لإعلاء كلمة اللـّـه ونشر دعوته.

كنا في صمت نتابع كلماته.. لتصدح حناجرُنا بصوت جماعي بما كنا قد حفظناه من عهد:

"نقسم باللـّـه الجبار المنتقم أن نواليَــك في طاعة أمير المؤمنين المستنصر باللـّـه رب العالمين.. وأن ننصرك بأرواحنا وأولادنا وأموالنا لنُصرة دين اللـّـه ونشر دعوة مولانا أمير المؤمنين ونُشهِدُ اللـّـهَ ورَسُــوْله وأئمته الأطهار وحسبنا اللـّـه ونعم الوكيل". خلت أصداء أصواتنا تُرددها الجبال المنيفة.. ليسمعها سكانُ الأودية البعيدة.. صافح الجميع بعضهم

في صباح اليوم التالي مد لي بـيده اليمنى رزمة من الكشوفات وباليسرى بقية أوراق المخطوطة.. نظر إلى وجهي وهو يهامسني: لم أكن أعرف بان ملامحك ستتهلل بالسرور هكذا! التقطتها بعد أن وقعت على كشوفات الحصر.. انزويت جانبا وأصابعي ترتعش.. قلبت أوراقها.. نعم إنها هي بقية أوراق المخطوطة.

بعضاً مهنئين على عهدهم.. ثم قام مولانا يستأذن الجميع بإلقاء كلمته.. صوته حرك مشاعري، قال وقد رفع كفيه داعياً:

"بسم اللـه القدير القديم.. المبدئ المعيد... القوي الرفيع.. الفرد الأحد.. العزيز الصمد.. الذي جل أن تدركه الظنون.. وصلوات اللـه على تاج المرسلين سيدنا محمد نور صراطه المستقيم.. وسلام اللـه وبركاته الطيبات وتحياته على ينبوع النور والحكمة وولي الإحسان والنعمة ووارث الأنبياء والأئمة المفترض طاعتهم على الأمة.. باب العصمة المقصودة.. ومنهل الرحمة المورود.. وحبل النجاة الممدود.. مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المستنصر باللـه رب العالمين.. صلوات اللـه وعلى آبائه الطاهرين.

"الحمد لله أن جمعنا بقدرته.. وألف بين قلوبنا على طاعته.. وهدانا إلى صراطه المستقيم..". رفع كفيه مودعاً: أستودعكم من لا تضيع ودائعه.. وأنصحكم.. وأنصح نفسي بالتمسك بحبل اللـه المتين.. واعملوا بمشروعه في الدين.. والولاء لأمير المؤمنين.. عليه صلوات رب العالمين.. واستعدوا ليوم اليقين.. وما ربك بظلام للعالمين.. والصلاة والسلام على إمام النبيين.. والسلام عليكم.

ودعناه في ظهيرة ذلك اليوم.. ليعود كُـلٌّ منا من حيث أتى محملاً بمشاعرَ جديدة وصُحبة عديدة.

بعد ستة أشهر لبينا النداء لنُصرته.. سرنا نحو حراز حيث مقر دعوته..

وسط جبال تكسوها أشجار كثيفة.. أزيز الجنادب وتحليق العقبان والرخم تحت سحب تتجمع من الشرق.. مررنا على دُور أحرقت.. وقرى نُهبت.. وأفراد نُكل بهم.. عبرنا شعاباً موحشة.. حين اقتربنا من مقر الداعي.. علمنا أنه متحصنٌ ومن معه بالجبال العالية.. تسللنا على ضوء القمر.. التقينا به على قمة جبل مسار.. أشعلت النيران ودقت الطبول .. ومن اليوم الثاني أخذنا نتعاون على بناء حصن مسار في أعلى قممه.

اعتلى الداعي صخرة مشيراً إلى الجموع بيديه "بسم اللـّـه الرحمن الرحيم.. الحمد لمن أورى زناد الحق.. ورفع عماد الصدق.. بأنبيائه وأئمته من أكمل بهم الحجة على خلقه.. وأنار بهم ما بين الشرق والغرب بالهداية إلى الخير.. الدعاة إلى أشرف المناهج والملة.. خلفاء أنبيائه وأمناء أصفيائه.. وسلالة رسله.. من فتق بالنور أيامهم ونشر بالعدل أعلامهم.. أعلام الدين.. والدعاة إلى الحق المبين.. الشيعة الميامين.. والسلالة الطيبين.. آل طه ويس.

والصلاة والسلام على من ختم به الرسل وفتح بالأئمة من عقبه أبوابَ الدلالة.. سيدنا محمد النبي الأمي.. وعلى أخيه ووصيه علي.. وعلى الأئمة من نسل مولانا الحسين الزكي.. ورثة التنزيل وخزانة التأويل.

وأفضل صلواته وأنمى تحياته وبركاته على وارث علمهم والقائم من بعدهم.. بقية السلف وخير الخلف.. مولانا معد أبي تميم الإمام المستنصر باللـّـه أمير المؤمنين.

يا أهلَ حراز السلام عليكم ورحمة اللــه وبركاته.. ألهمكم اللــه رُشدَكم.. وجعل جنته مقصدكم.. فأنا منكم.. ولا يهمنا إلا رضاكم.. واعلموا أني ما طلعت إلى جبل مسار متجبراً أَوْ باغياً ولا متكبراً على العباد عاتياً. ولا طالباً الدنيا وحُطامها.

وإنما قيامي بالحق الذي أمر اللــه به والعدل الذي أنزل في محكم كتابه أحكم بحكم أوليائه.. وسنن أنبيائه وأدعو إلى حُجته.. ولست من أهل البدع ولا من ذوي الزور والشنع.. بل أنا متمسكٌ بحبل اللــه المتين.. عامل بما شرع اللــه في الدين.

واعلموا أني بكم رؤوفٌ وعلى جماعتكم عطوف.. وبرعايتكم شغوف.. وهذا ما يلزمني من عشرتكم وقرابتكم.. أكونُ مع صاحب الحق ما حييت وضد الظالم ما قدرت.. أنصف المظلوم.. وأقمع الظالم الغشوم.. وأبث فيكم العدل فساعدوني فأنا منكم.

والحمد لله على ما أعاد وأبدى.. وصلواته على من أرشد به من الضلالة والهدى سيدنا محمد وآله الأئمة الشهداء.. وحسبنا اللــه ونعم الوكيل".

لم تمض شهورٌ حتى أمسى لنا حصنٌ كبيرٌ ومسجدٌ يستقبل الكثيرين ممن يقصُدون الداعي.. يأتون من بلاد لم أسمع عنها من ذي قبل.. ينيخون رواحلَهم المحملة بالحبوب والعطايا والمال والسلاح.. يتركون خلفهم قطعانَ المواشي والدواب.. يبايعونه على السمع والطاعة.. يترجونه

قبول زكوات أموالهم.. متوسلين إليه أن يدعوَ لهم.. سألته ذات مساء عن تلك البلاد التي يقدم منها هؤلاء.. فقال لي بأنهم من بلاد يعرفها.. وبعضهم من بلاد لم يزرها.. وهم من بلدان جزيرة اليمن.. كانت تلك الوفود المحملة بالعطايا ثمرةً لدعاة بَثَّهم في الأرض.. يسيرون متنقلين من ناحية إلى أخرى.. خُفية وسراً.. يدعون الناس إلى دعوته.. والتشيع لآل البيت.

فالعائد من زبيد يتحدث عن إمارات تتقاتل أمراؤها.. منها: إمارة ابن جهور في حصن لهاب.. وإمارة صعفان.. وإمارة بني عبدالواحد بيربوع وبُـرَع.. وإمارة البكيليين في حصن وصاب.. وعدة مشيخات متناحرة في طريقه إلى زبيد عاصمة دولة النجاحيين موالي الأحباش.. والعائد من المعافر حيث إمارة آل الكرندي يتحدث عن أخبار الفقيه الأصبحي صاحب حصن حَبٍّ والشِّعر والسُّحُول والعُدَين ومُذيخِرَة وذي سِفال والجَنَد.. والعائد من عدن إمارة الزُرَيعيين يتحدث عن إمارات لحج وأبين ويافع.. والعائد من الشرق يتحدث عن إمارة بني معن في حضرموت وعن الشِّحِر ومأرِب.قاطعت قانح سائلا:

– هل ما ذكرته من أسماء لأمراء وإمارات موجودة اليوم حولنا؟..

– ألم تخرج من صَـنـْعَـاء يوماً؟. هناك تتناحر القبائل لنصرة دعوات الأئمة والأمراء.. وما إن تهدأ حتى تثار بدعوة جديدة لتسيل الدماء وينتشر الخوف والموت.

- مرة واحدة.. كنت مرافقاً للمعلم إلى الجبال العالية.. جبال حراز التي تحدثني عنها.

- ها أنت تعرف جانبا من الحكاية.

- وأعرف عبدالله أخيه الذي تردد على المعلم صعصعة بكتب لنسخها؟

- مولانا علي محمد الصليحي هو صاحب الدعوة.. وهو من أشار علينا أن تتوجه أنظارنا نحو صنعاء قبل بلدنا جزيرة اليمن.

كانت الفكرة جنونية وكان جاداً في ما يطرح.. وافق الجميع رغم قلة مناصري مولانا.. حيث كنا بالكاد ندافع عن مناطقنا.. وهذا أنا بجوارك في مكان لا يشبه أيَّ مكان.. نتيجة لذلك القرار.. فبعد أن وصلت ومجموعة إلى صنعاء تتبعنا عَسَسُ السلطان أبي حاشد.. وتقصوا أخبارَنا طوالَ أشهر مضت.. ليكشفوا القاءاتنا.. واقتيادنا أثناء لقاء دُعاة صَنْعَاء مع أحد عشر داعياً مجتمعين. لكنهم لا يعرفون بأنه قد فات الأوان، فصَنْعَاءُ حُرثت وستلد في ليلة جلية.. وسنرى النور نحن معها.

- تتحدث بثقة .

- يقول عز من قائل ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾. ومَن عشق اللـه ورَسُوْله وأطاع أئمته يسعدُ دنيا وآخرة.. ومن لا يثقْ باللـه ولا يخلص لمولاه لا يمكنْ إلا أن يكونَ من زمرة الشياطين والعياذ باللـه.

– أتمنى وصول السلطان أبي حاشد إلى قعر الظلمة.

– كله في مقدور الله يسير.

– إذاً ستُسفك دماء؟.

– لله جنده؟.

– الموت أفضل من الوقوع في ظلمة الجرب .

– الموت حياة وحرية.. والحياة قيود.. فلا فرق بين الظلمة وما خارجها؟.

– ترى من أنشأ هذه السراديب العفنة.. ولماذا؟!

– أحد الأئمة وفاء لعهد قطعته عليه أمه، أن لا يَسفك دماً.. حتى لا يُسفك دمُه.. بعد سنوات وقف عاجزا أمام أصحاب الدسائس والأطماع والخونة.. ليتفتق ذهنه عن إنشاء هذه السراديب والأنفاق.. و لم يمر حين من الوقت إلا وكان نزيلها.. لتهنأ روح أمه وتنام قريرة العين .

* * *

يسحرني قانح بحديثه الآمل،ويدهشني بمعرفته الواسعة.. فبعد سماعي له أعدت رؤية معاني الأشياء.

أسأله عن جوهر الإمام.. يتنحنح في ظلمته ليقول: اسمع جواب سؤالك الإمام مخلوق على الإطلاق.. وله صورة نورانية مبنية من جميع

من تقدموه من الأنبياء والأوصياء والأئمة.. والجدود والمؤمنين عليهم جميعاً السلام.. وكما أن عين الشخص فيها نقطة الحدقة.. وقد جمعت تلك النقطة الصغيرة جميع صورة الجسم بجميع أعضائه.. كذلك صورة القامة الألفية من الإنسان الجزئي قد جمعت الهيكل النوراني الإلهي لم ينقص منه شيء وإن كان ذلك أجلّ وأفضل وأعلى وأكمل وهو نور كله.. فيصعد الهيكل النوراني إلـى الأفق العاشر.. المدبر للعالم ويبقي ذلك الناسوت فيقبر وينحل ويصعد كما صعد الكافور مع شعاع القمر ليسلمه للشمس ليصبح مادة لطيفة نفسانية تتصل بنفوس الجدود والفضلاء من الأبواب والحجج والدعاة فتتمازج نفوسهم ويتحد النور على النور.

يستمر حديثه ينسال كالضوء في عتمة روحي.. مجيباً عن أسئلتي الكثيرة حول العالم الروحاني.. عن ناسوت لاهوت الأئمة.. ومراتبهم عند اللـــه.. وعن تأويل الآيات.. وعلاقة الأضداد ببعضها.. وحكمة اللـــه في حط التكاليف عن الأئمة.. كالصلاة والصوم والحج والزكاة.. وسر الأرقام وعلاقتها بالإرادة الربانية.

أعرض عليه بعضَ معارفي.. مما استقيته من قراءتي أثناء نسخ الكتب.. يرفع صوته مشجعاً.. ويضيف إلى ما تحدث فيه بالشرح.. يقول لي قراءتك للكتب أثناء نسخها تفيد، لكن ذهنك يذهب لينشغل برسم الكلمات وتدوينها.. ولذلك فالقراءة للتبصر والتأويل تختلف عن القراءة للتدوين والنسخ.. وعليك بالقراءة.

وحين أُعبر له عن تعجبي من بعض ما أسمعه منه.. يقول لي :إن من

يجاور مولانا الأجل ويستمع إلى ما يُلقيه لا يمكن إلا أن يلم ببعض مبادئ الدعوة.. وما نحن إلا طلاب على حواف مائدة علمه الغزير.

أتلمس أطراف قانح.. فتحضرني ملامحُ المعلم لحظات مرافقته إلى المسجد.. مشهد صفوف المصلين.. حلقات الوعظ.. كنت أبحث عن شيء يشغل ذهني.. وأعتقد بأني اقتربت لأكتشف وهمي.. أرى السعادة في وجه المعلم وهو يراني أغرق في إيمانه.. معتقداً بأني قد تشربت عقائده، ولا يدرك بأني كنت في حيرة.. تقف بين ما يؤمن به مسافة الشك التي لا تزال. تقف.

أتذكر أمي التي ظلَّت على الحياد من أسئلتي.. بعذر وفائها لأبي، أن أظل على الفطرة.. ألح في معرفة ما تؤمن به.. لتنقض ذلك العهد.. ألحظ سعادة صوتها.. يسكن في أعماقها ضلالي.. تعتقد بأن إيمانها قد طَهَّرَني.. أَوْ هكذا سمعتها تقول.. أرى غبطتها بلهفتي إلى سماع المزيد.. معتقدةً أن إيماني فرع أصيل من إيمانها بالرب ووصاياه.. ومن أن يهوه هو عهدي.. كنت بحبها أقترب.. وأقترب.. لكنني اليوم أكتشف مساراً غير مسار أمي ومسار المسجد إنه مسار جديد ومشوِّق، في ظلمة لا أرى فيها إلا صوتَه.. لقد جعلتني كلمات قانح أفكرُ بشكل مختلف.. لتتشعب مداركي في آفاق أجهلها تماماً.. على يقين من اقترابي مما أبحث عنه.

* * *

أستمعُ إلى المزيد من قانح وهو يحدثني عن الفيض وما اختص به اللـه

الأرواح النورانية منه.. من علم الأقدمين وكماله بهم وأن الكون هو النور الحق.. وأنه هو هو.. لا يجتزئ أَوْ يكتمل إلا أن يكون هو.. حينها يرتفع بداخلي هدير لم أسمع مثيله من قبل.. ظننت أن كلمات قانح قد جعلت عقلي ينتقل إلى عوالم أخرى. تعالى ذلك الصوت القادم من أعلى أكثر فأكثر واستمر.. يصاحبه انبثاق ضوء.. أتأمل ما حولي.. أتوقع انطفاء ذلك النور.. أن يُقذف وافدون جدد إلى جحيمنا.. لكنه النور استمر و لم يلبث أن اتسع ليشمل بضيائه كُـلَّ الأركان.

أختفت الظلمة.. لم تستطع عيناي النظر إلى ذلك النور.. ارتبكت عيناي حين حاولت رؤية ما حولي.. جدران صخرية تلمع لشدة سوادها وتشبعها بطبقه تشبه القطران الندي.. شروخ غائرة في أعماق بعيدة.. تتدفق من أطرافها مخلفات القوارض التي تتقافز دون اكتراث.. سقف صخري لا زالت ضربات الفأس فيه.. كوة عالية في طرف السقف تتدلى منها جفنة عظيمة.. وحل أسود.. يغطي الأرض الصخرية.. نقرة تحيطها أكوام البُراز.. ضاع صوت الماء وسط صخب لا يتوقف.. زوايا تربة.. تعاود الجرذان النظر إلينا غير آبهة بالنور ولا بصخبنا.. هياكل عارية معشوشبة بالشعر تنظر في حيرة.. كُـلُّ شيء هنا عار أفواههم الصارخة.. عيونهم الفزعة.. جلودهم وقد علقت بسواد الوحل.. وتيبست دماملها المتضخمة.. عدة جثث منتفخة ومتجاورة جوار فوهة النقرة.. بقايا عظام في الزوايا البعيدة.

لم يختفِ الضوء كما في المرات السابقة.. لم يُقذف بأحد.. مشاعل

يتكاثر ضوءها.. آلمتني عيناي من الضوء.. أناس في الأعلى ينزلون سلماً.. يهبطون عليه واحداً تلو الآخر يحاولون تجنب الوحل.. عُراة يتخفون في شقوق الصخر.. البعض يقف غير عابئ بعُريه.. البعض لم يقوَ على الوقوف.. الكل ملتصق بلَدانة صخر الأرض.

تذكرت قانح.. أريد أن أتعرف إلى ملامحه.. أهو من يقف يتأمل ملامحي مبتسماً.. "أتراني صدقت؟". قالها وهو يحتضنني.. "سنخرج إلى النور يا جوذر" شد على يدي و لم يتركها.. يتوسط وجهَه أنف حاد وعينان مُجهدتان.. نما شعرُ ذقنه.. بشرته بيضاء نَضِرَة.. نظرت إلى نفسي ببلاهة عيون من حولي.. جلد شاخ تدلت منه قطع جافة.. تلتصق بقايا مضغ داكنة.. شعر رأسي يختلط مع شعر الوجه وقد التصق بالجلد.. أنفي وخلفه عينيَّ هي الباقية من ملامحي.. سيقان تغيَّر لون بشرتها حتى تفحمت.. أظافري متسخة على أصابع كالعيدان الميتة.. نضرت ما حولي، البعض يزحف غير قادر على الوقوف.. بدأ من كان مختبئاً يخرج.. قلة يقتربون بحذر.. يتأملني رفيقي قانح.. انكمشت بعُريي وكأني أكتشفه للتو.. بشرة صفراء.. عظام نافرة.. شعر وجهي ورأسي يخفي ملامح وجهي.

عاودت النظر إلى جدران ينعكس وميض المشاعل على سوادها.. السقف تموجات صخرية متجهمة.. غار في الجدار العالي.. الأرض صخر وحفر موحلة.. الزوايا مليئة ببقايا مخلَّفات آدمية.. مكان ارتطام الجفنة طبقة سوداء لبقايا العصيد.. فوَّهة النقرة مخيفة.. الماء بخرير لا يتوقف.. اقتربت من قناته المحفورة في الصخر.. خليط مياه عكرة.. قد

تكون بَولاً لسكان القلعة.. أَوْ مجرى مطاهير.. قرب أقدامي جرذ يتشمم أظفاري.. غير مكترث بشيء.. أحدهم يجهش باكياً.. البعض يتصرف كالفاقد عقله.. من هبطوا يصرخون بعصبية أن نصعد.. يضغطون على أنوفهم بأصابعهم.. سرت أتلمس الجدران.. أطوف بزواياها.. سحبني رفيقي من معصمي باتجاه السُلم المتدلي.. خطوت بعده متردداً .. وقلبي يخفق من أن يكون ما أراه حلماً.

فيـــض:

تخلصتُ من قبضته.. التَفتُ من أعلى السُّلم.. أنظر إلى حيث كنت وعينيَّ تذرفان دموعاً سخية.. أتفرسٍ مكاني بحزنٍ مبهم لا أعرف لماذا.. شعرت بأن للمكان روحاً.. تنظر إليّ.. أو أنها سكَنتني.. أبحث عن تلك الظلمة الموحشة.. إحساس بأنها بداخلي.. صوت خرير الماء المتدفق إلى أعماق النقرة كان حزيناً.. نظرات تلك المخلوقات الصغيرة.. لمعان سواد الجدران.. صراخ حمَلة المشاعل يبدد سكون تلك الأشياء.. جُرذ يصدر صوتاً يشبه الزقزقة.. لم يعد من أحد في الأسفل.. سُحب السُّلم.. انسحب ضوء المشاعل.. الأصوات تنتقل إلى الخارج.. أغلقوا الأبواب على ظلمة اللـّـه التي عادت إلى سكونها.. تجثم روحها في صقيعها الأبدي.أغمضت عينيَّ أرى بقايا أصواتنا هناك في أسفل قاع الظلمة.. زادت دموعي وأنا أكبت صوتاً يريد أن ينتحب صارخاً بداخلي.

نزحف في سراديب حجرية كديدان الأرض.. ضوضاء أقدامنا وأنفاسنا.. يقترب ضوءٌ دافئ.. أراه يتدفق من نهاية الممر رغم حركة الأجساد المنهكة.. هناك أمام الصاعدين.. نقترب منه.. خرجت من نهاية

السرداب.. شظايا الضوء تفترش عينَيّ.. أغمضتهما ألماً.. صرخات البعض مؤلمة.. نحيب.. حريق يشتعل بجسمي.. غطيت عيني بكفي.. يد تمسك بمعصمي.. أسير خلفها.. رياح دافئة.. رأسي يستنشقها.. كف رفيقي قانح صامتاً.. يقودوني كالأعمى.. أسمع وقــعَ أقدام.. رأسي يؤلمني.. جسدي يرتعش.. لم أقوَ على فتح أجفاني.. أسمع أصواتاً متشابكة.. تصطدم قدَمي بأرض مستوية.. ترتجف أجفاني.. يخف الضوء.. أحاول فتحها. كنا في قاعة واسعة ونظيفة.

أناسٌ كثر بوجوه عامرة.. ملابس نظيفة.. ينظرون إلينا بتأفُــف.. يتهامسون.. بعضُ مَن كانوا معنا في الظلمة ركامٌ على أرض القاعة.. ونحن نقف بقايا مخلوقات مفزعة.. تأملت عيناي المكان.. بَهْوٌ واسع.. جُدرانٌ بيضاءُ.. سقوفٌ تتدلى منها مسارج مطفأة.. روائحُ تشبه رائحة الريحان.. آلامُ رأسي تزداد.. تُلقى علينا أغطية.. أحدهم يبكي بحُرقة صارخاً :"أنا لا أبصر". أحكمت لف جسدي بذلك الرداء.. لم يعد يظهر مني إلا الوجه.. أسأل قانح:

– أين نحن؟.

– سنعرف بعد قليل.

كان ذلك الزميل قد أوغل في استغلالي، وكنت أفكر بالتوقف عن توقيع تلك الكشوفات المزورة.. وفي نفس الوقت أحاول استكمال قراءة بقية ظلمة الله، وأنا أبحث عن وسيلة لإخراجها.. أو نسخها.. أو إكمال قراءتها حتى أتحرر من استغلاله.. وكنت في حيرة.

- أريد أن أذهب!.

- أين تذهب؟.

- أمي تنتظرني . وشوذب!.

- سنظل معاً.. لن أتركك.

عرفت في ما بعدُ أننا في إحدى قاعات القلعة.. دَوَّنوا اسمي.. أسبابَ عقابنا.. العملَ.. البلادَ.. دوَّنوا أسماءَ معارفنا والبلاد التي يسكنونها.. سلموني زوادة كعك وقميص.. طويته ووضعته في الزوادة.. صوت أحدهم "من يريد مغادرة القلعة فليغادر".. اعترض قانح على رغبتي:

- أنت بحاجة إلى أيام كي تستعيدَ عافيتك.

أقنعته بأني سأموت شوقاً لأمي ودار المعلم.

- عدني بأنك ستعود.

هززتُ رأسي وأنا أمسك بكفه.. أتلمسها برجاء.. ينظر إلى عيني كمن يقول لي لِمَ لا تزيلُ رُكامَ الشعر عن وجهك ورأسك.. أهز له رأسي وهو لا يرى دموعَ عيني تغرق جذور شعري.

* * *

خرجت خلف ستة من سكان الظلمة من باب سور القلعة.. أخفي عُريي تحت لحاف ثقيل.. أحمي عيني من قوة ضوء الشمس بطرف

اللحاف.. أرى بأجفاني الطريق.. تغير كل شيء.. المارة يقفون لمرأى لحافي متعجبين.. سرتُ أتعرف على الشوارع.. كنت تائهاً.. أخيرا تعرفت على الشارع المؤدي إلى الأسواق.. أهيم في أزقتها.. حوانيت هُدمت جُدرانها.. وأخرى أُحرقت سقوفها.. قلة لا تزال سليمة مقفلة أبوابها.. وأخرى مهجورة.. حانوت المعلم دكة عالية.. باب مخلوع.. اقتربتُ.. تلمست أحجار الدكة.. ركام تراب السقف.. أسمع صوت المعلم يأتي من أعماقي.. دمعة هاربة من عيني.

أفزعني صوت رجل يجلس في حانوت مقابل.. تكسرت ملامحي حين نظر إلي.. لم يعرفني للشعر الذي يغطي وجهي.. رفع صوته: "ابتعد من هنا.. هيا"، كنت أريد أن أقول له: ألا تعرفني؟.. أحسست بقسوة قلبه وهو يشير بكفه عدة مرات.. وقفت كالصنم.. أعطيت وجهي لبقايا حانوت المعلم.. صوته عاد ينهرني أن أنصرف.. التفتُّ إليه.. وقف يحمل عصاً هاماً بالخروج إليّ.. جاري الذي سلمني لعسكر السلطان.. وقفتُ على مبعدة.. أخرج عصا ليضربني بها.. فضلت الابتعاد.

سرت في طريق حتى المسجد.. هو مسجد المعلم.. هكذا أراه، درجاته الصخرية الملساء.. قنطرة الماء الحجرية المعلقة.. عبرت الصرح الفسيح.. قلّة من العميان يعرضون أجسادَهم على الشمس.. دخلت من الباب إلى بيت الصلاة.. أعمدة صامتة في مكانها.. سقوف ما تزال على حالها.. بقايا سلاسل المسارج المنزوعة.. تلك الحروف والزخارف بألوانها... لم يعد من سجاجيد.. سكون صمت كئيب.. إلا من صوت المعلم يأتي من

بعيد.. من أيام مضت وهو يتلو ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

سمعت صوتاً قادماً من بعيد.. نظرت حولي لا أحد.. أحدهم يسير بخُطى حثيثة نحوي.. عله يعرفني.. وقفت أنظر إليه: "اخرج هيا.. اخرج من هنا". كان يبحث عن مكنسة ليهشني بها صارخا "مجانين بقذارتهم عما تبحثون هنا؟". سمعت صوته وأنا أخرج حزيناً.. قلبي يرتجف.. أصابع يدي مضطربة.. سرت على أحجار الشارع المرصوف.. بعض المارة ينظرون إليَّ بحذَر.. أزقة أعرفها.. كل شيء مقفر.. دُور صامتة.. وجدت نفسي في طرف زقاق بيتنا.. ارتعشت.. تقدمت دامعاً.. طرقتُ الباب.. زاد ارتجاف جسدي.. صوت من الداخل:

- من يطرق الباب؟.

خرج صوتي متلعثماً:

- جَـوْذَر.. أنا جَـوْذَر.

وكأني أدَّعي بأن ذلك اسمي.. أَوْ أني على يقين أنه لإنسان غيري. رد علي صوت قاسي:

- جَـوْذَر مَن؟.

فُتح الباب على وجه امرأة تتفرس شكلي.. لا تشبه أمي بينما أنا أسأل نفسي.. هل أنا حقاً جَـوْذَر.. وهذه هي صَـنْـعَـاء.. وأن هذا الباب بابُنا.. فكرت بأن أشرح لها.. قد تكون هي يائيل.. وأنا لست أنا.. تراجعت قليلاً. تخيلتها تمسك بأصابعي.. تدعك كفي بين كفيها.. تقودني إلى الداخل، أبلل حجرها دمعي .. أستنشق رائحتها.. وقفت لا أدري أيَّ تصرف أقوم به.. ووجه المرأة يُعايِنني.. كانت ملامحُها وديعة.. صوتها القاسي وهي تلوح بكفها لي: هيا اذهب من هنا ولا تعاود!. فيه بقايا حنان.

لم أنتظر سماع بقية طنين كلماتها.. سمعت إغلاقَ الباب.. حولي مجموعة من الصبية.. يتفرسون بي متضاحكين.. أختلس النظر علّي أعرف أحدهم.. مضيت لا ألوي على شيء.. شعورٌ بأن جسدي تتنازعه أكثر من روح.. أريد أن أتحدث إلى أحد، أشعر بأصابعي ترتعش.. أتمنى أن يمسكُ أحدهم بكفي.. أن ينظر إلى عيني.. أسير مبتعداً عن شارعنا.. كـُـلُ من أصادفه يتحاشاني.. تتغير تقاطيعُ وجهه.. رياح باردة تكنس واجهات الدور العالية.. ضوء الشمس قاهر.. سحب تغطي السماء.. خفَّ ألمِ عيني حين دنت الشمس مبتعدة.. أرى ما حولي من فتحة غطائي.. دُوراً دون أبواب.. بقايا أسوار.. فروعَ أشجار جافة.. هذا هو دار المعلم.. انتظرت حتى هدأت أنفاسي.. سورُه الطيني مخرَّب.. لم يعد له باب.. بقايا أحجار الممر المرصوف.. عبرت جوارَ شجرة تتكئ فروعها اليابسة على القليل من جدار الدار.. أضحت دون ظل.. قبر المعلم يتيم ببقايا ترابه.. باب الدار فاغرٌ فاه.. دخلت الدهليز.. أكوام أتربة.. هنا كانت تستقبلني..

صعدت الدرجات بحذَر.. حجرة العمل بالدور الثاني صامتة.. أماكننا أحجار متربة.. طفت غرف الدار وأنا أتوقع صوت إحداهن.. أن تطل بوجهها مرحبة.. الضوء يدخل من نوافذ وأبواب منزوعة.. ثقوب تعري أخشاب السقوف.. جدران سلخت من كسائها.

أصعد سطح الدار.. أشعر أن كـُـلَّ شيء يهتز تحت قدمي.. خوف انهيار.. أرى دُورَ صَـنْـعَـاءَ من سطحه دون حياة.. عصافير تمارس طيرانها.. حمام الوادي على إفريز دار مقابل تهدل في حزن.. صمت أراه قبيحاً.. صدى روحي يذوي.

غرفة على السطح.. دخلتها.. بقايا تنور طيني يمين الباب المنزوع.. دكّة عليها حجر الرحى.. أخاديدها متربة.. تراني زُرقة السماء من ثقوب السقف.. أتربة وآثارهن تتناثر في كـُـلِّ مكان.. عدت هابطاً درجات السُّـلم.. أبحث عن صَوت شـَـوْذَب.. أمها.. المعلم.. أصواتهم تنبعثُ بداخلي.. هنا خلف النافذة المطلَّة على الشارع كان يجلسُ.. يتماهَى المكان في ابتسامة عينيه وصوته الهامس العطوف.. حُجرة الدور الثالث حيث تناولنا أنا وأمي وَجبة الغداء يومَ احتفى المعلم بي وهي المرَّة الأولى والأخيرة.. تحتل الأتربة كـُـلَّ شيء.. درجات السلالم مخيفة.

وقفتُ مرة أخرى وسط حجرة الدور الثاني.. مقاعدُ الأحجار.. على ذلك كانت تقعد شوذب.. وأنا على الآخر.. أعمدة الورق كانت في تلك الزاوية.. المقص الكبير.. أدوات المداد الملوَّن.. ريش التلوين.. أدوات الحباكة.. قطع الجلود.. أواني الصمغ.. لا زالت هي الحُجرة الأدفأ في

الدار.. هذه خيوط الشمس تودع.. تتسلل من فتحات النوافذ وثقوب السقوف.. فجأة سمعت صوتاً.. او وقْعَ أقدام على السقف العلوي.. حواسي تستيقظ.. يرتجف قلبي.. ألتفت.. أرتجف لمرآها قطة تقترب.. تتمسح بين ساقي.. أجلس وسط الحجرة على كعب رجلي.. أمسح وَبْرَها الترب بأصابع يدي.. ترفع ذيلها منتشية.. أتكون مثلي بحاجة إلى من يلامسها ويعطف عليها؟. أوه يا لعذاب روحي.. هي بعين فريدة أيضا.. ترى كيف فقدت هي الأخرى عينها؟. أنظر إليها، إحساس يمس أعماق روحي.. أخجل من ذلك الشعور اللذيذ.. تتماهى عيناي في عينها.. أتكون روحاً شريرة.. لكن أم شـَـوْذَب لم تكن كذلك.. تلتف حولي كمن تعاتبني.. سكنتني الشفقة.. أنظر إلى تفاصيل جسمها.. أنتشي لنظراتها.. تهرهر تتمسح بي.. أتواطأ مع نعومة ملمسها.. إحساسي يحدثني بأنها هي.. تمنيت لو تنطق.. حملتها بين يدي.. أمسد ظهرها.. أدغدغ فقرات رقبتها.

تبقى ضوء خفيف بعد أن اختفت خيوط الشمس.. هذه هي الليلة الأولى لي بَعِيْداً عن ظلمة اللَّـه.. أشعرها تلاحقني.. تحملني أينما ذهبت.. ضممت القطة.. أمسد شعرها بكفي.. أبحث عن زاوية دافئة.. أخرجت كعكة منٍ زوادتي.. قضمتها.. قدمت لها قطعة.. تشممتها تركتها ونظرت إليَ.. قربتها من فمها لم تفتحه.. نظرت إليَّ مرة أخرى وأنا أمضغُ لقمتي.. أخرجت مضغةً من فمي قربتها من فمها.. لعقتها.. ثم نظرت بعينها إليَّ!.

وضعت زوادتي وسادة لرأسي.. انكمشت قليلاً.. تكوّمت جواري.. هبت ريح باردة.. ريح تدخل لتخرج من النوافذ المقابلة.. لا أعرف متى أغمضت عيني.. احتواني نوم لذيذ.. صحوت.. صرخت فرحاً "واااواااه". تأكدت بأني بالفعل خارج ظلمة اللّـــه.. أداري عن عيني الضوء الذي يتدفق من فتحات النوافذ والأبواب.. تذكرت القطة.. بحثت عنها حولي.. غرف الدار.. لم يعد لي من رفيق.

هبطتُ السلالَم المتربة.. خرجتُ حزيناً.. وقفتُ أنظرُ إلى تلك النافذة التي في واجهة دار المعلم.. أنتظرُ وجهَ شـَوْذَب.. تجمَّـعَ حولي صِبيةٌ لا أعرفُ من أين يخرُجون.. وجوهُهم باسمة.. مددت أصابعي أصافحُ كبيرَهم.. نظروا إلى بعضهم متضاحكين.. أبتعد دون أن يمد يده.. طفلة صغيرة تمد أصابعها نحوي.. اختطفتها صبية قبل أن تصلَ إليَّ.. تراجعوا إلى الخلف التقطوا حَصَىً.. جلست متكئاً على جدار خلفي.. تكومت على نفسي.. أخفيت رأسي.. أستعد لوقع حصاهم.. انتظرت.. أزلت غطاء وجهي.. رأيتهم يسيرون في طرف الشارع يتضاحكون.. سرت أتجنب المارة.. بيوت أخرى مهجورة.. بعضها تناثرت أتربتها وأحشاؤها.. وبعضها تظهر على أنقاضها آثار حريق.

أسير في أزقة تسكنها الكلاب.. التقطت عصا طويلة من بقايا دار تهدم.. وحيداً كشبح ينظر إليه المارة باستغراب وخوف.. الخوف يسكن عيونهم.. تقودني أقدامي إلى أزقة لم أعرفها.. وأحياء يعيش فيها أناس قساة.. يستخدمون الأحجارَ والعصي لطردي من أمام بيوتهم.. الصبية

يلاحقونني.. أقضي الليل في الدور المهجورة.. وجدت نفسي في أحد شوارع اليهود.. تيقنت أن أمي قد عادت إلى ذلك البيت الذي ولدت فيه.. وقفت أمامه.. أرى الناس يسيرون.. أود أن أسألهم فأخاف.. شارع الكنيس.. وقفت أمام بابه المقفل.. منازل مهدمة.. قلة من الناس لا أدري من أين تأتي ولا إلى أين تمضي.

* * *

يتهادى أذان الفجر والدعاء للملك الأجل الصُّلَيْحِي.. ولمولانا أمير المؤمنين المستنصر باللـه الفاطمي.. عند الضحى وجدت نفسي أقفُ أمام حوطة العبيد.. بقعة مرتفعة جوار سوق البقر.. يتحلق أناسٌ حولها.. يتابعون أحدهم وقد ارتفع صوته يساوم على ثمن جارية.. وخلفها أكوامٌ من العبيد والإماء.. اقتربتُ أكثرَ.. سمعت أحد المتابعين يقول: يستطيع أيّ فرد شراء أمة أَوْ أمتين بثمن بقرة!. رد شخص إلى جواره: بدلاً عن الشراء يمكنك الحصول عليهن بسهولة!. التفت إليّ فاحصاً.. لا أدري لماذا شعرت بخوف.. سرت مبتعداً أتلمسُ زوادتي التي تناقَصَ كعكُها.. لا أخاف من الجوع.. ما كان يُخيفني نظراتُ الناس.. وملاحَقة الصبيان.

عدت إلى صَرْحَ مسجد السوق.. لا يزال الوقتُ ضُحَىً.. وقفت على أطراف الصرحة.. لم يظهر أحدٌ لزجري.. شمس دافئة.. يتدفق الماء إلى أحواض الوضوء.. أحك جلدي.. تقدمت أتأمل الماء.. لا أتذكر آخر مرة اغتسلت فيها.. هبطت الدرجتين.. غمست رجلي.. نزعتُ غطائي..

تسللت بقدمي.. أطرافي.. دفؤه يتسللُ إلى عظامي.. غصت حتى خاصرتي.. هالتني الطبقة الملتصقة بشعري وجلدي.. غمست رأسي.. أخذت أدعك خصلاته المتلبدة.. جلدي.. تغير لون الماء.. انتقلت إلى حوض مجاور.. أفزعني منظرٌ بشرتي الصفراء.. سيقاني.. مرتبكاً أنظر إلى صفحة الماء أرى وجهي.. لم يكن وجهي.. أصابني الرعب.. أنا لم أعد أنا.. عينان غائرتان.. شعر كثيف يخفي كــلّ شيء إلى رأس أنفي.... بشرة أطرافي تملؤها القروح.. عظام جسدي ناتئة.. أبدو أطولَ مما كنت.. لا أعرف كم من السنوات مضت حتى الآن.. خرجت من الحوض.. تمددتُ على أحجار الصرح عارياً.. لذة دفء الشمس تسري في جسمي.. تعالى صوت مؤذن الظهيرة.. لم أتحرك من دفئي.. رجل وقف جواري.. أمسك بأطراف شعري.. أشار بأصابعه بشكل مقص.. أفزعتني فكرة جز رأسي.. نهرني.. نهضت وهو يلعن عُربي.. تلفحت بردائي.. سرت مبتعداً.. خرجت إلى أزقة الأسواق.. بحثت عن زوادة كعكي.. هي إذاً هناك حول أحواض المسجد.. لقد سرقها ذلك المقص.. تركت فكرة العودة إلى المسجد.

قادني جوعي إلى ميدان القلعة الخارجي.. وقفت أمام البوابة.. نهرني أحد العسكر.. أردت أن أقول له شيئاً.. تركته متراجعاً سرت مبتعداً.. توقفت.. سمعت صوتاً يتبعني: أنت يا هذا.. توقف!. خفق قلبي وأنا أستدير.. شخصٌ يقول لي: "توقف". اقترب وقال : أنت ممن خرجوا من سراديب القلعة.. لقد عرفتك بغطائك.! هززت رأسي بالإيجاب قال لي: هل تريد الدخول؟. كنت أود أن أقولَ له بأني جائع.. لكنه كرر:

يمكنك الدخول!. عبرت البوابة.. الساحة المحيطة بالقلعة تعج بالناس والخيول.. سرت بينهم.. أعادني منظر ذلك البناء الكبير إلى ذلك اليوم الذي قادني فيه العسكر إلى الظلمة.. قشعريرة تتخلل عظامي.. احتميت بردائي.. غثيان يعبث بأمعائي.. عيناي تتأمل ذلك الطريق الذي قادوني منه.. دُوارٌ يعصف برأسي.. عرفتُ طريقِي إلى تلك القاعة.. أنفار يقفون بداخلها.. صوت أعرفه.. قانح ينظر إليّ بعطف، فرد ذراعيه احتضنني: أين كنت.. لقد أقلقتني؟. هندامه مرتب.. رائحة الصمت تحتويني.. شذب ذقنه.. وزادت بشرته توردًا.. أنفه الحاد الذي ظل كما رأيته تحت ضوء المشاعل.

في المساء أخرجني قانح.. صعد بي عبر سلالم إلى أدوار عُـليا.. قال لي وقد أمسك بكفي: لقد عانيت يا رفيقي.. وعانى الناس من ظلم قبيح.. لا أعرف أين ذهبت الأيام الماضية؟. ولا ماذا وجدت؟. لكني على يقين من أنك لن تعرف هذه المدينة.. فقد غيرتها السنون والحروبُ المتلاحقة. صمت ونحن نصعد في سلالم لا تنتهي.. ثم تابع حديثه: سأصطحبك للسلام على داعي الدعاة. لقد ناقشته بشأنك.. وطلب رؤيتك. كنت أسمع صوته المتداخل بوقع أقدامنا على درجات السُلم الحجري الذي يتلوى بنا كحلزون عملاق.. لم يكن يهمني ما يقوله.. لكنه هَمُّ أمي وشَـوْذَب من يشغلني.. التفكير في طريق تدلني عليهن.. أرجأت بث همومي وشكواي.

يجلس رجل في قاعة وثيرة.. ابتسامة عريضة على وجهه.. سمعت

صوته وهو يمد يده لمصافحتنا قَبَّلتُها كما أشار علي قانح قبل دخولنا.. وهو يقول: عرفت من قانح بأنك طالب نجيب لذلك المؤمن صعصعة.. وأنت اليوم من رجال مولانا الملك الأجل.. ستعمل على التحصيل العلمي.. وسيكون قانح دوماً معنا.. وستلتحق بدروسي في الجامع البراني. كلام كثير قاله داعي الدعاة.. عدت لتقبيل يده قبيل انصرافنا.

هبط بي سلالَمَ أخرى حتى كنا في الساحات المحيطة.. أسيرُ جوارَه دونَ رُوح.. يُـريني المسجدَ البراني.. نرى مبانيَ القلعة المتداخلة تحتَ سَنـا القمر مهيباً.. قال: هو الأقدم بين مباني الدُّور الأخرى.. يطل من الناحية الخلفية على وادٍ سحيق.. يتكون المبنى من عدة مبانٍ متصلة ببعضها.. ويحتوي في طوابقه الدنيا على مخازن حبوب الشونة.. وتبن الخيول.. وزرائب المواشي والبهائم.. ومخازن للسلاح وعنابر لسكن العسكر.. ومخابز الطعام.. ومسجد داخلي.. وفي أعلاه سكن الأئمة.

أجلس إلى حلقات الدرس في المسجد البراني.. يقتصر الحضور على قلة من طالبي العلم مع دُعاة المذهب.. في إحدى الليالي قال لي قانح بأن مولانا الملك الأجل سيحضر الليلة الدرس.. كنت متهيباً لتلك اللحظات ونحن ننتظر ظهوره.

عندَما دخل مولانا.. سجد داعي الدعاة على الأرض.. فتبعناه جميعاً.. أمرنا برفع جباهنا.. وأخذ يمسح على رؤوسنا فرداً فرداً.. جلس في كرسي أُعد له.. مرَّ بنظره على عيون الجميع.. هي المرة الأولى التي أراه فيها.. يشبه ذلك الشاب الذي كان المعلم يستضيفه في داره.. أخذ الملك

يقرأ في مختصر أبي حنيفة النعمان في فقه التشيع.. وقال بعد ذكر اللـّـه عز وجل والصلاة على رَسُـــوْله الكريم والوصي والأئمة الأطهار:

"الحمدلله المتعال عن أن يكون لثواقب العقول والأفكار مطار في آفاق عظمته المتجلل عن أن تعبر مختلفات الألسن واللغات عن كنه صفته المتقدس عن الصفة ونفيها اللائقين بإبداعه وخلقه الذي عجز عن إدراكه العقل السامي على أبناء جنسه بشرف سبقه فهو الذي نهض متلمسا ذلك غشيته أمواج الحيرة فغرق في تيارها وجذبته يد العجز.. أما بعد أيها الأخوان ارجعوا في المشكلات إلى من جعله اللـّـه بهدايته خيرَ كفيل، فإن الظاهر والباطن كالروح والجسد إذا اجتمعتا، انقدحت الفوائد، وعرفت المقاصد، وأدركت النفوس بتوسط الحواس ما في العلم من البدائع، فاستدلت بوجود الصنعة على معرفة الصانع، فذروا ظاهر الإثم وباطنه، فمن عَـبَـدَ اللـّـهَ تعالى بظاهر دون باطن أوْ بباطن دون ظاهر، فهو كمَن يعبُــدُهُ على حَـرْف؛ لأن كـُـلّ كلمة تفيدُ معانيَها، ولا تنتهي إلى الغاية فيها التي خصصناكم بإعادة القول في بيان تأويلها، أيها الأخوان هبوا القرائح وصفوها واصقلوا الأفكار وأجلوها، وانظروا بعين البصيرة إلى هذه الخلقة الجسمانية الدنية وما سرى فيها وحفظ عليها وجودها من العناية الإلهية".

استمرَّ يَفيضُ بكلماته الغزيرة علينا إلى وقت متأخر من تلك الليلة.. وكان ذلك أول درس احضره له.. في ذلك الدرس كنت أتأمل مولانا الأجل.. وأنا أحدث نفسي عن أي إله يتحدث ويدعو؟! أم أن السلاطين

والملوك والأئمة لهم آلهة يقاتلون من أجلها لا نعرفها.

بعد انتهاء الدرس كلَّفَ مولانا داعي الدعاة بتشكيل جماعات من بين الدعاة لتنظيم وإلقاء دروس مذهب أهل البيت بالجامع الكبير على العامة.. كما أمر بتجهيز سكن في أحد دُور القلعة لسكن طالبي العلم القادمين من خارج صَـنْـعَـاء لتعلم مبادئ التشيع وعلومه.

داعي الدعاة وهو الضليع في العلوم الدينية وأسرار الدعوة الإسماعيلية.. كلف عنه نقباء في جميع نواحي جزيرة اليمن يجتمعون سنوياً.. ولا تمنح الإجازة للدارس إلاَّ بعد أن يكون قد أخذ عن داعي الدعاة الأسرارَ الإلهية العُـليا.. وعلم الظاهر والباطن ومنطوق الرموز والأرقام..

بين ليلة وأخرى يسير بي قانح في ساحات القلعة.. نصلي في مسجدها البراني.. يحدثني عن فتوحات مولانا الملك الأجل.. يقول لي :هكذا أصبحت صفته منذ دخوله صَـنْـعَـاء.. لكنه لا يزال الداعي للمذهب الفاطمي بين بلدان جزيرة اليمن. كنتُ أتغير يـَوْماً بعد يوم.. أسمعه يحثني على الكلام.. على مشاركة مَن حولي.. سألني يـَوْماً إن كنت قد قابلت أمي واطمأننت على دار المعلم صعصعة.. ابتسمت.. قلت له والعَبرَة تخنقني:

– لم أجد أحداً.. أَوْ هكذا خُـيِّـلَ لي!.

– كيف ذلك؟!.

– بيتُنا يسكنه آخرون.. ودارُ المعلم مهجور.

– ألم تسأل الجيران؟.

– لم أسأل!.

– لماذا؟.

– الناس يعاملونني كمعتوه!.

– مَن يراك بهذا الشعر يظنك بالفعل معتوهاً .. لماذا لا تزيله؟!.

– أشعر بأمان وهو يخفيني من محيطي!.

– إذا سأعينك وسنذهب مَـعاً نبحث. فلا خوفَ عليك اليومَ لقد تحسنتَ كثيراً.. بعضُ مَن كان في الظلمة فقدوا عقولهم بعد خروجهم.. والبعض يخاف مخالطة الناس مثلك.. أنت رجلٌ قوي.. وإيمانك بالله يساندك سنخرج معاً.. ونعود معاً.. وأنت من اليوم ستذهب مع فِرَقِ دُعاة المذهب إلى حلقات الدرس.

كدت أقول له أن لا إيمان لي بشيء.. هو الشك من كل شيء يؤثث عقلي.. لكني قلت له:

– ستذهب معي وماذا سنقول لهم؟

– أنت تحمل ذهناً وقاداً.. لقد خَـبِـرْتك في الظلمة.. وما أنت فيه اليوم سيزول.. وسنجد أمك ونسأل عن أسرة صعصعة.. اعلم أن الدنيا لا تدوم على حال.. وأنت اليوم تتزود لتكن أحد الدعاة.

– لكن صنعتي هي رسم الكلمات ونقش الزخارف والألوان.

– أنتَ للدعوة أفضل.

– لا أرى نفسي إلا مع الألوان والخطوط.

– سأرى كيف يكونُ الأمر.

– أشعر معك بالأمان.. فلا تتركني.

– عليك أن تعودَ إلى ماضي عهدك تواجه الحياة وتحبها.

ماضي عهدي.. لا أرى ذلك الماضي.. أسأل نفسي هل كنت قوياً كما يقول؟. ما أدراه بماضي عهدي؟. أين ذهبت قوتي تلك.. هل كانت في قُربي من أمي.. شَـوْذَب.. المعلم.. زوجته.. قعطاب.. أم في تلك الفترة التي كنت وحيداً في الحانوت.. أم أن ظلمة اللّـه من أعادتني شخصاً آخر؟

وجعُ مدينةِ اللّـــه:

شوارعُ صَـنْـعَـاء بدت مقفرةً من الحياة.. أسواقها.. دُوْرُها تقفُ صامتة. أسير بجوار قانح أرى كـُـلَّ شيء بشكل مختلف.. قال أن علي أن أفكر دوما بأمل جديد.. قلبي يخفق لنظرات الناس وتعليقاتهم.. سرتُ به إلى سوق الوراقين.. أخبرته بأني سأريه حانوتَ المعلم مخرباً.. وذلك الجار الجلف.. تمنيتُ عليه أن يتحدثَ إليه.. يسأله عن المعلم.. ومساعده – الذي هوِ أنا و لم يعرفني –.. عن الحانوت.. قد تكون له معرفة بمصير أُسرة المعلم أوْ أمي.

وقفتُ بالقرب منه.. ورفيقي حتى يتحدث إليه.. كان ذلك الجار لطيفا في كلامه.. ظناً بأنه زبون.. قال بأنه حزين على مقتل صعصعة واختفاء مساعده.. منذ سنين.. وأن منظرَ الحانوت وهو مخرب يذكرُه بفواجع الزمن على المدينة.. وقال بأنه فر وأسرته خارج صَـنْـعَـاء في فترات متعاقبة.. حين دخول قبائل أحد الأئمة.. وحين يعود لا يسمع عن تلك الأسرةِ شيئاً.. ويظن بأنهم ربما فرّوا مع من فر خارج صَـنْـعَـاء و لم يعودوا.. أوْ أنهم تعرضوا للقتل.

إحساسٌ بالضياع يعاودني.. تهمني تلك الغرفة التي خلف الحانوت.. لم أعد أعرف المكان.. أوْ تلك الأزقـة بشيئ.. رأيتُ منارة مسجد السوق بين صَفي الحوانيت.. تذكرتُ ذلك اليومَ الذي عاد فيه المعلمُ من القلعة متجهماً.. اصطحبني إلى المسجد صلى ، لنخرُجَ وقد انفرجت أساريرُه.. هل أحتاجُ أنا لإيمان كما كان المعلم؟.. أم أن المسألة فطرة كما تقول أمي.. وأنا لا أمتلكُ ما يمتلكه غيري؟.

أمسك قانح بيدي مواسياً.. سرت به إلـى زُقاق بيتنا.. كان بابُـه مفتوحاً.. شعرت ببُرُودة مفاصلي وأنا أُمَنـّي نفسي ببصيص أمل.. أحاولُ طردَ خوفي.. هل ستظهر أمي؟!. كدت أتعثر.. تقدم قانح.. وجّـهَ فمَه نحوَ مدخل البيت وبصوتٍ عالٍ:6

– يا أهلَ البيت.. هل مَن يسمعني؟!.

أطل وجه المرأة التي لا تشبهُ أمي.

– مرحباً.. مَن يُريدُ أهلَ البيت؟..

قالتها المرأة مستبشرةً.. ثم أردفت.

أكملنا فحص وجرد محتويات أربع قاعات.. وتم ختمُ صناديقها التي أثبت الفحص والمطابقة بأن نسبة خمسة وأربعين بالمائة من محتوياتها غير موجودة.. وما هو موجود عبارة عن نسخ ضوئي.. ولم يتبقَّ غيرُ إقفال وختم أبوابها.

حين نلتقي بين فترات العمل لشرب الشاي.. أوْ مضغ القات تكون كلماتنا موشاةً بالخوف.. أهرب لأسترق لحظات انهماكهم مواصلاً قراءتي لحكاية جوذر.. أحاول إكمالها.

– عمن تسألون؟.

– عن امرأة وَحيدة كانت تسكنُ في هذا البيت!.

– أنا وزوجي نسكنُه منذ سنين.. أتيناه مهجوراً.. ولا نعرفُ عمن سكنه قبلنا.

شعرتُ بصوت انهيار بداخلي.. لم أعد أسمعُ غيرَ طنين كلماتهما.. لا أدري عما كانا يتحدثان.. وما جدوى الحديث.. بل وما جدوى الأمل الذي يبشر به قانح في غياب مَن نحب.. هل ما أسمعه حقيقة.. ابتعدتُ عنهم خطوات.. سرت في صمت.. تبعني أمسك بيدي من جديد يلامس كفي.. قال كمن عليه أن يقدم واجباً:

– عليك أن تتشبث دوماً بالأمل.. وأن تمضيَ بي إلى دار معلمك صعصعة.

سار إلى منعطف الشارع.. ثم عاد، وقال: لا أحد الدار مهجور!.. ظهر صبي من باب أحد المنازل الصغيرة.. تقدم قانح يسأله فر الصبي.. طرق أحد الأبواب المجاورة. خرجت امرأة.. قالت له أنها لا تعرف أحداً.. لكنني سمعت عن أسرة كانت تسكن ذلك الدار أم وابنتها ويقال بأنهما اختطفتا. ثم صمتت تتطلع في طرفي الزقاق وعادت تقول: سمعت أخباراً أخرى بعد سنين بأنهما سافرتا. ثم اختتمت كلامها: كـُـلّ الأخبار في هذه المدينة كاذبة!.

لم يكنَ بينــنا من صــوت.. فقط وقــع أقدامنا.. وصيحات صبية

يتلاحقون.. امرأة تجر خطام جَمَل محمل حطباً.. امرأة أخرى تسوق حميراً وقد امتطت أحدَها.. نصادف أفراداً هنا وهناك.. قال: يبدو أن المدينة أصابها شرخٌ عميق.. وأن حروبَ الأئمة وعشاق نصرة الله يسعون دوماً لاستباحتها.. و لم يعد من سكانها إلا بضعة نساء وعجزة وجموع صبيان.

بعد أن عدنا تأكد لي أنني وحيد.. وأن ظلمة اللـــه لا تكمن في باطن الأرض فحسب.. بل أنها تتخفى هنا في أزقة ودور المدينة.. تترصدني أينما حللت.. لم يعُد للدموع من معنى.. إحساسٌ بالفقد يتزايد.. انكفأت على نفسي.. أفكر.. أين يمكن أن تكونَ أمي وشـَـوْذَب؟. ما فائدة خرُوجي من الظلمة؟!.

قضيت بداخل القلعة عدة أشهر لا أحضر حلقات الدرس.. ولا أخرج منها.. يأتي قانح في المساء.. يسير بي في الساحة الداخلية لأسوار القلعة.. يُحدثني عن معاركَ دارت.. قال لي بأن مولانا الملك الأجل حين تقدم على صَـنْـعَـاء من حَرَاز قبل خروجنا من الظلمة.. قد دخل في معركة مع السلطان أبي حاشد في وادي (صوف) ببلاد البُستان.. وأنه اقتاد أبا حاشد ضمن الأسرى إلى صَـنْـعَـاءَ بعد انتصاره عليه.. ما دفع بعضَ دُعاة الإمامة الزيدية وأمراء جزيرة اليمن إلى مراسَـلة نجاح الحبشي صاحب زبيد للقضاء على الصُّـلَـيْـحـي وتخليص صَـنْـعَـاء منه.. قبل أن يلتفت إليهم. ولا يعرف قانح بأنه لم يعد يهمني أبا حاشد.. أو أخبار أئمة الدعوات.

كنت أتركه يحدثني دون أن أرد عليه.. وقال إن دخولَ مولانا صَـنْـعَـاء.. كان نهايةً لمعارك متتالية.. أنهكت المدينة وجعلتها مدينة مدمرة.. وأنه يخطط لوثبات جديدة لضم بلدان جزيرة اليمن..

ولهذا اجتمع مولانا قبل عدة أيام بدُعاته وكبار مواليه.. ليشاورَهم في وضع خطط لمواجَهة تلك الدعوات.. وحماية المدينة من السلب والنهب.. وأنه عازمٌ على البدء ببناء سور يُحيط بصَـنْـعَـاء ويحصنها.. وقد أمر بسُرعة جمع المئونة اللازمة من أحجار وتبن.. للبدء بذلك العمل.

بعدَ أيام خرجتُ طاعة لرغبة رفيقي قانح مع مَن خرجوا من القلعة.. لأرى جموعَ الناس تتجه خارج المدينة ببهائمهم ومعاولهم.. تسبقهم فرقـة الأبـواق والطبـول تجـوبُ الشوارعَ والساحات معلنةً للسكان خروجَهم للمشاركة.

كانت المدينة في سباق.. وكان أصحابُ دعوات الإمامة ورؤساء بعض البلاد يتراسلون فيما بينهم لجمعِ كلمتهم وشحذ همم القبائل للزحف على صَـنْـعَـاءَ وتخليصها من الصُليحي.

السحبُ السوداءُ تغلق الأفق.. ترتفع أصواتُ الشغالة بأهازيج.. تهتز أشجار الأَثْـل لرياح شديدة.. تهطل الأمطار بغزارة.. يغطي العاملون ما أنجزوه من طين السور الطري بالحَصير والجلود وفروع الأشجار.. يفر الناسُ بمواشيهم ودوابهم للاحتماء بالبيوت والدُور المجاورة للسور.. ما إن يخف المطرُ حتى يعودَ الجميعُ للعمل.

مولانا الأجل كان يطوفُ مشجعاً في مواقع البناء صباحاً ومساءً.. ويرى السورَ ينمو بشكل متتابع.. أُشيع في ذلك الوقت أن مولانا الأجل يملكُ كنوزا طائلة.. لم تمض ثلاثة أشهر حتى أوشك البناءُ على الاكتمال.. و لم يتبقَّ غيرُ استكمال قلاع البوابات.. القادمُ إلى صَـنـْعَـاء يرى حصناً أبيضاً يحيط بخاصرة المدينة.

دعا مولانا الناسَ لصلاة الشكر.. امتلأ الجامع الكبير بالمصلين وساحاته المجاورة والشوارع والأزقة المحيطة .. خطب فيهم بأن لا يعتمدوا على السور.. وعليهم أن يكونوا مستعدين لأي اعتداء.

قانح كان يراقبني يـَـوْماً بعد يوم حين أخرج مع الناس.. قال لي بعد أن عُدنا من إحدى صلوات الشكر: لقد تغيرت يا جَـوْذَر.. وهذا أنت بعد مشاركتك ومخالطتك للناس تظهر برُوح تواقة للحياة. لم يكن يعلمُ بأني طوال خروجي كنت أبحث بين الجموع على بُـرْعُـم أمل وأني كنت أفتش بين الوجوه عن وجه مألوف.. لم يكن يعلم أن ذلك السورَ لا يعنيني.. فداخلي أسوار.. ولا تعنيني انتصارات مولانا.. فداخلي هزائم.

لم يصل التهديدُ الذي كان يخشاه سكانُ صَـنـْعَـاء.. و لم تظهر جحافلُ القبائل التي كانت الأخبار تصل قبلَ أشهر بأنهم يعدُّون للهجوم على المدينة واقتحامها ونهبها وسلب سكانها.. لكن هناك مَن لاحظ بأن أعدادَ الغرباء الداخلين إلى صنعاء بدأ يتزايد.. وبدأت الأسواقُ والساحات تزدحم بهم.. في البدء ظن الناسُ أنهم من التجار العابرين.. أَوْ المتسوقين.. أَوْ ذوي الحرف.. سريعاً ما ظهرت خارجَ صَـنـْعَـاء

جموعُ القبائل الزاحفة.. ليُدركَ الجميعُ أن أُولئك الغرباء ما هم إلا مقدمة تدعم من خارج المدينة للاستيلاء عليها.

خرج مولانا الأجل في خُطبة قصيرة.. حَمَدَ اللـّـه، مصلياً على رَسُــوْل اللـّـه، مُثـنـياً على الوصي والأئمة من آل البيت.. معلناً مواصَلَةَ الدعوة لأمير المؤمنين الإمام المستنصر باللـّـه الفاطمي.. ثم ختم خطبته بأن أمرَ الجميع بتعزيز البوابات الأربع بفُرسان ومشاة لصد أيّة محاولة لفرار من تسللوا إلى داخل المدينة.. وحماية السور من أيّ تسلل من خارج المدينة.. وسيَّرَ مَن يُعلنُ لجميع السكان بقتل كـُـلّ غريب.. ازدحمت قلاعُ حماية السور بالمدافعين.. توَّزع الجُندُ إلى مجموعات يجوبون أزقة المدينة بحثاً عن كـُـلّ غريب.. معتمدين على أدلاء من السكان.. تحصن بعضُ الغُرَباء بالدُّور والمنازل المهجورة.. تم إشعال النيران في بعضها.. سُحب خلف الخيول من استسلم.. لجأ بعضُهم إلى المساجد معتصمين متحصنين بجُدرانه.. تم اقتحامُ تلك المساجد.. ليدور قتالٌ في صروحها وممراتها ذبحاً وبَقراً.. أُقتيد مَن بقي منهم على قيد الحياة.. سار الجُـنـدُ بهم مكبلين في شوارع صَـنْـعَـاء.. ليتعظ من بقي بنفسه رغبة في مساعدة أيّ متسلل.. تم تجميعُهم أمامَ أبواب صَـنْـعَـاء.. قُطعت أياديهم.. وقُذف بأشلائهم من أعالي السور.. عبرة لمن يتعدى حدودَ اللـّـه والرّسُــوْل وإمام المسلمين الفاطمي.

رأى سُكانُ الدُّور ومَن على السـور جحافـل المحاصريـن خارج السور.. وهم يولون الأدبارَ.. ارتفعت أصواتُ مؤذني المساجد والجوامع

من مناراتها المرتفعة.. بابتهالاتهم إلى اللـّـه مُصلين على الشفيع المصطفى والوصي والأئمة الأطهار.. مؤكدين الولاءَ للمستنصر باللـّـه الفاطمي.. مرددين الدعاءَ لمولانا الأجل بالنصر المبين.

* * *

خلال أشهر زادت أوضاعُ صَـنْـعَـاءَ استقراراً.. وتزايد المترددون عليها من الباعة.. وازدهرت تجارتُها.. وأعاد الناسُ بناءَ دُورهم ومنازلهم.. واكتظت ساحاتُ أسواقها وأزقتها.. لتعودَ خلالَ سنة ونصف السنة إلى ماضي عهدها.

صعد مولانا الأجلُّ خطيباً بالجامع الكبير.. معلناً نيتَه التوجُـهَ لمحاربَة دُعاة الشقاق وزارعي الفتن في بُـلدان جزيرة اليمن.. وجمع بلدان جزيرة اليمن على نهج الدعوة المثلى لمولانا أمير المؤمنين المستنصر باللـّـه الفاطمي.. سليل العترة الطاهرة وحفيد سيد الرُّسُـل حبيب اللـّـه.

أقام السلطان أبا حاشد نائباً له على صَـنْـعَـاءَ.. ليسيرَ في الناس على شريعة رب العباد بالحُسني وسُنة نبيه المصطفى وأئمته الأخيار أهل الهدى.. ليقفَ أبو حاشد حامداً لله مثنياً على ما أنعم عليه بالهداية والصلاح.. متعهداً لمولانا بالطاعة والثبات.

استقرت أوضاعُ المدينة وأنشأ داعي الدعاة مأمونية النسخ، من سبعة نُسَّاخ وأنا ثامنهم.. سُلمت لنا إحدى قاعات القلعة.. المطلة نوافذُها على وادٍ سحيق إلى الشرق منها.. ونوافذها الأخرى المقابلة على دُور

صَـنْـعَـاء.. استلمت صندوقاً خاص بي بمفاتيحه.. وضعت فراشي بجواره بحيثُ يحجُـبُني عمن سواي.. أخفي بداخله كـُـلَّ ما أريد إخباءه.

نتوزع وزملائي أعمالَ نسخ الكتب.. وتزيين الحواشي بالزخارف والنقوش الملونة.. هي قاعة لا تشبهُ تلك الحُجرة في دار المعلم.

كتبٌ تصلنا بشكل متزايد.. نرتبُها بعد تسجيلها.. ثم نضعُها في سجل المطلوب نسخُها حسب ما يُطلَبُ منا.. أتصفح كتاباً، أعثر يوماً على رَسْـم أحرفه يُشبهُ أسلوبَ المعلم.. تأملته، بل هو من نسخ المعلم.. شعورُ مَن التقى بعزيز.. أخذت بنسخه يـَوْماً بعدَ يوم شعرت بأن المعلم بيننا.. وأن روحَه بقُربي وأنني في أمان.. احتفظت بذلك الكتاب بعد أن نسخت بديلاً عنه.. وفي مرة تالية وقع كتابٌ من نسخي.. كانت أخطائي كثيرة.. وأسلوبي غيرَ متقن.. فقط ما أبهرني تلك الهوامش وقد ملأتها بالنقوش الملونة.. لم أفصحْ لغيري أن ذلك الكتابَ من نسخي.. و لم أفكر بالاحتفاظ به.

أكملـت بهجتي بوصـول أحـد الكتـب.. وكان بخط شـَـوْذَب.. تصـفحته واقفاً.. استنشـقت رائحة ورقه أمام دهشـة روحـي.. حملته بعيداً.. غير مصـدق ما أنا فيه.. وقبل أن أنام مشـطت صفحاته، فقراته، كلماته لم يكن المتن يعنيني.. لكنه الرسم.. فتشت عنها بين رسم الأحرف عَـلـَّـي أجدهـا.. رائحتهـا.. روحَها.. أهمس فتُجيبني.. أسـتحضر

وجهَها.. صـوتها.. نظراتِها.. تملأ القاعة بحركتها.. الكل نيام إلا هي.. أبت عَليَّ أن أنام.

أتذكرُ تلك الأيام البعيدة.. حين كانت تخط هذا الكتاب.. كانت تحسسني بتفوقها في رسم حروفها بشكل جميل، لا قدرة لي على مجاراتها.. كنت أبحث عن طريقة أستغلِ إحساسَها بالتفوق.. أن أعبّرَ لها عن خضوعي لها.. حاولت أن أتوصلَ لرسم حرف مميز.. عدة شهور وتلك الفكرة تشغلني.. أن أفاجئَها.. الخروجُ بحرف يشبه إحساسي نحوَها.. أتلفتُ عشرات الأوراق والرقوق.. عملت في الحانوت وأثناء مسامرتي لأمي.. بعدَ أيام طوَالٍ اكتشفت رسمَ حرف دون أن تكونَ له زوايا حادة.. بل رسمتّه بشكّل مرن.. واخترت لحرفي قصائدَ شعرٍ لأنسخها في كتاب.. عدةَ شهور استغرق مني إنجازُه.. تفننت بنقش زخارف حواشيه وتلوينها.. قدمته لها.. قالت لي:

– ما هذا؟.

– كتابُ شعر أكملت نسخَه البارحة.

– وما الجديدُ فيه؟!.

– تصفحيه.. واحكمي.

– أعرفُ بأن نقوشَك للزخارف والصور تدهشُني.

– تصفحي رسمَ حروفه.. لقد حاولت أن أرسُـمَ حرفاً يشبهك.

– هذا حرفٌ جديد.

– أسميته شـَـوْذَب.. ألا ترَين أن جميعَ أحرفه قد تشكلت بانحناءات مرنة.. ولينة، وكأن الحرفَ قد تحوَّل إلى ما يشبه دوائرَ على صفحة الماء.. إلى ما يُشبهُ وجهَك.. دوائر عينَيك.. خاتم فمك.

لم أرَ بشرة وجهها أكثرَ حُمرة من تلك اللحظة.. ابتسمت أظهرت لي سعة فمها الصغير.. نظرت إلى وجهي بامتنان.. لم تنطق.. لكن نظرتها تلك أدخلت كياني في وَجْدٍ لم أبلغ درجتَه من ذي قبل.. لم أكن أعرف أن تلك الأحرفَ قد تحوّلُ شـَـوْذَب إلى إنسانة أخرى.. تحدثني وهي تتابعُ الزخارفَ والرسومَ الملوَّنة على الصفحات الأولى.. ثم تصمت وهي تتأمل رسمَ أحرف الكلمات.. نظرت إليَّ قائلة:

– هل رآه أبي؟.

– هذا رسمته لك!

– هل أنت على يقين؟

– أليست تلك الأحرف تشبهك؟!.

– أنت مُحَـيِّـر!.

– ولِمَ الحيرة؟.

– أيُعقلُ أن تخط لي كل هذا.. أم أن في الأمر سر؟!.

- السر في أنني حين أرسمُ كنت أستحضرُك.

- لم أفهم!.

- لا عليك.. ستفهمين حين تفكرين وحيدة!.

منذ قدمت لها تلك النسخة أحسست بها تتغير.. وإن ظلت مُقلة في الكلام.. حافظت على تلك المسافة بيننا.. كانت تسألَني بين فَينة وأخرى: هل من حرفٍ آخر تحاولُ استخراجَه؟. كنت أضعُ لها أجوبةً تحتمل أكثرَ من معنى مثلَ: يظل الكمال غاية الإنسان. وَ: لا يوجد خيارٌ آخر إلاَّ أن نظل نرسُمُ وننقش. وهي لا تلح عليَّ بأسئلة كنت أتمنى لو تكثر.. بل تكتفي بما تسمعه.. لتصمُتَ منشغلةً بما بين يديها.. أَوْ تتحدث باقتضاب في موضوع يقتربُ قليلاً من المشاعر ليبتعدَ كثيراً.

* * *

وها أنا اليوم وحيداً في ليل القلعة.. أرى مدينةً من نافذتي تتمدد بدلال كغانية أعياها الصبر.. وهاهي شَـوْذَب وهاهو المعلم إلى جواري.. تسامراني روحين بعدَ أن كنتُ وحيداً.. حين أحن إلى أنيس التقط أحدهما.. أشعر بأني أحتضن روحيهما.. لا أحد يراهما غيري.. يجوبان أرجاءَ هذا البناء الكبير.

أصحو مع أذان الفجر.. كـُـلٌّ من في القلعة يتركون أغطيتَهم، إلا أنا أتدثر، أجلسُ جوارَ إحدى النوافذ حيثُ صَـنْـعَـاءُ تنسابُ أمامي بمآذنها ودُورها وخُضرة بساتينها.. تلك الجبال الغربية المتجهمة التي تخفي وراءها

الجبال العالية.. حيث عاد المعلمُ يوماً بشَـوْذَب جسداً دون روح.

حين أنتهي من عملي أقضي وقتي وحيداً في نقش زخارفَ وصورٍ على ورق أخفيها عمن حولي.. تطرب لها روحي، أتحرك بهدوء بعد أن ينام الجميع ليلاً. الكل يتعاملون معي كحالة غير سوية.. يسعدُني ذلك، ولا أرى في نفسي ما يقولون.. أسمع تعليقاتهم حولي، عن إتقاني لعملي.. أسهَـرُ شطراً من الليل أحاكي أرواحاً.. والبعضُ يقول بأني مسكون، أَوْ مسحور.. وآخر يظنني مجرد أبله.. وفريق يجزم بأني خبيث وينصحُ بتجنبي.

كان كل ما يهمُّني أن لا يقتحمَ عَلـيَّ أحدُهم حياتي.. فقط قانح الوحيد الذي أنتظر عودتَه من مرافقة مولانا إلى حروبه ومعاركه.. حين يعودُ يُمسكُ بيدي أسير جواره كطفل تائه.. أجلسُ إليه.. وأخاف أن أفقدَه يوماً.

أُريه ما صنعت على حواشي بعض الكتب التي كُلفت بنسخها.. وصفحات نقشتُ عليها صوراً وزخارفَ أحتفظ بها لنفسي.. أحدثه عن كتاب نسخه المعلم منذ زمن وآخر لشَـوْذَب وقد أعادا إلى رُوحي الأمل.. أحدثه عما أنجزت من نسخ الكتب التي أكلف بنسخها:

كتابُ (الزينة في الأحرف ومعانيها) لأبي حاتم الرازي، وكتاب (المراتب والمحيط) لجعفر بن منصور اليمن وكتاب (أساس التأويل) للقاضي أبي حنيفة النعمان.. أظل أعمل لياليَ طويلة.. على تلوين

الحواشي ونقش ما أتخيله على الزوايا وصافي الرقوق.. بل وأميِّز بعضَ الجمل بألوان مغايرة.

حدثته من أنني مللتُ رسم الكلمات.. وأنني خرجت عمَّا ألفته من تزيين الكتب إلى نقش الزخارف.. فأخذت أنقش وجوهاً جميلة.. وأكفاً وأذرعاً.. فراشاً.. عصافير.. يوماً بعد يوم أخذت تلك النقوش تأخذ مساحاتٍ وألواناً على مُتُون الكتب.. حتى أن نقوشَ الوجوه والأكف أخذت حيزاً كبيراً حين نسخت كتاب "إحدى عشرة رسالة في تأويل سورة النساء" لجعفر بن منصور.

قال لي قانح:

– ارني تلك النسخة؟.

– هي في صندوقي.

– الزخرف ترف.. أمَّا نقشُ أعضاء الإنسان أَوْ الحيوان فمكروه.. وقد يكون من المحرمات أن يأتيَ النقشُ في صفحة يأتي ذكرُ اللـّـه أَوْ الرَسُــوْل فيها.. وأخاف تُطرد من القلعة.. فلا أستطيع إلا أن أفقدك!.

لم أخبر قانح بأني نقشت وجوهَ نساء وبعضَ أعضائهن على هوامش صفحات أحد المصاحف.. وأن سورةَ مريم أخذت حواشيها لياليَ طويلة مني وأنا أنقش ما تخيلته أن تكون مريم.. ولا يعرفُ أن النقشَ والألوانَ تحملني بعيداً.. إلى عوالم لا يعرفها أحد.. وأني أفسر الآيات بالصور.

* * *

أمسيت أثناءَ غياب قانح أخرج من القلعة وحيداً.. أسير في أزقة المدينة. أرى زحام المارة.. أنظر إلى دور صنعاء وقد عادت إليها الحياة.. حوانيت الأسواق امتلأت بالسلع.. أتحسر أن يظل حانوت المعلم مهدماً.. أطوف أحياء المدينة.. أبحث عن بصيص أمل عله يدلني على شَوْذَب أَوْ أمي.. زرت شوارعَ اليهود.. ذلك البيت الذي ولدت أمي فيه ،الكنيس.. أبحث عن أسرة أمي.. عجوزٌ خلف باب مفتوح.. ما أن سمعت صوتي حتى دعتني إلى الدخول.. تجلسُ في زاوية حجرة السلم المؤدي إلى الدور الثاني.. تنظر إلى يدي.. شعري المبعثر.. تمسك يدي بين كفيها وكأنني أليف لديها.. تسألني: من أنت؟!. عيناها تشبهان عيني أمي إلا أنها عجوز.. أجلستني.. كنت أرفع صوتي وأقرب فمي من أذنها.. حين ترد عليَّ: هاااه. أعرف بأنها لم تميز كلماتي.. أكررها بصوت عالٍ.. أخيراً عرفت من أكون.. تمسد شعري الذي يغطي كُلَّ شيء.. تبحث عن عيني.. تسأل عن أمي.. تُمني نفسَها برؤيتها قبل أن تموتَ.. أخبرتها بأني أبحثُ عنها.. قلتُ لها بأن أمي حافظت على عهدها بيهوه.. وأنها عاشت وحيدةً و لم تجد من يُعينها على شدائد الحياة.. كانت تتأمل فمي وأنا أرفع صوتي.. تمسك بيدي بين كفيها.. يبدو أن مظهرَ شعري الطويل وضمورَ جَسدي ما جعلها تسألني: هل أنت يهودي؟. قلت لها بأني أحملُ عن أمي الكثير.. وأنها قالت لي يوماً "إن الابن يُنسَبُ لأمه.. وأن الخالقَ راعي ذُريَّة إسرائيلَ سيرعاني". ثم أخبرتها بأني كنت مسافراً، وحين عدت لم أجد أمي في بيتها.. قالت لي: أنا أعيشُ وحيدة.. وأُمُّك تعيشُ وحيدة.. أخبرْها بأني أريد أن أراها!. قالت لي إن ابنتها الوسطى تزوجت

خارج صَـنـعَـاء.. وأنها لا تزورُها.. وأن ابنها الوحيد متزوج ويعيش قريباً منها ويزورُها وأولاده دوماً.. وأنه يريدُها أن تترك بيتها لتعيشَ معهم ، وأنها لا تطيقُ فراقَ بيتها.

كانت تجيدُ مداعبة يدي بين يديها.. مثل أمي.. أشعرُ لملامستها برائحة الدفء.. طلبت مني العودة لزيارتها.. قالت لي: لا تقل لأحد بأني أعرفُك!. وإن صادف وجود أحدهم هنا عند عودتك قل بأنك تسأل عمن يقص شعر رأسك.. قلت لها: لكني لا أريد ذلك. رفعت صوتَها وهي تضحك: قل هكذا ولا عليك. قبلت جبينَها.. حاولت النهوضَ.. تركتُ في حجرها ما كان معي من كسر خبز.

بيتُ المعلم الذي تتخلله الريح.. وقد اضمحل طين سوره.. سرت أمامه وتلك النوافذ اليتيمة تراقبني بصمت.

مضيتُ وقد تغير إحساسي بذلك الشارع .. خطواتُ المارة لها إيقاع مختلف.. وتلك الزخارف على واجهات الدور الأخرى بدأت تفيق.

أرى في عيون المارة ابتسامات ساخرةً.. الصبية يفسحون لي الطريق وكأني كائن مفترس.. أفواهُهم فاغرة.. وعيونُهم ترمش بسرعة.. لا يعرفون ما أحمله من انكسار وضعف.. أسيرُ وأنا أحسُـبُ المسافات التي سأقطعها.. وتلك العيون التي سأصادفها.. والملامح التي ستتغير حين أمر بجانبها.. والكلمات التي قد تجرحني لسماعها. كنت أرى نفسي في أفواه المارة.. في خطوات الصغار حين يبتعدون تاركين ألعابَهم.. ثم تتبعني نظراتهم الحذرة حتى يختفون.

أسيرُ وسط السوق القديم.. أقفُ في رُكن بين الناصيتين.. أتأمل حانوت المعلم، يقف حزيناً بين من حوله، كومة من التراب.. أرى بعض أصحاب الحوانيت ممن أعرفهم والبعض لا أعرفهم.. لا أحب أن يعرفونني.. تسافر دمعةُ على سطح خدي لتغوصَ بين جُذور شعر وجهي.. أتردد على تلك الناصية من وقت إلى آخر.. تنهمرُ دموعي في صمت لا أعلم على ماذا بالتحديد.. أشعرُ بعدَها بخفة مشاعري.. أمضي وبقايا أسى بداخلي.. أسير بمحاذاة سوق النحاس.. اخترق سوقَ الحدادة.. أقفُ أمام حوطة العبيد لأرى عدة نساء وصبياً أسمرَ وشابة.. وصوت نخاس متحذلق يرفع يديه في الهواء.. يشير إلى الصبي:عبدٌ صغيرٌ، من يريد شراءه وحيداً أوْ مع أمه. مشيراً إلى أكبر النساء سناً.. ليواصل: أَوْ تُضاف إليه تلك الفتاة التي تجيد العبرية.. الثمن من يدفع أكثر. لا أدري لماذا هَـزَّني صوتُ ذلك النخّاس.. منظرُ تلك المرأة الكبيرة.. أيُعقلُ أن أمي اعتلت تلك الدكة.. يفتحُ النخاسُ شفتيها.. غطاءَ رأسها.. يأمُرُها بالكشف عن أطرافها.. صدرها.

تركت ضجيجَ المكان مبعثراً باتجاه الشوارع المؤدية إلى القلعة.. في تلك الليلة راودني الأمل بأمي وشَـوْذَب.. لم أنم.. قضيتُ ليلي في صلوات.. أصلي لأمي راقصا كما كانت تصلي.. أشعلُ شموعاً سبعاً.. أترنم بإنشاد ما كنتُ قد حفظته منها "إلى الرب صوتي فأصرخ، إلى الرب صوتي فيُصغي لي. في يوم ضيقي أطلب الرب. أبسط يدي ليلاً فلا آكل. وتأبى نفسي أن تتعزى. أذكر الرب فأنوح. أتأملُ فتنكسر روحي. أمسك أجفان عيني، فأقلق ولا أتكلم. أحسب الأيامَ القديمة". ثم أصمت قليلاً

كما كانت تفعل أمي وأواصل "خلصني يا رب؛ لأن المياه وصلت إلى منافسي. غرقتُ في مستنقع عميق لا مستقرَّ فيه. دخلت إلى أعماق المياه، والسيل غمرني. أوجعني صراخي. بُـحَّ حلقي، وكلَّت عيناي من انتظار إلهي".. ثم أصمت قليلاً لأتناول كسرة خبز وكأس نقيع العنب كما كانت تفعل.. ثم أواصل باكياً.. لأشعر أني أرضي أمي.. وأقترب منها.. أحرقتُ لها أعواد البخور وأنا أصلي.. ثم أصلي لشـوْذَب كما كان يُصلي المعلم.. وأعود أتلوا ما كنت أسمعه يرتل ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ وهكذا طوال الليل.. حتى أسمع صوت مؤذن مسجد القلعة يردد أذان الفجر.

قبيل خروجنا من يوم عمل مضنٍ.. جاء ذلك الأمني ليخبرني من أنهم عرفوا ذلك الشخص الذي كان يسرب التقارير من الدار لبعض الصحف.. وأنه يعرب لي عن شكره لي لتعاوني معه.. وقال بأنه على استعداد لإخراج ما أريد من مخطوطات إلى خارج الدار وتسليمها لي.. شريطة أن أعاهده بتنفيذ مايطلب مني.

الرفـــشي

حين يعودُ مولانا الأجلِ من حروبه أنتظر زيارة قانح.. نسير في الساحات المحيطة بالقلعة ليلاً.. أتركه يتحدث عن تلك المعارك التي عاد منها.. يتحدث عن الرئيس نجاح الحبشي صاحب زبيد.. الذيل استمر مولانا يراوغُه طوالَ سنوات مضت.. منتظراً الفرصة للقضاء عليه.. حتى زارته فكرة القضاء عليه دون حروب.. فبادله الهدايا.. ومن تلك الهدايا.. أن أرسلَ إليه إحدى جواريه الحسان.. لتقومَ تلك الجارية بما وجب عليها.. حيثُ جاءت الأخبارُ بموته مسموماً.. ومن ثم تحرك مولانا ليدخُلَ زبيد بعدَ معركة لم تدُمْ طويلاً، ففر بقايا النجاحيين ومواليهم إلى البحر.. ليستقروا في جزيرة دهلك.. وخلال الأشهر الأولى من عام 440 هجرية أخلت الجنود المنصورة تهامة من زبيد حتى إعلان شريف مكة دخوله في طاعة مولانا دون حرب.

حدثته بدوري عما صنعت بأيامي أثناء غيابه، أريته نقوشاً جديدة.. وعن زيارتي لدار المعلم الذي وجدت أناساً يسكنونه.. حكيت له عن لقائي بأم أمي.

ثم حدثني من أن مولانا قد ملَّ بُعد زوجته (أسماء).. وأنه ينوى دعوتها للانتقال من حراز إلى صنعاء بعد أن جُهزت تلك الأدوار العلوية من القلعة لسكنها.. وهي تحاول ثنيه عن مطلبه والبقاء في حصن (مَسَار) بالجبال العالية.

في ذلك الفجر أشار عليَّ قانح أن ننتظرَ خروج داعي الدعاة بعيد صلاة الفجر.. قال بأن أمر انشغالي بالتصوير قد انتشر.. وأن أحدهم أخبر داعي الدعاة بانشغالي طوال الليالي بذلك.. وأني أدخر كمياتٍ من المداد الملَّون والفرَش في صندوقي لممارسة ذلك.

وقفتُ مرتبكاً.. كنتُ أحاولُ معرفة كيفية التعامل معه.. أفكر في حالتي.. في ما لو تم طردي من القلعة.. في مستقبل أيامي.. إذاً هناك من يراقبني.. أيكون شاهدني وأنا أصلي لأمي.. أم أناجي المعلم.. أو أنه أستطاع التسلل إلى صندوقي؟.

همست له حين عاد:

– ألم أخبرك عن شغفي بالنقوش.

– لا عليك مني.. لكنني أخافُ عليك غيري.. فبعد غد سأرحل مع من سيرحلون للقتال مع مولانا في اليمن الأسفل.. وأخشى أن أعود فلا أجدك بداخل القلعة.!

في تلك اللحظة خرج داعي الدعاة ومن معه من المسجد.. اقتربت

وقانح منه.. قبلت كفه.. لأسمع صوتَه مستاءً: أيليق برجل أن ينصرفَ إلى أعمال تغضب الله ورسوله!..

شعرتُ بأن كـُـلَّ شيء يخذلني.. وأني عارٍ أمام داعي الدعاة.. فلم أتفوَّه بكلمة.. و لم أجروْ على النظر إلى عينيه.. حين واصل حديثه: أود أن تريني تلك النقوشَ التي يتحدثون عنها حتى أتأكد من حقيقة ما وصلني. رفعت ناظري لأتبين ملامحَ وجهه، قلت:

– اسمح لي بأن أذهب لأعود بها.

– بل سآتي معك!.

حين كنت أسير إلى جواره.. كان قانح يتبعنا صامتاً.. وأنا أتخيَّل تلك الصفحات المليئة بالألوان.. أفكر في أن أريَه ما هو محتشم.. سرنا حتى باب دار النُساخ.. تجمع عددٌ من العاملين في الدار للسلام على داعي الدعاة.. انضمَّ آخرون إلينا.. و لم نصل القاعة حتى غـصَّ الممر الطويل بأناس كثر.

كنت أزداد خجلاً لرؤية تلك العيون تخترق حجُـبَ كنزي.. استأذنت منه أن يسمحَ لي بصرفهم إلى أعمالهم.. قال مُوَّجهاً الحديثَ إليهم: صحيح.. وما الداعي لكل هذا التجمهر!.

حينئذ عرفت أن الجميعَ يتوقون لمعرفة ما يدور.. ما كان يحيرُني كيف عرف ذلك الواشي بسري وأنا الحريصُ على إقفال صندوقي بإحكام الخائف؟.

تأمل داعي الدعاة بعضَ تلك النقوش.. وهو يردد "يا سُبحانَ اللـَّـه.. يا سبحان اللـَّـه".

– هل أعجبتك؟.

– الآن عرفتُ لماذا قال الرّسُـــوْلُ الصادقُ الأمينُ: أن المصورين يكبون على وجوهُهم في النار!.

– يكبون؟.

– مَن علَّمك هذه الفتنة؟.

– علمني حب النقشَ والألوان.. لأكتشف أني أجدُ في نفسي سعادةً بنقش الصور وتلوينها.. بعد ذلك أخذت أروي عطشَ روحي بذلك!.

– أتسمحُ لي بأن احتفظ بنقش هذا الوجه إلى الغد.

– بل يسعدُني.

منذ زيارة داعي الدعاة.. ورؤيته لنقوشي.. أمسيتُ حديثَ القلعة.. أنتظر الطرد.

* * *

بعد ليال.. قال لي قانح بأن مولانا الأجل أمر بإعادة تجديد الطابق العلوي من القلعة.. وأن قاضي القضاة لم يأخذ ذلك النقش في ذلك الفجر إلا لكي يريه.... وأن مولانا يريد رؤيتي.

فاجأني ذلك الخبر.. وحين حل الليل جاء قانح لاصطحابي.. صعدت درج اضطرابي.. أسير خلفه وجوفي يهزه الخوف والرجاء.. حرسٌ في زوايا ومنعطفات درج الأدوار العلوية.. قاعة فُرشت أرضيتها بأفرشة صوفية.. على جانبي الجدار صناديق كبيرة.. أبْسطة ملونة.. جلس مولانا إلى النافذة المطلة على الوادي السحيق.. على مبعدة منه يقف داعي الدعاة.. أرفف النوافذ العلوية غطتها أوعية نحاسية.. كتب.. وأوَانٍ أخرى.. تقدم قانح راكعاً باتجاهه.. تبعته بالركوع ولثم ركبته.. رائحة زكية لا أعرف مصدرها.. استوى متربعاً في مجلسه.. أحسست بيده على رأسي.. تراجعت دون أن أستدير أحبو على ركبتي كما أوصاني رفيقي.. قال: سمعت عن صنعتك.. وأراني داعي الدُّعاة أنموذجاً منها.. وعرفت بأنك ماهر في نقش الصور.

هززت رأسي بالإيجاب دون أن أنطق.. واصل كلامه: أريدك أن تعملَ على تزيين جُدران القاعات العلوية للقلعة بزخارف تنقشُها على الجدران والسقوف.. نقوش للبراق.. وقاعة النوم يمكنك أن تزينَها بنقوش للحور العين وللغلمان المخلدين كما هو في القرآن.. وزهور مغصنة.. وعصافير تحومُ حولها الفراش.. وكل جميل ذكره القرآن الكريم.. لا أريدُك أن تكثرَ.. بل بمقادير.. وأن تُلوّنَ الأرضَ بألوان الماء.. ستُسلـَّـمُ إليك مفاتيحُ القاعات العلوية.. فلا تسمَحْ لأحد بدخولها.. أوْ برُؤية ما تصنع.. وهذا حضرة داعي الدعاة أمرناه بتوفير ما تريده لإنجاز ما طُلب منك.. أريدُك أن تتفرغَ حتى انجاز ما كلفت به.

لم يكن مولانا متكلفاً بملابسه.. يتحدث متورد بحُمرة باهتة.. شعرُ رأسه مبعثر.. بشرة كفه بيضاء.. بريق عينيه الخضراوات.. صوته الهادئ.. لم يكن يشبه ذلك الرجلَ الذي يصعد منبرَ الجمعة.. لم أنبسْ ببنت شفة.. اكتفيت بهز رأسي.. أتخيل ما سأصنع.. مساحات تلك القاعات.. علوَّ جُدرانها.. أشار بيده وهو يبتسم لداعي الدعاة.. الذي همس: انهض. لأقف سائراً نحو الباب دون أن أستدير أَوْ أوليه ظهري.. وهكذا فعل قانح.

داعي الدعاة الذي رافقنا هبوطاً في الدرجات المعتمة صامتٌ.. ودَّعنا مصافحاً: سأنتظرُك صباحَ الغد.. هززت رأسي.. ويبدو أن العتمة حجبت عنه لغتي.. فقال: هل تسمعني؟. هذه المرة كان ينظر إلى رأسي، فرددت: الله معك. رفعت كفي وأنا أهبط وسط الظلام.

انتقلت بصندوقي إلى القاعات العلوية للقلعة.. تخلصت ممن حولي.. زوَّدوني بصندوق ثان.. وأخشاب سقالة حاملة لأصعد عليها إلـى السقوف وأعالي الجُدران.. وأوعية مليئة بالألوان.. ويراع مختلفة الأحجام وريش طيور.

في البداية لم أستوعب ما أنا فيه.. ولم أعد أعرف حدود المحلل من المحرم لديهم.. كنت بالأمس أقف خائفا من الطرد والتشرد.. واليوم أنا مطالَبٌ بنقش تلك الجُدران والسقوف بما كانوا ينهوني عنه.

بعد أيام صعد إليَّ داعي الدعاة ليتأكدَ من توافر ما طلبت.. قال لي مبتسماً وفي عينيه الرضا:

– طعامُـــك سيصعدُ إليك.

كنت لا أعرفُ إن كنتُ أحتاجُ إلى أشياء أخرى!. أردف قائلاً:

– كما أمر مولانا الأجل.. لا أريد أن يدخلَ غيرُك هذه القاعات!.

– وإن احتجت إلى شيء؟.

– سيؤتى به إليك.

ظللت ليلي أتأمل مساحات السقوف والجدران.. تخيلت أن نقوشَها قد غطت السقوف بأحجام كبيرة.. وأني قد أنجزتُ عملي.. ثم تخيلتها بأحجام صغيرة تنحدر من أعلى السقوف إلى أسفل الجدران.. وأقل كلما اتجهت إلى الأسفل مع نقش صور غلمان يعانقون جواري.. وأن أطعِّـــمَ ذلك بأغصان خضراءَ تحومُ بين أوراقها فراش– كما أوصى مولانا– وعلى سمائها أسرابُ عصافير لا تشبهُ عصافيرَ الأرض.. أن أنقشَ ثماراً معلَّقة شبيهة بتكويرات صدورَ النساء.

أعدتُ تصوراتي لكل قاعة.. لكل جدار.. أفكرُ من أين أبدأ.. وأين تكونُ النهاية.. ركبت عوارضَ الخشب.. أقسم السقفَ الأول إلى مركَز ومحيط وأطراف.. وزعت تلك المساحة بخطوط الجير.. هبطت من على خشب العارضة.. نظرت إليها من أسفل... لم تكن متناظرةً.. عدت إلى أوراقي.. أوزع الأبعاد.. ثم أصعد مرات لتعديل خطوط الجير.. مضت عدةُ أيام وأنا في تلك الحالة أنقش على سقف واحد.. شعرت بعجز. فكرت بالتسلل خارج القلعة والهرب بعيداً.. فكرت بقانح حين يعود

فلا يجدني.. بداعي الدعاة.. بمولانا.. أعطيت نفسي عدةَ أيام للتفكير في ما أنا فيه.. تركت الصعود على الخشب.. أفكر في اتخاذ قرار.. وجدت بأني في تَحَدٍّ مع نفسي.. وأن عَليَّ أن لا أتسلل هارباً.. بل عَليَّ مواجهة الحقيقة بعدم قدرتي على تنفيذ ما طُلب مني.. وأن أطالبَهم بالعودة لأعمال النسخ على الورق.. أحسست بالعجز وأنا أكرر التفكير في نفس النقطة.. أعودُ إلى أوراقي في خَلوتي.. أجدني أنقشُ وألوِّنُ بشكل مُرْضٍ وجيد.. أصعَدُ السلالمَ لأخط تلك الأشكال بالجير.. فلا أجدُها متناسقة.. أعودُ كُلَّ ليلة إلى تأمل خطوط شَوْذَب.. أقرأ في ذلك الكتاب.. يبهجُني الرسم الذي أشعر بدفئه.. أحس بروح تتنفس في وجهي.. بخَلق يسامرُني.. يتأمل عثراتي.. أحس بيديها تمسك يدي.. يتسلل الرضا إلى قلبي.. يأتي إليَّ النوم.. تضج القاعة بالدفء.

في إحدى الليالي اهتديت إلى فكرة.. تجلت بنقش ما أريد على الورق بالحجم الصغير.. ومن ثم أنقله جزءً جزءً إلى السقف.. بدأت بتنفيذ ما أريده بذلك الأسلوب.. نقش إصبع غلام.. ثم كفه.. ثم ذراعه.. وبقية أجزاء جسمه.. وهكذا أخذت أغطي سقفَ القاعة بنقوشي خطوة خطوة.. دون تخطيط لكامل الشكل بالجير.. متخيلاً ما سيُغطي مساحتها الكبيرة.. مضت أكثرُ من ثلاثة أشهر حتى ملأت ذلك السقف بنقوش الغلمان والحور.. وقفت حينها بين مفترقَي طرُق.. إما أن أبدأ بتلوينها.. أَوْ أنتقل إلى نقش الجدران.. حتى أغطيَ بقية الجُدران.

اتخذت قراري بتأخير التلوين حتى إكمال نقش تلك القاعة..

وجدت تحسناً في قدراتي.. أنقشها إصبعاً إصبعاً.. كفاً كفاً.. ثم الذراع حتى الكتف.. الرقبة.. ولا أنتقل إلى الجزء التالي إلا بعد أن أتقنَ الأول.. وهكذا وُلد أولُ جسد واضح المعالم متناسق الأجزاء يقارب حجم غلام.. أكملت نقشِ الحجرة بعد شهور لأغامر بتلوينها.. كان النظرُ إلى ذلك الإنجاز يثيرُ فيَّ النشوة..

وأنا أفكر أخذت أنظر إلى نقوش زوايا السقف.. أتأمل تلك النقوش الصغيرة.. أخذت أسير في نقوشي جزءاً جزءاً.. الأكف.. الأغصان الصاعدة من أركان الجدران.. الألوان المتداخلة.. المتبقي من الجدار الداخلي.

في قاعة أخرى نقشت غلاماً قاعدته نهاية السقف المستوي.. تقابله جارية.. وهكذا في الجهة الثانية جارية يقابلها غلام.. وحول كـُـلٍّ منهم غلمان وجوارٍ بأحجام أصغر.. تتسلق الأغصانُ من الأركان لتمتد وتلتقيَ في مركَز سقفِ القاعة.. تحيطها عصافيرُ مرفرفة وسماءٌ صافية.. أكملت نقوش القاعة الثانية في شُهور قليلة لأبدأ بتلوينها.. أدركت أني تصالحت مع ذاتي.. وأن نظرات جارية الجدار تمنحُني النشوة.. لم أعد أخشى الفشل.. لكنها شهور السنة تكاد تنقضي وأمامي عددٌ من القاعات تنتظر أن أملأها نقوشاً ملونة.. أجّلتُ نقش جدران قاعة ثالثة رغم أني بدأت بنقش جارية على أحد الحيطان.. لتظل تلك الجارية وحيدة بنظراتها الحائرة.

عاد قانح هذه المرة محمولاً على خيله.. أصيب بطعنة رمح في كتفه.. كانت الحُمى لا تفارقه.. وكنت أرابطُ الليلَ بجواره.. ينتشي حين يحدثني

عن مشاركته في القتال وكيفية إصابته يقول:

حاصرنا أبو الفتح الملثم في (نجد الجاح) من بلاد رداع.. كان يتبجحُ بوصف مولانا الأجل بـ (الرفثي).. المحلل لما حرم اللــَّـه.. وَأنه لا يؤمن باللــَّـه ولا بمحمد نبياً وأن المستنصر باللــَّـه الفاطمي إلهُه الذي يُعبــد.. وأن مولانا الأجل يرفع شعارَ الدين لإغواء العامة.. وأن دعوته في جوهرها هدامة.. وليست من الإسلام.. لكنه هُزم وقطعت رأسه.. ليحمل ويُعلقَ على حائط الجامع الكبير بصنعاء.. لقد أبليت في قتاله.. لم يكمل رفيقي حديثه، حينها خالطت جسده نوبة حمى.

بعد أن تحسنت حالته حكا لي بإنه عاد بعد أن توالت انتصارات مولانا علي رؤساء الدويلات والمشيخات في حصن التعكر إلى حصن خَب.. والجنَــد إلــى أرض المعافر.. وأنه زحف على لحج عدن عاصمة السلطان معن الذي أعلن طاعته لمولانا كوالٍ على عدن وأبين وحضرموت.. وأنه قد ضم إمارات الحسين التبعي صاحب حصن خَب وبَعدان والسحول والشوافي، واستولى على الجَنَد وإمارة المعافر وحصن الدملوة.. وهو في طريق عودته إلى صَــنْـعَــاءَ مظفراً منصوراً.

* * *

ألبس غطائي القديم.. فقط نصفُ وجه مستطيل يظهر مني.. أحمل خبزاً.. أخرج مع بداية الليل.. يبتسم لي عسكر بوابة القلعة.. الجميع يعتقدون بأني مسكونٌ بروح غريبة.. أسير في تلك الأزقة التي سرتها

كثيراً.. لم تعد تلك الأزقة هادئة.. دار المعلم تقف مهجورة.. أقف أسترق السمع وسط ظلمة المساء.. أشعر ببرودة تلفني.. ضحكات وصرخات طفولية.. لا أعرف ماذا تريد روحي من الوقوف أمام هذه الدار التي لم تعد أليفة.. أخرج من تلك الشوارع.. أعبر أحياء ألفتُ أزقتها.. أسير في شوارع اليَهُود.. أطرُقُ بابَ أم أُمي.. أكرر الطرق.. أسمع صوتها.. قرقعة المغلقة الخشبية تطل بمسرجتها ترفع كفها فوق عينيها:

– هذا أنت.. أين ابنتي.. لماذا لم تأتِ بها؟!.

أُقرِّبُ فمي من رأسها حتى تسمعَني:

– كيف تسمعين الطرقَ على الباب؟.

تهز رأسَها باسمة.. وهي تهم بالجلوس.

– ألا ترى مكاني خلفه.. ثم إني أشعرُ بما يهز بدني حين يطرق أحدهم.

رائحة عطن تنبعثُ من جسمها حين تحتضنني.. أناولها الخبز.. فراشها طبقاتٌ من الجلد ونسيج الصوف المهترئ.. تظل تحكي دون توقف.. بصوت كمن يهذي للفراغ.. تبحث بيديها عن أشياءَ لا تجدها في طيات فراشها.. تتلفت يميناً وشمالا.. أوانٍ فارغة تحيط فراشَها.. مُكحُلة ملبَّسة معلقة جوارَ رأسها.. عصا في الزاوية القريبة.. تتحدث: ألا تعرفُ الحاخام لقد حدثته عنك.. همستُ في أذنه.. قال لي بأنه يعرفُ حكايتك.. وبأنك من الأغيار.. وأنت لماذا تضل.. هل أنت منهم؟. لن

تَجدَ من تُحبُّــك.. وأُمُّــك اختارت طريقَ الأغيار ولذلك تشقى.. فقط أبنائي الآخرون هم من يحبهم الرب.. لكني أشتاق لرؤيتها.. ليس جديراً بك أن تمنعها.. أراها فقط قبل أن ألاقي ربي. تغير صوتها.. نظرت إليَّ.. كانت عيناها دامعتين.. احتضنت رأسها.. طوَّقتني بذراعيها.. قالت وهي تنتحب: هي ليستَ من الأغيار.. وأنت لَستَ منهم، لكني لا أعرفك.. لم أرَ وجهَــك يوماً.. لماذا كــُــلُّ هذا الشعر.. أنت طيب.. وأمك كانت طيبة.. ألا تعرف أنها ابنتي.. وأني أحبها.. لقد حذرنا الحاخام أن نحبها.. والدها لم يلتزم بما قاله الحاخام.. كان يبكي على صدري في حيرة.. لا يُريدُ أن يغضبَ الرب.. لكنه كان يبكي لفراقها.. وحين طعنَه الأغيارُ ونهبوا ما لدينا من طعام ومال قال لي "أموتُ دون أن أراها". ثم ذرف دمه ومات.

قبل أن أخرج من بابها أمسكت بكفي ودندنت بكلمات لا أفهمها.. ثم قالت: حين تأتي المرة القادمة لا تقل بأنك تعرفني.. قل بأنك تبحث عمن يقلع لك سنتك. أهزُّ رأسي موافقاً، أسحب كفي من بين كفيها، أعيد غطاء رأسي.. أسير في طريق العودة من زُقاق دار بيتنا.. ثم أحياء تقودني إلى أزقة سوق الوراقين.. أنظر إلى حانوت المعلم المعتم في عزلته.. أجدد روحي وأنا أزور تلك الأماكن.. تلك الأزقة المتفرعة إلى أسواق عدة.. الميدان الأمامي للقلعة.. أشير لحراس بوابة القلعة بكفي.. هدوء يُسعدُني.. ريح باردة تودعني.. وأنا أصعد في ظلام السلالم الحجرية.

في ذلك النهار.. كنت معلقاً على سقالة النقش.. تتابع عيناي

أصابعي.. سمعت طرْقاً على باب حاجز القاعات.. أسمع طرق الباب بين وقت وآخر.. فلا أستجيبُ لذلك.. هذه المرة تكرر الطرق.. هبطت، فتحت الباب.. أطل داعي الدعاة بوجهه مبتسماً.. هي المرة الأولى التي يزورُني فيها منذ بدأت عملي قبل أكثر من عشرين شهر.. وقف يتمتم.. سمعت خلفه جلبة.. لم يخبرني بأن مولانا قادم. حين رأيته يدخل ركعتُ أقبل كفيه.. أُقفلت المصاريع.. يسير وجهُ مولانا وحيداً بعد أن ظل من حوله خلف الأبواب.. ناظراً إلى ما حوله.. سرت خلفه إلى جوار داعي الدعاة.. كنت على وشك إتمام تلوين نقوش صور سقف مَخْـدَع الزوجية.. وقف يتأمل نقوشَ الجدران صامتاً.. اعتلت ملامحَه ابتسامة ما لبثت أن اتسعت وهو ينظر إلى السقف.. قال:

– جيد.. لم أرَ مثلَ هذا.. يبدو أن النقاشَ لا يُجيدُ إلاَّ تكرارَ نقش وجهي حورية وغلامٍ. مشيراً بإصبعه إلى نقشين متقابلين.. ثم أردف موجهاً كلامه إليَ.. أتعتقد أن حور الجنان لسن سوى نسخة واحدة وكذلك الغلمان؟ لقد جعلت هذه القاعات بهية ومبهجة لمن سيعيشُ فيها. خرج من مخدع الزوجية إلى قاعة المسامرة العائلية.. ثم قاعة استقبال الضيوف المقربين.. قال :القاعات المتبقية يجبُ أن تزيِّـنَ أربعاً منها برسوم آيات قرآنية.. وبالزخارف المتداخلة.. وبالمخرمات الجيرية.. فلا تنقشَ صوراً.. حتى الألوان استخدم منها الداكن.. والقاعتان الملاصقتان لهذه القاعات انقش في إحداها غلماناً فقط والأخرى حوريات دون غلمان.. ثم وقف يتأملني وكأنه يراني لأول مرة: هل أنت سعيدٌ بما تقوم به؟. هززت

رأسي بالإيجاب.. ثم أردف: هل يدخل غيرُك هذا المكان؟. قال داعي الدعاة: مستحيلٌ يا مولاي.

ركز بناظريه عله يكتشفُ وجهي للحظات.. ثم قال:

– من أنت؟.

– مملوكُكم جَـوْذَر.

– أعرف.. لماذا التخفي؟.

فضلّت الصمتَ وأنا أنحني له سائراً خارج القاعات.. ليرتفع ضجيجُ وقْع أقدام الحراس الواقفين خارج القاعات.

تضاءل الصخب هبوطاً.. بينما وقفت في منتصف إحدى القاعات أسترجع ما حدث.. أنظر من جديد إلى تلك النقوش.. دُهشتُ حين اكتشفت صوابَ ما قاله مولانا الأجلِ.. ملامح الحور تشبهُ وجهَ شـَوْذَب.. وذلك وجه قعطاب.. مذهولاً مما أراه.. في اليوم التالي دعاني داعي الدعاة إلى داره.. قال لي وهو يمسك بيدي بعطف:

– مولانا مهتم بك.. ظل يكرر لي سؤالَ "مَن أنت". هو يعرف اسمَـك.. لقد أخبرته عن سنواتك الطويلةً في قاعَ الظلمة.. وعن نبوغك في علوم مذهب آل البيت.. وإتقانك رسمَ الأحرف.. ونقوشَ الزخرف.. وما رأيته وسمعته منه أنت بالأمس عن إعجابه وسعادته بما رآه.. ولكنه ظل يتساءل من أنت؟.

- إنســانٌ يبحــثُ عــن ذاته وكلمــا اعتقد.. يكتشــفُ سـرابَ ذلك الاعتقاد.

- أيضايقـُــك أن تجيبَني؟.

- أشقى في معرفة نفسي.. وما حولي.. لأكتشف جهلي!.

نظر إليَّ للحظات ثم أشار بأصابعه.. بأن أنصرف.

شكرت لطفَه.. بتقبيل ظاهر كفه.. وقبل أن أنصرفَ.. قال لي:

- هلاَّ أزلتَ تلك الجدائل؟.

- قد أفكرُ بذلك يوماً.

- فكـّـرْ في ذلك.

انصرفت وقد أزال عني حديثُ الداعي بعضَ الهموم.. وإن ظل طلب إزالة شعر رأسي ووجهي يقلقني.. أفكر كثيراً في الأمر.. تزورُني كوابيسُ منامي.. أرى بأني أسير عارياً.. وأرى من حولي وقد غطت ملامحهم الشعر، أنهَـضُ مذعوراً.. أتلمسُها.. أجدُها كما هي.. هكذا أرى في المنام.. كنت سعيداً بذلك الغطاء الذي يصل حتى سُرتي.

أسمع صدى صوت مولانا الأجل يتردد "أيعتقد هذا النقاش أن الحور لسن سوى نسخة واحدة وكذلك الغلمان".. أشعر من جديد بأني أسيرُ تلك الملامح.. حاولت تغييرَها.. أبدأ بالعيون.. الأنف.. الشفاه لأكتشف ضلال ما صنعت.. فأعيدها إلى ما أراه جميلاً.. لتتناسَخَ نفس الملامح..

أربعة أشهر قضيتها في نقش وتلوين سقف وجُدران تلك القاعة.. ليطل وجهُ شــَوْذَب ووجهي. أعيشُ صراعاً مع نفسي وأخشى فشلي.

انتقلتُ للقاعة الخامسة.. وكانت القاعة مستطيلة.. تطل نوافذُها على مجرى شروق الشمس من جبل غيمان.. طلب مني أن أنقشَ سقفَها وجدرانها بحُور دون غلمان.. والغرفة الأخيرة أراد لجدرانها أن تغطيَها نقوشُ الغلمان.. قضيت ما يقاربُ السنة أسيرَ القاعتين.

عاد قانح مع عودة مولانا الأجل من مغارب اليمن بعد أن أخضعَ البكيليين في وصاب.. أجالسُه لتمتلئَ ليالينا بالسمر والحكايات.. أدخلته خلسةً.. وهي المرة الأولى التي أخونُ رغبة مولانا في أن تظل نقوشُ القاعات سراً.. شهق وهو يتابعُ النقوش على ضوء السراج.. قال:

– ما هذا العُجاب؟ هل أنت من صنع كــُـلّ هذا؟!

كان يتحدث وعيناه مسمَّرتان على الأرض.. لم يدهشني كلامُه.. لكن ما استغربته أني لم أستطع تغيير ملامح الحور.. وأن أصابعي لا تنقش إلا وجهها!.

تفرَّسْتُ تلك النقوشَ، أبحثُ عن التطابُق والاختلاف.. هالني ما صنعتُ لأجد صدقَ ما قاله مولانا.. أسأل نفسي: هل تسكننا أرواحُ مَن نحب؟. تعيش حيواتنا.. تستخدم أجسادَنا وعقولنا.. هل هي من جعلت الغلام يتخفى في جسد أنثى.. ومن جعلت الحورية تتخفى في جسد ذكر.. أشعر في كثير من الأحيان بأن جسدي يحمل روحَين تكرر نفسَها في ما تنقش وتلوّن.

عرفتُ أني كنتُ أسيرَ تلك الأرواح ترافقني في ظلمة الليـه.. وفي أرجاء القلعة منذ وطأتها.. وأني كنت واهماً بامتلاكي حريتي.

عدة سنوات من العمل المتواصل حتى شارفتُ على إكمال ما عَلـيَّ نقشُه وتلوينه لعشر قاعات.. كان مولانا خلالها قد أكمل بناءَ عدة دُور على المساحات المحيطة بالقلعة.. وقد خُصصت لسكن أمراء وسلاطين وزُعماء بلدان جزيرة اليمن.. ممن دخلوا في طاعته وموالاة دعوته.. بينما خُصصت قاعات القلعة العليا بجميع أدوارها لسكنه.

* * *

تمتلئُ الإسطبلاتُ والزرائبُ بخيولٍ وبهائمَ.. تعج الساحات والدُّور بالحياة.. حين يقرر مولانا الأجلِ الحجَّ في موسم 446 إلى بيت اللـه الحرام، تخرج من صَـنْـعَـاء أكثرُ من ألف خيل.. له ولسلاطين جزيرة اليمن ممن دخلوا في طاعته.. تحفهم العبيدُ الحبشية من كـُلِّ جانب.. خرجت صَـنْـعَـاء لوداعه.. ولم يكن مولانا يقصد الحج فقط بل إن أخباراً قد وصلته أن شريفَ مكة قد تمرد على طاعته ولم يعد يخطب له على منبر الحَرَم المكي ولا للإمام الفاطمي.. وأن الخطبة أضحت للعباسيين في بغداد.. عزم على تأديبه ومعاينة المسجد الحرام.. لبناء ما تهالك منه وتوسعة ما أمكن توسعته.. وبناء مرافق للحجيج.. وإجراء الصدقات.

وأثناء سيره إلى مكة أدَّبَ بعضَ القبائل على شنيع أفعالها واعتدائها على قوافل الحجيج.. فأمنت الطريق.. وعند إقامته في مكة أصلح ما

أفسده الأشراف بنو الطيب الحسنيون بعد أن عروا البيت والميزاب.. ثم أنه كسا الكعبة ديباجاً أبيضَ.

عادَ مولانا الأجَلُّ بعد أن أقام بمكة ثلاثةَ أشهر في القصر الكبير.. و لم يُفـــد اعتذار الشريف عما بدر فقام بخلعه وكلف شريفاً آخر من آل شكر الحَسينيين وزوده بالمال والسلاح.

فكرتُ أن أوزعَ وقتي بين ما تبقى من أعمال النقش القليلة والبحث عن أمي وشـَـوْذَب.. ولا أعودُ إلى القلعة إلا لأنام.. أتردد على الشارع الذي إليه زقاقُ بيتنا.. فقط تلك الأحجار والنوافذ والأبواب.. تراب الأزقة مليء بنوى البلح وحصى الأحجار الصغيرة.. روائح المكان هي التي تعرفني.. أدقق النظر، أتخيَّل أمي تطل من باب بيتنا بوجهها المليء ببُقَع البياض المشوب بالحُمرة الفاقعة.. ملابسها السوداء.. وشعرَها المختبئ.. صوتَها المستكين وعينيها الصافيتين.

أخترقُ الأزقة التي تُفضي أطرافُها إلى غيل السُرَّار حيثُ مجرى السيل.. ثم إلى حي الدباغين.. دار المعلم تقف شاهدة على اليقين الذي أبحث عنه:

– لا أعرف عمن تبحَثُ!.

– لكنك احتويتَ ضحكاتِهم!!.

– لو كنتُ أعرفُ لأخبرتُك.

ظننت بأنه يحاورني.. أنصرفُ حزيناً بعد أن يطول حواري معه.. أتركه شاهداً على تلك اللحظات التي خلتها لن تنتهي.. أعرِّجُ على السوق.. أسيرُ كالهارب وسط تلك الحوانيت الصغيرة.. حانوت المعلم. أبحثُ عن أجوبة دون أن أسأل أحداً.. يقترب نهارُ اليوم من الانتهاء.. أدخلُ مسجدَ السوق لا أعرف ماذا أصنع.. أجلس في إحدى زواياه.. يضيقُ بي المسجد.. أخرج عائداً إلى أزقة تقودني إلى زُقاق بيتنا.. لا أعرف من أين جاء لي يقين بأن أمي موجودة.. أتوقع أن أسمعَ صوتها وسط تلك الظلمة. شَـوْذَب وأمها ربما تعيشان في إحدى تلك الدور.. أعود لأتأمل دارَ المعلم وسط ضجيج الظلام.. يكاد ينطق.. أنصرف عائداً باتجاه سوق البقر.. قطعان جمال نائخة وسكون الليل يستقبل قوافل التجار القادمين من أسواق (عدن أبين). والبعض من زبيد ونجران.. مواشي ودواب كثيرة.. حوطة عَرْض الجواري والعبيد صامتة.. تلصصتُ عَلـيّ أرى ما يظنه قلبي فراغاً.

غـُـرَّةَ ربيع الثاني 447 هجرية. خرجت صَـنْـعَـاءُ لاستقبال مولانا الأجل عائداً من مكة.. وخرجتُ كي أرى قانح.

سامرته لياليَ طوال.. خرج معي ذات ليلة للبحث عن همي.. قال لي:

- ألم تمل بحثـــك المستمرَّ في نفس الأمكنة؟.

– لكننا كنا نعيش فيها!.

– أما سمعت تلك المرأة!.

– أَيَّـةَ امرأة؟.

– الساكنة جوارَ دار المعلم.

– لم أعد أتذكرها.

– لكنني أتذكر قولها بأن النساء المختطفات كَثيراً ما يكون مصيرُهن أسواقَ النخاسة.

– أتعني ما تعني؟

– عليك أن لا تكون كجَمَل الـمَعْصَرَة.. وأرى أن نبحث لدى النخاسين.

تلك الحوطة التي تتسع لعشرات العبيد والإماء.. تتعدد فيه الحكايات.. بتعدد الإماء والعبيد.. فلكلٍّ حكاياته.

عالَـمٌ يُحيطُـه النخاسون بالسرية.. كنا بحاجة لاختراق أقفال قماقمهم.. أَوْ صناديق حكاياتهم.. استعنا بأحد عبيد القلعة.. قال لنا: من الصعب الوصول لكل الحكايات.. ومن الصعب أن يفتح لكم أحَدُ النخاسين صناديقَه.. يُقتل من حاول إفشاء أسرار السوق.. فوراءَ كُـلِّ عبد وأمَةَ حكايات محرمة.. وأشخاص اُستعبدوا بعد أن خُطفوا.. وأكثرُهُن الفتيات.. وتجارة الرقيق لولا سريتها لما كان هناك أمراء وعبيد.

لم نكن قادرين الوصول إلى حكايات المعروضين للبيع على الدكة .. وإن أردنا حكاية إحداهن فعلينا شراؤها.. أو أن نستميل أحد النخاسين. أو أن نستغل التنافس بين النخاسين.. وما أجملَ الأملَ حين يبتسم.. كان أحدُ النخاسين يريد الانتقام من نخاس آخر لخلاف بينهما.. طلب الحماية إن حكى.. وعده رفيقي إن حكى بصدق.. قال لنا بأن الجميع يتاجرون في عبيد الزنج والأحباش وما يأتي من الشام.. وأن أحدَهم يعتمد في تجارته على ما يجلبه له الخاطفون من صنعاء وما يحيطها من قرى. هو نخاس يتاجر برقيقه إلى مكة.. ولذلك ستجدونه وصل للتو منها أَوْ مغادراً بما توفر في غيابه.. قال له رفيقي:

- ولِمَ تخافُ مما حكيت؟!.

- لو عرفتَ أرباحَه لقلت غير ذلك.. والبعض يبحث له عن عمل آخر بعد أن كان سيدَ السوق.

- وما الضيرُ في اعتماده على ما يجلبه له الخاطفون.. ولما لا تتجه في نفس اتجاهه؟!.

- نحن نشتري بمالنا لنبيعَ بقدر ثمن الشراء.. وهو لا يشتري.. لكنه يدفع القليل إتاوات للخاطفين.. وإذا دخلنا في طريقه فسنكونْ قد أبحنا دماءَنا.. هذا الرجل ألحق الضررَ بنا وبالناس.

أخبرني داعي الدعاة بألا أبرحَ مكاني.. أو أخرج من القلعة.. لأفاجأ بزيارة مولانا الأجل إلى قاعات النقوش.. لم يتفوه بكلمة.. كان يخطو

من قاعة إلى أخرى وابتسامته تعكسُ رضاه.. تزيدني دوائرُ عينيه سعادةً وهو يستعرض ما نقشته على سُقوف وجُدران القاعات.. وقفَ في القاعة الأخيرة موجهاً كلامه لداعي الدعاة: أجزلوا له العطاء.. وفي طريقه خارجاً داعبني مبتسماً: ألا زلت تتخفى.. سأصدر أمراً بإزالة هذا الغطاء!. ليضحكَ مادّاً كفّه لأُقبّلَ ظاهرَها وباطنَها.

أخيرا تحررت.. ها هي المخطوطة بين يدي خارج الدار .. أقرأها متى أُريد وأينما أريد.. تخلصت من رقابة ذلك الأمني المستغل.. ولن أنفذ له ما وعدت به بعد اليوم.
تمددت على فراش نومي.. أجمع ذهني المبعثر .. واصلت قراءتي وأنا أبتسم سعيداً؟


الرحلة

نــخاس

غادر رفيقي قانح مع مغادَرة مولانا صَــنْـعَــاء.. تركني أواجهُ النخاس أعزلَ من أي صداقة.. كنت أعلمُ بأنني بذهابي إلى حي السُرار المطل على مجرى السيل أُعرّضُ نفسي للخطر إن عَرف مبتغاي.. ولذلك فكرت حين لـُــقياه بأن أخاطبَه كمُشترٍ.

يتحدث جيرانُه بأنه طارئٌ على صَــنْـعَــاء.. وأنه كان قادماً بتجارته من الجبال البعيدة.. تلك الزرائبُ التي بالطابق الأرضي للدار خصصها للعبيد والإماء.. يُخرجُهم قطيعاً إلى محوى العبيد.. له ركنٌ دائمٌ فيها بالقُرب من سوق البقر.. لم يعد لي من عمل سوى ترصُّد ذلك النخاس في حوطة العبيد.. وحين خروجه ودخوله الدار.

لم تكن ملامحُ وجهه مخيفة.. يميل لقصر القامة.. نحيل.. وجهُه بشوش.. ودوماً مبتسم.. لم يكن كما صَوَّرَه لنا ذلك المنتقم منه.. أيكون قد ضللنا؟. أم أنه يعني نخاساً آخرَ!. فضّلت المضيَ في طريقي إليه. سأقول له بأني أُريدُ جارية بعَين واحدة.. على أن تكونَ بين الأربعين والخامسة

والثلاثين يمانية!. لكنه قد يكتشفُ بأني أبحثُ عن امرأة بذاتها.. عن خطيفة. بل بأني أريد جارية شابة بين العشرين والخامسة والعشرون.. وجهها مدوَّر كالقمر.. فمُّها خاتمٌ منقوش.. عيناها بصفاء الطفولة.. بيضاء.. متوسطة القامة.

لم أفضل مقابلته في سوق العبيد.. طرقت بابَ الدار بعد دخوله بلحظات.. أجابني صَوتُ شابة من إحدى النوافذ، قالت: أنتظر، سيهبط إليك!. أحاول السيطرة على ارتعاش أصابعي.. وجهُه البشوش مبتسماً.. أخرجت كفي لمصافحته.. أضيق من حجم عيني لأظهر لهُ تقديري وأنا ممسكٌ بكفه:

– أهلاً وسهلاً.. أراك تتردد على الحوطة.. أنا على يقين من أن طلبَك لدي!.

أي طلب يعنيه؟.. أم أنها عبارات تقال لأي قادم على اعتباره شارياً.. استعطفت كفه بين أصابعي.. قلت له وأنا أفرد ورقَة لأحد نقوشي:

– أريدُ شراءَ جارية شبيهة بهذه!.

خلـّـصَ يدَه من بين يدي كالملسوع.. يتأمل ذلك النقش على صفحة الورقة ناصع.. شعرت بأني أدهشته.

– من أين لك بهذا النقش.. أستغفر اللـّـه العظيم؟!. ثم تلعثم ليواصل: لا أريدُ أن تحملني إثمَ رؤية مثل هذه النقوش.. لديَّ فتياتٌ جميلات.. سأخرج صباحَ غد إلى الحوطة بما لدي.. وسأرى إن كنت

مشترا. يتحدث وابتسامته لا تفارق وجهَه متراجعاً داخل باب الدار.. معتذِراً بانشغالاته.. لم يكن أولَ مَن يرتبك لحظة رُؤية نقوشي الموجبة للاستغفار.

وقفت حسب وعده أمام حوطة العبيد، مضى الوقت و لم يأتِ كما وعد بما لديه.. عدتُ إلى داره.. صوت تلك الفتاة بأنه ليس في الدار. سألتها: أين يمكن أن أجده؟. رد صوتها بأنها لا تعلم.. فهو يعد نفسَه هذه الأيام للسفر إلى مكة.

يبدو أن كـُـلَّ مَن في القلعة يتجاهلني.. وكذلك داعي الدعاة الذي لم أزُرْه.. و لم يسأل عني بعد تسليم مفاتيح القاعات المنقوشة.

لم يعد قانح من صعدة بعد أن ذهب مرافقاً لمولانا الأجل في معركته مع أولاد أبي الفتح الملثم.. الذين أعلنوا عصيانهم بإقامة إمامة تخصهم في صعدة ونجران.. و لم يكتفوا.. بل أنهم أخذوا يراسلون رؤساءَ ومشايخَ القبائل في مشارق اليمن.. لمناصرتهم بأخذ الثأر من قاتل أبيهم.. وتخليص صَـنْـعَـاء من المذهب الرافضي.

في اليوم الذي رابطتُ فيه أمامَ دار النخاس.. أنتظر عودته أَوْ خروجَه من الدار.. طال بي المقام.. طرقتُ البابَ متردداً.. وجهُ تلك الفتاه يطل من النافذة.. لم أكن أعرف بأنها قد رأتني مرابطاً منذ الصباح:

– ما بك لا تفارقُ شارعَنا؟!.

– لقد وعدَني..

- بماذا وعدك؟.

- أن يريني كلَّ مَا لديه من جوارٍ!.

- هل تبحثُ عن شراء جارية بعينها؟.

- أرجوكِ اهبطي.. وسأخبرُك بما أريد!.

حين وقفت ، كانت أمامي.. سألتها:

- إن كنت قد عرفت فتاةً اسمُها شـَـوْذَب أَوْ سمعت بها؟.

صمتت كمن يتذكر شيئاً.. ثم قالت:

- للأسف لم يمر عليّ!

قلتُ لها متوسلاً:

- هي وأُمها كانتا قبل عدة سنوات تسكنان داراً في حي السرار قريب من حي الدباغين!.

كررت صمتَها وأنا أسمع همَساً لامرأة تتخفى خلفها.. رفعت صوتي بالرجاء.. وقلبي يخفق.

- وما تعني لك تلك الفتاة؟.

كان الصوتُ لغيرها ويبدو أنها أكبرُ منها سناً.. قلت بصوت أعياه الانتظار:

- كنتُ أعملُ أجيراً لديهما.. ثم غادرت صَـنْـعَـاءَ لعدة سنوات.. وحين عدت لم أجد لهما خبراً.. حتى أن دارهما ظلت مهجوراً.. وراودني الأمل في وجودهما لدى صاحب هذه الدار.. أَوْ أنه يعرف الطريق إليهما.

- هل تحبُّـها؟.

- أكثر من ذلك!!.

- أنت من أريته نقشَ وجهها!.

- نعم؟.

- إذن عد وابحث عنه في السوق.. تحدث معه بحذر لا تخبره بأننا خابرناك!.

أود أن أسألها عمن تكون.. أن أشكرَها.. لكني وجدت أقدامي تسيرُ مبتعدة.. لا ألوي على شيء.. أتخيل رد النخاس.

الوقت قبيل أذان الظهر.. سوق البقر مزدحم حتى أني بالكاد أمُر بين القطعان.. جمال وخيول وحمير جاهزة لحمل سلع التجار.. حوطة العبيد فارغة.. أخذت مجلسي على رصيفٍ حَجَري.. لم يمر وقتٌ حتى رأيته قادماً باتجاهي.. نهضت مرحباً.. وقفَ وعلى وجهه ابتسامة فيها من التعجب ما يوحي بأنه ينظر إليَّ كشريك.. فرد ذراعيه وكأننا أصدقاء منذ سنين.. وهو يقول:

- أرجو قبولَ عذري لقد انشغلت عن وعدنا بالاستعداد للسفر.. ومع ذلك أنا عند وعدي.

- ربك يعين.. لكنني بحاجة إلى ما طلبته منك.

أمسكتُ بكفه.. وأنا أدعي الثراء.. محاولاً التكلفَ بالكلام سحبته جانباً:

- وسأدفع ما تريد!.

- الجواري كثيرات.. فلماذا تبحث عن جارية بعينها.. هل في الأمر حكاية؟.

- حكاية تعود إلى سنوات خلت.

- لا يوجد لديَّ ما تبحث عنه!.

- قد تعرف الطريقَ إليها.. سأدفع لك ما تريد!.

- لكنني لا أتذكر ما بعته البارحة.. فما بالـُـك بسنين ثم إن تجارتي دوماً إلى مكة.. وما أبيعه هنا هامش!.

- سأدفع لك نظيرَ تقليب ذاكرتك.

- ما كان اسمُها؟.

- شَـوْذَب.. وكانت برفقة أمها ذات الثلاث العيون.. أقصد ذات العين.. تسكن حي السُرار المحاذي لمجرى السيل.

- سأعمل على تقليب صفحات ذاكرتي.. الآن هيا دعني ،ولا تكن ملحاحاً.

تمنيت وجود قانح حتى يعينني على هذا النخاس.. كنت أسأل نفسي.. هل أسير في الاتجاه الصحيح.. أم أني جملٌ مَعصرة، كما قال صديقي!.

تحققت تمنياتي.. لم تمر أيام حتى خرج الناسُ لاستقبال مولانا الأجل.. بعد انتصاراته على أولاد أبي الفتح الملثم.. ودحره من صعدة ونجران ونواحيهما.

عبرت لقانح عن سعادتي بعودته.. وقد تحقق النصر لمولانا.. وشكوت له حالي مع ذلك النخاس الذي يماطلُ يَـوْماً بعد يوم.. مظهراً لي بشاشة خادعة وليناً كاذباً.. قال لي وهو يربت على ظهري:

- أجزم بأنه غير مخادع فقد بدأت أولى خطواتك.

- حين نذهب إليه لماذا لا تشعره بأنك من مقربي مولانا المبجل؟.

- لم أدرك مقاصدك!.

- أنت أحد رجال الدعوة وهذا مجرد نخاس.. فلنريَه الوجهَ الآخر.

- توقعت أن تقول لي ذلك.. ففي الوقت الذي تعيش ذاتك الأخرى.. تستكثر عَـليَّ أن أكون معك بالشخصية التي لا أعيشها في واقع حياتي!.

- أترى الحياة مجرد حقيقة ونقيضها؟.

- وما تراها أنت؟.

- لا أراها بل أعيشها!.

- فلِـمَ تعترض عَـلـيَّ أن أعيشها؟!.

مرت أيام نذهب سوياً للبحث عن ذلك النخاس.. لكننا لا نفُزْ باصطياده.. نسأل من نصادفه حول حوطة العبيد.. فيخبروننا بأنه سيأتي.. ولكنه لا يأتي.

ذهبنا إلى حي السُرار.. أطل علينا وجهُ تلك الفتاة بداخل برواز النافذة: لقد غادر من تبحثون عنه صباحَ هذا اليوم!. لوَّحَ لها قانح سائلا.. ردت بصوت عالٍ:

- لقد غادر صَـنْـعَـاءَ إلى مكة!.

أشرت لها مرتبكاً:

- أرجو أن تتفضلي بالنزول كي نتحدث!.

- حاجتكم لديه.. فما لكم ومخابرتي؟.

- حاجتنا شَـوْذَب!! ماذا تقصدين؟.

- حاجتكم.. آه يا لقلب يتلظى!.

أقفلت مصراعَ النافذة.. وأنا أحدث نفسي: هي بشارة.. لكنه غادر.. سيعود أَوْ قد تكونُ ضمن مجموعته ليبيعها بعيداً.. لكنه قال لي بأنها ليست

في حوزته.. أسمعت يا قانح.. ماذا عَلـيَّ أن أفعل؟.

قبض صديقي بيُمناه معصم يدي واضعاً الأخرى حول كتفي.. وهو يقول:

- إن أردت أن نتبعَه سنتبعه.. لن يفر منا!.

- نعم سأتبعه حتى آخر الدنيا!.

عاد بي إلى القلعة.. وهو على يقين بأني بدأت أفقد صوابي.. وضعني بين الأغطية.. وحين صحوت كان جالساً يقرأ فوق رأسي ما تيسر.. نفضت أغطيتي.. نظر إلى عيني متردداً.. ثم قال:

- والآن بماذا تشعر؟.

- أشعر.. لا أعرف.. لكن ماذا تقرأ عليَّ؟.

- لقد عدت بك مساء البارحة وأنت في حالة مخيفة!.

- أيَّة حالة؟.

- الحمد لله.. أنت الآن بخير بفضل سرِّ كتاب اللـــّـه!.

- كتاب اللـــّـه!.

- لا عليك.. اهدأ وسأحدثك في ما بعدُ.

- أنا يا صديقي مهموم.. أفكر باللحاق بذلك النخاس.

– لن أخبرَك سراً إن قلت لك بأن مولانا الأجل قد كلف قاضي القضاة بالسفر إلى مكة.

– وما صلة موضوعنا بذلك؟.

– ألم تقل بأنك تفكر بالنخاس.

– لم أفهم!.

– سيرافق القاضي عددٌ من أساطية البناء ومساعديهم.. ومفرزة من العسكر وجملة من العبيد!.

– لماذا كُـلّ هذا؟.

– بغرض إعادة تجديد قصر مولانا المبجل بمكة.. وأن يكونوا في شرف استقباله عند وصوله مكة للحج.. ثم يسافر في طريقه إلى القاهرة للتشرف بزيارة أمير المؤمنين المستنصر باللـّـه أبي عَـلـي الحاكم بأمر اللـّـه.

– أتعني بأنني أستطيع اللحاق بذلك المراوغ؟.

تأكد لي ما قاله صديقي.. كان القاضي قد اختار قيامَ قافلتهم بعد نصف شهر.. و لم يكن من السهل قبولي معهم.. فبمجرد أن علم قاضي القضاة بأنني ناقش صور رفض رفضاً قاطعاً قبولي ضمن بعثة مولانا.. ليتدخل داعي الدعاة بشرحه للقاضي بأني أفضل من يرسم الحرف وينقش الزخارف.. وأن تجميل قصر مكة بحاجة إلى مثل تلك المهارات.. فالحرف زينة وتلك الزخارف التي نراها حول محاريب المساجد تصلحُ لأن تزينَ

بها قاعات الاستقبال، والمداخل الرئيسية للقصر.. اشترط القاضي عليهم لقبولي ضمن بعثته ،عدم التحدث بما يدل على أنني ضمن البعثة التي يرأسُها إلى مكة ،والتي ستتوجه بعد ذلك بمعية مولانا الأجل إلى مصر لزيارة أمير المؤمنين.

* * *

عشية يوم رحيلنا التقانا مولانا الأجل.. قال مخاطباً أفراد البعثة: ستكون رحلتكم إلى أطهر البقاع.. وستكون مهمتكم مباركة.. لقد حملت قاضي القضاة بأمر إلى شريف مكة وستجدونه في استقبالكم.. عليكم بطاعة قاضي القضاة.. ونائبه (المقدمي) شهاب الدين، والتعاون على إنجاز ما كُلّفتم به من إصلاحات في المسجد الحرام.. وكذا قصرنا بمكة.. سنلحق بكم في موسم الحج القادم.. يرافقنا سلاطين جزيرة اليمن.. لنكسيَ الكعبة.. ونقوم بما أوجب الله علينا من رعاية.. ومن ثم سأصطحبكم لنتشرف بالمثول بين يدي مولانا أمير المؤمنين المستنصر باللـّـه رب العالمين في قاهرة المعز لدين الله الفاطمي.. باركـكم اللـّـه ووفقكم ورعاكم.

حزمت أمتعتي: ردائي وأوراقي.. كتاب خَطـّـهُ المعلم.. وآخر بخط شـَـوْذَب.. يَراعي وفرش النقش.. قنانيَ ألوان.. في تلك الليلة تسلمت خيلاً وسيفاً.. وشاباً مساعداً لي.. هي المرة الأولى التي يكون بحوزتي سيفٌ وخيل.

عند سماعنا لمؤذن فجر يوم الرحيل كنت أجالسُ نفسي.. بينما العبيد يشدون الرواحل على أضواء المشاعل.. أراقب ما حولي وقلبي يزداد خفقاناً.. يسكنني الخوف من عدم لقيا ذلك النخاس.. أحتضن قانح مودعاً وأنا أبكي من تجربة أخاف أن لا أعودَ بعدها.. أمسك بكفيه.. يصحبني لحظات خروج قافلتنا من بوابة القلعة.. رفضت أن أمتطيَ خيلي.. نسير في دروب المدينة.. تدمع عيناي ويديه تنسل من بين أصابعي.. نتجاوز شوارع حي القطيع.. بقناطره العالية التي تشرشر منها المياه إلى أحياء شمال المدينة.. تتشبع عيناي بواجهات الدُور السامقة.. مساعدي يتحرك ذهاباً وإياباً على حماره.. نخرج من الباب الشمالي.. باب الشام أوْ كما يسميه البعض "باب القبلة". يتعالى صوتُ النفير من أعلى أبراج السور.. يرتفع صوت منشد السفر إلى بيت اللــه.. تنضم إلينا قافلة من الجمال المحملة.. ضوء فضي يومض من الأفق البعيد.. تتنازل النجوم عن سمائها.. خليط من راكبي الخيول.. والدواب والجمال يتخللهم السائرون على الأقدام.. قرص الشمس ينبت ليفرد سطوته.. سهل (شُعُوب) و(القرية) أمامنا تمتد خُضرتها حتى الجبال الداكنة في أطراف الأفق.. سارت قافلتنا شمالاً.. ألتفتُ أرى صَـنْـعَـاء.. سور المدينة يحتضن الدور والمآذن.. تطل علينا من ورائه أعالي الدور المزخرفة.. تتسع سهول صَـنْـعَـاء بخُضرتها.. تتضاءل المدينة.. أسأل نفسي :لماذا وافقت على الرحيل.. أتراني تركت أمي وشـَـوْذَب بداخل تلك الدور لأطارد سراباً؟!.

ابتعدنا عن صنعاء.. لأراها تقف هناك نقطة بيضاء وسط رُكام جبال باهتة.. شعور بالتوهان.. رنين وحدتي.. باغتتني دموع حارة..

أصوات من حولي.. وقع الحوافر.. البعض يغني.. ضحكات لآخرين.. يتحدث إلي مساعدي بفرح.. أشعر بشعري المنسدل قد جعل روحي في منأى عمّا حولي، تخفي ملامح غربتي.. أرى وجوهَ من حولي ولا يراني أحدٌ.. يتقدمنا الأدلاء وقد تجاوزنا عدة قرى.. يشير أحدهم إلى جبال تظهر من بعيد ليحكي حكايات بطولاته أثناء ذهابه إلى مكة وإيابه منها.. تسابقنا الشمس معتلية قبتها الزرقاء.. نسلك وُدْيَاناً يطرح علينا أسماءَها.. قبيل غروب الشمس وصلنا محطتنا الأولى.. (ضَرَوَان) قرية تتوسط منازلها ساحة متربة.. يحيطها وادٍ تحتضنه جبالٌ بيضاءُ. استقبلتنا امرأة بَشوشة صاحبة (سمسرة).. وأخرياتٌ يقفن عند أبواب منازلهن.. يلوِّحن باستضافتنا.. بركت نوقنا وسط الساحة بعد أن ترجلنا من على خيولنا.. إلى جوار بركة تجمع مياه أمطار.. اربدت ظلمة السماء.. دخان المواقد يملأ المكان.. أدخلتنا المرأة سمسرتها.. لهب يضيء المكان.. عقود السقوف خضبها السخام.. أعمدة حَجرية.. دكاك من الطين.. كلّ شيء أسود.. استكان المسافرون.. لاحظت أن قاضي القضاة يتجاهل وجودي.. أقترب منه فينظر بعيداً.. أَوْ يحادث من حوله.. تذكرت نصيحة قانح "لقد اشترط قبولك ضمن المسافرين معه لا بصفتك نقاش الصور.. بل النساخ". أختار مكاناً بعيداً.. أسمع منادماتٍ هامسةً تختلط مع نهيق الحمير.. أحس مساعدي جعدن بما أنا فيه من عُزلة.. حاول منادمتي.. لكنني اعتذرت بتعب السفر لأنغمر بنوم عميق.

راكبو الثيران

كنا قد قطعنا مسافات بين عدة استراحات بعد ضروان.. يوماً بعد يوم كان يتعاظم حجم قافلتنا.. البعضُ يودعنا سالكاً طرُقاً فرعية باتجاه ديارهم.. لينضم إلينا مسافرون جُدُدٌ.. القافلة عدة جماعات.. تجار المواشي والحبوب والأردية هم الأكثر، نحن بما معنا من عبيد وعسكر وإبل ودواب، ثم جماعات من مزارعين وحرفيين.. دهماء.. يجمعُ بيننا عدة أدلاًء ممن لهم خبرة طويلة بمسالك الطرق ومواطن القبائل.. كنت أتأمل ما حولي بحيادية.. لا أتحدث إلى أحد إلا لَـمَاماً.. مساعدي يحادثني.. أبادله بكلمات قليلة عند وقوفنا حول برك وآبار المياه والينابيع وفي محطات المبيت.. أقاوم رغبة الحديث.

في محطة (عيال سريح) أخذنا حيِّزَنا في سمسرة تديرُها أُسرة يهودية.. نساؤها أكثر نشاطاً من رجالها.. قُسمت جوف السمسرة إلى ثلاثة مستويات يجمعها سقف واحد.. النصف الداخلي زرائب للمواشي والبهائم.. ونصفه المواجه لبوابة الدخول مصاطب طينية لنوم النزَلاء..

ثم سقف الزربية والمخصص للمقتدرين من ذوي الشأن.. وكان قاضي القضاة قد استقر بها.

حدثنا القادمون بأن المحجة يسكنها الخوف من تكرار هجوم قطاع الطرق.. وأن القوافل الصغيرة تقع فريسة لهم.. إضافة إلى من ينهضون كدعاة جدد للإمامة بقبائل مناصرة.. نصحونا بالتريث في (ريدة).. كان للقاضي كلامٌ آخر.

انطلقت قافلتنا على الجادة عند الصباح الباكر تملأُ الفضاء غبارا وهيبة ضجيجها.. تصعد بنا في مرتفعات جبلية وعرة (نقيل الغولة) جبال جرداء، وعند هبوطنا في منحدرات وادٍ صغير هاجمتنا مجموعة من قطاع طرق لم يكن عددُهم يخولهم إخافتنا.. حاولوا إيهامنا بأنهم ليسوا إلا طلائع لمجموعة كبيرة.. وعلينا تسليمهم ما لدينا من خيول ومال وطعام.. حملنا عليهم ليفروا.. أخذنا الزهو ونحن نتابعهم نحو المرتفعات.. يرقبوننا حتى غبنا عنهم في بطن وادٍ متعرج.... أدركنا الليل قُرب قرية السِّنَّتين.. فضلنا المبيت في العراء.. قَضينا ليلتنا في شِعب بين (السنتين وخَمِر) كثيف الأشجار.. أشعلنا من فروعها الميتة ما يؤنسنا.. لننهض مع غسَق يوم جديد نواصل المسير.. عبرنا أودية وشعاب.

كنا نرى منازل قرية (الحَرْف) مع دنو شمس الظهيرة المطلة من شفة جبال عالية.. قال أحدُ الأدلاء موجهاً كلامَه للقاضي: سنواجه مشكلة.. هناك من يترصدون.. يسيرون نحونا.

أشار القاضي بتوقف قافلتنا.. وبسُرعةٍ أَمرَ بأن ننقسم إلى قسمين.. الجمال المحملة تعود ملتفة في طريق حَول الجبل، يرافقها عدد من الخيالة والعسكر والعبيد وسيكون (الـمَـقْـدَمي) عليها شهاب الدين.. والفرقة الثانية من العسكر الخيالة والعبيد سأكون معهم لنواجه المهاجمين ونشغلهم حتى تبتعد القافلة ثم نلحق بها.. تركنا القافلة المحملة تسلك طريقاً ملتوياً.. سلمتهم خـُـرجي بما فيه كأمانه.. ورق وكتاب شَـوْذَب والمعلم.

اصطففنا.. تقدم أحد الأَدلَّاء لاستطلاع الأمر.. عاد ليُخبر القاضي بأنها قبائل مناصرة لأحد أبناء أبي الفتح الملثم.. وهو الوحيد الذي فر ناجياً بحياته في المواجهة مع مولانا الأجل قبل أشهر في صعدة.. أخذت تلك القبائل تزحف نحونا.. شكلوا طوقاً حولنا.. تزايدت أعدادُهم.. رُماة الأقواس على التلال المحيطة.. يشهر بعضُهم سيوفهم والبعضُ هراواتٍ وحراباً.. انكمشنا بشكل غريزي.. ونحن نرى السهامَ تصوَّبُ نحونا من عدة جهات.. تقدم خيال طويل اللحية ملوحاً بسيفه:

– علمنا أن قافلتكم كبيرة.. فأين البقية. وعندما لم يجد من يرد عليه.. صرخ: من قائدكم؟.

التفت كـُـلٌّ منا لمن حوله.. الجميع يبحث عن إجابة لذات السؤال.. ودون أن يتفوَّهَ أحد.. خرج من وسط القافلة قاضي القضاة على ظهر خيله:

- أنا قائد هذه القافلة!.

- تقدم نحوي.

أكبرت في القاضي تلك الجرأةَ والإقدامَ.. هبط ذلك الخيال من على خيله.. مشيراً لقاضينا بالترجل.. ليتقدم راجلاً وجميع العيون ترقبهم:

- هل أنتم ضمن قافلة الصُّلَيحي؟.

- بعضُنا!.

- وأين البقية؟.

- انفصلوا عنا منذ يومَين!.

ساد صمتٌ للحظات.. رفع ذلك الخيال كفه.. ليرتفعَ أزيزُ عشرات الرماح باتجاه قامة القاضي.. التفت مذعوراً.. لم يسعفه تفكيره.. تراجع خطوة.. كانت أسنة الرماح قد انغرزت في جسمه.. تهاوى أرضاً.

لم تكن لنا خطة لمواجَهة مثل هذا الجمع المتكاثر.. كنا قد استعدينا لقطاع طرُق لا يتجاوز عددهم العشرات.. ننظر إلى أعين بعضنا.. بُهِتُّ وأنا أتخيلُ انقضاضَهم علينا.. أن أموتَ في أرض بعيدة عن صَنْعَاءَ.. أتخيل رَبَّ أمي.. إله المعلم.. خالقَ الصُّلَيْحِي.

يرتعش جسدُ قاضي القضاة الملقى أرضاً فتهتز جذوعُ السهام في الهواء.. قد تكون سكرات الموت.. تكومنا التصق بعضنا جوار بعض.

ينهق حمارٌ ليجيبه آخر .. بعير مهتاج.. يتدفق الزبد من بين شدقيه، كأن الأمر لا يعنيه.

تقدم ذلك الخيال حتى اقترب من القاضي الذي همد جسدُه.. بينما حمَلةُ النِّبال يُصوِّبون رماحَهم نحونا.. ارتفع صوتُ ذلك الخيال مشيراً بسيفه:

– فلينزلْ كُـلُّ راكب عن دابته.

هبطنا في عجلة.. خوف صوته الآمر:

لم نتشاور.. و لم يأخذ أحدٌ رأيَ أحد.. عاد صوته ثانية:

– على العبيد والراجلين أن يتقدموا نحوي.

خرج الحُفاة في جلبة مصطنعة.. رفع ذلك الخيال إصبعه مشيراً علينا:

– على من تبقى ترك سلاحه على الأرض والتقدم نحوي عدة خطوات.

تقدم البعض.. تردد آخرون.. والبعض أعلن رفضَه.. توتر الموقف.. عاد صوتُ الخيال أكثر حِدّة من ذِي قبل:

– أنتم أتباعُ الباطني الصُّليحي.. وأنتم من رجاله.. عليكم الامتثال.. والسيف مسلط على رقابكم ..... و

حملنا جميعُنا عليهم قبل أن يُكمل تهديدَه.. صرخ ذلك الخيال بأعلى صوته مشيراً لرجاله بالهجوم.

إنه الموت في أعينهم.. تلك الحشود المهرولة تتبعها صفوفٌ من راكبي الثيران.. حِرابٌ تسبح فوقنا.. ضجيج اختلط مع ذرات الغبار المتطاير.. "اللـَّـه أكبر ولا إله إلاَّ اللـَّـه..."، رددتها أفواهُ قبائل ذلك الخيال.. ونحن نردد "اللـَّـه أكبر ولا إله إلا اللـَّـه..."، لم يدُم القتال كثيراً.. أحاطونا بحرابهم وسيوفهم وفؤوسهم، سقط القتلى منا.. ومن حاول الهرب تبعته سهام الرماة.. جثثٌ على قارعة المحجة.. جوار الحمير والبغال النافقة.. تركنا أنين الجرحى.. لم نعد إلا قلة.. كنت أنا ممن لا يزال قادراً على الوقوف والسير.. رأيت مساعدي وبعض الأفراد يقيدونهم.. تم ربط معاصمنا خلف ظهورنا.. تجرنا حبال ثيرانهم.. ساروا بنا نحو جبال غرب الوادي.. ذبحوا المواشي الجريحة.. ربطوا العبيد من أعناقهم يحملون سلعنا ولحوم مواشينا النافقة.. كانت الشمس تحتضر. يتقدم الجموعَ راكبو الثيران.. يردد الراجلون زاملاً حماسياً يشيد بإمامهم وهجاء الباطني الصُّـلَـيْـحِي داعي الشيطان.

أبحثُ عَلّي أرى مساعدي.. صف طويل خلفي يمتد إلى أمامي والكل مقيدون.. غابت الشمس.. دخلنا قرية على لهب المشاعل.. لم تتوقف حناجرهم عن ترديد زواملهم.. نجوم السماء تبدو أقرب من أيِّ وقت مضى.. نباح كلاب يتداخل مع أصوات حناجرهم.. ظهرت من بعيد عشرات المشاعل.. اقترب نباح الكلاب.. روائح الروث والتراب..

شوارع بين منازل طينية تشبه بيوتَ شارع اليهود في صَـنْـعَـاء.

أودعونا مُقَيَّدين في بيتٍ أرضي.. تحمل سقفه أعمدةٌ خشبية.. ظلام وأنين مُحزن.. جوع أنقذني منه نوم عميق.

* * *

في صباح اليوم التالي.. اقتادوني في أزقة مترية.. عبروا ساحة واسعة رُصفت بالأحجار المتلاصقة.. دار من الطين.. جموع غفيرة تزأر وقد حملوا الهراوات.. خَيَّال الأمس على خيله وحوله عدة عبيد.. أجلسونا وسط الساحة الحجرية.. تيقنت بأن أرواحنا ستزهق.. مجموعة تقرع الطبول تدور حولنا.. تصرخ الجموع بهستيريا من أماكنها.. دخلت الساحة مجموعة على أكتافهم أكياس يقودون ثلاثة أثوار تجر أحجاراً مسطحة.. تدحرجت عشرات الرؤوس الآدمية من أكياسهم.. تعالت هتافات الجموع.. سيقت الثيران تجر أحجارها.. نسمع خشخشة تهشيم تلك الرؤوس.. صراخ الجموع يزداد.. يلوح ذلك الخيال بسيفه والعبيد تنشد مديحه.

يخرجوننا في كُـلّ صباح إلى الساحة الحجرية.. يأتون بجماجمَ آخرى لتهشمها أحجار الثيران.

في اليوم السادس كنا خارجَ القرية مقيدين إلى أعناقنا بحبل واحد.. يسوقونا نحو ظلال شجرة عظيمة.. حيث جلس ذلك الخيال تداعب شعر ذقنه الريح مستنداً إلى جذعها.. يحيط به عسكره.. عبيد ينشدون

مديحه.. يدورون في خطوات راقصة. أمرونا بالركوع قرب أقدامه.. أشار أن ننهض.. نظرتُ إلى عينيه.. يبتسم بهما.. أصابع كفه تداعب خصلة تدلت من تحت لثامه.. يغير من وضع عمامة رأسه.. ليسأل من كان في أول الحبل لم أسمع رده.. أشار أن يفصلوه عنا.. ثم الثاني الذي قال له بأنه تاجر مواشي.. ثم الذي يليه وكان مساعداً له.. وآخر تاجر حبوب.. وخامس تاجر عطور وملابس.. ورابع حاج.. ظل يسألهم فرداً فرداً.. من أيَ القبائل هم ، وما هي أعمالهم؟. وموقفهم من دعوة الباطني؟!. ويستمع إلى الإجابات ليحدد مصيرَ المجيب.. وهكذا حتى جاء دوري:

– من أيَّ القبائل؟. سألني وهو يتمعن في شعري المتطاير.

– من صَـنْـعَـاء.

– إلى أين وجهتك؟.

– عابر سبيل ورفيق لي.. إلى مكة للحج.. وقد عاهدنا بعضنا البعض على ألا نعود إلى صَـنْـعَـاء بعد أن زاد جور أهلها.

أشار عَـلـيَّ بالتوقف عن الحديث وأصابعه تعبث بذقنه.. ثم قال:

– وأين زميلُك؟.

– هناك في المنتصف.

أشرت بإصبعي إلى حيث يكون مساعدي جعدن.. أمر من يجلبه إليه.

- هل ما يقوله هذا صحيح؟.

- نعم صحيح!.

رفع ذراعه محركاً أصابع كفه بحركة سريعة لم أعرف مغزاها.. أحد العبيد تقدم ليفك وثاقي ووثاقه.. قادنا إلى إحدى المجموعات الثلاث.. تلمست حز الحبل.. قال لنا العبد:

- مولانا الإمام يشفق على طلاب العلم والمرضى.. وحجاج بيت اللـــه.. لقد عفا عنكم.. وغداً سيترككم ترحلون!.

تمالكت فرحتي.. وكتمت صرخةً كادت تنطلق.. ضممت مساعدي أواسيه وهو يبكي.. عرفت أن ذلك الفارس ذا اللحية الطويلة ما هو إلا ابن الإمام أبي الفتح الذي قتله الصليحي.

رأينا عبيداً يقودون مجموعة أخرى نحو الشجرة.. ظل يسأل كـلّ فرد منهم حتى انتهى بتوزيعهم على الثلاث المجموعات.. وجماعة أخرى يقتادهم عدد من العبيد.. إلى تلك اللحظة التي رأيت فيها ذلك النخاس.. في البدء اعتقدت أن الأمر التبس عَلـيَّ وأن من أراه شبيهُه بسبب وضعه المقيد ورأسه الحاسر وملابسه الرثة.. لكنها نظراته حين نظر إليّ.. هي ابتسامته.

أخذ طريقَه بين يدي الملثم، أشار بوضعه في مجموعة غير مجموعتنا.. حدثت جعدن عما أرى.. نسيت تلك الرضوض.. ألم جسمي.. حين انتهى الفارس من فرز تلك الجموع.. سار على خيله متقدماً الجميع..

قال لنا أحدهم:

إن المجموعة الأولى قد حكم عليهم أن يكونوا له عبيداً.. والثانية يُبقيهم كحرفيين لينتفع بمهاراتهم.. وأنتم ننتظر الأمر بشأنكم.

سار بنا العبيد في مجموعات منفصلة باتجاه القرية.. مجموعتنا خليط يقودها ثلاثة.. أفكر في ذلك النخاس وكيف التقى به؟.

أودعونا في مخزن للحبوب.. لم تكن مجموعة النخاس بيننا.. سألت أحدَ الحراس بأني متعب ومريض.. طلبت منه أن يتركونا نرحل. زجرني:

- إن كنت تجيد الصمت وإلا فسأعرف كيف أخرسك!.

سألته وأنا أحاول ألا أظهر امتعاضي من رده:

- كم سيظل الحرفيون في خدمة الإمام؟

- إلى أن يشاء الله؟.

قلت في حزن:

- أتُسدي لي معروفاً؟.

- يبدو أن جلدك يحن للجلد!

- ألا تعرف ما هو قبل أن تقرر؟!.

سكت في خجل.. تابعت كلامي إليه: لي صديق بين الحرفيين.. فهل يمكنني أن أبيتَ معه الليلة.

- الأمر ليس بيدي.

كنت حزيناً لعدم إقناع ذلك الحارس.. وسعيداً لوجود النخاس بالجوار.. أفكر كيف ألتقي به؟، أريد إزالة ما بداخلي من شك أَوْ تثبيته، أن أعرف مصير شوذب.. لم يعُد يهمني السفر إلى مكة مثلما لم أكن مهم للقاضي الذي ضحى بروحه من أجلنا.. ترى هل كانت حماقة دفع ثمنها؟.

نام الجميع وأنا أفكرِ في طريقة تصلني برب العبيد.. لم أكن أتخيل أن أراه بهذا الشكل المُذل أَوْ في هذا الحال.. أنقضى الليل وأنا أفكر في وسيلة للقياه.. قبيل الفجر اكتشفت أن من كان يحرسنا يغط في نوم عميق وقد أسند نصفه العلوي على لوح الباب.. همست لمساعدي أن نقيد الحارس ونكممه.

خرجنا وسط برَد شديد قبيل الفجر.. هرولنا وسط نباح قطعان كلاب تبين أصواتها أنها أكثر عدداً من سكان. تلك القرية.. بقايا نجيمات تسامر الأفق.. خرجنا من أطراف القرية سرنا نتلمس الطريق.. زقزقة العصافير.. صخب أقدامنا الباردة.. أشرقت الشمس حين ابتعدنا.. كنت في حيرة من أمري.. وقفت أبكي.. دُهش الجميع.. قلت لهم بأني سأبقى وعليهم بالرحيل.

عيونهم تبحث عن عقل فيَّ.. ملامُحهم تراقبني بدهشة.. مساعدي لم يكن متفاجئاً.. قال لي: ألا تخاف على حياتك.. ستُقتل لا محالة إن

وجدوك. حاول البعضُ حَثَّـي على مرافقتهم بالرحيل.. البعض تركني وسار مبتعداً.. مساعدي تحدث بصوت حزين إلى من ظل ينتظرني: اتركوه وشأنه. ثم ضمني إلى صدره.. قبَّـلَ رأسي وهو يتمتم: أقدر ما أنت فيه يا سيدي.. وإن كتب اللـّـه لك النجاة حتماً سنلتقي!.

* * *

عدتُ كالمسحور.. باتجاه القرية بارداً.. لم تعد تهمني النتائج.. فقط التقي بذلك النخاس.. صادفت عدة نساء منكبات بمناجلهن في حقل برسيم وثلاثة حمير تلصق أنوفها بخضرة الأرض.. كلب فتي ينبح باتجاهي.. وقفت ممسكاً بأحجار الأرض.. أنتظر من أحدهم أن يزجرَه.. سرت مبتعداً وعيناي على الكلب الذي حافظ على المسافة بيني وبينه.. أقف.. يقف نابحاً.. ما إن أسير حتى يتبعَني وهو يتشمم الطريق.. تلقفتني كلابٌ أخرى.. وصلت أطراف القرية وقطيع آخر ينبحني.. توقفت وقد أحاطني. رأت حيرتي إحداهن.. تقدمت.. رفعت يدها الفارغة ملوحة وهي تغمغم بكلمات غير مفهومة.. ليتفرق القطيع.. تقدمت لأشكرها.. وأنا أفكر في سؤالها عن المكان الذي يودع فيه الإمام من احتجزهم لسُخرته.. لاحظت نقشَ وشْـم على ذقنها.. هو يُشبهُ بنقشَ أُم أمي.. حدثت نفسي قد تكون هي الأخرى يَهُودية.. ستتعاطف معي.. سرت أحدثها عن حكاية أمي اليهودية.. حدثتها من أن أحدهم ضمن من كانوا معنا في القافلة قد تم تسخيرُه ليبقى مع من اختارهم الإمام من حرفيين لخدمته.. أخبرتها بأنا هربنا قبيل الفجر، وأني عدت لا يهمني أي شيء

إلا أن التقي بذلك النخاس.. تستمع إليَّ بحذر.. أخبرتها أن ذلك الرجل يمكنه أن يُدلني على مصير أمي.. تسمعُني وهي تردد "هه.. هه" دون أيِّ تعليق.. وحين صمتُ توقفت وقالت لي في برود العجائز:

– ألا تخشى على نفسك؟!.

– أنا غريب.. ولا أعرف أين أذهب.. أَوْ أين آوي!.

– أنصحك بالهرب سريعاً

– ألا تعرفين أين يضع مَن جعلهم سُخرة له؟.

– سيقتلونك!.

– لا يهمني إلا أن التقي به؟!.

– إذا سأخبئك عندي.

– وماذا عَـلَـيَّ فعله.. كي أصلَ إلى مبتغاي؟.

– اتبعني سأعطيك بعضَ الطعام.. ويمكنك أن تنام حتى غروب الشمس وبعدها تخرج وسط الظلام.

سرت خلفها.. أتأمل ما حولي.. المكان تملؤه أحجارٌ قديمة.. كان بيتها قريباً.. دخلت من باب قصير.. مكان مُرجت جدرانه بالطين.. في إحدى زواياه تنور.. وفي زاوية أخرى دكة جلست عليها.. وكذلك زاوية لبقرة أمام مذودها.. ثم يليها حجر الرحى معلق فوق حجر أخرى.

خرجت وسط الظلام أسير على طرقات القرية.. أتجنب الكلاب.. أبحث عن مكان احتجازه.. يسحقني البرد وسط ظلام دامس.. عواء كلاب متكرر.. ثلاثة ليال عشتها متخفياً بيت تلك العجوز وزوجها المسن.. أخرج بأطراف النهار على أستدل على مكان النخاس.. أتناول كِسرِ خبز يابسة.

في النهار الرابع جلست أفكر فيما أنا فيه.. وصلتوعلى رأسها قليل من العلف.. جاءني صوتها:

– هذا أنت!.

أردفت: ألم تنم .. وهل التقيت بمن تبحث عنه؟.

– لم أستدل على مكانه.. وها أنا ذا أجلس في حيرتي.

– أمَا عرفت؟.. لقد سمعت من جيراننا بأن الإمام رحل منذ يومين عن القرية مصطحباً عبيده ورجاله.

وخزٌ شلَّ أطرافي.. وقفت لا أدري ما أقول.. أمسكت بيدي بعد أن وضعت رُزمة العلف.. أجلستني بالقُرب من رجلها المسن.. متدثراً بأغطية.. يبدو أنه لا يميز ما حوله.. قدمت لي قطعةً من فطيرة شعير.. رأيتها تمسح على ذلك [illegible] بقرة بالداخل.. تدس في فمها قضباً طرياً.. أرى عينيها تنظر إليّ من [illegible] وجهها.. تبتسم [illegible] إلى أمان.. تراقب لهفتي لقضم الفطيرة.. وشرب الحليب.. التصاق قطراته على عشب وجهي.. لا أدري من يشعر بالقلق [illegible] الغريب يظل

مصدر قلق لمن حوله.. حين كنت أهم بالنهوض .. قالت:

– ماذا ستفعل؟.

– في أَيّ اتجاه ساروا؟.

– هم لا يقصدون بلاداً بعينها.. يطوف ذلك الإمام بين القبائل طالباً نصرة دعوته.

– أشعر بإحباط وضياع.

– أربعة أيام منذ أتيتنا.. كنت قلقة من جنونك ؟.

– هذا أنا لا أعرف ما أصنع بحياتي.

– عليك بالرحيل واللحاق بجماعتك.. وأن تحمد ربك الذي أنجاك من بطشٍ محقق.

صمتت وقد وضعت رأسَ ذلك المسن في حجرها.. تفلي شعرَ رأسه الفضي.. أسمعُ صوتَ فرقعة بطون ورُؤوس القَمْـل بين ظفريها.

خرجت من عندها ،عبرت أطرافَ القرية منهزماً.. جبال بعيدة تظهر على سفوحها المنازل.. سرت جوار تلك الشجرة العظيمة.. الوادي خالٍ.. قصدت المحجة.. وقفت على طرفها وعيناي دامعتان.. سرت حتى ذلك المنحدر حيث دارت المعركة.. كـُـلّ شيء صامت.. صخور سوداء.. ظلال الجبال العالية كأن لم يطأه قدم.. و لم تُقطع رقاب وتُبقر بطون.. أين ذهبت تلك الصرخات.. النظرات الفزعة.. الجثث..

من كانوا يعانون سكرات الموت؟! فقدت سيفي وجوادي هنا.. رأيت القاضي يسقط ينازع الموت هناك.

جلست على حافة المنحدر أتأمل كل ما يحيط بالوادي الصغير.. أبحث عن مكان آوي إليه إذا ما غابت الشمس.. أتمعن بيوتَ تلك القرية في الطرف الآخر للوادي.. بيت تلك العجوز اليهودية والرجل المسن.. أسأل نفسي: لماذا لم أودعها بكلمة شُكر.. أم أنها سُرَّت لرحيلي.

تبعتُ أول قافلة ظهرت على المحجة.. التحقتُ بخدمة تاجر زبيب وبُـن يسير ضمنها.. أعتني بمواشيه وبهائمه السبع.. صعدنا مرتفعات.. وعبرنا وُدْيَـاناً غائرةً. أسأل نفسي إلى أين أنا ذاهب.. كـُـلّ شيء فقدت أثره.. ذلك النخاس.. مساعدي.. وبقية أفراد بعثتنا.. ما إن نصل إلى محطة حتى أطوفَ وأسأل في مقاهيها وسماسرها.. حين نسير يعرفني ذلك التاجر بأسماء تلك المناطق ونحن نعبرها: المزحاط.. العمشية.. بيت مجاهد وآل عمار القريبة من صعدة.. أسال عَـلّي أجد ما يقودني إلى طريق ذلك النخاس.. قَلَّ أملي بلُقيا مساعدي.. كنتُ أشعرُ بأني أبتعد عن أي أمل،أم أنهم ساروا عبر طريق آخر.

اليوم الخامس تراءَت لنا مدينة صعدة على سهل منبسط.. تشبه صَـنْـعَـاءَ في سورها واتساعها.. دخلنا من باب صَـنْـعَـاء.. ملتقى طرق إلى: نجران وبلاد يام شرقاً.. وشمالاً بلاد قحطان وغرباً جبال السروات، أنخنا الجمالَ في أطراف ساحة تتوسط منازل المدينة.. ازدحمت بمئات النوق والبغال والحمير.. قضيت بقية النهار في الطواف بأحياء المدينة..

منازلها الطينية المتزاحمة.. حوانيتها تمتدُّ في أزقة متشعبة.. مساجدها.. نُزُل وسماسرُ عديدة.

ابن ظبيـــــة

أقف أمام سلع تاجر الزبيب والبن.. إلى جوار صبيانه.. سعيد بوجود رُفقاء جدُد.. حاولت نسيانَ همومي وضياعي وأنا أشاهد ذلك الاكتظاظ.. أصوات الباعة وروائح السلع المعروضة على الأرض وألوانها.

وقف أحدُهم يتأملني ببلاهة.. ظننته في بادئ الأمر أخرقَ.. لكنه رفع صوته وهو يتقدم نحوي: أنت مع قافلة مولانا الأجل؟!. لم أكن قد رأيته من قبلُ.. نظرت إلى تاجر الزبيب مبتسما.. همس ذلك الفتى: لا يخطئك من يراك!. تفرست وجهه وذاكرتي تبحث في ثناياها.. لكنه أزال حيرتي حين فتح ذراعيه وهو يقول: أنا أحد أفراد قافلتكم. بادلته الأحضان ببرود وهو يقول: الجميع يسألون عنك بعد أن وصل إلينا مَن كانوا معك.. حدثونا بما جرى لكم.. هيا لتراهم!. نظرت إلى تاجر الزبيب مرتبكاً.. أشار عَلـَيَّ مشجعاً أن أذهبَ.

عرفتُ من ذلك الفتى أن قافلتهم لم تواجه أَيَّـــة مصاعبَ.. وأن مساعدي في حزن شديد منذ وصوله.. وأنهم ينتظرون انتهاء سوق

صعدة الأسبوعي ليواصلوا رحلتهم باتجاه مكة.. حملتني فرحتي إلى حيثُ يقودني بين زحام رُوَّاد السوق وأكوام سلعهِ. منذُ وصلوهم حلوا في نزل بَعِيْدٍ منزوي عن الأنظار، في أطراف المدينة.

عزائي أن الجميعَ استقبلوني بفرَح في تلك الليلة.. لم أكن قد تعرفتُ على أكثرهم أثناءَ سفرنا.. بل إني لا أتذكر بعضَهم.. سلمت على (المقـْدَمي) شهاب الدين الذي أضحى هو المسؤول عن قافلتنا.. ابتسم قليلاً ليُظهر بقايا وسامةَ على وجهه الهرم.. استمع إلى سبب تخلفي.. أمر أحَدَ العسكر بإعادة ما كنت قد أودعته لديهم.. كما أمر بشراء خيلٍ وحمارٍ لي ولمساعدي.. في تلك الليلة جمعنا (شهاب الدين) جلس متحدثا إلينا.. وهي المرة الأولى التي نجتمع فيها منذ خرجنا من صنعاء.. أفتتح حديثه بقراءة الفاتحة على أرواح من افتقدناهم وفي مقدمتهم قاضي القضاة.. ثم حمد الله كثيرا.. وصلى على محمد النبي وآله.. ومجد الأئمة الأطهار من آل البيت وأثنى عليهم.. مختتماً مفتتح حديثه بالدعاء لمولانا الملك الداعي علي محمد الصليحي.

كان وهو يتحدث يبتسم.. يركز بناظريه في وجوهنا.. ماداً بسبابة يده اليمنى في الهواء قائلا: دخلنا صعدة كتجار وعابري سبيل إلى بيت الله.. ونحن رُسل مولانا الملك.. الذي أخفينا رسالته الموجهة إلى واليه بصعدة بعد أن قُتل.. وأمست المدينة في قبضة داعٍ جديد.

كلكم تعلمون فضل الملك الأجل على أمصار جزيرة اليمن.. وتعرفون فتوحاته التي قصد منها التقرب إلى الله رب العالمين وإعلاء دينه.. وبسط

الأمن وتأمين سلامة الناس في البلدان وجادات السفر.. وتأمين سبل الخير للمسافرين.. ولإن أعداء الله وأعداء الدين لا يتورعون عن محاربة دعوته وملاحقة رجاله.. ولذلك أنبه نفسي وأنبهكم عدم المجازفة بالكشف عمن نكون.. أو التفكير بأن نسير في الطرق عدة شيع وأن نلزم السرية في هويتنا حتى الوصول إلى مكة.

اختتم كلامه بالدعاء لمولانا الأجل.

قضيت شطراً من ليلتي أهامس مساعدي.. وهو يكرر اعتذاره لتركه لي هناك وحيداً.. شعرت بصدق مشاعره.. خلدت إلى نوم عميق.. صحوت وسط ظلام حالك لأسمع همساً:

– هل نمت؟.. أريد أن أحدثَك بشيءٍ يقلقُني.. كنت قد وعدت نفسي بأن لا أحدثَك به حتى الصباح.. لكنيّ لم أستطِع النومَ.. هل تسمعني؟. ذلك النخاس هنا بيننا!!.

– بيننا!.

– لقد رأيته !.

– متى رأيتَه؟.

– اليوم!.

– كيفَ ذلك وقد اقتاده ابن أبي الفتح مع مَن اقتادهم؟.

- عرفتُ أنه فَرَّ مع عدد ممن فروا إثر مواجَهة بين قبائل مناصرة لابن أبي الفتح وقبائل إمام "حوث".

- أمتأكد؟.

- نعم، لقد رأيتُه بعيني.. هو الآن قابعٌ في مكان ما بداخل هذه السمسرة.

- كيف يأتيني النوم.. هل أحلم.. أريد أن أشعل مواقد السمسرة حتى أراه؟!.

- الكل نائم.

- لن أستطيعَ النوم.. أريد التأكدَ مما تقول.

- أنا متأكد من أنه هو، كما يقينيأنك جَـوْذَر.

فاجأني مساعدي بذلك الخبرالسار، كنت قد قطعت الرجاء، قافلتنا لم تجر رياحها كما نشاء، لم أتمالك نفسي، جثمت أحتضنه في ظلام النزل.. بحثت عن وجهه.. أمسكته.. تدفعني ذكريات ظلمة اللـّـه لملامسته.. تذكرت ما كان يجري بين النزلاء.. لم يتضايق من ملامستي له حين أمسكت بكفه.. استكان صامتاً.. اعتذرت له.. قلت: إن فرحتي دفعتني للتعبير عن شكري.. قال: لست أنت المختلف عمن حولك.. كل له غُربته ووحدته.. كـُـلُّ مَن حولك له حكايته.. كلنا نعاني من قسوة الحياة.. لو باح كـُـلٌّ منّا بحكاياته لاستكانت روحُك.. ستكتشف بأنك لست وحيداً وأن لحياتك نظائرَ.

قلتُ له: دعني أمسك بأصابع يدك ونحن نتحدث.. هل يضايقك ذلك؟. حين لاحظت صمتَه شعرت بأصابعه تبحَثُ عن أصابعي.. بدأ يهمسُ بحكايته.. قلت له بأنني أشعر بالأمان لملامسته.. قال لي بأنه مدين لي بأشياءَ كثيرة.. لم أفهم أيَّ دين يقصد.. كادت نفسي تضيق.. أغبطه على تلك السجية التي يتعامل بها.. حديثُه يتدفقُ بتلقائية.. يضحك دون تحفظ.. ترتجفُ أصابعُه بين أصابعي.. ارتفعت أصابعي تتلمسُ معصمَه.. رقبته.. قبـَّـلَ يدي.. ثم.. سألني: لماذا لا تحدثني عن نفسك كثيراً؟.

سؤالُه لامس رغبة البَوح في أعماقي.. سافر خيالي بعيداً.. دفع سؤاله ذاكرتي إلى استعراض ما يمكن التحدث عنه: هل أبدأ بحكايتي مع ذلك النخاس الذي ظل يُخادعني؟.. أم حكايتي في قاع ظلمة اللـَّـه؟.. أم عن حياتي مع المعلم وحُبي للنسخ ونقش الزخارف والصور؟.. أم أُخبرُه عن حكاية أمي.. وشـَـوْذَب.. أم ماذا؟!. كنت متردداً.. أدركتُ بأن صمتي طال.. أخذَتْ أصابعي تلامسُ أُذُنَه الباردة.. حين بدأت أحدثه عن قلقي من أن يكون واهماً من رؤيته لذلك النخَّاس.. ورغبتي بلُقياه.. قال لي: حدثني عن شيء آخر. قلت له هامساً: غبتُ عن أمي، أوْ غيَّـبتني ظلمة الله عن صَـنْـعَـاء أكثر من خمس سنوات.. إن وصلتُ إلى شـَـوْذَبَ هي مَن ستقودُني إلى معرفة مصير أمي.. فهي الخيط والأملُ الوحيد.. أتظنُّ النخاس سيبوحُ لي؟.

* * *

ظننت أنه قد نام.. تيقنتُ أنني أبوحُ هامساً للظلام.. سحبتُ أصابعي..

تموضعت أفكر وأنا أتخيل ذلك النخاس يبوح بكل ما لديه.. عاد صوتُ مساعدي حَزيناً: أنت تبحث عن خيط يصلك بأمسك.. وأنا أبحث عن طريق يأخذني بعيداً عن أمسي. تنهد.. عُدت لملامسة أصابعه.. وهو يستوي في مكانه. أستمع ناصتاً:

لم أكن أعلم ابن مَن أكون.. منذُ صغري أعيشُ في ملحق لقصر حريم إمام صَـنْـعَـاء.. إن كنت تعرف الدُّوْرَ المجاورة للقلعة وعرفت موقع الدار الكبير الذي يُسمى حتى اليوم بقصر الحريم، له ملحق في الجهة الجنوبية.

كان ذلك منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً.. لي أقران كُـثْـر أبناء الجواري والمحظيات.. لبعض الصبايا والصبيان آباءٌ غيرُ الإمام.. وأنا لم يكن لي مثلهم أبٌ محدد.. لكن أمير المؤمنين هو أبو الجميع.

أتعلمُ بالتهجي وحفظ القرآنَ على يدي مؤدب الصبيان في مسجد القلعة البَـرَّاني.. الذي يأتي إليه أبناء الإمام.. يزورُنا في مناسبات متفرقة.. ينفحُ المؤدبَ بالقليل من الدراهم وكسوة جديدة.. أنهض لأقرأ بعضَ ما تعلمته فيمرر كفه على رأسي.. تضمُّني رائحته.. يبعثر شعرَ رأسي.. يتركني أعود إلى مكاني.. ليسأل صبياً آخرَ.. كان له أولادٌ يخصهم باسمه.. يتهافتون عليه.

قَـصْـرُ الحريم خمسةُ أدوار.. العلوي لخلوة الإمام.. والأدوارُ السفلى لزوجاته الأربع المطلقات ومحظياتهن.. والدور الأرضي ملحق بسُلم داخلي للجواري.. ذلك القصر أشبهُ بسجن.. بل هو أشد من أيِّ

سجن.. له ملحقٌ جانبي خُصص لصبايا وصبيان القصر.. يتبع زوجات الإمام المطلقات عدة جَوَاري.. ومجموعة من الطواشي.. لكل دور مدخله الخاص.. ومن الداخل تتصل الأدوار بسُلم واحد.. يتناوب حراستَه مجموعةٌ من الخِصيان.... لا يسمح لأيٍّ كان بالدخول.. عدَا الإمام الذي يُفاجئ الجميع بزياراته ومربي الصبايا والصبيان.

لا زالت تلك الليلة عالقة في ذهني.. عندما جمعونا مع الصبايا في قاعة واحدة.. أعلمونا بأن الإمام سيأتي لزيارتنا.. فهو احتفال سنوي لمكافأة الصبايا والصبيان المتميزين بالتأدب والتعلم.. دخل علينا يسبقه مؤدبُنا وحاشية كثيرة.. رتبونا في صَفين متقابلين وحولنا من يسهرون على تربيتنا من جَوار وخِصيان.. سار الإمام بيننا.. نـُسمـِعُه أنشودة الشكر التي نرددها عن ظَهر قلب.. كلمات لم يهتم بسماعها.. إلى أن جلس على وسائدَ مرتفعةٍ.. مر بعينيه مبتسماً.. أشار على المؤدب الذي كان يلبس ملابسه الجديدةَ.. أن يتلوَ ما لديه.. بدأ بذكر اللـّـه والصلاة على رَسُــوْله والشكر لأمير المؤمنين الإمام.. ثم تلا أسماء كثيرة.. كان اسمي مقترناً بابن ظبية.. "جعدن ابن ظبية" لم أكن الوحيد من يقترن باسم أمه.. فقد سمعت عدداً ممن اقترنت أسماؤُهم بأسماء حريم.. أكمل المؤدب الأسماء ليُعلن أن من ذُكرت أسماؤهم قد بلغوا الحُـلـُـمَ وسينتقلون إلى دار جديدة خاصة.

ابتسم الإمام حين جاء دوري لتقبيل ركبته وكفيه.. نظر في عيني: "هاه.. ابن ظبية"، ثم سلمني كسوتي الجديدة.. ليواصلَ المؤدبُ تعليماتِه

بعد أن استكمل الجميعُ تقبيلَ مولانا الإمام. موجهاً بالتوجه للسكن في دار مستقلة خاصة بنا ضمن سور القلعة.

خرجنا نتبع أحد الخِصيان.. صفاً مرتباً.. صوتُ الإمام يتردد في مسامعي "هاه.. ابن ظبيةَ".. لم أسمع من قبل مَن ينعتني بذلك.. أعرف أن أمي تسكن ضمن من يسكن في الدور السفلي المخصص لحريم الإمام وجواريه السابقات.. لكن ذلك الدور المحرم دخوله جعلني في عُزلة.. لم أرَ أمي منذ كان عمري أربعَ سنوات.. شببت على ذلك الوضع.. أمي جارية إحدى زوجاته المطلقات.. وهن كُثر.. حينها كان يجمع معها ثلاث زوجات.. في الوقت الذي يريد الزواج بجديدة يطلق إحدى الأربع.. تشاورن على دَسِّ السم بين طعامه.. وشت بهن إحداهن.. طلق الثلاث ومن يومها حجر عليهن وعلى محظياتهن في الدور السفلي.. لا يسمح لهن بمقابلة أحد ولا يخرجن قط.. إلا في أكفانهن في رحلتهن الأخيرة.

اسمي جعدن.. جعدن فقط.. كلنا لمولانا الإمام.. وهو أبو الجميع. كنا سبعةَ عشرَ صبياً.. تطل نوافذ حجرتنا على أحراش واسعة تنتهي بجرْف سحيق.. هي المرة الأولى التي أرى القلعة من الخلف.. والجدران العالية لقصر الحريم.. فيما مضى كنت أرى هذه الدار التي أسكنونا فيها.. داراً وحيدة.. موحشة.. منزوية.. تفصلها أحراش خضراءُ تسقى من مجاري ومخلفات (مطاهير) القلعة وملحقات قصر الحريم.

منذ سكنت الدار مثّلت لي الأحراش لُغزاً.. لا أرى أحداً يجتازها..

تخفي خلفَ تلك الخضرة روائح منفرة.. أزيز حشرات لا ينقطع.. بعضها يومض ليلاً.. أسميتها حشرة النار.. أصوات عراك مفزع، على ماذا لا أدري؟!. قد تكون لزواحف وقوارض، شجيرات تتداخل.

في تلك الليلة الماطرة.. فرض مُـزْنُ السماء إيقاعاً رتيباً.. لا روائح.. لا وميض لحشرات النور.. لا عراك قوارض وزواحف.. فقط وقع القطرات على ورَق الشجر.. فارق عيني النوم.. ليس لوقع المطر.. لكنها ظلال إحدى نوافذ قصر الحريم.. ظل قوام امرأة.. شعرٌ تمشطه أخرى.. اتكأت على حافة النافذة أنقل نظري بين تلك النافذة وشرايين البرق.. انطفأ سراج تلك النافذة و لم أعد أميزَ موقعها بين نوافذ أدوار القصر.. أركز نظري بانتظار عودة البرق.. ضوءه يطمسُ كـُـلَّ شيء.. تعلقت ليالِيَ بتلك النافذة.. أنتظر ذلك الضوء والظِلِ حتى يظهر.. قوام امرأتين يتعانقان.. لشطر من الليل.. ثم ينطفئ كـُـلُّ شيء.

احتلت رأسي فكرة ظلت تلحُّ عليَّ.. تدفعني لأخرج ليلاً.. أن أعبر الأحراش.. أقتربَ من قصر الحريم.

لا مفر من اختراق تلك الأحراش.. هذا ما اتضح لي بعد زيارة أطرافه نهاراً.. بحثت عن وجود ممر من الأطراف.. لا أريد أن يراني أحد.. أتأمل المكان من النافذة أقيس المسافة.. توغلت قليلاً.. أوحال.. عيدان مشوكة متشابكة.. شيء يلمع.. أصوات.. تراجعت.. لم أجرؤ.

ليأتيَ بعد أشهر من يهامسني عن مغامَرة بعض أقراننا.. بعد أن اكتشف أحدهم ممراً يخترق ذلك الحرش.. وأنه وصل نافذة الدور السفلي لقصر

الحريم.. خاض أوحالَ الحرش حتى جدار القصر.. تسلق الجدار.. لم تكن النافذة بعيدة.. رأى ذراعين أبيضين يغلقان على وجه يضيءُ سناه.. ظل مكانه.. يرهف السمع.. لا شيء.. تشبث متسلقاً.. ليسمع همساً متواصلاً.. ارتفعت طبول قلبه.. اقترب أكثر كادت تلك الأطراف تلامس أنفه.. رأى حُمرة الكعبين.. رشاقة الأصابع.. يرفع رأسَه محاولاً رؤية المزيد.. بشرة ملساء.. لم تكن للركبتين أيَّة غضون.. رشاقة الفخذين.. أحس بالشهوة تتسلل إلى أطرافه.. كتم شهقة حين رأى منبتَ الوِرْكَين.. انطفأ سراج المكان.. هبط برأسه قليلاً.. انتظر متشبثاً بأصابعه كسحلية.. هَـمَّ بتسلق النافذة.. تراجع حين كادت مصاريعُها تصفق على وجهَه.

كرر تسلله في ليالٍ تالية.. تسلق.. رأى أربعة أقدام أنثوية.. يمارسن نفس الرقصات.. يقتربن من وجهه، استنشق رائحة شبيهة برائحة الحناء.. فكر بالتشبث بهن واحتضانهن.. تراجع واكتفى بتمريغ وجنتيه وأنفه.. ثم تجرأ ليلعق بلسانه.. ارتفع قليلاً ليطل على قاع الغرفة مكتشفاً جسدَين ملتصقين في نشوة تحت ضوء سراج على الأرض.. خيوط دُخان من موقد إلى جوارهما.. ووعاء زجاجي وأكواب.. وصحن فاكهة.. يحضن بعضهن.. تتضاغط أثداؤهما الوفيرة.. تلتصق بطنيهما.. تلمسُهما زاد من لعقه لأرجلهما.. ارتعشت السيقان ارتعاشَ ذَيل قط.. طعمٌ ليموني يتسلل إلى جوفه.. التفتت إحداهما تنظرُه بعينين والهتين.. ولا زالت شفتها السفلى ممطوطة بين شفتي الأخرى.. لاحظ بريق نشوة عينيها.. تركته بغير اهتمام.. كأنه سراب.. لتعود تطابق شفاه أليفتها.. تناست

أصابعُه التشبث.. فقد توازنه بعد رعشة لذة اجتاحت جسده.. سقطَ على أغصان مشوكة.

لم يكتفِ في الليالي التالية بالبقاء خارج النافذة.. تسلقها.. ليكتشفنه جوارهن.. لم يسألنه عمن يكون.. أوْ لماذا هو بينهن.. تعاملن معه على أنه جزء من المكان.. نزعن ملابسَه.. لم يشرح لي ما مارسن معه طوال ليال عديدةٍ حين كان يتسلل.

تفشى سـرُّه بين زملائنا الصبيان، أخذ باصطحاب بعضهم.. كانت تلك النافذةَ هي مدخلهم في كـُـلِّ ليلة.. لينصرفوا قُبيلَ آذان الفجر.. لم تكن تلك الحُجرة إلّا إحدى حُجُرات الطابق السفلي لقصر الحريم.

دعاني ذات ليلة، تسلقنا النافذة.. شعرت بقلبي يرتجف.. جسدي يتعرق.. نقف وسط حُجرة مظلمة.. تملؤها رائحة الدفء.. لم أكن قد عرفت امرأة من قبلُ.. فقط بعض المداعبات الصبيانية مع زملاء لي.. أطل علينا ضوء مسرجة.. يعكس تغضن وجه امرأة.. ظهرت خلفها ثلاثُ فتيات.. همست: اتبعوني!.

كنا خمسة.. عبرنا قاعة واسعة.. تفضي إليها عدة أبوب.. تبعناها إلى حُجرة امتلأت بملابسَ نسائية.. عُلـّـقت على أوتاد جدرانها.. أثواب.. طرَح.. سراويل.. أخمرةٍ.. كـُـلّ شيء هنا نسائي.. أشارت بأن نخلعَ ملابسنا.. أن يختار كـُـلٍّ منا ما يناسبُه.. لم يكن عندي علمٌ بمثل تلك الطقوس.. ترددت في البدء.. ثم لبست مثلما لبس زملائي.. اهتز جسدي حين لامسته أنسجة ذلك الثوب النسائي.. لففت حول رأسي

طرحة مطرَّزة.. قادتنا تلك المرأة إلى قاعة أخرى واسعة.. نظرت إلى من حولي لم يعد من ذكور.. امتلأت الغُرفة بغوانيَ مزيفات.. انفجرت إحدى الصبايا المزيفات بالضحك عندما دخلت علينا نساءٌ حقيقيات.. اقتربت منه.. همس لي: "نحن أكثرُ منهن أنوثة وأصغر منهن سناً!!". ثم واصل ضحكاته.. لتسري العدوى.. كنت كمن يعيش حلماً.. لم تكن النساء كما وصفهن.. لكني لو لم أعرف الخمسة من زملائي لفُتنت بأحدهم دون أن أعرف بأنه فتاة مزيفة.

ثلاثُ نساء أُخريات وَفَدْنَ.. إحداهن تبدو في الثلاثين من عمرها.. أعجبتني ابتسامتها الطفولية.. هي مَن تقدمت لتُمسكَ بيدي.. أشارت بتكوين دائرة راقصة.. لتبدأ ليلة نسيت فيها نفسي.. ابتدأنها بالرقص.. أتين بأوعية الطعام والفاكهة.. ورماد مخلوط بحشيش لتدخل أرواحُنا حالة نشوة.

تماهت الفواصل بيننا.. أراهن من بين خيوط الدخان ينزلن خيوطَ سراويلهن.. ليهبطن تباعاً.. يعود الرقصُ الصامت.. ألمح ابتسامة تلك المرأة الطفولية.. تقترب من وجه أحدهم تقبله.. تتمايل تراقصه.. لامسته بوجهها.. تشَممت رائحته.. صدرَه.. إبطَه.. كنت أجلس بَعيْداً أراقب ما يدور.. أحدهم يمرغ وجهه بين "..." ، أشهق وأنا أتابعه.. تشتت اهتمامي بين ضحكتها.. والتلصص على الآخرين.. وجدت نفسي في وضع لم أتخيله يوماً.. نساء يتعاركن مع بعضهن.. وامرأة منكفئة تلتهم فتاةً مزيفة.. جنحت النشوة بروحي.. حين سمعت صوتاً

موجِّهاً لي: هيه ألا تعجبك إحداهن. احتقن الدم في أوردتي.. لم يعد يهمني عيناها أَوْ ابتسامتها.. التفتتْ إليَّ:

– لماذا تجلسُ بعيداً؟.

– !!..

– أرى الرغبة في عينيك.. هيا اقترب.

– !!.

– ألست بالغاً.. أم أنك فاسخ؟. اقترب سأعاملك كطفلٍ صغير. ما اسمك؟!.

– جعدن.

– جعدن!!.

نهضت تلك المرأة مرتبكة.. تبحَـــثُ عما يستر عُرْيَها.. وسريعاً ما اختفت وهي تضج بالبكاء.. كنت أسمع نحيبَها من الحُجرة المجاورة.. جاءت امرأةٌ أخرى هي الأخرى تغطي صدرَها.. قالت تسألني:

– ماذا صنعت بها؟.

نظرت إليها صامتاً.. هزتني بقوة يديها:

– ألا تسمع؟.

- لم أصنع بها شيئاً!.

- لم تبكِ يـَـوْماً كما تبكي الآن!.. ماذا قلت لها؟.

- سألتني عن اسمي.. فأجبتها!.

- وما اسمك؟.

- جعدن!.

- جعدن!!

لم تتمالك تلك المرأة نفسها.. أخذت تصرخ هي الأخرى وتلطم وجهها.

أجهش مساعدي باكياً.. وجدتُ ساعدَيَّ يمتدان لاحتضان ظلامه.. ليأتينا صوتُ أحدهم مزمجراً من قاع النزل: ألا تنامون.. ألا تخجلون.. أتحتاجون إلى...؟!. توقف نحيب مساعدي ليتركني في حيرتي.

أهتمل: لماذا يفشي حكاياته.. هل هي ملفقة كي يخفف علي محنتي؟!. صَمَتَ كـُـلّ شيء.. لم أنم و لم ينم هو الآخر.

جبـــال الله

"صلوا عليه وسلموا تسليما. يا اللـّـه.. على الذي حاز الجمال الأسمى. يا اللـّـه.. طه الذي قد سما. يا اللـّـه.. والآل ما طير الغُصُون غنـّـى. يا اللـّـه.. صلوا عليه وسلموا تسليما".

صوت جماعي رخيم.. يحمل روحي.. تذكرني بالأناشيد التي كنت أسمعها في مسجد السوق بصنعاء.. حين يغمض المعلم عينيه.. يهز رأسه وقد فتح فمه كالمسحور وسط حلقات الترتيل.. لتتمايل رؤوس العمائم في دوائر لا تنتهي.. قادتني تلك الأصوات وسط عتمة الليل أتلمس طريقي خارج السمسرة.. أتتبع اتجاهها.. مررت في أزقة باردة.. صادفت أناساً يسيرون باتجاه الصوت.. باب يتسرب منه نور هادئ.. رائحة دافئة.. دخلته مع الداخلين.. كما توقعته مسجداً (جامع الهادي) أعمدة بيضاء.. سقف تدلت منه لهب المصابيح.. دوائر عظيمة من العُباد.. أياديهم تتمايل في الهواء.. دخان يتصاعد من الأركان له رائحة محببة.. جدران بيضاء نقشت بنقوش دقيقة.. آيات رُسمت بخطوط مختلفة حول المحراب.. على الواجهة.. وأحزمة الجدران.. كل شيء هنا يغوي روحي.. سرت

كثيراً أتلمس الجدران والأعمدة.. تتدفق أحاسيس لونية إلى مجاري دمي.. زاد المنشدون من إيقاعِ اصواتهم.. تسارعت خطاي.. وتلك الخطوط تتماوج.. تنثال خيوطاً ملونة في فضاء ذلك المسجد.. ارتفعت ترانيم المنشدين عذوبة ورقة يتغزلون بمعشوقهم محمد النبي.. زادت خطواتي سرعة وأصابعي تنشد الخطوط وعيناي تعزف ألوانها.. أسمع أصوات تلك الزخارف في أعالي الجدران.. يرفرف كفي.. فجأة ترتفع قدمي عن ملامسة الأرض.. أسبح في فضاء تداخلت فيه أصوات المنشدين بألوان وخطوط الجدران.. يجذبني الوجد حتى إذا ما هدأت أصواتهم هبطت بي أقدامي في ركن قصي أردد ما كنت أسمعه بصوت هامس.. عرفت فيما بعد أنه نشيد استقبال فجر يـَوْمٍ جديد.

ارتفع صوت مؤذن صلاة الفجر توقفوا عن الإنشاد.. رف قلبي حين لمحت النخاس يصلي وحيداً في إحدى الزوايا.. تحفزت حواسي.. مر بي طيفُ أمي وشـَوْذَب.. ها نحن نلتقي من جديد بعيدا عن صَـنْـعَـاءَ ولا زاد لي إلا الأمل كما أوصاني صديقي قانح.. الأمل يتجدد.. اقتربت منه لأسمعه ينشج.. رافعاً يديه يناجي الفراغ.. يتمتم ثم يتحشرج بصوت باكٍ.. تعمدت أن أركعَ على مَـقـْـرُبَـة من زاويته.. أتعمد النظر إليه حتى يرانِي حين يلتفت.. تذكرت كلماتِ أمي ذاتَ صباح طفولي وهي تنظر إليّ "لك ابتسامة جميلة يا جَـوْذَر.. هي مفتاحُك إلى قلوب الآخرين". كيف أعرض عليه مفتاحي وهو تحت كومة شعر؟.. سأبتسم.. هل يرى ابتسامتي؟ لكن عينيه لا تعبران شلال وجهي ورأسي.. أحاول أن أتخيل مشاعرَه لمرآي.. كيف سيفكر بي؟.. أمي كانت تنصحني باختيار

الكلمات قبل نطقها.. أن أتريث لأنتقي.. أن أصل بها المسامع بصوت رقيق وهادئ.. استحضرت أمي وأنا أنطقُ كلماتي إليه: عليك سلام من رب العباد يا سيدي!.

عيناه تبحث فيَّ عن شيء.. هل يبحث في ذاكرته؟.. أم عن مصدر الصوت؟.. تحركت ملامح وجهه بابتسامة سريعاً ما تداعت.. اكتفى بهز رأسه.. كمن يقول سمعتك.. أَوْ أني مخطئ في تخميناتي.. تلفتُّ حولي لم يعد في المسجد إلا القلة.. قلت له وقد التفت بنظره عني: أتسمعني؟!. أتوسل إليك أن تسمعني!. التفت هازاً رأسَه بالايجاب.. نظراته تائهة.. وعيناه غائرتان.. زحفت مقترباً منه.. أشعر بأني أحاصره.. تعمدت خفضَ صوتي: أنا لا أتعقبك.. صادف أننا مسافران على محجة واحدة.. وضعت كفي على ركبته: أتوسل إليك إن كنت تعرف شيئاً عن فتاة اسمها شـَوْذَب.

حرك رأسَه يتأملني.. في الوقت الذي حملت كفه من على ركبته أقبلها.. اكتسحت وجهه ابتسامة عريضة.. شعرت بأنه تخلص من إحباطه.. وأن أفكاراً قد حلت على عقله.. فضلت أن يستمر بذلك الشعور.. وأن تستمر ابتسامته.. وشعوره بقدرته على الخروج.. قال بصوت هامس وقوي:

– كنت أدعو اللـّـه فاستجاب لي!!.

لم أفهم مايعنيه.. ولا بتلك التغيرات على صوته وملامحه.. واصل بهجته:

- لقد فقدت كُــلَّ تجارتي من عبيد وإماء في ذلك اليوم. وهذا أنت تطالبني أن أعينك.. فإن أردت ذلك عليك بأن تُعينني.

صمَتَ ينتظر استجابتي.. اتسعت عيناه.. وأظافره تجتز شعر حاجبيه.. قلت له خانعاً:

- وما هي قدراتي؟.

- ترافقني في بحثي عن عبيد جدد لأعوض ما فقدته!

- لك الأمر ومني الطاعة.

- وبدوري سأعينك فيما تبحث عنه.. لكنني رجل ضعيف!

أطلت النظر إلى وجهه صامتاً.. قال يبدد حيرتي:

- بالحيلة يتغلبُ الضعيفُ على القوي!

* * *

مساحات سوق صعدة تزدحم ليلاً ونهاراً: خيول.. مواشٍ وبهائم.. وجوارٍ وعبيد.. ومحاصيل زراعية.. أسلحة وجلود.. حبوب.. أقمشة.. ومشغولات جلدية وصوفية.. وحُلي.. كلهم عابرون.. هكذا هي أسواق المدن.. نسير بالكاد بين أكوام السلع وعبر ممرات تتسع فقط لأقدامنا.. في السوق نساء يزاولن بيع وشراء المواشي والمعزوفات وبعض طعام الحنطة. تفرق شيوخ القبائل تحت سقائفهم أطراف السوق.. يرقص الناس أمامهم بطبولهم ومزاميرهم.. منشدين عزَّ أمجادهم.. معددين انتصاراتهم.

أسألُ نفسي: ماذا تبقى لي هنا؟ المشاهد تتكرر في كــلّ مرحلة وكل محطة.. يخفق قلبي حين يزورني طيفُ أمي وابتسامة شـوْذَب، تنكفئ روحي بداخل قوقعة الصمت.. تبحث عيناي في الملامح.. كــلّها تتشابه.. لا وجه يشبه وجهَ أمي.. يدفعني حنين إلى متابعة النخاس.. صوت قانح أن لا أكون كجمل المعصرة.. ومن أعماقي صوت نائح يسأل.. ألا تزالان على وجه الأرض؟. أخاف أن يخدعني ذلك المراوغ.. أن يختفي.. أو أن يأتي الوقت الذي يقول لي فيه لا أعرف عما تبحث عنه.. أَوْ أني افتقد أخبارهما منذ سنين.

دخلت أبحث عن مساعدي جعدن حتى أحدثه بما تم.. لا أحد.. جلست أفكر.. يجالسني القلق.. دِكاكُ السمسرة شبهُ خالية، الكل خرج إلى السوق.. تمددت على دكتنا.. صور مموهة بالأسود اللامع أراها على الجدران.. غمرني نوم لم أستطع النجاة منه.. حين صحوت كانت دكاك السمسرة عامرة بهمسهم.. رائحة الخبز والقهوة.. أدخنة.. هناك نفر من قافلتنا.. أخبروني بأننا سنواصل الرحيل عند الفجر.. سألت أحد الأدلاء إن كان هناك أكثر من طريق إلى مكة.. قال لي:

– هناك ثلاث طرق.. إحداها عبر طريق نجران شرقاً وهذه طويلة.. والثانية من جرش عبر الوُدْيَـان إلى بيشة.. والثالثة أيضاً من جرش فوق جبال السروات.. ويمكن لسالك طريق السروات أن يختار طريقاً رابعاً حين يهبط السهول الغربية القريبة، هناك تهامة حيث سواحل البحر.

– وأي تلك الطرق ستسلك قافلتنا؟..

- علينا أن نقطع عدة مراحلَ للوصول إلى جرش أولاً.. ومن هناك يمكننا أن نسير في اتجاه الشرق إلى محطة العرقة.. ثم المهجرة.. ثم أرينب.. ثم سروم الغيض.. والثجة.. ثم بيشة ومنها إلى تبالة.. فالقريحاء ثم كرى.. ومحطة تربة.. ثم محطتي الصفن.. والعنق.. ثم نعتلي رأس المناقب.. لننحرف في سيرنا صوبَ الغرب إلى قرن المنازل الذي نتجه بعده إلى الزيمة، وَالطائف عن طريق السيل.. بعدها محطات قليلة حتى ندخل إلى مكة.

- أراك تحفظ الطريق جيداً.

- أحفظ كـُـلَّ الطرق كما أحفظ وجهَ زوجتي.. وأكثر!.. فقد سلكت كـُـلَّ طريق عدة مرات وبعضها أكثر من عشر مرات.. واجهنا في بعضها القتل.. وبعضها المرض والجوع. وحكايات مخيفة.

- وأيُّها الأقصَر؟.

- طريقُ السروات.. لكنها طريق وعرة.. ولا يسلكها إلا الراجلون.. أَوْ الخيالة.. أما قوافل الجمال المحملة فيصعب عليها.

يحدثني ذلك الدليل منتشياً بمعرفته.. متلذذاً باستعراض مهاراته.. وقد ذهب بي كلام النخاس حين قال لي: سنسلك طريقنا إلى مكة غير طريق القوافل. ترى أَيَّ طريق سيختار؟.. وبماذا سأعتذر لزملاء رحلتنا حين أعلمهم باختياري طريقاً غيرَ طريقهم؟!.

المقدمي شهاب الدين رجل هرم.. لا يهتم إلا بمَن يحومون حوله

يكمدون مفاصله.. قليلاً ما أسمع صوته.. لم يتبقَّ من بعثتنا سوى ستة عبيد ودليليَ الطريق.. وواحد وعشرين عسكرياً وخمسة عشر حرفياً بمعاونيهم وثلاثة دُعاة.. بعد أن كان عددنا يتجاوز السبعين.. وتبقت لنا سبعة خيول ومن الجمال واحدٌ وخمسون جملاً وعددٌ من الحمير والبغال التي تحمل أثقالنا.

خرج بنا شهاب الدين إلى ساحة القوافل تفقد بهائمَ القافلة.. سمعت بعضَهم يهمس بأن المقدمي يُعاني من آلام الظهر.. جمع من كان حوله يحدثهم.. كان صوته واهياً: لقد فقدنا أكثر من عشرين رجلاً وعدداً من العبيد والكثير من العسكر.. وكانت خسارتنا كبيرة في مقتل قاضي القضاة.. وفقدنا عدداً من البهائم.. وقد أرسلت مَن يخبر مولانا بما حصل.. ومن اللحظة على كـُـلِّ فرد أن يتفقد راحلته وما عليها.. وأن يستعد جميعُنا للرحيل فجر غد.. سنسير في طريق واحد متجمعين.

* * *

في فجر باهت.. خرجت قافلتنا بمحاذاة شواهد قبور وقباب أضرحة.. تمتد إلى مساحة واسعة خارج سور مدينة صعدة، على أرض حصوية.. أشرقت الشمس وقافلتنا تسير في أرض سهلية مليئة بأشجار الطلح والقرض.. سريعاً ما ابتلع الأفقُ مآذنَ صعدةَ وسورَها وقلاعَها المشرفة عليها من جبال محيطها.. لم أرَ أطول من تلك القافلة التي جمعت عرباً وعجماً.. تجاراً وعابري سبيل.. كان أولها يغيبُ بين تلال وآكام شامية وآخرها لم يتخلص من تلال يمانية.. قضينا ليالينا في عدة محطات: سُحار..

ضحيان.. خولان.. باقم.. وادعة.. العرقة.. المهجرة.. ثم أرينب.

هياكلُ وعظامُ مبعثرة لدواب نفقت على جنبي المحجة.. قبور متناثرة.. نتوقف بين فينة وأخرى لندفن رفيقاً.. أَوْ لنخلي حمول دابه قاربت على الهلاك.. ونوزع حملها على البقية.. كان الإعياء القاتل الأساسي والجوع والمرض يأتيان بعد ذلك.. ومعظم مَن هلكوا مِن الراجلين العبيد والعسكر وعابري السبيل.. خلفنا بهائم طعاماً للضواري في قفار مخيفة.. يهمس البعضُ عن حالة المقدمي التي تسوء.. تخيلته كومة تراب على جانب المحجة.. توقفنا لننزله من على خيله ونضعه على هَــوْدَجٍ فوقَ بعير.

منذ خرجنا من صعدة ولأكثر من خمس مراحل هطلت علينا أمطار.. انقطعت بنا السبل حين حاصرتنا السيول لنظل على رابية نصفَ نهار.. أرقب النخاس ويرقبني.. أنتظر في كـُـلّ لحظة أن يحدثّني عن الطريق التي سنسلكها.. رعب ممزوج بالأمل.. أتخيل نفسي صائدَ عبيد.. في مناطق غريب على تضاريسُها.. طبيعة أهلها.. لم أمارس يـَـوْماً صيدَ شيء.. حيوانات.. عصافير.. أو حشرات.. حين نسير بَعيْداً سأطلب منه أن يعلمني كيف يصيدُ الصبيان.. أَوْ يشرح لي تجربته.. لَكن هل هناك أدوات.. ومواعيد للصيد.. وأين نضع ما نصطادُه؟. أم أننا سنربطُهم بالحبال خلف بهائمنا!. أنا على يقين من أنه رجلٌ بارع.. ومن أنه يعرف تفاصيلَ تلك البلاد التي سنقصُــدُها للصيد.

* * *

كنت قلقاً من أن يتركني مساعدي جعدن وحيداً.. عقدة لساني تسكنني.. كَثيراً ما أتردد في مفاتحة الآخرين بما أنوي قوله.. وكثيراً ما أفقد أشياءَ لطبع يكبلني.. ها أنا في اليوم السابع و لم أفاتح مساعدي جعدن.. هو إلى جواري على الدوام.. نتحدث في كـُـلّ شيء.. أقلبُ أفكاراً كثيرة.. أستعرض عدة حيَـل وادعاءات قبل أن أنطق.. علّ إحداها تفيدُني في إقناعه.. لكنني الآن وجدت أن أنجح حيلة هي ترك الحيل، والتحدث إليه بما أنا فيه بوضوح.

قال لي وهو يصك أسنانه بعصبية:

– ألم تسمع المقدمي يحذر الجميع من عدم الانفصال عن القافلة؟.

– لكنني لم أختــَرْ ذلك تـَـرَفاً.. و لم يكن خياري.

– حباً فيك.. أنصحك بحل مشكلتك مع المقدمي.. أنا مساعدُك.. وهو المسؤول عنا جميعاً.

– قالوا بأنه مريض.

– ابدأ حديثَـك مع النخاس.. اعرف منه هل لا يزال على عهده بك.. أم أنه سيتثعلب كما أخبرتني!.

– ماذا تقصد؟.

– لا أقصد شيئاً.. هي أمنية ليس إلا!.

قافلة الجمال تسير على مَحَجَّةٍ صخرية كخيطٍ طويلٍ.. ترتفع بنا في

نُجُود جبلية.. يطلق عليها سُراة عبيدة.. نسائم باردة تلفح رطوبة عرق أجسادنا من هجير شمس الظهيرة.. تقابلنا قافلة صغيرة.. جمال ودواب حولها نفر كثر راجلون عكس سيرنا.. يتبادل أدلاؤنا معهم كلماتٍ مقتضبةٍ نعرف بأنهم يسيرون مع شيوخهم لنُصرة دعوة إمام جديد يسمى إمام ذي بين.

قررت المضيَ عكس طبعي المتباطئ.. أن أتحلى بشيء من الجرأة.. عَلَيَّ مفاتحة المقدمي.. وما يدور في ذهن النخاس.. لا يهمني بعد اليوم أي شيء فأنا صياد.. أرتب أفكاري.. أقترب بخيلي من خيل النخاس.. أبحث عن بدايات للحديث:

– أتمنى أن تكون الأمور على ما يرام!.

– كل شيء على اللّـَـه!.

في الوقت الذي أهم بالدخول فيما قصدته تتبعثر الكلمات.. وأجد نفسي أسأله:

– ما هي المحطة القادمة؟.

– جرش.

– هل تبقت مسافة بعيدة؟.

– لقد قطعنا أكثرَ من المنتصف إليها.

ينظر في أفق الجبال البعيدة.. أنظر أنا في بلادتي.. أبحث عن أسباب

تعثري عن سؤاله.. يلكز خيله متجهاً نحو المقدمة.. أتركه.. أترك خيلي يتشمم بقعة رطبة على الأرض.. يرفع خشمَه نحو السماء.. يباعد قوائمه.. يتبول.. ثم يواصل مسيره.

أنظر حولي.. أشعر بأن شيئاً غيرَ مرئي يسحقني.. أصرف نظري إلى ألوان الصخور المحيطة.. تلك المرتفعات التي لا تنتهي.. قمم خلف غلالة بلون الفيروز.. ونداوة شمس حارقة.. اتبعت نفسي التي جنحت للتأمل والصمت.. اختار خيلي مؤخرة القافلة.. تركته يسير كما يشاء.. ينتشي بتلك البقع الرطبة.

تتوقف القافلة.. يدور همسٌ بأن المقدمي لا يحتمل ركوب هودج الجمال بعد أن زادت آلام ظهره.. ينزلونه.. يرفعونه ممدداً على هودجٍ ثُبت فوق بعيرين.

ارتفعنا فوق قمم صخرية.. نقترب من سماء صافية.. الشمس تقترب من ثلم مغيبها.. أسراب طيور تتجه نحو جروف غائرة.. سحب بلون العقيق تلون الأفق.. يتحاشاني جعدن كلما صادف اقترابي منه.. يترك حمارَه يتباطأ.

تكرر صوتُ أحد الأدلاء وهو يطوف بخيله: ستقطع القافلة بقية المسافة ليلاً.. فعلى الجميع الحذر.. ستقطع القافلة...، سريعاً ما انحسر ضوء الأفق وارتفع صُرار الجدجد المتداخل مع ارتطام حوافر البهائم على حجار الطريق.. إيقاع أجراس صغيرة.. حلت وحشة في صمت النفوس.

تكاثرت النجوم واقترب بعضها.. عواء بعيد.. ثغاء شجي للجمال لكأنها تطالبنا بالتوقف.. الدواب ترى ما لا نراه.. تسير وسط ظلام الطريق.

لم تدُم طريقنا طويلاً.. ارتفع نباحُ كلاب من بعيد.. ما لبثت أن اقتربت تستقبلنا.. رفع مَن في مقدمة قافلتنا مشاعلَ اللهب.. قيل إن رفعَ المشاعل إعلان عن نية القادم بالسلامة.. دخلنا مدينة(جرش) دون رؤية ملامحها، وسط أزقة بيوت حجرية تحفنا الكلاب بنباحها المتواصل.. بعضُ أصحاب المقاهي والنُزل خرجوا بمشاعلهم لعرض خدماتهم باستضافتنا.. الأدلاء يعرفون التخاطب معهم.. حللنا في ساحة واسعة.. كان البرد جليسنا.

في جرش استضافنا شيخ شملها.. مضافاً واسعاً.. يطل على ساحة المدينة وسوقها من ربوة عالية.. بعد أن بتنا ليلة وصولنا في نزل بأطراف السوق. دقت الطبول ونحرت المواشي لنا.

تحدث إلينا شيخ الشمل مرحباً بنا مبجلاً مولانا الملك الأجل، زاجراً عمن يعيثون في البلاد فساداً.. وينشرون الخوف،مستغلين عدم فهم الناس لدينه الحق، وتعلقهم بوثنية مترسخة في حياتهم.. وتشجيع أهل الكتاب لانتشار ذلك رغم معرفتهم بدين الله.

أعقب ذلك المقدمي بكلمة شكر فيها شيخ شمل جرش على طيب ضيافته وصدق استقباله.. ناقلاً إليه دعوات الداعي الأجل.. ثم تطرق لسبل مواجهة من يحارب دينْ الله في بلدان جزيرة اليمن.

صيد النساء

سمعتُ مَن يهمس في أذني:

- سنتجه غرباً قبل شروقَ شمس غد !.

كنت غارقاً في نوم عميق.. خلته حلماً.. لكني سمعت الهمسَ يعلو.. فتحت عيني.. ضوء لهب النار وصوت تهشيم حطب.. تبين لي وجه الهامس.. كان النخاس يقترب بوجهه حتى لا يسمعه أحد.. استويت مرتبكاً.. تبحث كفي عن جعدن.. الذي استوى في جلسته صامتاً.. لمحته ناعساً.. نهضتُ من تـوِّي قاصداً دكة (المقدمي).. أعرف ما عليّ قوله.

صعدتُ سُلماً طينياً كانت العتمة تزداد في الأعلى.. تخطيت أكثر من نائم.. دكته في أقصى مساحة سقيفة البهائم.. سراج معلق على جدار دكته.. اقتربتُ.. عدة أشخاص متحلقين حول أطراف دكته.. جسد ملقى على وجهه من غير غطاء.. يمسدون ظهره وهم يهتزون.. أصابع عدة تتوزع أجزاءَه.. رقبته.. وأخرى أعلى أكتافه.. ذراعيه.. عموده الفقري.. فوق

أردافه.. على فخذيه وعضلات ساقيه.. بشرته مشبعة بزيوت لها رائحة السمسم.. أزحت أحدهم ، أخذت مكانه.... نفخت لهبة السراج.. هبط سواد العتمة.. لامست أصابعَ كفه اليسرى.. أصابعي ترى ذراعاً محموماً.. كتفاً دبقاً.. رقبة.. لمست أذنه.. أعلى فقرات ظهره.. انزلقت أسفلَ على الفقرات.. اهتز جسده بعُنف.. ارتفع صوت أنينٍ متقطعٍ.. ازداد ارتعاشُ جسده.. يئن.. لساني يتلوى.. يتحرك لتخرج كلماتٌ لم أحسبها.. أشعر بلذة الحروف تتدفق:

– أتيتُ إليك شاكياً حالي..!. هل تسمعني؟.

لم يرُد عليّ.. يئن لملامسة أصابعي.. أستنتجُ ما يريدُ قوله: من أنت؟.

– ألم تعرفني.. أنا النقاش جَـوْذَر؟!.

– لماذا أطفأت السراج؟. خرجت كلماته ووجهه منكفئاً.

– لترى كلماتي!.

– أسمعك.

– سأحدثك بصدق.

– أوجز.

– منذ سنوات وأنا أبحث عن أمي وفتاة أحببتها.. واليوم وجدت من عاهدني بمساعدتي للعثور عليها.. لكنه اشترط عَـلَـيَّ مساعدتَه أولاً.. وطلب مني أن نسلك طريقاً إلى مكة غير طريقكم.. لقد سمعت ما قلته لنا

في صعدة.. وها أنا جئت أستعطفك.. أتوسلك بأن تسمح لي ومساعدي بأن نسلك طريقاً آخر.

قبّــلت كفه بشعر بللته الدموع.. سمعته.. أَوْ أني استنتجت ما عليه قوله:

– أين كنت تخفي أصابعك عن آلامي؟.

قلتُ له وأنا أشهق بالفرحة:

– سنلتقي في مكة.

– إذاً الله يسهل لك.. اذهب ورفيقك.. سنلتقي بمشيئة اللــه أمام الركن اليماني حيث مكان تعبدنا.

* * *

أكملت حديثي لجعدن.. والضوء يتسلل من بوابة السمسرة.. حركة النزلاء وبهائمهم تزيدني قلقاً.. ينظر إليّ دون أن ينبسَ بحرف.. عرفت بأنه لا يمانعُ مرافقتي.. لمحت النخاس يقود خيله خارجاً.. لم أنتظر.. تبعناه ومساعدي.. حملت جرابي.. سرنا وسط غبش الصباح.. ساحة المدينة مليئة بسكان الصحراء والجبال.. تحيطها مبانٍ حجرية بلون الكهرمان الأصفر المائل للسواد.. تزدحم الحوانيت.. منارة المسجد قصيرة.. سرنا في شوارع تمتد على صراط مستوٍ.. لم يكن من دليل.. شروق الشمس خلف ظهورنا.. دون سور أَوْ أبواب.. سوق صغير خارج جرش..

وقفنا.. يبدو أن النخاسَ يملكُ بعضَ الدراهم.. كنت أخفي دراهمي برقاع في ثنايا ثوبي.. حيرني وهو الذي قال بأنه فقد كــلَّ شيء.. حاول أن يبتاع طعاماً.

حين التحقنا بمجموعة من المسافرين طلب منا النخاس عدم التحدث إلى الغرباء.. وأن نترك له ذلك.. سرنا بمحاذاتهم.. نساء ورجال يتحدثون إلى بعضهم غير مكترثين بوجودنا.. سألهم النخاس:

– من أي البلاد؟. أجاب فتى مكلل بالزهور:

– من قبيلة بني مغيد.

لم تدُم رفقتهم فقد سلكوا شعاباً نحو وُدْيَـان غائرة يحملون سلعهم على أكتافهم وفوق رؤوسهم.. نهبط شعاباً لنعتلي سفوحاً.. نصادف رُعاة بأغنامهم.. نساء محملات بحُزَم خضراء طرية.. سرب حَجَل بَـرّي ينفر من بين شُجيرات قريبة.. قووقووقو.. قووو قووو.. محلقاً من سفح إلى آخر.

وديان غائرة تمتد شرقـــاً

* * *

كانت طريقنا تتشعب (مَذَرَّات).. نلتقي بعابرين من سكان القرى بمواشيهم وأعلافهم ليفترقوا عنا.. سرنا في ظلال شعاب وادي (جوحان) كثيف الأشجار والينابيع حتى وادي (أبها).. تصطف أشجار ضخمة

أسفل الجروف الصخرية.. متشبثة بجذورها العظمية.. تمتد فوق الأرض حتى مجاري الغُدران.. يطل ضريح (ذو القرنين) مهيباً من ربوته العالية، نُقش على شاهده "الملك الحميري الهميسع بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان".. أحجارُه مشذبة.. على مبعدة منه عدة كهوف.. برك ماء ومستنقعات واسعة.. تلتقي فيها مجاري عدة أودية.. اتخذ النخاس من ذلك المكان مستقراً لنا.. نجمع من شجر الشعاب ثماراً نأكلها.. ونشوي سمك الينابيع على نيران عيدانها.. نقضي ليالينا جوارَ ضريح ذي القرنين في أحد الكهوف المجاورة.

يتسلل بنا النخاس عند أطراف النهار، عبر بطون وديان.. قرى (قاعد والدارة).. القريتين.. ويوماً ثانياً نتوغل أسفل الوادي حتى قرب قرية (المحالة).. يوماً آخر نتجه شرقاً حتى أطراف قرية (حجلة).. يراقب النخاس بخبرة خاطف متمرس: رعاة الغنم.. حاطبات الشعاب والسفوح.. رعاة بقر على أطراف برَك الماء الواسعة.. مزارعون في حقولهم.. نعود لنتشاور فيما يمكن فعله.

* * *

لم تمر أكثر من ثلاثة أيام على وجودنا جوارَ الضريح حتى جاء من يحمل المشاعل ليلاً.. وقفوا بباب الكهف كانوا ستةَ عشرَ رجلاً.. صدورهم عارية.. مآزرهم بالكاد تخفي مفاصل أوراكهم.. بأيديهم حراب وفؤوس.. سألونا: من أيِّ البلاد أنتم؟. وما حاجتكم في هذا المكان؟. ولماذا تطوفون القرى والشعاب؟!. هددونا وأمرونا أن نرحل

قبل طلوع شمس غد وإلا فقد أبحنا دماءَنا!.

تركونا زارعين الرعب في نفوسنا.. اختلفنا في أن نغادر التوّ.. أَوْ أن ننتظر حتى الصباح.. بتنا لا نتهامس.. نجلس متكئين على بعضنا.. لم يدم بقاؤنا.. استقام النخاس يحثنا على الرحيل.. همست له بأننا لن نرى الطريق ليلاً، ومن المجازفة أن نشعل مشاعل.. قال هم في الجوار يستعدون قبل الصباح لسلبنا.. شعرت برعشة الخوف تسري في كياني.. إذ كنت أسمع بين الفينة والأخرى أصواتاً اعتقدتها لثعالب.. أَوْ لصغار النسور في أوكارها.

قررنا تغيير مكاننا.. تعمشنا هابطين لانرى موضع أقدامنا، نجر بهائمنا.. قضينا ما تبقى من الليل خلف تجاويف أشجار عملاقة.. نراقب الجوار مع هالة شروق الشمس.. رأيناهم يجوسون المكان.. بين أشجار السفوح وفي أعلى الوادي كالوحوش.. كانوا يقتربون.. خرجنا قبل أن يعثروا علينا، نسير نحو أعالي الوادي.. اخترقنا شعاباً وهضاباً حذرين.. صعدنا وادياً كثير الأشجار يسمونه (عثربان).. يجتمع في أعلاه واديا خبيبي وضباعة.. سرنا والخوف يطاردنا، تتخفى تحت الأشجار اعتلت الشمس عرشَها حين كنا في أرضٍ مرتفعة.. ولم نشعر بالأمان حتى أطلت علينا قرية (مناظر) بمنازلها الصغيرة من رَبوة مرتفعة.. استقبلتنا كلابها بنباح متقطع.. صبيان عُراة.. نساء يخرجن عاريات الصدور.. سبعة رؤوس مشرئبة خلف جدار حوطتها.. خشينا أن يكون بينهم من يطاردونا.. رفع الجميع أكفهم بالتحية.. ترجلنا أمام جدار متهالك..

ينظرون إلينا بريبة عرفنا بأن لا أحد.. بركة خضراء.. يتمدد أحدُهم جوارها عارياً.. وآخرون غاطسون حتى أعناقهم.

حين دخلنا أمطرونا بأسئلتهم. النخاس يتحدث دوماً إلى من نصادفهم.. دوماً ما يجيب النخاس على من يسأل بأننا من صَـنْـعَـاء.. قاصدين مكة للحج.. إلا أننا ضللنا الطريق.. تفرق من كان في حوطة مناظر دون أن يعيرونا اهتماماً.

نسأل عن جهات الطريق.. أشار علينا أحدهم بأن علينا الاتجاه غرباً.. تركنا المنازل القليلة إلى أرض منبسطة.. تحيط بنا جبالُ الأفق القريب.. تتراءى لنا في الجانب الغربي جبال السودة العظيمة.. صعدنا مرتفعاتها.. شعاباً وأوديةً صاعدة.. كان ذلك الجبل العظيم يبتعد كلما سرنا باتجاهه.. نصادف بعضَ الحاطبات.. رعاة غنم.. أشجار العرعر تتكاثر.. منازل قليلة تتفرق على رؤوس الآكام.. نصعد شعاباً لتظهر لنا أخرى.. نسير على مرتفعات صامتة.. لم يعد من رعاة أَوْ حاطبات.. ولم يتبقَّ لنا غير ألفة زقزقة العصافير وصفير الريح.. في السماء السحب تبتلع الشمس.. رُهام خفيف يتهاطل.. قال جعدن: أخاف أن يحل الليل ونحن في العراء، ونكون عرضة للحيوانات المفترسة. رد النخاس واثقاً: نحن أقرب إلى إحدى القرى.. لم يكمل عبارته حين لمع برق ليعقبه صوت رعد قوي.. ما لبث أن تحول الرذاذ إلى نُطَف كبيرة.. جدَّينا في البحث عن مأوى.. الطريق بدأت تختفي.. دوابنا هي من تقودنا.. تحت أشجار عرعر وعتم وسرو متداخلة على سفوح المرتفعات التي أغرقها المطر.. رأينا في الجانب

الشمالي للشعب كهوفاً عالية.. اخترنا أكبرَها.. لم نستقر بداخله حتى رأينا ضباعاً تجمعت عند فوهة كهفنا.. وأظنها فوجئت بنا وقد أخذنا عرينها.. أشعلنا نيراناً، سهر خوفنا حتى لا تنطفئ النارُ.. هيمن صوت المطر.. يمزقه دوي الرعود.

في الصباح الباكر رأينا الضباع تخرج من كهوف مجاورة.. ابتعدنا نبحث عن طريق تقودنا إلى تجمعات البشر.. سمعنا من يغني بصوت شجي.. أشار النخاس أن نُخفيَ الخيلَ خلف صخور مجاورة.. أن نترصد لذلك الصوت.. كانت فتاة تربط خصرها بسيور جلد مظفور.. شعرها تتلاعب به الريح.. حاسرة ثوبَها وهي تدنو لقلع شجيرات السفح.. بشرتها لبنية.. نختلس النظر وهي تقوم بجمع فروع الأشجار التي كومتها فوق بعض.. لتستقيم.. تنظر إلى الأفق الشرقي المفتوح على منحدرات الوُدْيَـان والشعاب.. رافعة عقيرتها بصوت يهز القلوب.. كنا نعتقد بأنها وحيدة حين سمعنا صوتاً مماثلاً من مكان آخر ينوح ويشكو.. لم نكن نعرف ما يدور في خلد النخاس.. لكنني لمحت ذبول عينيه.. كنت أنا قد تخيلت بأننا هجمنا عليها.. قيدناها، ثم كممناها.. ثم وضعناها بداخل خباء الصوف الذي يحمله النخاس فوق خيله.. سألته بعد ذلك: إلى أين سنسير بها.. وماذا سنحدث مَن نصادفهم في الطريق إن سألونا؟!. لكنني صحوت من تخيلاتي حين ظهرن أخريات يحتطبن إلى جوارها.. حتى كُن تسعَ فتيات.. خفق قلبي وأنا أتأمل وجوههن عن بعد.. تأملت وجوههن رأيت شوذب.. تسللت بين الشجيرات حتى اقتربت.. ظن النخاس بأني أسير في خطتنا.. يهمس وهو يتبعني: "لا تتهور.. تمهل..

تمه...." . كُن يجمعن ما اقتلعنه.. ظن النخاس بأني أستجيب لهمسه حين وقفت.. عدت أبحث عن وجه شوذب.. لم أعد أرى ذلك الوجه.. كُن يحزمن ما اقتلعن.. وقفن.. شبكن سواعدهن في دائرة يغنين.. يتمايلن رقصاً.. ثم حملن حزم الشجيرات على رؤوسهن.. سرنا خلفهن.. أخفتهن أحراش مشبعة بالسحب.

عاد وجه شوذب في تلك اللحظة.. تشكل من ذرات الضباب المحيط بي.. تمد ساعديها.. أحاول الإمساك بأصابعها البيضاء.. أرى ابتسامة تتسع.. وتعلوا كثيرا.. أسير صاعدا بين شجيرات كثيرة.. لم أعد أسمع إلا صوتها.. وذلك الوجه الذي يمتد في السماء.. فقدت الشعور بكل ما حولي وأنا أهرول لألحق بها.

تشبث بي النخاس وجعدن، ألقوني أرضاً.. بركوا على صدري.. ممدداً على الأرض.. أحاول الفكاك وأنا أرى خلف وجوههم شوذب تدعوني.. يدها تمتد إلي. ساروا بي محمولاً.. أحاول النظر إليها.. أوصلوني إلى كهف عال.. أشعلوا ناراً ، دثروني بالأغطية.. نمت، لا أعرف كم من الوقت مضى.. حين أفقت.. كان وهج الصبح يأتي من فم الكهف.. جلس النخاس ينظر إلي في صمت.. أنظر إلى عيني جعدن.. هالني صمتهم.

سألتُ مفزوعاً:

– ماذا جرى؟

قطب جعدن وجهه في أسى:

– كدنا نفقدك!

– تفقدوني؟!. نظرت في وجه النخاس.

هز رأسه صعوداً وهبوطاً زاماً فمه الممطوط:

– الخطأ خطأي.. وليس خطأكم!

– عن أي خطأ تتحدث؟

– نسيت أن أحذركم من سحرة هذه البلاد!

– سحرة! وما علاقتنا بذلك؟

– كدنا بالأمس نفقدك وأنت تهذي ملاحقا سرابا لا يُرى.

عندها ذكرني ما كنت أرى.. فقلت وأنا أستوي في جلستي:

– لكني كنت أرى ما تفكر به حقيقة تتجلى أمامي.. رأيت شوذب وهي تبتسم.. تمد يدها.

– لو تركناك تهرول خلف فتاتك السحابية، لكنت الآن في مهاوي الجروف.. لكننا لحقنا بك على بعد خطوات.

باح لنا النخاس بمعرفته بأسرار بعض السحر.. وقدرة بعض السحرة في هذه الجبال على تصوير ما يشغل ذهن الشخص وتحويله إلى حقيقة

ترى له.. قال لي: من سحرك كان يتخفى ويترصد أفكارك حين كنا نقتفي أثر حاطبات الأمس.. وعندها استطاع أن يسلط عليك ما تفكر به. وأن سحرة هذه البلاد لا يزال لهم التأثير الكبير على الناس.. وبعض القبائل والعشائر لا تستغني عنها سحرتها.. وهم يؤمنون بقدراتهم في جلب الخير ودحر الشر.. وقراءة الغيب. حذرنا النخاس من كل ما نفكر به ونهواه،فهو السلاح الذي يجيد سحرة وساحرات هذه البلاد استخدامه ضدنا.

خرجنا من الكهف نسير في حذر.. نطل على جروفٍ سحيقة ، وادٍ دون حدود من السُحب.. ذكرني ذلك المشهد بالجبالِ العالية.. جبالَ حراز.. رائحة البحر الممزوجة بذرات السحب.. ترجلنا من على بهائمنا الواقفة على شفاف السحب.. سمعنا أصواتهن يغنين.. أرهفنا السمعَ، أصواتهن تأتي من خلف السحب المعلقة.

بالكاد نرى الطريق.. سارت بنا البهائم كَثيراً نحو الشمال.. لا توجد شمس ولا نعرف الوقت.. ظهرت لنا قمم الأشجار من وسط سهول السُحب.. شجيرات الضرو وثعب ولبخ وعشب الزوان.. اتضح لنا بأنها غويبة على مجرى نهير يهبط ليصب في هاوية الجرف.. كانت الطريق تتخلل الغويبة.. خشينا أن لا نصل الطرف الآخر.. وما أن خرجنا حتى رأينا أناساً يصعدون من فجوة الصخر تحت السحب المتصاعدة من أسفل الجرف.. كانوا خمسة رجال يحملون فؤوساً وعصياً وحراباً.. شعورهم طويلة تزينها أكاليل الزهر.. صدورهم عارية.. توقفنا متحفزين حين

رأيناهم يقفون وقد رفعوا فؤوسهم في الهواء.. ترجل النخاس.. ركَعَ بركبة واحدة قائلا:

– نحن حجيجٌ قاصدون مكةَ وقبرَ النبي!.

قال كبيرُهم وهو يخفضُ فأسَه:

– من أين أنتم؟.

– من صَـنْـعَـاء!.

– أي صَـنْـعَـاء؟!.

– مدينة كبيرة.

– لا يسيرُ الحجيجُ في هذه الطريق!.

– لقد ضللنا طريقنا!.

– لو لم تكونوا قاصدين مكة لتعشينا بكم!.

– ..!.

– لديكم خيول جميلة!.

– السلام عليكم.. السلام عليكم!.

– السلام عليكم!.

ركع النخاس بركبته الثانية أمام ذلك العاري وهو يُغني: يا نبي سلام

عليك.. يا رَسُــوْل سلام عليك صلوات اللــّـه عليك. أكمل النخاس...، ليضع حامل الفأس عِلجَه تحت إبطه ويتقدم حاضناً له.. متمتما:

- من أجل وجه الأنبياء والرسل واصلوا طريقَكم.. لكنها أمانة أن تحدثوهم عنا.. نحن صاعدون من تهامة.. والنبي تهامي.. وإن أردتم أن نعود لضيافتكم.. سنعود لكنها الدواب لا تستطيع الهبوط من شفة الحيد.. وإن أردتم المضي فعليكم بالاتجاه شرقاً المسافة ليست بعيدةً إلى (طبب ربيعة).. الطريق على شفة حيد السحب ستقود بهائمكم للسقوط في هاوية مالها قرار.

اعتقدت بأنها خدعة.. حين احتضنه النخاس.. ليتقدم البقية.. ترددت في الترجل.. لكني رأيت عيني صاحب الفأس تدمعُان وهو يعانقه.

أردف: "ستسيرون حتى تجدوا شِعباً شبيهاً بهذا الشِّعب.. وعند أول طريق تنعطفون يميناً.. اجعلوا جرفَ السحب خلفَ ظهوركم.. وامضوا لتتركوا تلك الطريقَ التي ستوصلكم إلى طبب شمالاً.

لم يكن ذلك الشعب الذي عناه صاحب الفأس قريباً.. لكننا تركنا شفة السحب.. واتجهنا شرقاً.. يومان عبرنا فيها عدة أودية في أراضي قبيلة (علكم) حتى اهتدينا إلى المحجة.. صادفنا مسافرين يسيرون في الاتجاهين.. قضينا ليلتنا في أول نزل، وأمست دوابنا بين دواب المسافرين لا يفصلنا عنها فاصل.. ولم تأتِ نهاية اليوم الثاني حتى دخلنا مدينة وادي (طبب).. رفيدة ربيعة.

النســاء القــرع

منذ انفصلنا عن قافلتنا في جرش وأنا أسير كالمسحور.. لا أميل للحديث مع أحد.. فقط هو جعدن من أحدثه.. ذلك النخاس لم يكن رديئاً.. لكنني أشعر بأنه يقوم بدور السيد المتحكم.. أحلم بقدوم ذلك اليوم الذي يفي بوعده.. سأتركه وأرحل بعيداً.

تشعبت بنا طُرُقٌ تتشابه. أودية يعشّعشُ بها الخوف.. جبال تتخللها السحب.. لحقنا بجماعة في نفس اتجاه سيرنا.. بينهم سبعُ نساء بالغن في إزالة شعر رؤوسهن وتلوين وجوههن وأطرافهن.. الذكور يعتنون بشعورهم الطويلة.. يدهنونها.. يتركونها منسابةً على أكتافهم وخلف ظهورهم.. البعض يصبغها بالحناء.. يتوجونها بأكاليل الريحان والزهور الجبلية.. البعض يضعون تيجاناً رقيقة من الفضة.. أعينهم غارقة في سواد الكحل.. أجسامهم عارية إلا من مآزر جلدية شُدت عند خصورهم بسيور طويلة.. ومنهم من يُغطي ظهره بفراء خروف.. يتحدثون بأصوات صارخة.. هي نفس المفردات التي يتآلفون بها مع حيواناتهم المحملة.. النساء الحليقات يسرن راجلات.. يقتربن منا مبتسمات.. عند أحد

الغُدران توقفنا قليلاً.. مد لهم النخاس بطعام.. وقدموا لنا من طعامهم.. تحدث إليهم.. ضفرت إحداهن ثلاثة أكاليل من زهور أغصان الغدير.. وقف البقية يراقبون لحظات تثبت أكاليل الأزاهير على رؤوسنا.

وصلنا ملتقى واديَي (قرب ونطعان).. كهف واسع.. تحيطه جبالٌ عالية وجروفٌ شاهقة.. تجري مياهه باتجاه الشعاب الغربية.. عُتمة أشجار الصفصاف والضرو مخيفة.. كنا نتمنى أن نجدَّ في سيرنا لكن النخاس فضل قضاء بقية النهار والليل في إحدى مغارات ذلك المكان. طوال الوقت تختلط أصواتُ طيور لا ترى.. صريخ القرود.. حيوانات قيل لنا بأنها تخرج ليلاً.. شعرت ببعض الأمان حين قررت تلك الجماعة المسافرة أن تبات معنا.. أخذوا مواقعهم داخل الكهف.. لم يمر وقت حتى ارتفعت أصوات تحولت إلى مشادة وعراك.. ليخرج الجميع مواصلين طريقهم.. عدا إحدى النساء القرع وشاب يرافقها.. رتبنا إحدى الزوايا.. أخذت المرأة ورفيقها زاوية أخرى.. كانت هي قد تجاوزت الثلاثين والشاب تحت العشرين.. ملامحُها فتية وبشرتها مشدودة.. عينان مكحلتان.. توزع نظراتها.. تبتسم وقد أمالت شفتيها دوماً.. جلست تفتح صرة لتعبث بمحتواها.. تحكم ربط أطرافها.. تتكئ على الجدار.. تعيد ترتيب نفسها.. تعبث بخصلات شعر الشاب.. الذي تمدد ليغط في نوم عميق.. تتسلى بظفرها.. لتفك ما ظفرته من جديد.

شاركنا مسافرون آخرون ذلك الكهف.. اتسع الأمان أكثر.. أشعل كـــلٌ فريق نارَه.

أخذ جعدن يهامسني.. ضغطت على أصابع يديه محاولاً إيقاف همسه.. استمر يصف لي نظرات تلك المرأة.. ابتساماتها.. حركة يديها.. وجدت نفسي أجاريه.. كما لو كنا التقينا للتو.

كان النخاس يتنصت همسنا.. حين قال لي: علينا استغلال هَوَس تلك المرأة بك.. لتكن أولَ صيدنا ورفيقها الشاب. أوكل إليَّ مجاراتها.

قال لي جعدن ساخراً:

- تخيلها شـَـوْذَب!.

- ولماذا عَـلـَيَّ تخيُّلـُـها؟.

- كي يدفعَــك الشوق إليها!.

- والشاب؟.

- سنرى ما يكون!.

جلسنا مستندين إلى جُدران الصخر.. أضراسي تهرسُ لقيمات خبز جاف.. ألحقها برشفات القهوة.. أراقب ما يدور.. نهضت المرأة تاركة الشاب مستلقياً.. توشحت بـ(غرارة).. نظرت إليَّ باسمة.. أشار عَـلـَيَّ النخاس إتباعها.. كانت الشمسُ تختفي صخب الأحراش يتعالى.. استدارت تتخفى خلف صخور سفح الجبل.. تبعتها.. نظرت إليَّ دون أن تخفي نصفَ عريها السفلي.. كانت تتبول.. أشارت علي أن أقترب بعد أن حاولت التراجع خجلاً.. رفعت صوتها: اقترب

مني.. أريدك!. أشارت بالجلوس جوارها.. قالت: لا تستح اجلس وتبول جواري!. لا أدري ما عَلَيَّ فعله أوْ قوله.. صوتها جازمٌ.. لم تكن نظراتها خواء.. لكن على ما يخفق قلبها؟. وكيف تغرم بكتلة من الشعر.. ولماذا؟.. كان قلبي يخفق؟.. وعَلَيَّ أن أُؤَديَ دوري لاصطيادها!. لا أيمكن أن أكون طعماً؟. أسمع صوتَ النخاس يوم قال لي "بالحيلة يتغلب الضعيفُ على القوي".. أعَلَيَّ القيامُ بدور الصياد.؟.. تلك هي ابتسامتها.. وجهها يضج بالحياة.. نظرت غبش شعري.. اهتزت مشاعري خوفاً.. قالت لي:

– أراك تلاحقني!.

– !.......

– أنت من ألبستك الريحان بالأمس أليس كذلك؟.

تعثرت أحرفُ الكلمات.. لكنني هززت رأسي بالإيجاب.. قهقهت ممسكةً بيدي.. أحسست بملمس أصابعها.. انتقل تفكيري إلى رأس أصابعي.. تسللت رغبتي.. التفــَّــتْ أصابعي بين أصابعها.. بُرُودة بشرتها.. تتحرك بداخلي رغبة الحديث.. ارتعشت أصابعها.. ضاقت عيناها.. تغير شكلُ شفتيها.. سحبت أصابعَها بقوة.. تنقل نظرها بين كفها وعيني.. لا ترى ابتسامتي.. هل أنا في صراع مع نفسي.. أم مع من حولي؟. أشعر بالانتصار عليها؛ لأنها لا ترى ابتسامتي.. أمد يدي لملامستها من جديد تتراجع قليلاً.. أنظر إليها في حيرة.

* * *

نهض الشاب من نومه.. لوح بالتحية.. ابتسم النخاس سار نحوه.. جلس جواره يرتشفا القهوة.. نهضت المرأة تنظر إليّ.. تبتسم وشفتاها تتحركان.. استعادت ابتسامة شفتيها.. جاءت المرأة نحوي حاملة فنجان قهوة.. قدمته لي هامسةً: لماذا لا تأتي إلينا؟. جلست جواري.. تتكئ على خجلي.. واصلت حديثها: قال لي صاحبك بأنك تجيد الكلام.. فلماذا لا تتكلم معي؟. في عينيها حيرة.. هل ألامسها من جديد.. أنظر في الاتجاه الآخر.. ينظرون إليّ مبتسمين.. أيديهم ترتفع لتنخفض.. تتغير ملامحُهم.. فصل بيننا الظلام الذي يداهم المكان.. أشعل أحدهم نيراناً أمام باب الكهف.

اتكأت بكوعها على فخذي.. بقيت نصفُ المسافة.. وجدت كوعي يقترب ليتكئ على ذاته.. لامست بشرة ساعدي بشرتها.. اشتعلت حمى الكلام بداخلي.. تندفع أصابعي لتتسلق ذراعَها.. أغمضت عيني.. أسمع ريحاً تمخر مسامي.. شلالات بداخلي.. لم أعد أرى غيرَ أصابعي تتلمس كتفها.. رائحة إبطها تنبعث بشدة.. تحركت شفتي:

– أبحث عن أمي منذ حين.. عن حبيبة.. لم أعرف أن تفتحت مشاعري لغيرهما.. لكنها نظراتك.. تلك الابتسامة التي تدلقينها بدلال.. صوتك.. فماذا تريدين مني؟.. أخشى ألا تجدي ما تبحثين عنه لدي.. إيماءاتك تحرك الأسئلة الكامنة منذ سنين.. وأجدني مرتبكاً أمام ذلك الشاب الذي يرافقك.. ولا أعلم إلى أين تقودينني؟. صمتُ قليلا.

سمعت همس صوتها:

– أنت من تلاحقني.. أنا لا أريد غير معرفة ما تحت كومة الشعر.. أما ذلك الولد فهو ابني، فلا يذهبْ عقلك بعيداً.. يرافقني إلى ديارنا لتطهيره!.

حين كانت أصابعي تتحسس عشب (زبانها) انزلقت رائحة عفن محبب.. ارتفعت أصابعي على بشرتها لتصطدم بثدي ضامر.. اهتزت ساقاها وهي تقول: توقف قليلاً.. لا أحتمل لمس أصابعك.. سنلتقي!. رددت:

– أين سنلتقي؟!. سترى بأننا سنلتقي!. سَحبت كفي.. ابتعدت قليلاً لتستقيم.. وهي تهمس بكلمات لم أفهم فحواها.. ثم حملت فناجين فارغة ومضت.

في تلك الليلة شعرت بذنب ينخرني.. لذة لم استنشقها من ذي قبل.. كان سؤال يحيرني: ماذا أعجبها فيَّ؟. لكنه النوم دوماً يأخذني بعيداً.

أحسست بشيءٍ أيقضني.. يزحف على ساقي.. في البدء ظننته حشرة الظلام تلامس فخذي.. تمسك بأصابع يدي.. لم تكن حشرة.. أمسكت بها.. بحثت عن الوجه.. كتمت شهقتي وأنا أتلمسُ رأساً أقرعَ.. ثديِيها.. حَلَـمَةٌ بحجم نواة التمر.. تمددت جواري.. تعبث بشعر وجهي.. أصابعي كما لو كانت ليست أصابعي.. لم أعد أتحكم بها.. فقط ألهث بمتابعتها.. أعد فقرات ظهرها.. أضلاعها.. سُرَّةٌ غائرة.. تحتها بقايا جروح أسفل البطن.. تمتد حتى عانتها.. تفتحُ فخذيها.. أَستنشق

رائحة نفاذة لا تُشبهُ رائحةَ إبطها.. يعتملُ مرجلُ الكلام بداخلي.. أحاول التحكم.. لكنها لساني تتحرر لتتسلل الحروف همساً.. ارتجفت بين يدي.. يبحثُ كفها عن فمي.. تدفعُ بذراعي في الهواء.. أزداد تشبُّثاً بها.. تنسَلُّ باتجاه أقدامي دون أن تُصدِرَ صوتاً.. أشعرُ بظلام مهجور منذ زمن يتربع على صدري.

* * *

أتأرجحُ بين صدق المشاعر وتنفيذ ما عَلَيَّ تنفيذه.. أسأل نفسي كيف سنصطادُهما؟. قضيت تلك الليلة عالقاً في رائحتها.. أتذكر تلك الأحاسيس.. أشك في حدوثها.. أتأمل أصابعي.. رائحة تلبستني.

في الصباح أرى عيونها مصوَّبةً نحوي.. تفتحُ الابتسامات فمها.. هي هناك في زاويتها محتضنةً ركبتيها.. ذلك الشاب لا يشبع استلقاءً.. تعاود بابتسامة من نصف فمها.. مد جعدن يده ممسكاً بشعري:

- متى صنعت بنفسك هذا؟.

أمسكتُ بأطراف شعري لأجدُه عدة ضفائر صغيرة.. نهضتُ كما لو لُدغت بسُم حية.. أخفت وجهَها بين ساقيها تضحك.. بينما أنا أبتلعُ الصمت.. كنت حنقاً.. أكدت لي تلك الجدائل أني لست واهماً بما كان.

أفكرُ فيما ينوي النخاس فعلَه.. سألته عن خطوتنا القادمة.. قال لي: سنخرج من هنا سوياً وفي عرض الطريق يمكننا تنفيذ ذلك.. لنضم المزيد في طريقنا إلى مكة. بحت له برفضي للفكرة.. قال لي: بيننا عهد.. ولدي

ما يوصلك إلى ما تبحثُ عنه.. أنسيت شوذب التي ستظللك طوالَ عمرك.. فلا تترك نزوة خادعة تتحكمُ فيك!. كان تفكيري مشتتاً.

سرنا بدوابنا في وادي الغيل باتجاه الغرب منحدرين مع مجرى مياه نُهير.. طلبت تلك القرعاء أن أحملها خلفي.

مصب عميق لا تـُرى نهايته.. تبعثر الرياحُ مياهَه في الهواء.. جبالٌ بعيدة تغطيها غلالة رقيقة من سحب هابطة.. سلكت بنا الطريقُ يمينَ شلال طويل.. كان قلبي يخفق خوفاً.. أنظر تحتي لأرى جرفاً سحيقاً.. وفوقنا جروفٌ أخرى تلامس السماء.. معلقين على طريق صخري ضيّق.

يتقدمنا ذلك الشاب.. يتبعه النخاس وجعدن.. تُدخل كفـّـيها تحتَ ردائي الجلدي.. أنستني أصابعُها تلك الجروف.. الرياح القادمة من أفق السحب تمزج رائحتي برائحتها.. تلفح رقبتي حرارة أنفاسها.. تجتاحني الرغبة بملامستها.. حاولت أن التفت حتى تتمكن أصابعي.. اكتفيت بوضع كفي على كفها التي كانت تخربش فخذي.. تخللت أصابعُها أصابعي.. أتحسس بشرة أصابعها.. ذراعها.. همست لي:

– في أسفل هذا الجبل يعزُّ عَـلَـيَّ أن نفترق.

فقلت لها في دلال وأنا ألوي عنقي.

– و لِمَ علينا أن نفترق؟

– حكمة الطرق.. أن تصنعَ اللقاء وتصنعَ الفراق.

- سأخطفُــكِ معي إلى مكة.

- نحج الكعبة.

- نعم نحج.

- وابني.

- وابنك معنا.

- أهذه حيلة على الطرق وما تفعله بنا؟.

- كما تريدين.

- وتعيدني إلى دياري.

كلماتها أدمت قلبي.. شعرت بأني دونَ إحساس.. وأن عَـلَـيَّ أن أحدثها بالحقيقة.. وسأعوض النخاس خسارته هذه.

- سأحدثُـكِ بسر!.

- أيَّ سر ؟.

- لن أعيدَكِ إلى ديارك.

- لكني متزوجة من رجل كهل.

- لا أعني الزواج.

- إذاً تنوي أن تتركني في مكة.

- ستتركُك هناك أَمَةً.. وابنَك عبداً!.

- تبيعوننا؟.

- الآن عرفت السر!.

- وترضى أنت بذلك؟.

- هذا ما ينوي رفيقُنا الراكب على جواده!.

- وأنت؟.

- مجبر على طاعته!.

- وما يجبرك على طاعته.

- حكاية يطول همسُها.. وها أنا أحذرك.

طوانا صمتٌ وترقُّبٌ.. هبطنا سفوحُ تلك الجروف.. توغلنا وسط أشجار كثيفة الأوراق.. عبرنا مجاري الريح.. ضوضاء زقزقة العصافير .. صمت مخيف.. توقفنا عند مجرى ماء أسفل المجرى.. قالت تلك المرأة:

- نودعكم الآن.. فطريقنا يفترقُ هنا.

موجِّهةً حديثَها للنخاس.. الذي نظر إليَّ.. ثم قال:

- وما رأيُ جَـوْذَر؟.

شعرتُ لحظتها بأني أمام اختبار.. لا أدري لماذا استعادت ذاكرتي

صوراً ليوم مقتل المعلم.. لتصم أذنيَّ أصوات عامة الناس.. ويوم اقتادني عسكرُ الإمام إلى قاع الظلمة.

حينها التفت النخاس إلى جعدن الذي وقف محايداً.. ليصرخ فينا مجرداً سيفه وهو يوجه كلماته الغاضبة إلى المرأة:

- ستكونان معنا إلى بيت اللـــه الحرام أنت وابنك!.

كانت القرعاء تقف وإلى جوارها ابنها دون اضطراب.. مبتسمة:

- ولَمَ تشهر سيفك علينا.. لن نخذلكم.. سنأتي معكم.. لكن الطريق طويل.. ولم نستعد له بالمئونة أوْ المركوب.

- سنحملك على جيادنا.. وما معنا يكفي الجميع. ثم وجه كلامه لجعدن دون أن يعيدَ سيفه إلى غمده: هيا يا جعدن احكم وثاقهما واحمل المرأة خلفي!.

في ذلك اليوم كنا على وشك الحصول على أول صيد. ارتفع صخبٌ بين الأشجار المحيطة.. في البدء ظننتها رياحاً أوْ ضواريَ تتعارك.. سريعا ما ظهر رجل بشعره المسترسل حاملاً حربة سوداء.. تبعه عدة رجال مندفعين نحونا بحرابهم وشُعورهم الطويلة.. نساء قرع.. هن من تركنا في الكهف وساروا مع عدد من الفتيان بعد عراك.. وقف الجميعُ على مسافة في تحفز.. كـُـلّ حابسٌ أنفاسَه.. تجمعنا نحمي بعضَنا.. انضمت المرأة وابنها إليهم.. أخذت إحداهن تفك وثاقيهما.. ظننت الأمر انتهى.. وأن كـُـلاً منا سيمضي إلى حال سبيله.. لكنهم أخذوا بأخطمة دوابنا..

يسحبونها خلف الأشجار.. صرخ النخاس فينا: إنهم يجردوننا من كُــلِّ شيء!. حاولنا الدفاع عن أنفسنا.. اندفعنا في معركة غير متكافئة.. هويت على الأرض مغشياً عليَّ.. عدة نساء بعصيهن أمطرنني ضرباً.. غبت عن الوعي.

صحوت فلم أجد أحداً حولي.. رأيت وجهي المْتورم على صفحة الماء.. غسلت تلك الدماء.. تحاملت على نفسي.. استعنت بأوراق الشجر على تضميد جراحي.. تحسست دراهمي.. نظرت حولي.. قطرات دم على بعض الحصى.. خريرُ الماء موحش.. أصواتُ طيور تزيد من وحدتي.. جلست على صخرة.. أدخلت قدمَيَّ بين الماء.. عجزٌ وغَبنٌ مُــرٌّ يحوّمُ حولي.. الشمس تعتلي السماء.. جذوعُ الأشجار الضخمة تصطف حولي أفرعها تغطي السماء.. في كُــلِّ اتجاه تحاصرُني جبالٌ عالية.

أبحث عن طريق.. توقفتُ وحيداً أمامَ مسلكَين.. أحدهما يعبر المياهَ المنسابة.. والآخر يعود بي من حيث أتيت.. الروث في كُــلِّ مكان.. على أطراف مجرى الماء.. على الحصى الصاعد ارتفاعاً.. خرير الماء.. زقزقة لا تهدأ.. صفيرُ رياح.. ورغم كُــلِّ ذلك يلامسني الصمت.. يسكن حواسي.

•

اخترت أن أستمر في الطريق عبرت مجرى الماء.. صعد بي الطريق عبر سفوح وشعاب ثم جبال، ارتفعت بي كثيراً.. بدأت الشمس تدنو.. سرت نحو هدير شلال.. أصواتٌ وضحكات متقطعة.. صفيرُ ريح متكررة..

شلال مياه.. بركة واسعة.. صبيان وصبايا يغمرهم الماء.. اقتربت منهم.. أتلصص.. تطحنني رَهبة الظهور عليهم عُراة.. خرجت أسيرُ بمحاذاة المكان.. نظروا إليّ دونَ اكتراث.. يتلاحقون فوق الصخور عراة.. ليرتفعَ صخَبُهم.. فاجأني أحدُهم يدعوني لمشاركتهم.. وقفت متردداً.. خرجوا جميعاً يساعدونني على خلعَ جلودي.. حاولت إبقاءَ مئزري لم أفلح.. بكفي أخفي ما بين فخذي.. قذفوا بي وسط البِـرْكة.. ارتفعت أصواتُهم عالياً.. رفعت يدي .. تضاحك الجميع.. تبادلوا كلمات طائرة.. لم أفهم إلا القليلَ منها.. أتأمل ما حولي.. الجميع بشعورهم الطويلة.. حدثت أحدهم:

– أنا غريبٌ عن هذه البلاد.. هل تساعدونني؟.

– غريب!.

كررت نطق كلماتي مستجديا.. أنقل ناظرَي في مَن حولي.. سريعاً ما أصابتهم عدوى نطق الكلمة.. غريب.. غريب.. تخيلتها أصوات دجاج.. أخذوا يغادرون الماء.. تأملت قاماتهم الرشيقة.. الصبيان لا يغطون أشياءَهم.. نسجوا من الأغصان مآزرَهم.. الصبايا لففْـنَ حول صدورهن العارية أوراقاً رقيقة.

لم يبقَ وسط الماء غيري.. أخذوا يجمعون أغصاناً مزهرة.. يظفرونها.. يبتهج الصبيان بوضعها على شعورهم الطويلة. قذفوا إليّ بإكليل مظفور.. مضَوا بصَخَبهم.. خلّـفوا هدير الشلال.

فجأةً تعالت همهماتٌ ودحرجة أحجار.. ارتفعت أصواتٌ حادة.. ما لبثت أن تساقطت على البركة مجموعة من الحصيّ.. ظننتها دعابةً منهم.. ليعلن قطيعٌ من القرود حصارَ البركة.. جلسوا في دائرة واسعة يتأملونني.. تذكرت ما سمعته عن طبائعها.. غطستُ حتى رقبتي مستكيناً.. أرقُـبُ تحركاتها.. عراك بعضها.. حركاتها الرشيقة بين أفرع الأشجار والقفز على الصخور.. قطفها ثماراً وأغصاناً.. البحثِ عن قمْـل في شعر صغارها.. تجمَّعَتْ على حَوَاف الماء تشرب تنظر إليَّ.. ارتفعَ صراخ أحدها.. يطارد آخر.. عيون بعضها مصوبة نحوي.. شعرت برغبتي في التبول.. فكرت لو لم تنصرف.. أو أنهم يدخلون الماء لمداعبتي.. لم أكمل تخيلاتي حين صرخ أحداها مبتعدا.. ليتبعه أفراد القطيع.

غسلت ملابسي.. سرت عارياً إلا من إكليل الزهر.. قطفت بعضَ الأغصان وحاولت نظمَها حول خصري مثلهم.. الشمس من شفة قوسها الأخير.. أسير في مرتفعات.. عمود دخان يتصاعد من قمة مقابلة.. خفت من اختفاء الشمس وأنا أسيرُ دون هدى.. اقتربت من مصدر الدخان.. أسرعتُ الخُـطَـى.. رأيتُ أشخاصاً شبهَ عُراة.. صعدت نحوَهم ممسكاً بأغصان خصري.. نساء يقفن خلفهم شبه عاريات.. تملكني الخوف لرؤية هراوات وفؤوس.. توقفت.. كـُـلِّ الرجال يشبهونني بشعرهم الطويل.. رفعتُ يدي:

– سلامٌ عليكم.

– سلامٌ عليكم.

رد عَلَيّ أحدهم .. سكنني بعضُ الخوف.

– لقد ضللتُ طريقي.

التفتوا إلى بعضهم.. ما لبثت أعدادُهم أن تضاعفت.. أشار عَلَيَّ رجلٌ أشيبُ بالتوقف.. ما لبثت أن تقدمَ نحوي:

– ما حاجتُـك؟.

– أن آويَ بينَـكم.. فأنا عابرُ سبيل إلى الكعبة.

ارتفع همسُهم.. التفت إليهم ذلك الرجلُ مشيراً عليهم بالهدوء.

– لكن مَحَجَّةَ مكةَ لا تمُـرُّ من هُنا!.

– لقد ضللت الطريق.

– من أين أنت؟.

– من صَـنْـعَـاء!.

حينها وجه كلماته إلى مَن كانوا يقفون بهراواتهم وفؤوسهم خلفه بأن لا بأس.. ارتسمت على ملامحهم ابتسامات.. ارتفعت أصواتُهم.. أشار عَلَيَّ ذلك الأشيبُ بأن أتبعه.

مرتفعٌ صخري تملؤه ثقوبٌ كثيرة.. سرت وسط عشيرة تسكن كهوف الجبال.. تبعته دخلنا فوهة كهف كبير.. يتمدد داخل الجبل ويتفرع إلى سراديب صاعدة وأخرى هابطة.. مهاجع كثيرة.. أماكن لتخزين

الحبوب.. وأخرى لقطعان الماعز والدواب.. صعد بي كهف رأيت من فتحته الشمسَ تهوي بعيداً.

جلس حولي عددٌ من النساء والرجال بأطفالهم.. انفرد ذلك الأشيب يستعرض معرفتَه بالبلدان، يعملُ في خدمة شيخهم الموالي لأحد أئمة صَـنْـعَـاء.. كان ذلك منذ ثلاثين سنة.. أما اليومَ فيعيشُ بين عشيرته في هذه الجبال كما يحبها.. فلكل قبيلة شيخُها ومنجمُها الذي يمُـدُّه بالتنبؤات وطوالع النجوم.

حدثني أن المشايخَ يتلقون من رعاياهم هداياهم ومن ضمن ما يهدونه بعضُ أولادهم من بنات وصبيان.. ليصبحوا ضمن أملاك الشيخ الذي يستخدمُ مَن يريد منهم.. ويبيع أَوْ يهدي من يريد.

سريعاً ما حل المساء.. يتحلقون حول نارَ مشتعلة أمام ساحة الكهوف.. يلقون عليها حطبا لتتصاعد ألسنتها نار.. يغني حولها الرجالُ والنساء بصغارهم وكلابهم.. ما لبث أن ارتفع دويُ دقات الطبول.. دب دببب دب دببب.. تسافر أصواتُها لتعود صداها من الظلام أضعافاً.. يتماهَى الصدى ليأتيَ من دقات جديدة.. يهتز الرجال والنساء في دائرة حول النار.. يغنون بكلمات لا أفهمها، ظهورٌ وصدور عارية.. والبعض كما ولدته أُمُّه.. تتصاعد روائحُ الشواء.. اقترب الرقص من نصف الليل.. افترشوا الأرضَ يأكلون ما بين أيديهم من شواء لحم.. خبت النارُ قليلاً قليلاً.. تحول اللـهبُ إلى جَمْر.. ملامحُهم منتشية.. تفرق الجميع.

صعد بي الأشيب وسط صخب السراديب الصخرية.. تسبقنا فتاتان بمشاعل النار.. أشار بأن أتمددَ عارياً.. سقفٌ منحوتٌ بشكل مقعر.. لا زالت ضرباتُ الفؤوس طرية على الجدران.. غـُطيت الأرضُ بصوف الغنم.. وجلود الماعز.. ركعت إحدى الفتاتين عند قدمَيَّ تدلكهما بسمن الماعز.. تتسلق أصابعُها عضلات ساقي.. ركبتي.. فخذي.. أشارت بأن أنكفئ على بطني.. بينما الأخرى تغمس أصابعها بجلده الأشيب.. أصابعُ كفي ترتعش.. تتحرك ، تلامس أصابعَ قدمَيها.. فخذَيها، إليتها الملتصقة بكعبيها.. أشعلت شَهوة الحديث لدَيَّ.. أشعُـرُ بفمي يمتلئ كلاماً وشفتي تزبدان.

ساد ظلام مبهم.. وأصابعها تجوس أسفلَ ظهري.. أدركت قدرتها على إنعاش حواسي.. تسلقت أصابعُها أضلاعي.. وَبدأت دموعي تنهالُ وصوتي ينتحب: لماذا يارب أمي لماذا يا إله معلمي.. تتركاني في قفار العذاب.. أيَّ شقاء تحيكاه؟.. ألأني لم أجد أحدَكما أَوْ أنتما معاً.. أم أني ضللت الطريقَ؟.. هل البحثُ رديفٌ للشقاء؟.. متى يظهرُ منقذي؟.. متى أشعر به؟.. متى يصنعُ من العذاب نعيماً.. والجوع شبعاً.. والنقص اكتفاءً.. والألم عافية.. والحزن فرحاً.. والتعاسة سعادة؟.. أيسمعُني من أبحث عنه؟.. أيرُدُّ عليَّ من يشقيني غيابه.. هذا أنا لا أعرفُ أين أنا.. ولا أعرف ما غدي.. هذا أنا أحمل صراع وجودي.. فأين ألقاك يا مخلصي؟.. ومتى سينتهي بُـؤسي؟.

سمعتُ صوتَ الأشيب: على رسلك يا مَن تشكو إهمالَ ربك.. هو

حولك وداخلك.. ولولا عنايته بك ما نطقت.. ولا تنفست بشَهقة.. ولا نبض لك قلب.. أيَّ شقاء تعني؟.. الشكوى على الصاحب حجامة.. وأنا لك مستمع وناصح.. لا توغل في الجُحود والإنكار.! ثم ترنم بـ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

ختـــان

صَمَتَ ذلك الأشيب، أخذ فمي يسرد شقاء الطريق.. لم أَحْـكِ له محاولتنا اختطافَ تلك المرأة القرعاء.. حكيت الوجه الآخر لحكايتنا.. قلت له فقط أن جماعة بينهم نساء دون شعر ضربونا وسلبونا.. وبعد ذلك فقدت رفيقي سفري.. ارتفع صوتُه:

– أتعني نساءً قُرْعاً.. قُرْعاً؟!.

– نعم قُرْع.

– حاجتك عندي.. ألا ترى إن اللــّـه يرعاك وأنت تجحدُه؟!.

صمتُّ أبحَثُ عن أصابعِ تواسيني.. عن دفءٍ لأصابعي.. رغبة الكلام نَـضُبَت.. صمت كـُـل شيء.. غشاني النومُ رغم عواء بعيد.

صحَوْتُ على همس الأشيب يناجي سكون الضوء يتدفق من فوهات الكهف: يا إلهي ما أكرَمك حين تخُصّني باستقبال شمس يوِم جديد.. تضيفُ لي يـَوْماً إلى سني عمري.. يعني أنك تحبني.. سأشكرك بتقديم

أعمالٍ طيبة.. لن أحتارَ في الأعمال حتى أرضيك.. هذا أنت تضعُ في طريقي رجلاً بائساً لأشكرَك بخدمته.. لن أكتفيَ بالكلمات.. يا رب أبتهلُ إليك أن تعينَني على أن أعيشَ هديتَك بسعادة ومرَح.. برضا تام.

قطع همس صوته ضوء ووقع أقدام من أسفل السراديب.. شبح فتاة.. وقفت تنظر إلى الأشيب المتكئ على جدار الكهف.. ملامحه الباسمة.. قال لها: سنتبعك.. ثم نظر إليَّ: يبدوْ أنك أيها المتذمر لم تنـَمْ!. نهض يتوكأ.. ناولني مئزرَ جلد.. وآخر من فرو الماعز اتقاءَ البرد.. تبعناها هابطين نحو الأسفل.. بقايا نجوم متفرقة.. عواء ثعلب يتردد صداه من عُمق الوادي.. رائحة حطَب محترق.. رَوْث.. بقايا جَمْر.. تَجَمَّعَ النساءُ والرجالُ حول جَفنة خشبية مليئة بعصيد.. أوعية الحليب.. فطائر الذرة.. أخذت السماءُ تكتسبُ لونَها الفضي.. أكمل الجميعُ تناول الطعام.. أجلسني الأشيبُ على حجر مبتسماً.. أشار على فتاة ليلة الأمس بمشط شعري.. ودهن وجهي وأطرافي بسَمن دافئ.. جدلت أغصاناً مزهرة فوق رأسي.. لبست ملابسي.. تهللت ملامحُ الجميع بي.

يتلو الأشيبُ أدعيته.. يقذف بنثارة بخور على بقايا جَمر.. يردد الجميعُ ما يتلو.. امرأة تجز شعر رؤوس عدد من النساء.. تدهن أطرافهن بطبقة من الكركم والدهن.. بزغت الشمسُ من أعالي الجبال الشرقية.. أكملت النساء تلوين أطرافهن.

النساءُ القرع تشابهُ مجموعة نساء الكهف الكبير بقرعهن.. شبانٌ زُينوا رؤوسهم بأغصان الزهور، ونساءٌ يصطحبن صبايا.. تبعنا عدد كبير من

الرجال برماحهم ودوابهم.. سرنا عبرَ منحدرات متتالية.. خليط من المواشي والبشر.. يتقدم الجميعَ طبول.. يقفُ ليقفَ الجميعُ.. تلتحق بنا من كهوف الجبال نساءٌ حليقاتُ الرؤوس يصطحبن بعضَ بناتهن وأبنائهن.. وهكذا طوال الطريق نقفُ لتقُرع الطبول فيلتحق بنا المزيدُ من النساء المخضبات الوجوه والأطراف.. قرع الرؤوس.

أشرفنا على بلدة (حلي) التي انتشرت أكواخُها ومنازلها الطينية والحَجَرية على رَبوة واسعة.. يحتضنُها واديان يلتقيان ليشكلا وادياً كبيراً متجهاً غرباً.. كان الوقت عصراً. أَمر الأشيب الجميعَ بالتوقف.. ليرتفعَ قرعُ الطبول.. دخلنا البلدة من شرقيها.. اصطفَّ سكانُها على جانبَي الطريق.. لترتفعَ أصواتُ أبواق من عدة جهات.

حدثني الأشيبُ أثناءَ الطريق بأنهم سيشاركون قبيلتهم تطهير شبابهم وشاباتهم.. وأن تلك النساء المخضَّبات الوجوه.. حليقات الرؤوس هن أمهات من يتجمع الناس للفرح بتطهيرهم.

* * *

شوارع البلدة تَعُجُّ بحليقاتِ الرؤوس.. وساحاتها تزدحِمُ بالمواشي وحبوب الطعام وسلع متنوعة تَعرَضُ في كـُـلّ مكان.. أَصوات الباعة تختلط مع صخَب المارة.. روائح وألوان.. ملامح.

توزع الجميعُ على أكواخ ومنازل القرية.. اصطحبَني الأشيبُ معه إلى منزل شيخ القبيلة.. دخلنا مساحةً واسعة انتشرت عليها صفوف أكواخ

القش.. نزل الأشيبُ في إحداها.. لم أكن أعي ما يدورُ حولي.. رجلٌ يجلسُ بين صفي رجالٍ.. لا يختلف عمن حوله.. قال لي الأشيب: اشك حالتك لشيخنا. نظر إليَّ من يجلسون حوله صامتين.. أشار عَلَيَّ الأشيب بأن أتقدم.. قال الشيخ:

– ما حاجتُك؟.

حين رآني الأشيب أتلعثم.. أشار نحوي بسبَّابته في الهواء.. وقال:

– هذا يا شيخَنا من أهل اللــه.. وقد شكا لي بأنه ضيَّعَ رفيقَيه الذاهبَين إلى مكة للحج.. حين التقى ببعض قبائلنا القادمين للمشاركة في التطهير.

التفت الشيخُ لمن حوله سائلاً:

– مَن منكم يعلمُ بحكاية هذا الرجل؟.

ثم نظر إلى الأشيب.. وقال بصوت قاسي: فَـزْ مِن تَـوِّكَ، وطُـفْ بهذا الغريب بين قبائلنا واسألهم عمن يعرفُ حكَايته.. لا تعد إلا ومعك ما يُفيد.

انقضى وقتٌ وأنا أُلاحقه من كوخ حَجَري إلى آخر من قِش.. إحدى النساء القُرع تقدمت.. أمسكت بكفي.. تأملت أصابعي.. الضفائر الصغيرة في شعر وجهي.. ثم التفتت إلى الأشيب:

– ومَن يعرف الحكاية.. ما هو مطلوبٌ منه؟.

– أن يأتيَ للتــوِّ معنا.

ينقُلُ الشيخ ناظرَيه بين الأشيب وتلك المرأة الراكعة أمامَه على ركبتيها.. يسألها:

- مِن أيِّ عشائرنا؟.

- مِن أم شعبين!.

- ماذا تعرفين عن هذا الغريب؟.

- التقينا به في طريقنا إلى هُنا.. وافترقنا في كهف قُرب (نطعان).

انفصلت إحدى النساء من بيننا وابنها وظلت معهم.

- وماذا بعد؟.

- لا شيءَ آخر!.

- وأين تلك المرأة؟.

- هي في منزل قريب من هنا.

ارتعش بدَني حين رأيتُها قادمة.. كان إلى جوارها ذلك الشاب وعدد من النساء القرع.. سألها الأشيب:

- هل رأيتِ هذا الغريب؟.

جلستْ راكعةً أمامَه .. تنظرُ إليَّ.. ثم إلى وُجوه مَن حولها.

- التقيناه ورفيقيه في طريق قُدُومنا إلى هنا.. بِــتُّ وابني بينهم في

كهف وادي(نطعان)، وحين واصلنا الطريق حاولوا اختطافنا .

قال الشيخ بصوتٍ هادئ:

– وأين رفيقاه؟.

– بقية مَن كانوا معي لديهم بقية الحكاية!.

– أين هم؟.

– ها هم يقفون حولك.

أشارت على مَن جاءوا معها.. التفت الشيخ إليَّ:

– هل كان معكم متاع؟.

– حصانان وحمارٌ وناقة.. وما نحمله من طعام ورقوق وكتب.. وسيوفنا...

قاطعني الشيخ بصَوت غاضب:

– كفى.. كفى.. أريدُ كـُـلَّ شيء يكون حاضراً.. رفيقاه.. دوابهم.. متاعهم.. وحقيقة الحكاية.

تراجع البعض.. والبعض يهمس.. تداخل الهمْسُ.. تقدمت المرأة الأولى مرة أخرى:

– هل أتحدث؟.

أشار عليها الشيخ بإصبعه أن تركعَ أمامَه قبل أن تتحدث:

–حين كنا في كهف قُرب (نطعان) سمعنا بعضَ رفقائنا يتحدثون عن نيتهم سرقة خيلي الغريبين.. عند ذلك اختلفنا وانقسمنا.. ليرحلِ مَن اتفقوا على سرقتهم معنا.. تاركين هذه المرأة كي تقودَ الغُرَباء صباحاً إلى حيثُ يكمنون لهم.

أشار الشيخُ بأن تستضيفَني المرأةُ القرعاءُ في كوخها تلك الليلة.

* * *

اكتشفت بأن كـُـلٍّ فرد منا يحملُ في طيات نفسه ذكاءً كما يحمل غباء.. لتظهرَ تلك الطبائعُ.. لكن الغباء الكامن عادَةً ما نكتشفه متأخرين.

كُوْخٌ من البوص.. مكسوٌّ من الداخل بطين أبيض.. نقوشٌ وألوانٌ ركيكة.. في البدء ظننت بأني سأقضي ليلتي وحيداً.. وأنها ستنصرف.. استقبلت أطعمةً من نساء.. سامرنها، غنت إحداهن بصوت خفيض.. رقصت حتى تفصد جسدُها.. شاركنها رقصاً متقطعاً.. غلفني شعورٌ بالخجل.. يثرثرن.. ينظرن إليَّ ضاحكات.. حاولت أن أكونَ محايداً.. لكن ضحكاتهن شدت مسامعي.. تحكَي لهن عن ذلك الكهف.. عن ملاحقتي لها، تنظر إليَّ بعينين باسمتين.. تريهن ما صنعت بشعر دقني.. كالأسير بينهن.. أحاول تجنـُّـبَ نظراتهن.. يسافر الليل وهُن يتسامَــرْن.

نهضن يوصينها بي خيراً، يتضاحكن.. تبتسمُ وهي تضعُ السراجَ جانباً.. تدندن بنفس كلمات غنتها إحدى المغادرات.. تكحل عينيها.. تدهن بشرة وجهها وذراعيها.. تخلعُ بعضَ أرديتها.. ترمُقُني بابتسامة عَطوفة.. قالت: علينا أن نتناسى مساوئنا.. من عاداتنا إكرامُ الضيف.. كنت أُريدُكَ ضيفاً دونَ أمر الشيخ.. لَمِ تعودُ لصمتك.. ارني أين يؤلمك من ضربات ذلك اليوم؟. هززت رأسي عَلامة الموافَقة.. كررت: أين تشعُرُ بالألم؟. مددت لها ساقي.. مشيراً إلى قدَمي وركبَتي.. أشار إلى رأسي.. ساقي.. ابتسمت قائلةً بصوت خافت: مهما يكن سأقومُ بواجبي. جثت على ركبتيها.. ليظهرَ فخذان أكثر بياضا.. بدأت بتدليك قدمَيَّ.. تهتز وأصابعُها تصعَدُ عضلة ساقي.. ركبتي، فخذي.. تناولت يدي شبراً شبراً.. طلبت أن أتمدد.. قالت: أعطني ظهرَك. استدرتُ.. أزالت ما علَيَّ من جُلود وخِرَق.. تمانعت.. همست بصوت عَطوف: أترُكْ لي نفسَك.!.

نفشت شعري.. تمسد ظهري.. تنفخُ ماءاً بارداً من فمها.. صعدت أصابعها على ظهري.. أحدث نفسي: ها نحن وحيدان.. وهذه أصابعها، فلمَ لا تعاودني رغبة الكهف أم أن ذلك لم يحدث؟!. قالت: هيا اسْتَوِ على ظَهرك.. لا تخجل هيا!. استويت وأنا متمسك بقطع الملابس بين فخذي. قالت ضاحكة: لا عليك.. ستشعر بالتحسن بعد لحظات.

غطتني.. رأيتُها تقفُ خالعةً ما تبقى.. جسمُها لا يزالُ متماسكاً رغم تهدل صدرها وملامح الكِبَـر على يديها.. تبرُزُ مؤخرتُـها بشكل

بيضاوي.. بشرتها.. تدهن جسمها بين فخذيها وإبطها؟ استنشق تلك الرائحةُ.. غطيت وجهي وكأني أستعدُّ لمعركة.. ضحكت تزيلُ أغطيتي.. تكومتُ مُقَـرْفـصاً.. ابتسمت وهي راكعةٌ أمامي: ألا زلت عاتباً من فعلتي تلك؟.. أنت اليوم ضيفي!. والضيف عندنا يُكرم.

توشوشني ممسكة بكتفي: لا عليك تمدد، استرخ.. دعني أراك. عادت ترفع شعري الكثيف، تسألني: ماذا تخبئُ تحته؟.. ربطت كومة الشعر خلف رأسي.. يلامسُ ثدياها المتدليان أنفي.. رائحة شذية تداعبُ حواسي. قالت وهي تفردُ ساقي: لا عليك يبدوْ أنك لا زلت بَـتـُـولاً!. تهامسني، تدلك أفخاذي.. أصابعُها تعري روحي بتؤدة.. أخفي عينَيَّ بكفَّيّ.. ترفع صوتَها: هذا هو لا يزال أغلفَ.. كما توقعتُك بتول!.. تداعبه بيديها.. أشعر بأني أطير في فضاء فسيح.. يذوبُ قلبي خجلاً.. أنظر إلى جسمي بعينيها.. فأرى كُـلَّ شيء ثم أغمض. داعبتني كثيراً.. ركبت خاصرتي.. أمسكت بذراعي وهي تهمس: سأساعدُك كي تتغلبَ على ما أنت فيه. أغمضت عيني.. قالت بصوت هادئ: انظر إلى عيني.. هيا.. هيا افتح عينيك. ظلت تهمس مبتسمة.. تكرر حركة فمها.. وقد نزلت من على خصري.. وهي تقول: سأمتدُّ وعليك أن تنهض لتدلك ظهري. تهزني بكفها: هيا انهض.. الليل يذوبُ والفجر يقترب.. بدأ صوتها يتحول إلى عتاب.

بشرتها بيضاء رقيقة.. وضعت أصابعي على أكتافها.. قالت هامسة: هيا اركب على خاصرتي.. مسدت أضلعها برفق... أزرأبت بشرتها.. خاصرتها.. أدخلت يديَّ.. همست: أسفل قليلا. أنزلت أصابعي في

ساق ظهرها أدعك عظامَها.. صوتها يتغير: أسفل قليلاً. دعكت أطراف إليتها.. اهتزّا كربوتين نديتين.. صوتها يرجوني: دلِّكهما.. اعتصرهما بقوة. غصت بأصابعي عاد صوتها: أسفل قليلا. تقود أصابعي رغبة لم أألفها من قبلُ.. تصطدم أصابعَها بشيئي، تمسك به متلبساً.. تفاجئني وقد استدارت على ظهرها.. تلتقطُ ذراعَي.. كتفَي.. تطرحُني بين فخذَيها.. وجهُها وضَّاءً بابتسامة أظهرت حجم فمها الكبير.. عينُها زائغة.. لا أعلم لماذا ذَوَى كُلُّ شيء بين يدَيها.. ذَوَيت أنا.. لم يعد يهُمُّني عُـرْيي.

صمَتَ كُـلُّ شيء.. وفجأةً هوت على وجهي بكفيها صارخة.. صوتها ارتفع غاضباً: ألم أعجبْـك أيها الرغل! أتراني كبرت.. أنت لست رجلاً.. الرجولة لا تقاسُ بكبرِ العير!. بركت فوقي تقطع شعري: أيها المسخ أنت عاجز.. لستَ رجلاً.. ولم تُهِنْ إلا نفسَك. تصرُخُ وتضربُني بعُنف.. وقفت منفلخة.. تبولت علي وهي تشتم.. أمسكت بعصا أوسعتني ضربا.. استدارت.. جمعت ملابسي بين كفيها: هيا انهض، لقد أشرقت الشمس. كان صوتها حازماً.. فتحت بابَ الكوخ وقذفت بهن خارجاً: هيا اخرج يا كلب.. يا رغل.. يا أغلف!.

تصرُخُ للمارة.. تجمع بعضُهم.. غير عابهة بعريها، لم أكن قد فهمتُ ما تعنيه تلك المرأة من ألفاظها.. دفعتني عارياً خارجِ الباب تراجعت خَجلاً.. لكنها دفعتني بقوة وهي تستصرخُ المارة بأن أقاد إلى الشيخ.. تكرِّرُ مفرداتِها: إنه رغل.. أغلف.

* * *

وصلوا بي منزل الشيخ وهم يكررون بصَوت جماعي: أغلف.. رغل.. أغلف.. رغل.. أدخلني جماعةُ منهم إلى الساحة.. إلى حيث كان ذلك الرجلُ الأشيبُ.. أشار عليهم بأن يتركوني له.

أسأل نفسي: هل وضعتني تلك المرأة في مَوضع مُبين.. أم أنها انتقمت لنفسها؟.

في المساء وجدت نفسي وسطَ صف من الفتيان.. نقف في ساحة البلدة.. حولنا حملة المشاعل.. كان القمر في كامل استدارته.. ننشد وعيوننا ناظرة إليه.. نسير في شوارع البلدة منشدين وعيوننا تتابع استدارته.. عدنا إلى ساحة البلدة.. تصطفُ النساءُ حليقات الرؤوس مخضبات الوجوه والسواعد والصدور.. يهتززن في رقصة وهن يقفن تحت المشاعل.. صف مستقيم يواجه صف الأبناء الشباب.. زينت عيونهم بالكحل.. ودهنت بشرتهم.. ومشطت شعورهم الطويلة.. أكاليل الزهور والرياحين.. وتيجان الفضة.. بالمقابل تقفُ الفتيات في صف آخر.

كنت وسط صف الفتيان الطويل.. الطبول يرتفع وجيبُها.. يرقُصُ الرجال في حلقات وسط الساحة.. يقذفون سيوفهم ونصالهم في الهواء ليتلقفوها بمهارة.. ترتفع الزغاريد مطولاً. يسير بين الصفوف شاعرٌ مردِّداً أبياتِ الشجاعة والإقدام موجِّهاً بتحية لكل قبيلة.. وسط صفي زغاريد النساء.. يتقدم المطهِّرُ (الختان) رافعاً نَـصْـلاً حَاداً راقصاً.. يقف جوار صخرة التطهير، حجرٌ مستوٍ.. ليتقدم أولُ الفتيان يتكئ على الصخرة عارياً ورجلاه متباعدتنان.. يمسك بشعر رأسه.. يحدق في القمر.. يرتجل

أبيات شجاعة أخواله وقبيلته، يلتفت يميناً وشمالاً.. يمسك المطهر بقضيبه ليسلخ بشفرته وعُيونُ مَن في الساحة من صبايا ونساء ورجال تراقبُ الحدَثَ بأنفاس محبوسة.. والشعراء يعددون مناقبَ أجداده وأخواله وشجاعة عشيرته.

يبدأ النصلُ بسلخ بشرة السُّـرَّة نزولاً باتجاه العانة تسيلُ دماءٌ حارةٌ على كف المطهر.. يستمر النصلُ بسلخ بشرة القضيب حتى الغلفة.. والشاب ينظر إلى السماء مبتسماً.. ثم يهزجُ أشعاراً في الشجاعة والبأس.. لتنطلق الزغاريد.. يقفز راقصاً بعنف على دقات الطبول القوية.. صارخاً ، حوله أخواله، يرقصون أمامه فخراً بشجاعته.. تذبح الخراف والبقر.. وهكذا يستمر المطهر فتى تلو آخر، وقد أثخنت نصلتُه بالدماء، وتشربت أصابعُه بها.. تتزايد الرقصات والأشعار.. وتتزايد أعداد الذبائح وسط هزيج الطبول وزغاريد جموع النساء.

في وسط تلك البهجة كنتُ أجلسُ على رُعبي.. يسكنني خوفُ الموت.. دَوَّتْ صرخة أحد الشباب ألماً.. باكياً من وجَع مزَّقَ قدرة احتماله.. لتخترقَ نصالُ (جَنَابي) أخواله صدرَه.. يسقط مضرجاً بدمائه.. تحمله النساءُ وعويلُ أمه يصُـمُّ الأسماع.. استمر المطهر في تطهير بقية الشباب.

جاء دَوري.. أصعدوني.. العُيونُ عليَّ تتأمل شعري الغزير.. الهمسُ يرتفع.. أجلسني على صخرته.. ربط الجزء الأمامي لغلفتي بخيط رفيع.. ترك الخيط وبدأ يغرز سِـنـَّـتها تحتَ سرتي.. كدت أصرخ.. تلاقت عينيَّ

بعين مضيفتي القرعاء.. ابتسمتُ ألماً.. كبَتُّ أنفاسي.. رفعَ المطهرُ نصله يقطر دما.. وبين أصابعه ما سلخه من جلدي معبقا بالخيط.. لتنطلق الزغاريدُ دون أن يرقُصَ أحَدٌ.. غمرتني نشوةٌ لم أَذُقْها مِنْ قبلُ.. وضع على جراحي مسحوقا حارقا.. لسع كحريق النار.. عرفت لاحقا أنه خليط من الملح والرماد وروث النوق.

أكمَلَ المطهِّــرُ من تبقى.. ثم أشار إلى امرأة متحفزة بنصلها.. صف الصبايا.. بدأت بسلخ بشرة وشعر عانة أولى الصبايا.. بترت شفري ورأس بِــظْــرها.. أرتفع صراخ الفتاة باكية.. تحمل الأمهاتُ بناتِهن المطهرات يلبسنهن ثيابا جديدة.. يرقُصُ بقية النساء وهن يدرن وسط الساحة.

ألبسوني مثلهم ثياب جديدة وتعممت بأغصان مزهرة.. رقصت في صفوف المطهرين ملوحين بسيوف براقة.. ندور بداخل الساحة في رقصة ظننتها لا تنتهي.. يسيل الدم على ساقي.

صفُ قُدور الفخار فوقَ اللـَّــهب.. تنتشرُ رائحة التوابل.. امتلأ بلحوم الإبل والماعز والبقر.. جَفن عصيد الذرة في صف يحركها الرجال. وأواني سمن وحليب المواشي.

طوال نهار اليوم التالي ظل جرحي ينز دما ومصلا.. مكث الأشيب ليالي يدهن تسلخاتي. بعد أيام تفرق الناسُ لتخلوا البلدة من النساء القرع.. تنتظر موسم التطهير القادم .

في حَشْدٍ من الناس جلس الأشيبُ جوارَ الشيخ.. أتوا برفيقَيَّ..

ودابتين وجمل وكامل أمتعتنا.. سألت الشيخ عن خيولَنا :هما في عنايتي، لا يصُحُّ لهَذَين الأصيلين إلا حياة كريمة!".

لم يكُن لنا من خيار إلا الرحيل على ما جاد به، كان الناسُ قد تفرقوا في اليوم السابق لتعودَ البلدة تنتظر أيامَ التطهير في العام القادم.. عاد مَن جاء من نساء وصبيان وصبايا ورجال إلى قُراهم وجبالهم.

* * *

صعدنا شرقاً ،طرُقاً وعرةً.. عبر وادي (حلي).. ثم واديَ (بقرة) باتجاه الشرق.. تسلقنا (شعبَ صلبين) و(شعبَ ساقين) الوعرة.. جداراً من الجبال تتكئ السماء عليها.. أخذ بنا التعب مأخذه.. وأخيراً سلكنا (مَحَجَّةَ الحَجَر) المرصوفة.. حتى (شرف تنومة).. أطللنا على هضبة خضراء منبسطة.. قرى متناثرة تحيطها خُضرة الحقول.. الأفق تملؤه الجبال.. أخيراً وصلنا إلى مَحَجَّة السروات مرة أخرى.. عبرنا سهلاً تحرثه النساءُ بالبَقَر.. وتسحبُ حبالَ السواني من الآبار.. انعطفنا نحوَ بلدة (تنومة) عند سفح جبل تسيل منه سيول الأمطار.. عبرنا سوقها.. لم نشاهد رجلاً قط.. نساء.. نساء في الشوارع.. في الحقول.. حتى سوقها لم نرَ فيها غيرَ النساء.. قضينا شطرَ النهار نجول بسوق البلدة.

تتأملنا النساءُ بحذَر.. لم يكن من صَوت غيرُ الهمس.. سألتنا إحدى النسوة إن كنا عابري سبيل.. نصحتنا بالاختباء.. أوْ التخفي بملابس نساء!. في أطراف السوق أمطرَتنا نبالٌ لم نرَ راميَها.. شَكّت إحداها عضلة ساقي اليمنى.. طُرحت أرضاً.. حملني رَفيقاي على ظهر دابة..

عرفنا أن حرباً بين بالحارث سُكان تنومة.. وبين أبناء عمومتهم بني اليسار تدور منذ سنين.. لذا يتخفى الرجال كنساء.

دَارَا باحثَين عن مُدَاوٍ.. أَوْ مأوىً في مقاهي السوق.. نصحتنا إحدى النساء بالاحتماء بجَبَل (منعا)المُطِل على المدينة.. سارا بي عبر وادي المطعن.. ليصعدا مرتفعاتِ الجبل.. لم تغرب الشمس إلا وقد أوصلاني كهفاً عاليا يسمونه كهَف (عكران).. أشعلوا النار.. لترتفع آلام مفاصلي.. كنت أقاوم بُرُودة عظامي.. تمنيتُ على جعدن كسرَ تلك النبلة.. وإخراجها من لحمِي.. رأيتُ دَمي يتجمع على حَجَر الأرض.. طلبت منه أن يناولني عوداً يحترق.. دَسَسْتُ جَمرة في ثقب جرحي.. رائحة شواء لحمي.. غرقت في بئر اللاوعي.

قال لي جعدن حين صحوتُ بأني تحدثتُ كثيراً.. أخاطب أمي والمعلم.. أَرتعشُ.. ويتفصَّدُ جسدي عَرَقاً.. وأني مددت يدي مغمض العينين لربط جرحي.. ثم تمددت أسرد لهم حكاياتٍ كثيرةً.. كُـلُّ ذَلك وأنا نائم.

لم أعد أحتمل كل ذلك العبث في دار المخطوطات.. أضحينا نجد الصناديق فارغة من مخطوطاتها.. يصادق الجميع على بيانات غير صحيحة.. نشمع القاعات نظير مبالغ.. واتتني فكرة أن أكون شجاعاً ولو لمرة واحدة.. أن أتحدث إلى إحدى الصحف لأكشف ما يدور دون مواربة.. أن أفضح الجميع.. قررت قبل ذلك إعادة مخطوطة ظلمة الله إلى داخل الدار.
قبل ذلك استنسختها نسخة ضوئية لأكمل قراءة ماتبقى.
في صباح اليوم التالي كنت أقف أمام ذلك الزميل الأمني مادا كفي بالمخطوطة وقد تخلصت من ملامح الانكسار.

مسجد البنات

قال لي بأني حكيتُ لهما طوالَ الوقت عن شَـوْذَب.. وعن رَبِّ أمي.. وإلهِ المعلم.. وعن رُوح اللـّـه المسافرةِ في أعقابِ الإمام الحُسَين.. أسمعني بعضَ ما حكيتُ، لكنه لم يذكر شيئاً عن تلك القرعاء. سألني:

– مَن أنت؟ كنت أظن بأني قد عرفتك؟!.

فقلتُ له وعيناي تتأملان سقفَ ذلك الكهف الكبير:

– كم تبقى لنا من طريق؟.

– إلى مكةَ؟.

– إلى معرفة الحقيقة!.

– أيَّة حقيقة؟.

– المعرفة الكاملة!.

ظن بأني لا أزال أَهذي.. تركني لنفسي.

يتركاني ليهبطا صباحاً بدوابهما، يعودن إليّ ليلا.. متنكرين يشعلان النار.. أتجاور وجعدن.. يحكي لي عما رآه هامساً: الناس هنا عشائرُ متناحرة.. الكل يتنكر خوف طعنة نصل.. أَوْ رمية سهم أَوْ ضربة فأس.. لا ترى غيرَ نساء يرعين.. ويحرثن.. لتكتشف بأنهن رجال.

قال بأنهما زارا اليومَ بلدة الأشجان وَتجولا في وُدْيَـانها نحيان والحراء.. وسمعا عن شيخهم ابن الحصين الذي يحشد رجالَه من بني عامر والسلامي.. لمواجَهة جابر الضحاك شيخ الجهوة وزنامة والعرق من عشائر بني ربيعة الأثلي.

لم يكن يعنيني حديثُ جعدن وما يواجهان من مخاطر أثناء بحثهما عن طرائدَ.. لكنه جرح ساقي ما يقلقني.. أقف متكئاً على جُدران الكهف.. أشعر بملل.. أخرج قليلا لجمع ما أستطيع جمعَه من أوراق وزهور السفوح.. أعود أتصفح الكتبَ المنسوخة بيَرَاع المعلم وشَـوْذَب.. تحلقُ رُؤْية تلك الحروف بعيداً.. تدمع عيناي.. أسال نفسي: لماذا لا أستقر في هذا الجَبل وأترك شقاء البحث؟!. فيه أشعر بالتوحد مع نفسي.. أتأمل عمقَ ذلك الكهف.. أعد مدادي.. أخرج يَراعي.. أقتل الوقتَ بنقش الجدران بالنقوش.. أرسُمُ كلَمات.. توسلات إلى مَن أبحثُ عنه.. على جدران الصوان.. إحساسٌ بأن أرْواحاً تجالسُني.. تمنحُني البهجة.. تعتني بجراحي.. تدعوني للخروج من الكهف.. تقودني لصعود قمة الجبل.. أصادف قبوراً من عدة طوابق.. بُنيت من الحَجَر المصقول.. راعيات غنم في الجوار.. أسحب ساقي أصعد إحدَى القمم العالية حيثُ تسكنُ

السحب.. أرى تحتي قُرَى الوادي ومزارعَه.. جبالاً عالية.

* * *

في أحد الأيام خُيِّلَ لي بأني أسمعُ عزفَ ناي.. في البدء ظننته صوتَ الريح الباردة، كان واضحاً.. خرجت من فم الكهف.. جلت بناظري.. وسط ضبابٍ يحجُبُ الرؤية.. صدح الصوتُ مرة أخرى بلَحن شَجي.. تبعت مسامعي.. انبثقت من غَبَش السحب غنمةٌ تقضُمُ نبْتَ الأرض.. ما لبثت أن رأيت أخريات.. ازداد صوتُ الناي اقتراباً.. تقدمت، كانت فتاة صغيرة تجالس السحاب.. انتفضت قافزةً فوق الصخور.. توقفت أَبتسمُ لها.. تذكرتُ أنها لا ترى وجهي.. تراجعت مذعورة، دست مزمارَها في رباط خاصرتها.. التقطت عدة حصوات تهم برجمي.. أشرت لأطمئنها.. ابتعدت تراقبُني. جاءت في اليوم التالي ومجموعة من الراعيات.. وقفن بباب الكهف وبأيديهن عصي.. كنت منهمكاً بتلوين نقوش الجدار.. جثوتُ على الأرض فزَعاً لمرآي عصيهن.. تدافعن باتجاهي.. لم أقوَ على النهوض.. حاولت تفاديَ عصيِّهن.. ضربات على ذراعي ورأسي.. وأضلعي.. زحفت للداخل، استنجدت بعُمق الكهف.. ضرباتُهن تلاحقني.. تركْنَني أنزفُ جراحي.. أنتحبُ ألماً.. لم أعد أرى ما حولي.. كنت أخافُ فقدانَ يراعي وكتبي.. مسحت عينَي.. لم ينصرفن.. ترمقني أكبرُهن والبقية يتأملن ما نقشته على الجُدران.. لا أفهمُ بما يتهامسن.. أكبرُهن عادت إليَّ.. وهي تهُزُّ عصاها:

- مَن أنت؟.

حين تأخر ردي.. انهالت عَلـيَّ ضرباً.. تصرُخ: من أَيِّ البلاد أنت؟!.

بصوت باكٍ "عابر سبيل" كنتُ أظنها ستتوقف حين تسمعني.. لكن عصاها استمرتْ تمطر جسدي ضربا من رأسي حتى ساقي رافعة صوتها:

- ما اسمُـكَ؟.

لم أتباطأ بالرد.

- جَـوْذَر!.

- جَـوْذَر.. من أَيِّ القبائل؟!.

- من صَـنْـعَـاء.. عابر سبيل.. أقصد مكة!.

توقفت عصيهن عن ضربي.. قالت وهي تركَعُ على ركبة واحدة.. متكئةً على عصاها.

- أتقصُـدُ مكةَ للحج؟.

- نعم!.

رفعت صوتَها تحدّثُ بقية زميلاتها:

- إنه من بلاد بعيدة.. يقصُدُ مكةَ للحج.. يا ويلـَنا.. لقد ظلمنا هذا الرجلَ وآذيناه.. مَن يغفر لنا فعلتنا؟!.

ولولت مزيلة تلك الرقاع عن رأسها.. تلتها الأخريات.. لأراهم جميعا فتياناً عدا راعية الأمس.. التي ترقب ما يدور بالقرب من فوهة الكهف كفتاة دون تنكر.

كسر ذلك الرجلُ عصاه على فخذه.. وقف بقية الفتيان واجمين.. جلس جواري.. التقط كفي يقبلها.. يمسح دماءَ وجهي وذراعي.. يطلب المسامحة.. وقف البقية حولنا.. أجهشت باكياً لتحولهم.. أغرقني إحساسٌ بالقهر.. تركني الجميعُ لم يعد غيرُ آلامي وعجزي.. أحسستُ براحةٍ بعد نوبة بكاء.. زحفت أتفقدُ أمتعتي.. وأشياءَ جعدن والنخاس.. كـُـلٌّ شيء في مكانه.

قضيتُ بقية ذلك النهارَ أتحسس جسدي.. أراجعُ ما حدث.. لم أفهم لماذا فعلوا بي ذلك.. لم يعد جعدن والنخاس في تلك الليلة.. صحَوتُ في اليوم التالي بآلامي.. كان جسمي مفككاً.. رأيتُ ناياً على صخرة قُرب فوهة الكهف.. إكليلاً من الزهر وخبزاً.. جالت عيناي في الأنحاء.. لا يوجد إلا ذراتُ السحب.. شجيراتٌ ندية.. لم أُجَرِّبْ العَزفَ منْ قبل.

عاد النخاسُ وجعدن ليلا.. أشعلا النار.. كنت متدثراً.. سألني جعدن عن حالي.. لم يكن يعلمُ ما أعانيه.. همس لي عن أسباب غيابهما الليلة الماضية.. ومن أنهما وجدا مبتغاهما.. حين وصلا الأشرافَ الغربية.. ليتسللوا شِعاب (الحيفة وغدانة ومبدى). عند أطراف سهول جبل (قريش.. والأربوعة).. وأنهما وجدا (قصبة) مهجورة يمكن استخدامُها لجمع ما يُستطاع جمعُه من نساء وصبيان.. ثم الرحيل بهم عن طريق

وادي ترج شرَقاً حتى النجود الشرقية.. أمسى يحكي حتى أسكته النوم.

* * *

صحوتُ وحيداً.. لم يعد من أحد.. رائحة الروث.. بياض الأفق.. جلستُ على آلامي.. تذكرت رُؤيا منام البارحة.. ثعبان أسود يملأ صخراً أملسَ.. لا أعرفُ تفسيرَ الأحلام.. نهضتُ أستند على الجدران ألوّنُ ما تبقى من نقوش.. وجدت نحتاً لحروف قديمة حاولتُ قراءتها:

"لمن طلل (بعكران) أَوْ (حفار)

عفته الريح بعدك والسواري

عفته الريح واعتلجت عليه

بأكدر من تراب القاع جار

.........."

انطمست بقية الكلمات.. لوَّنت ما استطعت قراءتَه.. وما قد خُدش منه تركته كما هو.. كنت أخرج أتوكأ على عصاي صباح كل يوم.. أرصُدُ ما حولي من شُجيرات وصُخور.. بحذَر أصعد عبر الجهة الغربية للجبل.. جرْفُ صخري عالٍ.. كأني رأيتُ ذلك الصخرَ الأملسَ.. حاولتُ التذكر أين.. أين؟!. صفحة الصخر سوداء.. كُـلُّ ما يحيط بي داكنٌ عدَا لون السحب.. ابتعدت باتجاه الغرب.. تعالت زقزقة العصافير.. ثَقَبَت الشمسُ السحُبَ لتعانق خيوطُها قمماً عالية.

بعد أيام عرفت طريقي إلى القمة.. رأيت صبية الأمس تسابق المرتفعات باتجاهي.. تملكني خوف.. فكرت أن أتوارى خلفَ الصخور.. أن أسلك طريقاً وأهرب.. لكنه ساقي الجريح.. رفعت كفها وهي تهرول.. عرفت ما تعنيه.. أخريات يظهرن.. وقفت أمامي مبتسمة.. كنت في حيرة من أمري.. أحطْـنَ بي.. وضعْنَ عصيَّهن جانباً.. يحملن أغصاناً مزهرة.. أشارت تلك الصبية أن أركعَ.. امتثلتُ لها مرعوباً.. أخذَت تمشط شعري.. تظفر الأغصانَ على رأسي.. أفكر فيما أنا فيه.. وأسأل نفسي: وماذا بعد؟!.. أمسكت بذراعي لأقف.. قالت مبتسمة:

– لقد وضعتُ لك ما يمكن أن يكونَ عربونَ غفران.. لقد أسأنا الظنَّ بك.. هناك قتالٌ منذ سنوات.. الرجال يقتلون الرجال.. والبعض يعتدي على النساء.. وتلك مَذَمَّـة.. حين رأيتك في ذلك اليوم ظننتك تريد الشرَّ بي.. لقد أخطأت.. أنت عابرُ سبيل.. لقد أسأنا إليك فهل غفرت فعلتنا؟. أتمنى أن لا تدعوَ علينا.

صمتت لتُخرجَ ناياً.. أغمضت عينيها تنفخ نغماً رقيقاً دون تقطيع.. أخرجت بقية الفتيات ناياتهن لينفخن نغمة موحدة.. أخرجُ نايي.. أنفخ نغمتهن.. ليتوقف نفخهن.. ولم يتوقف نايي.. وضعْنَ بين يدي خبزاً وفاكهة.. تقافزن كالفراش عبرَ تلك المنحدرات.. جسدي نفض الألم ولم يعد يشعر بأي غبن.

من تلك القمة العالية كنتُ أرى جبالاً بعيدة.. وُدْيـاناً تذهَبُ مشرقة.. وأخرى مغربة.. وسفوحاً تسيلُ فيها أغنامُ الرواعي.. قُرَىً وسُهُولاً..

غُوَيبات وشعاباً.. وأرى في الأفق البعيد صفحةَ ماء تلمع.. عرفت فيما بعد أنه البحر البعيد.

اخترتُ مكاناً مستوياً.. جمعت أحجاراً.. أخذت أرُصُّها جداراً اتقاءً لحرارة الشمس،والريح الباردة.. قُبَيلَ انقضاء النهار عُدت هابطاً باتجاه الكهف.. تلك الصبيَّـة ترعى أغنامَها بالجوار.. رفعت صوتَها حتى سمعته:

- رأيتُك ترفعُ جداراً في العالي.. هل تبني مسجداً؟!.

أشرت لها مبتسماً بهز رأسي علامة الموافقة.. ولا أدري كيف رأتني.. وكيفَ فكرت بأني أَبني مسجداً.. ولماذا وافقتها.

- سنأتي لمساعدتك إن أردت غداً.

كررت هَـزَّ رأسي بالموافقة.. لوّحت بيدها ثم أخذت بزَمِّ قطيعها حتى اختفت خلف المنحدرات.

تذكّرُني تلك الصبية بسن شـَوْذَب قبلَ دخولي ظلمة اللـّـه.. كانت في مثل حيويتها ونشاطها.

لم يعد جعدن ولا رفيقنا النخاس لعدة أيام.. صحوتُ في اليوم التالي على جلبة الصبايا.. وقفن خارج الكهف تقودُهن تلك الصبية.

في بهجة الصباح الباكر يأخذنني وأنا أحاولُ أتوكأ صعوداً.. تنتظرُني تلك الصبية تمد لي عصاها كي أمسكَ بطرفها لتسحبَني.. أَمُـرُّ من أمام

ذلك الجرف الصخري.. تذكرت حلمَ الثعبان الذي يتكررُ كـُـلَّ ليلة.. أسمع صوتَ الصبية:

- وماذا ستـُـسَـمِّــي مسجدَك؟.

- مسجدُ البنات!.

- بل سَــمِّــه باسمك.

كنت غير متأكد من اتجاه القبلة.. استشرتهن.. لم يأتِ منتصفُ ذلك النهار إلا وقد شيدنا جداراً أمامياً بمحراب صغير.. أياماً أخرى لم يعُد جعدن والنخاس، أكملنا جدرانه الأربعة بارتفاع بسيط.. لا أعلم من سيُصلي في ذلك المسجد القريب من السماء.. ولا لماذا وافقتهن على رَصِّ أحجار جدرانه.. متعة العمل والمشاركة ملأت نفسي.. تخلص جسمي من علله.

أصعَــدُ صباحَ كـُـلِّ يوم.. أسيرُ أمام ذلك الجرف الصخري.. أتذكر حُـلـمَ الثعبان.. أصعد إلَـى قمة الجبلِ.. أقضي أوقاتاً في ظلال جدرانه.. أفكر في وسيلة تُعينني على نقش الحُلم على الصخر الأملس.. تتخلل الريحُ الباردة فراغاتِ أحجار الجدران.. أدسُّ حصاً وأحجاراً صغيرة بينها.. تستمر الريح تتخلل الجدران.. أحفر حفرةً في قاعه.. أدس جسمي.. أشعر بسكينة.. أتأمل الأفق البعيد.. تطل عَـلـَيَّ تلك الصبية.. تتبعُها زميلاتُها.. تقول ضاحكة:

– بحثنا عنك في الكهف.. هذا خبزُك وقليلٌ من حليب أغنامنا كي تعيشَ .. فلا تحفر قبرك؟!.

أفزعني قولها.. أريد أن أقولَ لها ما هذا بمسجد.. ولا هذه الحُفرة قبراً.. لكن تساؤلها جعَلني في حيرة!.

– لِمَ تحفر قبرَك.. هل كرهت حياتك؟!.

ابتسمت ولا أدري ما أرُدُّ عليها.. اكتفيت بهز رأسي.

في اليوم التالي زارني رجلان.. تأملا الجدران.. حفرتي.. هيئتي.. قال أحدهما: ما يبقيك في قمة الجبل العالي وحيدا وسط هذه الريح الباردة؟. هززت رأسي صامتاً.. ثم قال لرفيقه هامساً: يتحدث الرعيان عن أنه من أهل اللـّـه.. وإلا لماذا يلجأ إلى هذا المكان القفر.. يرص أحجاراً لمسجد لن يصليَ فيه غيرُه.. ويحفر قبرَه بيده!. اكتفيا بما رأته عيونهما.. ثم عادا منحدرَين.

تقاطرَ عَلـيَّ في الأيام التالية نساءٌ ورجالٌ يتأملون المكان.. البعضُ يحادثني.. يتهامسون ويمضون عائدين.. يتركن خبزاً وسمناً وبَيضاً وأغصان رَيْـحَان.

أُجالسُ ليلي وحيداً.. أخاف أن لا يعودَ رفيقاي.. تذرف عيناي دموعاً وأنا أفكر في ماضي أيامي.. ولا أعرفُ لونَ غدي.. أسأل نفسي: هل ستشفى روحي من التفكير.. أناجي الفضاء: يا مَن لا أراك.. لماذا تـُـمْـعِـنُ في شقائي؟.. هذا أنا على سقف الدنيا.. فإن كنت كما قال

لي المعلم في السماء فهَا أنا قريب منك.. وإن كنت في الجلاميد والصخور فها أنا بجوارك.. وإن كنت ريحاً فها هي تهب عَلَيَّ من كُـل اتجاه.. أجبني لا أحد يسمعُنا.. لماذا جعلت ماضيَ أيامي شقاءً.. وقادمَها ضباباً؟.. هذا هو قلبي يُريدُ أن يظلَّ في هذا الجبل القَـصـيّ.. على هذه الصخور الصلبة فهل أطاوعه.. أم أرحل؟.. أشعر بأني ذَرَّةُ غبار تلعب بها الريح.. وَمْضَةُ ضوء تتبعثر.. أريد أن أسمعَ صوتَك.. أن ترشُدَني.. أوْ أن تكشِـفَ عن شقائي.. لا تعاملـني ككائن بين منزلتَين.. بين رب اليهود وإله المسلمين.. أيّاً كنت قريباً أو بعيداً.. ها أنا أرهفُ السمع!.

أظل أنظر في السماء.. أناجيه بأمل قانح.. أتلمس سحُباً تغمُـرُني.. أستمع إلى الرياحَ عَلـّها هو.. الشجيرات.. جلاميد الصخر.. أنتظر ظهوره.

* * *

حدثت الصبية عن رُؤيا تعاودني كُـلَّ ليلة.. قادتني إلى حيثُ جرف شاهق.. تستمعُ إليَّ وقد جلست وسَطَ صاحباتها الراعيات.. قالت لي: أنت تُجيدُ النقش!. هززت رأسي.. أتريد مساعدتنا؟. مسحت على رأسها وأنا أقول لها: صعب!. نهضت واقفة تُشيرُ إلى قمة الجرف: يمكنك أن تتدلى بحبال (نسع) جلد البقر المظفور.. ونأتي بأزميل ومطرقة.. سنجمعُ لك ما يكفي!.

صباحَ اليوم التالي كنتُ معلقاً بين السماء والأرض.. أَستنشقُ الريح..

أشعُـرُ بفرَح طائر.. أتذكرُ يومَ تعلقنا لنصعَـدَ الجبالَ العالية في حراز.. الصخرُ يَـلينُ لضرباتي.. بل إن الضربات تتحولُ إلى نغمات.. هزني ذلك كي أغني.. لم يكن أحد يسمعني.. فتلك الصبية ورفيقاتها في أعلى قمة الجرف.. وأنا في هاوية تتخلل روحي ألسنة السُحب.. سبعة أيام تُمَرْجِحُني الريحُ على صَفْحَة الصخر.. أكملتُ ما كنتُ أراه في حلمي.. قالت لي:

– كيف عرفت أن تفعلَ ذلك.. يرى الناس من قُراهم ثعباناً تحتضنه حية..

– أتكون هي أمه؟..

قلت لها:

– هذا ما رأيته في الحلم.

* * *

عاد جعدن في ذلك المساء متأخراً.. يحمل النخاس على أتانه.. تعاونا على إدخاله الكهف.. كان لونُ وجهه قد تبدل.. وجحُوظ عينَيه يتسع.. أشعلنا الحطب.

قال لي جعدن: كما ترى فقد إحدى عينيه وكُسرت أسنانه.. وعدة كسور في أطرافه.. وما جعله في حالته هذه كسرُ في ظهره.. لقد عبثوا (بمحاشمه) كادوا يقتلونه.. لولا شيخُ شمل تلك القرى الذي أمرهم

بالكف عن تعذيبه .. وهذا هو كما تراه لا يعي ما يدور حوله. كنا قد فزنا باختطاف بعض الصبايا والصبيان من جبل قريش.. وبعد أن اقتدناهم إلى قصبة مهجورة.. لم يكتفِ النخاس.. أرسلني لجلب المزيد.. وحين عدت كانت القصبة خاوية، تتبعت خبره في قرى مجاورة.

كنتُ مرعوباً مما أسمع وأرى، لم أكن قد حدثت جعدن بما لاقيته منذ وصولنا الجبل.. ولا يعرف بأني كدت أقتل ضرباً.. سألته:

– كيف أنقذته؟.

– امرأة مسنة.. يبدو أنها عرّافة العشيرة.. طلب منها الشيخ الرأيَ فنصحته أن يتخلصَ منه قبل أن يموتَ في داره.. فالدارُ الذي يموتُ فيها الغريبُ سيجلبُ له سوء الطالع.. فأمر مجموعة من رجاله بحمله إلى مشارف الوادي وإلقائه للضواري.. وعندما حل الليلُ حملته، وها هو كما تراه.

– ألم يلحظ قدومَــــك أحد؟.

– لم أقابلْ أحداً طوالَ طريق الليل.

– وما سنصنع به؟.. سنحمله في الصباح الباكر معنا.

– ألا ننتظر حتى يشفى؟.

– لو علموا بوجوده حياً معنا فلن يتركوا أحداً منا.

وَلِـيُّ الجبـل

في تلك الليلة حين عاد جعدن بجسد النخاس المثخن.. أخبرته بتردد الناس على الكهف والجبل أثناء غيابهما.. بُحْـتُ له بخوفي إن جاءوا الصباح، سيقتلوننا.

قضينا نتهامسُ جوار فراشه، بدأ يستعيد وعيه.. أطعمناه بعضَ الزاد.. استبشرنا خيراً بعودة عافيته.. رفعنا رأسَه ببعض المتاع.. أخذ يحدثُنا مبتسماً كما لو أنه لم يكن فاقداً للوعي.. قال يستذكرُ ماضيَ أيامه: يوم كنتُ صغيراً كان أبي يصطحبُني إلى مسجده.. يعلمُ الصغارَ حفظَ قصار السُّــوَر.. يصعدُ السطحَ مؤذناً.. يُقيمُ الصلاة.. يَؤُمُّ من يأتي من الناس ثم ننصرفُ عائدَين إلى منزلنا.. تأتيه النساءُ بالشكوى.. يكتُبُ رقي على رقاق الجلد.. أَوْ يُبَـخِّـرُ إحداهنٍ ويتلو ما تيسَّـر على أخرى.. مات أبي.. تفرق إخوتي.. وذهب كلٌ في حال سبيله.. بقيت أنا أمارسُ ما سمعته منه وما رأيتُه يفعل.. يقصُـدُني الناسُ من قُرَى لا أعرفُها.. لم أكن أصنعُ إلاَّ ما تتوقُ إليه نفوسُهم.

جاء مَن يدعوني إلى مجلس الداعي الصُّلَيحي.. زجرني عن مُمارسة كتابة الأَحْجِبَة والرُّقْي.. وفصد الدم.. كان ذلك في ستر دعوته.. عاهدتُه بأن أكتفيَ بتدريس الصغار والصلاة بالناس.. التزمتُ بعهدي له.. لكن النساء كُنَّ يتقاطرن والقليل من الرجال.. حدثتهم عن عهدي للداعي.. لكنهم كثيراً ما يلحُّـون أمام رَفضي.. وأنا على موقفي.. إلى ذلك اليوم الذي وصلني رجلٌ بابنته الشابة.. رفضتُ معالجتها.. ليتركَها وينصرف.. معلناً بأنه وهبها لوجه اللّـه..

قلده البعض.. تكاثرَ الواهبون.. شباباً وشابات.. مضيت إلى الداعي الصُّلَيحي أشكو إليه ضيقَ حالي وعدمَ قدرتي على إيوائهم وإطعامهم.. نفحني بالقليل من الطعام.. وأرسل مَن يقتاد إليه الفتيات والفتيان.. لم أعُد أَصُـدُّ أحداً.. ولم أكتفِ بالواهبين. استعنتُ بمَن يجلبُ لي صبايا وغلمانَ.. ليتسعَ نشاطي من صَـنْـعَـاءَ إلى مدن بعيدة في جزيرة اليمن.. ولم أعد أنتظر قدومَ المرضى.. سافرت إلى أسواق مكة.

صمَتَ ليدخلَ في نوبة سُعال شديدة.. دمعَت عيناه.. ظننتُ روحَه

اقتادوني في ليلة ليلاء.. وعلى طاولة ضابط التحقيق فُردت أمامي صفحات تلك الصحيفة التي نشرت أقوالي وصوري.. يسألني المحقق: هل هذه أقوالك؟
أودعوني سجناً غريباً.. عرفت فيما بعد بأنه كان داراً للإمام البدر.. في حارة البونية.. قريباً من ميدان التحرير.. سمحوا لأحد أقاربي بزيارتي.. وهو الذي جلب إلي النسخة الضوئية من المخطوطة بعد أن استلم عسكري الحراسة أتاوته.. لم أعد أعلم ما يدور خارج سجني.. واصلت قراءة ما تبقى لي من المخطوطة.

ستزهق.. نظر إليَّ مبتسماً وأخذ يهذي بكلمات غير مترابطة.. وأسماء وأحداث لم أسمعْ بها منْ قبلُ.. أوقفَت حديثَه نوبة سُعال أخرى.. ثم عاد صوتُه:

جلب لي المتعاونون في ليلة صَـنْـعَـانية عدداً من الفتيات والفتيان.. كانوا ينشطون في مواسم الحرب.. كانت بينهم فتاة فائقة الجمال.. لم تتوقف عيناها عن ذرف الدموع.. بعد تطويعها أرسلتها وخمسةً من الفتيان للداعي الصُّليحي.. الذي كان يعد الفتيان كمقاتلين ودُعاة للمذهب.. والفتيات كمحظيات.. لم تمضِ أشهرٌ حتى جاء من يبحث عنها.. وصل إليَّ.. لم يكن من عملنا إفشاءُ أسرار الجواري.. لجأ للصُّـليحي الذي كان يعرفه.. ليعودَ بها من الجبال العالية.. لم تنته قصتي مع تلك الفتاة، فقد وقعت بعد سنوات بين يدي مرة أخرى.. ومرة ثانية تكون من نصيب الداعي الصُّـليحي.. الذي أهداها لزوجته أسماء.. كان حينها يستعد لدخول صَـنْـعَـاءَ.. ومن يومها لم أعد أسمعُ عنها شيءٌ.. ربما تلك الفتاة هي مَن تبحث عنها؟.. فالبنات كُثر.

توقف النخاسُ عن الحديث ليدخُلَ في نوبة سُعال قطعت أنفاسَه.. ارتجفت أوصالُه.. وقال: أرجوك دفّـئـنْي أشعُرُ ببرد شديد.. عَـلـت هلوساته وهو يحلق بعينيه في فراغ الكهف.. قال: ألا ترَون وجوههن المعلقة.. إنهن ينظُـرن إليَّ.. لا تفارق عيونهن وجهي.. يجدف بكفيه في الهواء.. يصرخ عاليا: أبعدوهن عني.. أبعدوهن!. ليهدأ فجأةً.. ناظراً إلينا.. دمعت عيناه وهو يلتفت يحدثني: ربما تلك الفتاة لا تزالُ في مكة!.

صمت.. حاولت حثه على التذكر، لكنه دخل في نوبة هذيان، عاد يحاول الإمساك بأشباحٍ لا تُرى.. نواسيه ونشجعُه على تجاوز أزمته.. لا أعرف إنه كان يقصدُ شـوْذَب.. أم أنه هذيان الاحتضار؟.. هل يرى مَلَكَ الموت حقاً؟. لم تدم تلك اليقظة كثيراً.. فقد جحظت عيناه وغلفه الصمت.. تحشرج حلقه ببَـلـغـم طفح من فمه.. حاولنا رفعَ رأسه من جديد.. اجتاحت أطرافَه رعشة مُخيفة.. ليُصدر أصوات غيرَ واضحة.. وسكنت أنفاسُه بعد معاناة.. ارتخى فكه.. سال منه بلغَمٌ لَزِجٌ.. عيناه تنظران إلى البعيد.. البعيد.

للحظات كنا مصدومين.. ننظر ببلاهة إلى ذلك المسجَّى.. إحباط يزلزل كياني وأنا أتخيل شمسَ النهار.. تلك الصبية.. رفيقاتها.. أناس ينظرون إلينا.. هل نتركه، كما هو، مُمدداً ونرحل.. أم ندخله في عُمق الكهف هناك حيث تقف الأتان ويبرك الجمل ونهيل عليه تراباً؟

لم يكن صوتُ مساعدي الذي تعودت سماعَه.. سمعت للتو صوتاً مشروخاً بالفاجعة:

- أين ندفنه؟.

ألتفتُ لم أرَ وجهَه.. لهب الجمر خبا.. هناك ظهر بدرٌ من أفق بعيد.. خلتُه قريباً.. سناءٌ فضيٌّ تسرب إلى أرواحنا.. انتبهت إلى ذلك الكون الفسيح.. النجوم.. السواد اللا متناه.. صرير الجدجد الحزين.. تذكرت حُفرتي بمسجد البنات أعلى الجبال.. تلك التي كنت أخبئ فيها جسمي من الريح.. خفق قلبي:

- سندفنه في أعلى الجبل!.

- أين.. لماذا أعلى الجبل؟!.

- هناك حُفرة .. هيا فلنحمله إليها!.

صرير لا يهدأ يتخلله وقعُ خطانا.. ضاع معالم ما حولي.. لم أعد أميز مواطن أقدامي.. كان ثقيلاً.. لم أعد أميز الطريق.. عواء ذئاب تقترب.. خوف من شمس تشرق.. تهنا لنهتدي إلى القمة.. لم تكن الحفرة كافية.. أجلسناه القرفصاء.. غطينا رأسه في البدء بأعشاب وحشائش الجبل.. ثم وضعنا عليه تراباً وأحجاراً مسطحة.. وقفت بعد أن انتهينا، أرى الوجودَ مختلفاً عن أيامَي الماضية.

أشعرُ بأني تركت مخلصي هناك.. كيف لقاء اللـّـه أَوْ الرب وجهاً لوجه؟. أتأمل شبحَ جعدن.. هل به حزن مثلي؟!. هو لا يشبهني في شيء.. روحه.. همومه.. قامته.. ملامحه.. لحيته دائمة الجَـزِّ.. شعَرُ رأسه بالكاد يصل إلى كتفيه.. وجهُه يشبهُ وجوهَ سكان هذه البلاد في استدارته.. ممتلئ الجسم بعضَ الشيء.. هو المبادرُ للحديث دوماً.. يواجه الأمورَ بعفوية.. أمسك بذراعي هاتفا: أشهد الله وملائكته.. سامحته من قلبي فليرحمه الكريم. كلماته نكأت جراحي.. تذكرت بأني اليوم ضائع.. فها هو آخر خيط يتأرجح بدفنه.. وهَـا أنا أعيش دونَ معنىً.. صوتَ جعدن يهمهمُ بالغناء ونحن تهبط.

"سيره دلا يا نجوم الليل سيره دلا.... سيره على وجه بقعا مثل قبض الهواء"

انتشلني صوته.. شعرت بأنه يحس ما يجول بخاطري.

لم يكن ذلك النخاسُ رفيقاً معنا.. خلالَ أيامنا معه.. لم يكن يُكثرُ الحديثَ إلينا.. بل إنه كان يُجيدُ معامَلة السيد للعبيد.. وكنت أنا مسروراً بذلك.. لا أريد أن يبسط حديثه.. أَوْ أن يُجبرَني على التودد إليه.. لا أريد أيَّة علاقة تقودُ إلى صداقة.. حتى أني كنت أخشى أن يسمعَ مهامستي وجعدن.. ولذلك انقطعت عن الحديث أمامه إلا ما نَدر.. كنت أتشوق ليوم فراقه واللحظة أكتشف بأن الدنيا أوسع من رؤيتي لها.. وأنني كنت مخطئاً.. وأنَّ بداخل كلٍّ منا عذاباته.. وإنسانيتَه.. وهمومَه التي لو أسمعها كل منا للآخر لتقاربت الأرواح.. لماذا لم يتحدث برقَّة إلا حين اقترب منه مَلَكُ الموت؟. ليالي قضيناها معاً.. لماذا لم يدفعْه مَلَكُ الموت للتحنن علينا بحكاياته.. كم كنت مشتاقاً لحكايات ضحاياه.. حكايته مع الصُّليحي.. إلى تلك المشاعر التي كانت تعصفُ به.

* * *

وَجدنا القليلَ من المال مخبأً بين أمتعته.. ما أن عدنا للكهف، حتى أدركنا بأن الفجر اقترب.. غادرناه بدوابنا خوف أن يدركنا أحدهم.. هبطنا طريقَ جبل (منعا) ولا زال البدر يرسلُ سناه.. وصلنا إلى الأرض المنبسطة والشمس تزهر من أُفُقها.. وطأت أقدامُنا المحَجَّة والخوف من احتمال ملاحقتنا.. حاذينا بحذر عدة قرى باتجاه مكة.. انتصفَ النهار وقد ابتعدنا.. صعدنا جبل (الظهارة).. نبتعد عمن يكتشف سرنا.. صعدناه بمشقة.. وقفنا للاستراحة.. رأينا قمة جبل منعا حيث تركنا

النخاس في حفرته جالساً.. خـُـيِّــلَ إلينا غبار وبشَر يزحفون باتجاهنا.. غاب عنا المشهدُ بعد أن بدأنا بالهبوط في منحدرات شمالية.. قُبَيلَ مغيب الشمس كنا قد وصلنا مدينة (الجهوة).. أخذنا رُكناً في نُزُل.. غطاني النوم بردائه الثقيل.. قبيل طلوع الشمس أيقضنا همس المسافرين وحركة دوابهم داخل النزل.. سمعنا أحدهم يتحدث بأن جماعة يبحثون عن لصوص صبيان.. أدركنا بأن الخطر يتعقبنا.. تسللنا خفية.. عبرنا السوق.. انضممنا إلى قافلة لتجار يَـهُـود.. تحمل جلودَ وحبوب وزبيبَ.. ومنسوجاتِ الكتـّـان.. سرنا معهم في مَحَجّة صخرية وعرة ووُدْيَـان عميقة.. أنخنا في أرض مكشوفة تحيطها الجبالُ جوارَ بئر ماء.. شكلنا دائرةً كبيرةً.

* * *

تكاثرت غيماتُ السماء.. تعالى هزيع الرعود.. هطل المطر في تلك اللحظات غزيراً.. هرب الرُّعاة بأغنامهم وإبلهم ودوابهم، تبعهم بقية القوم نساءً ورجالاً.. يحملون أمتعتَهم.. اتجهنا نحوَ سفح جبل.. عدة كهوف تسكنها عشيرة متنقلة من بني مالك.. بتنا ليلتَنا في كهف مرتفع عن مجرى السيول وبات مَن كانوا في الوادي وعدد من المسافرين في كهوف مجاورة.. ما أن توقف المطرُ حتى سمعنا هديرَ السيل.. خرج بعضُ مَن في الكهوف أشعلوا النارَ على رابية.. خرجنا في حذر وترقب.. رقص الفتيانُ والفتياتُ في حلقات النار.

في الأيام التالية اجتزنا شِعابَ وادي (ترج).. نهرب وسط أشجار

كثيفة.. وأصوات متداخلة لطيور على الأشجار لا تُرى.. عبرنا واديَ (أيد) ومحطتي (الباحة والخضراء) حتى محطة (الحلباء).. تسعة أيام من الهروب المتواصل.. حتى بدأنا نهبط جبالاً ووهاداً.. ليزدادَ الجو سخونةً وجفافاً.. يتكاثر المسافرون على المَحَجَّة يـوْماً بعد يوم.. ويزداد شعورُنا بالخوف ممن يتعقبوننا.. لنرتفعَ من وُديان عميقة.. ينتشرُ في سفوح جبالها قطعانُ الغنم.. في بداية إحدى الليالي تهادت أصواتٌ رقيقة تغني من ظلمة الجبال.. خرج من دائرتنا فتى باتجاه الأصوات.. تبعه عدةُ فتيان.. ارتفعت أصواتهم بالغناء يناجون الظلام.. رددت الجبال بأكثر من صوت ليشتعل الليلُ بالأغاني.. أصوات لونت سواد الليل حياةً وشجناً.. كان سكان الجبال قد خرجوا من كهوفهم لجمع الجراد الهابط في تلك الأودية والمرتفعات.. قبيل الفجر حصلنا على حصتنا منها أكياساً.. مؤنة الأيام القادمة.. أكلنا وجبة مشبعة.. وحملنا البقية لوجباتنا القادمة.

أُحَدِّثُ نفسي :هل سأجدُ من أبحثُ عنه في مكةَ؟.. هل يجده كل حاج.. بعد أن اقتربنا.. عبرنا أوديةً خصبةً ومرتفعاتٍ حاجزةً جافةً.. زاد الشعور بالأمان حين وصلنا قرى الحجاز.. بعد اجتيازنا لمحطات: (الزاهرة).. (رغدان) من بلاد (غامد) و(مشنية.. ورحرح) من زهران و(السرار.. ومخرة.. وجدارة.. والعباسة).. في ثقيف لندخل مدينة (الطائف) حيثُ كانت آخر محطة للتجار اليَهُود الذين انضممنا إلى قافلتهم.. رحلنا بمعية قافلة أخرى قُبيلَ الفجر من الطائف.. على مَحَجّـة تخللت واديَ محرم الخصيب الذي تجري فيه مياه غزيرة.. فيها استبدلت وجعدن ملابسَنا الجلدية بقطعتين من الصوف الأبيض وأضحينا محرمين..

لنصعد جبلَ قورة الوَعر ثم نهبط في منعطفات شديدة الانحدار بأراضي (هُذيل).. حيث تهيم كلابٌ شرسة.. كادت تفتك بدوابنا.. طاردتنا حتى قاع مجرى سَيل حصوي.. استرحنا تحت سيقان أشجار جافة من حرارة الشمس.. كانت برك الأمطار في كـُـلّ مكان وأخاديد السيول في قلب الأرض الرملية.. لنسير حتى جبل عَرَفات ووادي مِنَى.. ملأنا قِربَنا ماءً من قناة مكشوفة يأتي ماؤُها من عين النومان بجبل قورة.

ظهرت لنا أطرافُ مكة في منتصف النهار.. خفق قلبي.. تنهدت أخيراً ابتعدنا واقتربنا.. فاضت الدموعُ من مآقي عيني.. هذا أنا فهل سأجد ما أبحث عنه.. هل أجد الحقيقة التي أحلم بلقياها.. اليقين الذي لا يوازيه إيمان.. يقين لا تداريه المبررات أو المسوغات.. يقين أمي والمعلم بما يعبدون.

شيءٌ ما يسكنني منذ تركنا ذلك النخاس في سكينة الجبل.. وها هو التعب يستبد بي والإعياء يزيدني وهناً فوق ألآم ساقي المعطوبة وبقايا جراح عانتي.. صوته يلاحقني.. أسأل نفسي: هل ما سمعته منه هذيانَ الاحتضار؟.. لكن صوته كان مرحاً وحميماً على غير عادته.. أم أنها روح تحدثت بلسانه؟.. سأُخلَقُ من جديد.. وشـَـوْذَب تُخلَقُ من جديد إن كان صادقاً.. أسيرُ تحملني روحٌ تعشقُ الأمل الذي زرعه فيَّ قانح.. أبحث عن اليقين.. الروح التي يعتقد الناسُ معرفتها.. وأنها ترعى كـُـلّ الوجود.. تحمي كـُـلّ شيء!. لقد أحسست بأنها في صمت ذلك الجبل الذي يسكنه النخاس!. وأنا أبحث عنها أحلم أن أقابلَها يـَـوْماً ما وجهاً

لوجه.. أن أراها.. أسمعها وتسمعني.. أم أنها ستسخر مني.. وتمرح وتعبث بي؟!. مثلما هي الآن تشقيني.. ودوما يستبد بي سؤال: هل الإدراكُ طريق الشقاء.. أم أن إثباتَ وجوده الإمعان في عذاب أرواحنا؟!. سأبحَثُ عن إله أَوْ رَبٍّ أدواتــه العطف والسلام.. يحتويني بفيضه.. يُلبي مناجاتي.. أدعوه فيهب لنجدتي.

* * *

رأيتُ مَكَّــةَ جَنيناً تحتضنه جبالٌ جدباءُ موحشة.. شبيهة بقبر مُحكَم.. دخلنا شوارعَ موحلة.. يتلفت قلبي وسط مبان بائسة.. أنيخت الجمالُ في ساحة المسجد الواسعة.. رأينا بيتاً مجللاً بخرق حمراء.. أسرعت روحي تجوب الأنحاء.. تبحث في الأرجاء.. نصادف من يَعرِضون خدماتِهم علينا.. اتبعنا أحدهم يطوف مهللاً حول الكعبة وسطَ ميدان بيضاوي.. أشار علينا أن نرددَ وراءَه ما لم أفهم.. ثم خــرَّ ساجداً.. متمسحاً بكسوتها الحمراء.. يقبلُ حَجَراً ليلياً.. يمُــدُّ يدَه ليُلامسَ حجرَ الرُّكن قيل لنا بأنه اليماني.. ثم يهرول بنا حوله من جديد مردداً أدعية.. نحاول اللحاقَ به على أرضية مُشبَّعة برطوبة التراب.. يهرول أناسٌ حولها.. بعضُهم أنصاف عُراة والبعض كما خُلق.. الكثرة يمتطون دواب.. لا أعرف هل كان يدعو أم يلهج كالمسحور؟.. ليقف باتجاهها صارخاً ماداً كفه نحو السماء.

لم ينتهِ بنا ذلك الرجل.. بل سار بنا متجاوزاً دكاكين صغيرة في محيط المسجد.. وعدة منازل.. لنخرُجَ من باب فاغرٍ فمه.. يصعَـدُ بنا عدة

درجات.. أناسٌ كثر يسعَون راجلين وآخرون يركبون الدواب بين صَفي حوانيت.. حيث يعرضون سلعهم عند أقدامنا.. عرفتُ فيما بعدُ بأنه شارع الصفا والمروة.. جحافل المتسولة تطاردنا.. أحدُهم يقف بمقصه.. يعرض خدمته بقصِّ شعري.. فزعت هارباً.. أعلنَ لنا ذلك الرجلُ نهاية مهمته.. دفعناه بالقليل من الجراد المشوي.

أجلسُ متكئاً على أحد الجُدران أمامَ الركن اليماني فلا أحد.. الليل يقترب.. أراقبُ ميدان المسجد.. أنتظر رؤيةَ أحد رفاقنا حسب وعد المقدمي.. قضينا الليل ننتظر والحركة لا تهدأ.. نهار أول يوم.. لا أحد يظهر، ذاك هو بيت الله فمن يفتح لنا؟. وتلك دوائرُ الناس حوله فأين مَن أبحث عنه؟. هل يُـقيم بالداخل؟. أم هو بالخارج وسط الجموع !! كيف أستدل عليه وها أنا أمام بيته.. أم أنه كـُـلُّ ما أرى؟!.

قصر مكة

أمامَ ذلك الرُّكن مكثتُ ليالِيَ وأياماً.. أسيرُ متنقلاً فوق أرصفة الميدان المحيط ببيته المجلل بالحمرة.. أمامَ صفوف الأعمدة.. أهبط درجاتِ بئر زمزم مع العراة.. أغتسلُ ليلاً.. أعودُ لمراقبَة الأمكنة من أمام الركن.. كَنت في حيرة من أمري.. أسأل نفسي إلى متى أنتظر ولا أحد يظهر؟

يعود جعدن من إحدى جولاته حيث يذهبُ ليعتنيَ ببهائمنا.. هامساً في أذني: لقد قُتل الملك الصُّـلَـيْحـي!!. تحجر لساني بعد سماع جعدن.. ينقلني الخبرُ إلى صَـنْـعَـاء.. بعد أَن كان ذهني منشغلاً بالبحث عنه هُنا.. جمعت أفكاري أحاول الخروجَ من كابوس ما سمعت.. قال: التقيت اليوم بأحد عسكر رحلتنا متخفياً.. وأخبرني بذلك.. قال لي بأنه يتخفى من عَسَس الشريف الذين يبحثون عن كل من له صله ببعثة مولانا الملك.. ويلاحقون من لا يزالون على قيد الحياة.

تمنيت لو أن الأمرَ مزحة.. تابع جعدن همسَه: احتفى بهم الشريفُ في الأيام الأولى لوُصُولهم.. لينقلبَ عليهم بعد أن وصله الخبر.. أرسل

من يأمر بإخلاء قصر مولانا.. وحين رجع رُسُله خائبين أمر عسكرَه باقتياد جميع مَن في القصر إلى سجونه.. قاوموا بشدة.. بعدها فرضوا عليهم حصاراً بداخل القصر.. لكنهم دافعوا من خلف الأبوابِ ورفضوا إخلاءَه.. فلجأ عسكرُ الشريف إلى حرق بوابات سوره واقتحامه.. ليفر معظمُ من في الداخل، متجاوزين الأسوار.. كنت واحداً من الفارين.. اقتادوا من وجدوا بداخله إلى شارع الصفا.. يتقدمُهم (المقدمي) مسحوباً. أوثقوهم إلى عمود وسط الميدان وباشر عسكر الشريف بسلخ جلودهم أحياء.. ثم ثـُقبت أذرُعُهم وأكتافُهم وسيقانهم.. لتُحشرَ فتايل في جروحهم.. ويُعلقوا بخطاطيف من أرجلهم.. ثم أشعلوا تلك الفتايل.. وتركوهم معلقين يحترقون حتى فاضت أرواحهم إلى باريها.. فُقئت أعينُ العجائز من العبيد والإماء ليتركوهم يتسولون الطرقَات.. كل ذلك أمام تجمع الناس هنا في ميدان المسجد.. لتضُم الشابات إلى إماء الشريف.

دخل الشريفُ القصر بعد أيام.. وأمر عسَسَه بملاحَقة مَن فروا.

هرب من مكة كـُـلُّ مَن فر من القصر.. ولم يعُد غيرُ رفيقنا الذي أخبرني بالخبر كذلك من فُقئت عيونهم.

كلماتـُه شكلت شعوراً أسوداً جثم على أنفاسي.. شعرت بأن عقلي يتخلى عني.. لم يكن في الأمر مُزحة.. أرى كـُـلَّ شيء ينهار.. رزحت تحت ثقل لساني أنظر إلى ذلك المتحدث ببَلاهة.. تركني أغرقُ بأحزاني.. كنت قد تخيلت صُوَراً أنقشها في قصر لم يعد من الممكن دخولـُه.. حروفاً رأيتُها في منامي تتوهج.. ألواناً تصورت بريقها.. خلتنا نستقبل

مولانا الأجل.. أسمع كلماته حول ما صنعت على جدران قصر مكة.. لنرحلَ بمعيته إلى مصر.

في تلك اللحظة سمعت صوت المقدمي شمس الدين وهو يجلس متحدثاً في صعدة، يشحذ هممنا على التعاون والتكاتف في سبيل إنجاز ما أوكل إلى بعثتنا.. يرفع كفه مشيرا بسبابته بكبرياء متحدثا عن فضائل مولانا الأجل.. وفتوحاته الكبرى لجمع شمل جزيرة اليمن.

كنت حزينا وأنا أتصور تلك الطاقة التي يحملها كل منا وكيف تتحول إلى قدرة على البطش والقسوة والتنكيل بعد أن كانت طاقة كامنة بسلام في أرواحنا.. كيف لا تظل ساكنة ولا تخرج إلا للمحبة فحسب.

ماذا لو لم يصل خبر مقتل مولانا الأجل إلى مسامع الشريف؟. بمن كانت تلك القدرة ستبطش إذا كان ولا بد من ظهورها؟

جبالُ مكة لا تحمل الحياة.. عشتُ أيامَ الطريق بأحلام أنقُشُها وألونها على جدران عقلي.. أحمل من جبال صنعاء خفة السحب.. ومن السروات أكاليل الصبيان وكحلهم.. أين أضعُ حمولتي الآن؟. وها أنا غريبٌ في مدينة غريبة!.

قلتُ لجعدن: لم يعُد من سبب يُبقينا في مكةَ.. رد مُتعللاً برغبته بالحج.. حين قلتُ له:

– اعطني سبباً واحداً يجعلني أَحُجُّ لتلك الجبال.. أَوْ أتوجه بصلواتي إليها .. فمن أين أجد سلوتي؟

– إن لم ترَ ذلك بقلبك فلا يستطيع أحد أن يقنعك.

– لكن قلبي لم يجد ما أبحث عنه!

– لا أريد أن أقول بأن قلبك ضال.. أو أعمى.. كيف يراه كل هؤلاء البشر وأنت لا تراه؟

– أدعوك ياجعدن للرحيل.

– لدي ما يبقيك في مكة.. لدي تتمة الحكاية؟!.

– حكاية مَــن؟.

– حكاية قالها لي رفيقُــنا الشريد.

– ماذا قال لك؟.

– قال لي بأن هناك عدَّةَ جوارٍ استبقاهن الشريفُ لخدمته.

– وماذا في الأمر؟.

– مِن بين تلك الجواري.. جارية بيضاء.

– فليكُن!.

– وإن كانت من بينهن شوذب!.

شَـوْذَب.. شو... لم أكمل حروفَ كلماتي.. أمسكت بمعصمه.. رَجَوته أن يقولَ الصدق.. أحاول استيعابَ ما أنا فيه.. شَـوْذَب في هذه البلاد الموحشة؟! إذن كان النخاس صادقاً و لم يكن يهذي.

كدت أرتكبُ حماقةً حين فكرت بالرحيل.. رُوحٌ خفية تسخرُ مني.. وأجزم بأن حياتي عنقود وَهْم.. وأن عَلَيَّ أن أجدَ طريقَ تلك الروح.. أن أتصالحَ معها.. أتخلصَ من شقاء يُلازمُني.

استطاع جعدن ترويضَ حماقتي.. ففي تلك الليلة تمددنا متجاورَين.. لم تكن لدي رغبة في الحديث ،حاول جعدن فتحَ شهيتي.. قال وهو يمسك بأصابعي: لِمَ تسألني حين أخرُجُ من هنا أين أقضي وقتي؟.. قد تظنني أقضي كُلَّ وقتي بالاهتمام بالبهيمة.. إنني أذهب أهيم في أسواقها.. وتلك الأزقة.. أتمناك مشاركتي سحرَها.. هي ليست كصَنْعَاءَ.. لكل مدينة قبحُها وروحُها.. هي ليست الكعبة ولا تلك الوجوه المتعبدة.. أَوْ الجبال المتجهمة.. ولا المباني أَوْ الساحات والأزقة الموحلة.. ولا القادمين من كُلِّ عرق.. فقط أدعوك للإحساس بجوهرها الذي لا يكتشفه إلا من سار في دروبها.. ولذلك أرجو التريُّثَ.. وأتمنى أن لا تتخذ قراراً تندمُ عليه.. لا ضَيْرَ من البقاء لأيام.. فكر.. فقط سأتركك مع قلبك.. سحب يديه وترك أصابع يدي.

تمنيت في تلك الليلة لو أنه اقترب أكثر.. لأبوحَ بما يعتمل من اضطراب في نفسي.. حاولت أن ألمس كفه.. لكنه سحبه مذعورا.. انكفأت على نفسي بعد أن جَفَاني النوم.. أسمع أصواتَ المتعبدين.. أأتنفسُ هواءً تنفسته شَوْذَب؟. وهل صوتها يعيشُ بين هذه الجبال.. اختلط الشك باليقين بالحلم.. أريد إزالة الشك.. ما عِشته يَوْماً مع شوذب هل كان حقيقة.

كانت الخطبة في المسجد للشريف والعباسيين في بغداد منذ وصلت مكة.. بعد أن كانت بالأمس لمولانا الصُّـلَـيْـحِـي.. ولأمير المؤمنين المستنصر باللـّـه الفاطمي.

قال لي جعدن بأنه يخرج ليتتبع الأخبار.. يبحث عن بصيص أمل.. وأن الجواري الهاربات يتماهين بين الناس، فمكة متاهة كبيرة.. والنساء في هذه المدينة مطلوباتٌ خاصة الحسناوات.. فدوامة الرق والدعارة تبتلعُ كل شيء.. وأن شَـوْذَب ستكون في مأمن إن لجأت إلى أطراف مكة.. فهناك تضعُـفُ سطوة العسس.. لتتحول تلك الأحياء إلى قاع للمدينة.. حيث مجتمعُ البدو والخمور والحشيش والدعارة.. والموت.. ونصحنا إن بدأنا البحث عنها أن نتحركَ بحذر.. وأن لا نبوحَ لأيٍّ من نكون.. فقد يعرف العسسُ بأنـّـا ضمن بعثة مولانا الصُّـلَـيْـحِـي.. وهنا نكون لقمة سائغة.. وعسس الشريف لا تُبقي ولا تذر.

حين أفكر بشَـوْذَب أشعر بأني أمام كائن هُلامي.. كائن يتسرَّبُ كما الضوء.

في ذلك المساء عقدت العزمَ على أن أظل في مكة لأبحث عما يشقيني.. لم أنـَمْ ليلتها حتى سمعت صوتَ مؤذن الفجر الشافعي.. نهضت.. هبطت درجاتِ زمزم.. غمست شعري.. جلدي.. خرجت أسير حول أرصفة الكعبة.. ومن زاوية إلى أخرى.. أبلل حَصَى الأرض.. أستعيدُ كلمات جعدن.. صوته المتغير.. لا أعرف من أين أبدأ.. كنت في شوق لرؤية ذلك القصر الذي كنتُ يـوْماً سأنقشُ جُدرانَ قاعاته.

خرجنا نسألُ عن الطريق إلى القصر الكبير.. أُشار علينا جماعة كانوا في الساحة الأمامية بالسير جنوباً.. قالوا لنا: اسلكوا حارة الشبيكة وحارة المسفلة.. ستجدون قبة بيضاء كبيرة لمقام سيدنا عُمَـرَ بالقرب من الخندرية.. اعبُروا الشوارع شرقاً.. سرنا نسأل كما وصف لنا.. صعدنا مرتفعاتِ شرقي المسفلة.. خالية من الحياة.. ألوانها قاتمة.. قلعة تصطدم بها ريحٌ ساخنة على تل.. خلفها قصر كبير على سهل منبسط.. يمتد إلَـى سُفوح جبال أكثر ارتفاعاً.. كان أناسٌ كثر في حركة دائمة.. بوابته مزدحمة.. خندق يربطه بالقلعة.. اختبأنا نراقبُ من على تلك المرتفعات.. يحل سكونٌ مهيب.. خوفٌ من شيء لا يُرى.. فضلنا السلامة والعودة من حيث أتينا.. قصرٌ غارقٌ في ذاكرتي.. مرتفعات جرداء كئيبة تحتل ناظري.. أتخيلُ حصارَهم.. فرارَهم من على تلك الأسوار العالية.. لماذا اختار مولانا الصُّـلَـيْـحِـي هذا المكان العالي؟.

* * *

في طريق عودتنا بَـدَت لي مكة أكثَر أُلفة.. الجبال تلتحم بالأحياء.. تتمدد مساكنها تختلط.. هبطنا أطرافَ المسفلة.. عبرنا الأزقة التي جئنا منها.. أزقة الشبيكة.. الخندرية في الطرف الغربي.. مدافن صحابة محمد النبي.. في طرف المقبرة نساء يقفن أمام أبواب أكواخ يراقبن سيرَنا.. ابتعدنا شمالاً.. إحداهن تقدمت نحونا تشير علينا بالتوقف:

– عَـمَّ تبحثان؟.

كانت في العقد الرابع على ما يبدو.. وجهُها ذو ملامح مألوفة.. كفها الذي يخفي نصفَ وجهها مخضبٌ بالحناء.. تعجبت من جُرأتها.. همس جعدن وهو مبتسماً: قد تكون شحاذة!.

ليرد عليها ساخراً:

– وماذا تريدِين أنتِ منا؟.

– لا شيءَ.. فقط إن كنتم تبحثون عن شيء يمكننا مساعدتكم!.

كان في صوتها انكسار.. وقد صدمها جعدن بسؤاله.. النساء لا يزلن هناك أمام الأكواخ يرقُـبْننا.. قال لها مواصلاً سُخريته:

– نبحث عن فتاة !.

– وما نحنُ هنا إلا للمساعدة.. اتبعاني!!.

ترددتُ وأنا أمسك بيد جعدن.. بينما هي تلوحُ للنساء الواقفات بمحاذاة الأكواخ.. سارت نحوهن.. سمعت إحداهن تقول لها: سَبعٌ أم ضبع؟. ردت بصوت مغناج: بل سَبع. كنت في حيرة.. حين أخذ مساعدي يحثني:

– هيا.. لن نخسَـرَ شيئاً!.

– أيُعقل أن تدُلـَّـنا هذه المرأة؟!.

– يضع سره في أضعف خلقه.

نساء مسنات.. وأخريات شابات.. البعض يحملن أطفالاً.. وأُخريات بين أيديهن أوانٍ فخارية.. سرنا وسط عَفَن الوحل والمخلفات.. أدخلتنا كوخاً مرتباً بفراشٍ نظيف.. وجدران دون نوافذ.. أجلستنا متجاورين.. كنت أسمع جلبة أطفال ونساء خارجِ الكوخ.. قدمت لنا الماء وحبات التمر.. ثم خرجت لتعودَ مبتسمة جذلاً.. هدأت جلبة الخارج.. جلسَتْ إلينا وقد أشرق وجهُها:

– أتبحثان عن امرأة.. أم امرأتين؟!.

رد عليها رفيقي وهو ينقل ناظرَيه بين عيني ووجهها:

– امرأة واحدة.. واسمُـها شَـوْذَب!.

– ليست مهمة الأسماء لدينا.. وإن كنتما مصممين يمكن أن آتيكم بشَـوْذَبات.. الأهم أن تكون فاتنة.. كما قلت أليس كذلك؟!.

– حسناء!.

– حسناء أَوْ فاتنة لا فرق.

تبين لي أن في الأمر لبساً.. خرجت لتدخل علينا امرأةٌ هرمة يتبعُها طفلان.. رحبت بنا.. جلست في الجانب المقابل.. ترمُقُنا بابتسامة امرأة مستهلكة.. تناغي طفلةً بين يديها.. تنظر إلينا.. ترفعُها في الهواء.. ثم تدس خشمَها بين فخذيها وتارة تقبل سُرتها.. لتنخرطَ تلك الطفلة في نوبة من الضحك.. وما إن تهدأ حتى تكررَ تلك القبُلَ في أماكنها الحساسة.. قال لها جعدن:

- ستقتلين الطفلة دغدغة.. كثرةُ الضحك يُميتُ القلب!.

- إن توقفت عن دغدغتها تبكي!.

- دغدغيها في أماكنَ أخرى.

- هي بنتٌ والبنتُ تحبُّ أن تدغدغ هناك!.

- والولد؟.

ابتسمت وهي تضعُ الطفلة جانباً.. لتحمل الطفل.. تدغدغة كما كانت تداعبُ الطفلة.. تدُسُّ أنفَها بين فخذَيه ليكركرَ حتى يقاربَ نفَسَه على الانقطاع.. لتعاودَ دغدغته كلما هدأ.. وضعت الطفل جوارَ الطفلة التي بدأت بالبكاء.. مدت يدَها تهزها.. قالت لنا:

- أتعرفون أم فاطمة من ذي قبل؟.

عينا جعدن تتسعُ لسؤالها.. ينظرُ إليَّ.. يتأخرُ بالرد وهو يعرف بأني لن أتحدث:

- مَن أم فاطمة؟.

- ابنتي!.

- مَن تقصدين؟.

- التي خرجت للتو في خدمتكم.

– أهي ابنتُك؟.

– ابنتي طيبة.. تحبُّ مساعدة الغير.. لكن لماذا جئتم في هذا الوقت؟.

أجابها مبتسماً:

– ومتى علينا أن نأتي؟.

– الليلُ أستر!.

– لماذا الليل؟.

– البناتُ يتفرغن ليلاً!.

– أَيَّ بنات؟.

– البناتُ الـمِـلاح!.

– نحن نبحَثُ عن بنت بعينها.. ولا....

عادت أُمُّ فاطمة ضاحكةً.. تجر فتاةً خلفها وقد أشرق وجهُها:

– أضايقتكم أمي بثرثرتها.. هذه أنا عُـدت بما طلبتم.. أليست مليحة؟.

رأيت في عينَي تلك الفتاة شيئاً من التذلل.. وفي أنفَها الأفطسَ وشفتيها الممتلئتين براءةً.. لها ذقنٌ صغير.. بشرة رقبتها تغطيها الغضون.. صدرها

وخصرها ضامران.. ومؤخرتها متكورة بشكل لافت.. عيناي تبحثان فيها عن شَـوْذَب.

قال لها جعدن:

- لقد أتعبناك.. يبدو أن في الأمر خطأ.. هيا اجلسي.. ودعي تلك الفتاة الوديعة تذهب.. نحن يا بنتَ الأجاويد نبحثُ عن فتاة بعينها ولا نريدُ غيرَها.

قاطعته بصوتٍ منكسر:

- تعني خالقها لم يخلق غيرَها!.

- حاشاه، لكننا لا نبحثُ عنها من أجل قضاء وقت.. بل لأنها منا.. وهي تبحث عنا!.

كانت المرأة المسنة تتابع الكلمات وكفاها تهدهد الطفلين.. حين قالت:

- هذه ابنتي تعرفُ كـُـلَّ البنات.. والجميعُ يطيعُها.. صفوا لها البنتَ حتى تأتيَكم بها!.

- أتصمتين قليلاً يا أماه؟.

زجرت بدلال واستدارت نحوَنا بملامحَ باسمة:

- عن أَي امرأة تبحثان ؟!.

– امرأة تاهت عنا.

– ألا تعرف طريقَ العودة إلى المنزل.. أم أنها هاربة؟.

– منازلنا بعيدة عن مكة.. ونحن غرباءُ لا يوجد لنا منزل هنا تعود إليه!.

– إن أردتم مساعدتي فعليكم بتوضيح الأمر.

– أنتحدث بوُجود الجميع.. نريدُك لوحدك.

التفتت مشيرة إلـى الفتاة:

– إذاً عليكم بأجرة هذه الصبية لتعودَ إلى منزلها!.

خرجن وبقيت أُمُّ فاطمة.. تتحفز نظراتُها لكلماتنا.. قال لها جعدن بصوتٍ هادئ:

– تَقسمين بأبي طالب أن تساعدينَا.!.

– أقسمُ برب البيت.. أَوْ كيفما شئتما.

أخوانيـــات

وجدت جعدن جالساً أمام الركن اليماني.. في البدء رفض النظر إليّ.. كنت أريد التحدث إليه.. التقطتُ كفّه.. فيما كانت أصوات المؤمنين وأجنحة حمام المسجد تزداد تداخلاً.. قال وهو ينظر بعيداً: لن أذهب معك إلى تلك الأماكن مرة أخرى!.

شعرت براحة وأصابعي تلامس بشرة كفه.. صوتٌ واهٍ وحزين.. لا أدري ما جعلني أحسُّ بالغُربة منه.. قلت له:

لكنك ألححْت علَيَّ البقاء، وأنت مَن أقنعني بالبحث عنها.. أنتَ مساعدي ولا يمكن أن تتركَني.

- لم أعد مساعدَك.. ولم يعد هناك قصرٌ نعملُ فيه.. ولم يعد هناك ملِكٌ لنستمر في خدمته!.

صدمتني جُرأتُه.. وتمردُه:

- رفيق أوْ صديق.. لنكن معاً.

– إذا أردت ذلك.. عليك أن لا تقودَني إلى أماكن الهلاك تلك.. زنا وخمور وحشيش.. لا أريد معصية إلهي.

– أيَّ اله؟!.

لم يرد عليَّ.. اكتفى بالنظر إلى عيني بنظرة قاسية.. رأيت بعضَ الخدوش على وجهه.. عند أطراف فمه بقعٌ داكنة.. اقتربت من وجهه.. أشاح بعيداً.. كنت في حيرة.. من صنع به كل تلك الكدمات.. سحب أصابعه من كفي.. حينها نهض متجهاً نحو بئر زمزم.. صب دلواً دون أن يخلع رُقعه.. يغتسل بين أناس وقفوا عُراة.

لم أسمع صوته بمثل ذلك الحُزن والجزع.. حتى ليلة دفن ذلك النخاس.. كان يهلل ويكبر بصوت رخيم.. وحين رفع صوته مؤذناً قرب صوان أذنه لم يكن صوته كما سمعته الآن قاسياً.

كانت أُمُّ فاطمة قد قادتنا نهاراً إلى مقام سيدنا عُـمَـرَ أعلى وادي الترافين.. وجدنا أعداداً من المستجيرات به يُصَلين تحتَ قبة المقام.. تأملنا الملامح لم يكن لشوذب وجود.. عبرنا أزقة أحياء عديدة حتى وصلنا (زقاق الحجر) أدخلتنا مسقط رأس السيدة فاطمة.. راقبنا نساء عابرات كثر يتوافدن لينصرفن لم نرَ من يشبهها.. في اليوم الثاني زُرنا جبَّـانة المعلاة بوادي النقاء حيث مقام سيدتنا خديجة وابنها القاسم وسيدتنا آمنة.. بحثنا في وجوه المعتصمات تحت قبابها الكبيرة.. النائحات.. قضينا ثلاثة أيام نتأمل تلك الوجوه لا وجه يحملُ وجهَ أحد.. ولا يفيدنا أحدٌ إن كانت موجودة.. فقط نستهلك عيوننا.. في اليوم الأخير نزلنا على درَج

تحت قُبة عظيمة حيث مسقط رأس النبي محمد في شِعب المولد جُلـكُـهم ذكور.. ترددنا على شعب علي حيث مسقط رأس مولانا علي.. نساءٌ من كُـلِّ الأعمار، وجوهٌ كثيرة لا وجه يُشبهُ وجهَ شَـوْذَب.

قالت لي أم فاطمة: هناك أماكنُ أخرى علينا بالبحث فيها.. علينا أن نتردد على تلك الأماكن التي سبق وأن زرناها.. وغداً يُخرِجُ كُـلُّ نخاس بما لديه.

في صباح اليوم التالي قادتنا أم فاطمة إلى سوق السويقة حيث باعة العطور وعقود المرجان والعقيق.. نقف أمام مقاعد حجرية تجلس عليها إماءٌ شاميات وحبشيات ويمنيات معروضات للمارة.. يقفُ كُـلُّ نخاس جوارَ عبيده وإمائه.. مستعرضاً أثمنَ ما لديه.. يقودنا النخاسون إلى منازلَ بالجوار.. قضينا نبحث بين تلك الوجوه دون جدوى.. تهادَى صوتُ مؤذن الجمعة إلى مسامعنا.. لا وجهَ لشَـوْذَب بينهن.. كنا نصِفها لكل نخاس فيطلب منا العودة في اليوم التالي.

ظلالُ جبل أبي قبيس حيثُ تولدُ شمسُ مكة.. يُـلقي بكآبته على روحي.. أغادره صباحَ كُـلِّ يوم.. لأَعود في المساء منهكاً أتمدد أمام الركن اليماني.. أتأملُ ماحولي.. هدوء الليل.. اهتزازات ستارة الكعبة حين يحركُها رفيفُ أجنحة الملائكة.. لترتفع أصواتُ العباد بالتسابيح والاستغفار.. شقاء يغرق روحي في تفرعات لا نهاية لها.. أشعل فتيلي أضعُه بين لهب الفتايل الأخرى على باب الكعبة.. أسمعُهم يناجون وقد فردوا أكفَّهم باتجاه ميزاب الكعبة، يطلبون تحقيق أمانيهم.. يبكي البعضُ

والبعضُ يتمسحُ بستارتها.. أقفُ أمام باب بيته أتلوا له ما بنفسي.. أنتظر ظهورَه!!

* * *

وعدتنا أم فاطمة بعد أن نقدناها ببعض المال بأن تصطحبنا إلى دُنيا ليل مكة.. دنيا كـُـلٍّ جميل.. قالت إن كانت من تبحثون عنها فاتنة فلن تجدَها إلا في دُنيا الفتنة.. لم أدر ماتعني بدنيا الفتنة.. سألتها.. غمزت بعينها وهي تضحك تتلمظ بشفتيها.

قادتنا وسط عتمة المساء يفوحُ شذى عطرها.. خلتها امرأة أخرى.. لكنه صوتها.. ضحكتها قادتنا عبر الأزقة، صعدنا شعبَ عامر.. أزقة على سُفوح أبي قبيس.. نصعد.. نلاحق خَطْوَها.. كان أذان العشاء يختلطُ بجعجعة دواليب الرحى.. وأصوات غناء الطحانات، وقطرات عرَقهن.

قالت لنا: حين نجلس بينهن تفرسوا في الوجوه وحين ترونها سنكونُ قد وصلنا نهاية المطاف.

تركتنا ومضت.. كنت مستغرباً من قولها.. إذ لا يمكننا رؤية الوجوه التي تجلس صامتة على أطراف تلك الفسحة.. سراج باهت معلق تحت عريشة جانبية.. أشباح على المصاطب.. قهقهات تتعالى.. سقيفة موازية لجدار المنزل.. همس هنا وهناك.. جلسنا على مقاعد حَجَرية.. أضواء خافتة من أحياء مكة.. نسائم تهب باردة.. عادت أم فاطمة مصطحبةً امرأة لم أتبين هي الأخرى ملامحَها.. قالت وهي تشقُّ الهدوءَ بضحكتها:

– نحنُ الليلةَ في أخوانية غانية الغواني أُمِّ علي.

مدت يدَها تصافحنا:

أحسستُ بصغر كفها ونعومته وهي تصافحُني.. حاولت إبقاءَه.. خرج صوتها دافئاً:

– الليل يطول.. قولي لضيفيك لا داعي للعجلة!.

تأرجح صوتها بين الضحك والدلال وهي تقول لها:

– لا أحد منهما يبحثُ عما تظنين.

– سنرى!.

أشباحٌ تدخل من فتحة الساحة.. يزداد الهمس.. وتمتلئ أطرافُ الساحة بالأصوات.. جعدن على غير عادته كان صامتاً.. التقطت كفه.. تحسستها.. تنبه.. قال لي هامساً:

– لماذا نحن هنا؟.

– تسألني.. وليس المسؤول بأعلمَ من السائل!.

– أشعر بأننا في مكان لا يليق أن نكون فيه؟.

– قد نجد من نبحث عنها!.

– بل قل من تبحث أنت عنها!.

أسمع كلمات جعدن فأظن بأن المتكلم آخر.. خفت من أن يتركني

ويمضي.. أمسكت بكفه أداعبه.. تصلنا أصواتٌ نسائية.. عبر نوافذ البيت.. تخفت لتتعالى من جديد.. أشعر بكفه يتمرد.. أستعطفه بمزيد من الملامسة.. أرجوه أن ينتظرَ حتى نرى ما سيكون.

لمحنا غانية تهبط من درج جانبي للمنزل.. حولها مجموعة صبايا.. هبط عدد من النساء خلفها.. زاد همسُ الحضور.. يرتقين مصطبة تحاذي جدارَ المنزل.. صمت الجميع حين ارتفعت نغمات نقر على الدفوف.. تخفت ليرتفع نقر أوتار خجلا.. صاحبها شدو صوت هامس بالغناء.. لم يكن لليل قمرٌ.. وميض النجوم تقترب من المكان.. تتناسل الفتيات النساء من تلك الدرج الجانبية.. يأخذن مجالسَهن بين الحضور.. يزداد ذلك الصوتُ عذوبة.. تجاريه بعضُ الأصوات همساً.. تهبط نساء أخريات.. يتضح لي بأنهم صبيان.. يحملون أباريقَ وكؤوساً.. يطوفون على الحضور.. تهبط من الدرج مجموعة نساء يحملن مسارج.. وأخريات بمباخر.. بدأت مجموعة بنقر الدفوف.. تتوسطهن فتاة كَحيلة تتمايل راقصة.. تدلت حول وجهها أغصان الريحان.. عقود الفل على صدرها.. على رأسها طرحة مطرزة بخرز لامع.. تنهض المغنية.. تغير من إيقاع صوتها وهي تطوف بين السهارى:

"أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

أغرك مني أن حبــك قاتلي وانـــك مهمـا تأمـري القلب يفعلـي"

تقود العروسَ في خطوات رتيبة.. لهب المسارج ينعكس على الوجوه.. يسير الجميع خلفَ العروس.. يرتفع إيقاع الدفوف وزغاريد

النساء بالإنشاد.. لينتهي المطاف بعودة العروس إلى مصطبتها.. تتوزع النساء حولها.. يستمر الغناء.. تتعاقب الفتيات على ساحة الرقص.

قرب منتصف الليل.. دارت الكؤوس على الحاضرات والحاضرين.. شكلت مجموعة من الفتيات دائرة يتمايلن بأجسادهن.. يغنين بأصوات متجانسة.. انتشلتني يد أم فاطمة تربِّتُ على كتفي: هل هي بينهن؟. كنت قد نسيت ما جئت من أجله.. أومأت لها برأسي نافياً.. وفي الحقيقة كنت مأخوذاً بمتابعة تلك الجموع.. أنستني.. ونسيت جعدن القابع جواري.. عادت تهمس في أذني وهي تنظر إلى وجه جعدن: هذه إحدى أخويات شعب عامر.. لو دققتما ستريان كائنات لا توجدُ إلا في دُنيا شعب عامر!. نظر إليَّ جعدن مبتسماً.. يتابع ما تقوله باهتمام.. لم أفهم ما تعنيه بقولها مخلوقات شعب عامر.. قلت لها: بل هي دُنيا اللـــه. اقترب فمها تهامسُني: تعجبني بلاهة صاحبك!. لم أفطن لما تعنيه.. ألتفتُ إليه.. كانت ملامحُه مشدوهة.

تقدم غلامٌ يشعل عيدان الحطب في موقد طيني كبير.. أضيئت الملامحُ أكثر لارتفاع ألسنة اللهب.. فتيات كثر يحجلن في دوائر اللهب.. ينخفضُ إيقاع الكفوف ليتركَ مجالاً لصوت المغنية.. تعود الكفوف مع نقر الأوتار وضرب الدفوف.. تهتز أكتافُ الصفوف.. تدور الأباريق والمباخر بين الحضور.. تتلاقى النظرات.. يتبادل البعضُ الإيماءات والابتسامات.. ينتقل البعضُ بخفة حول دوائر اللهب.. تزداد الأعدادُ الراقصة.. يتهامسون وأكفهم مندمجة بالتصفيق.. تزداد النسائمُ الباردة.

اقتربت إحداهن منفردةً من دائرة اللهب.. ترقص بعُنف.. شهق البعضُ لجُنونها.. انبرى شابٌّ يُحاكيها.. تتحرر من حلقاتها.. يسايرها ليكشفَ صدرَه المزغب.. ينتشر الهمس.. تقرب صدرها من نار الدائرة.. يُلصق الشابُّ ظهرَه بلهبها.. تتصاعد أدخنة كثيفة من الأرجاء.. تتغير ملامحُ بعضهن خوفاً وهلَعاً.. إيقاعُ الدفوف تتسارع.. والراقص يزداد عُنفاً وعرياً.. تنبري عدد من الفتيات يتبعهم عدد من الفتيان.. ترتفع إيقاعات العنف.. سقطت أحداهن أرضاً.. لتهرعَ بعضُ الفتيات لسترها والسير بها صعوداً على الدرج.. يتبعها فتاها استمر السمر بدخول صفين من الفتيات والفتيان.. يلتقيان ليتراجعا إلى الخلف.. قيل إن بخوراً ما يرفع أحاسيسهم حد النشوة.

تعود كفُّ أم عَلِـي تربّت كتفي.. تنتشلني من خدر عجيب.. تضع كفها الآخر على كتف جعدن.. همست أم فاطمة وهي تنظر إلى الساحة: هل هي بين الحضور؟.

نظرت إلى وجه جعدن وقد تغيرت ملامحه.. يتابع بذهول.. لم تمتلئ نفسي سعادة مثلما هي الليلة.. رأيت كف جعدن يمسك وجهَ أم فاطمة يقبله وهو يبتسم.. كما لو كنت في حلم.. اكتفيت بضحكة مجلجلة.. انتشرت عدوى الضحك بين الجميع.. أسمع طنين صوته يسألها.. تقتادُه من معصمه حول دائرة النار.. تبعهم البقية وبقيت وحيداً.

أتأمل ذلك الجمع الصاخب.. بالكاد رأيت وجه العروس التي وقفت خلف رؤوس الجموع.. جوارها شابٌّ.. أَوْ أن النشوة تصوِّرُ لي ما لا

يحدث.. أحببت أن أصل إليها.. شققت صفوفَ الصخب اللذيذ.. أمسكت بكفها بين كفي.. شعرتُ بدفء يتخلل أصابعي.. جَثَوتُ عند ركبتيها: أيتها الملكة الجميلة.. الجميع يرقصون.. وأنا يا مولاتي دونَ رفيق.. أطمع في عطفك.. فهل تتفضلين عليَّ؟!

كنت في ذروة النشوة.. لا أكادُ أرى الأشياءَ.. امرأة أخرى تهمس لي: انهض يا جَـوْذَر .!خُيِّـلَ لي أني سمعتُ ذلك الصوتَ منْ قبلُ.. قادتني هابطة.. حاولت النظر إلى وجهها، ميزتُ ابتسامتها.

لا أدري كيف انتهى الليل بالجموع.. أو منْ خلع ملابسي؟ هكذا وجدت نفسي على فراش يسكنه الصمت.. لا أعلم أين أنا ولا مَن حملني إلى تلك الغرفة.. جلست أسترد لحظات الليلة الفائتة.. تلك الفتاة التي تعرَّت راقصة.. وذلك الفتى الذي أحرق ظهرَه على لهب الدائرة.. العريسُ بوجهه المألوف.. الرقص العنيف.. العروس. جعدن يقبل وجه أم فاطمة.. نعم أين رفيقي جعدن؟. المرأة التي تعرفُ اسمي.. أم أن كُـلَّ ذلك حلم؟. لكن عُريي هذا.. وهذا الفراش ليس حلماً!.

خرجت عبر تلك الدرَجات الجانبية إلى الساحة.. شمسٌ تشرق من ثغرات الجبال الشرقية.. مكة ببياض بُيُوتها يخالطُها السواد.. جبالٌ داكنة تحاصرُها صُفرة رمال حارقة، الساحة خالية إلا من مقاعد تحت العرائش.. مصطبة العروس.. وظلال السقوف والحيطان.. رماد النار.. باب السور متهالك.. خرجت إلى أزقة المنحدرات.. أهبط وسط أغاني نساء الرحى.. أسأل نفسي ألا يتوقفن؟.

* * *

عاد جعدن وجسدُه يقطرُ زمزماً.. طلبت منه مرافقتي إلى الخندرية في حي الشبيكة.. التفت وقال: إذا أردت أن نظل رفيقين لا تطلب مني ذلك. ثم سار بعيداً.. سرت في الاتجاه الآخر وحيداً.. عبرت الأزقة باتجاه الشبيكة ومسفلة إلى أطراف مقبرة الخندرية.. طرقت كوخَها.. قالت أمها: إنها خرجت ولن تعود إلا في المساء.. جلست أمام وحَل الزقاق لا ألوي على شيء.. عرفت أنها في كوخها.. هذا ما سمعته من أحد الصبيان.. وأنها لا تريد أن تقابل أحداً.. كنت في حيرة من تقلب مزاجها.. خرجت بعد حين.. جلسَت بالقُرب مني تغطي وجهَها بطرف غطاء رأسها.. لمحت بعض الكدمات.. وقد ازرقت بشرة عينيها اليسرى.. استجمعت جرأتي مددت أصابعي.. تحسست كفها أواسيها.. تمنيت أن تحدثَني عن ليلة البارحة.. كان الأطفال قد تحلقوا حولنا.. خجلتُ لسماعهم حديثنا.. قالت: لا عليك منهم.. لماذا لم يأتِ صاحبُك معك؟

هززت رأسي.. ازدادت رغبتي بملامسة كفها.. ارتعشت أصابعها.. حاولتْ سحْبَ كفها مني.. نظرت إلى عينيها.. ظننت بأني أداعب رغبتَها.. خرجت علينا أمها وضعت وعاء الماء وقالت مبتسمة :حلت البركة. ثم استدارت.. تمنيت ألا تفهم ملامستي خطأً وتسحب ذراعَها.. سألتها :هل سنذهب الليلة للبحث عن شَوْذَب. التفتت منزعجة.. عيناها تنظران في عيني.. في شعري.. كما لو لم تسمعني، قالت: ألا ترى ما بي.. اذهب فهناك (إخوانيات) عديدة في شِعب عامر وغير شعب عامر.

قلت أرجوها: أريد أن أنهيَ ذلك الهم.. بيدك مساعدتي.

صمتت قليلاً.. قالت لي بصوت حازم: اذهب وحيداً إلى إخوانية البارحة.. تحدَّثْ إلى أم علي.. تلك المرأة التي عرفتكم عليها. أحسستُ من ملامستها صدقَ كلماتها.. سحبتُ أصابعي من زندها المرتخي.

حين عُدت إلى جعدن وجدته في مكانه كما تركته.. رد عَلـَيَّ التحية ثم ساد الصمتُ بيننا.. يتعمد النظرَ بعيداً.. في حيرة يراقبُ المصلين.. سُقاة زمزم.. حدثت نفسي أن أكسر صمته.. لامست أصابعه.. لم يمانع.. قلت له: قابلت أم فاطمة.. وسألتْ عنك.. و لم ألح عليها بالسؤال عما بوجهها من كدمات.. لم أقل لها بأني وجدت نفسي صباحَ اليوم عارياً في إحدى غرف منزل الساحة.

كان جعدن يستمع إليّ تاركاً يده بين يدي.. لم أطالبه مرافقتي.. سئمت من صمته.. فكرت بالذهاب إلى شعب عامر وحيداً.. سحبت أصابعي.. قال كمن يحدث نفسه: سأكونُ هنا في كـُـلِّ الأوقات إن أردتني.. لن أذهب معك إلى أماكن الساقطات.

استقبلني صمتُ الظلام أزقة شعب عامر.. ترددت في الدخول.. كانت الساحة خالية وصامتة.. سرت خطوات باتجاه الدرَج الجانبي للمنزل.. ضوء باهت يتسرب من باب المنزل.. كانَ مصراعُ الباب مواربا.. طرقته.. تقدم الضوء نحوي.. لمحت نصفَ وجه امرأة: أهلاً جَـوْذَر!. رنة صوت البارحة.. مددت يدي لمصافحتها.. هو كف أم عَـلِـيٍّ بصغره ونعومته.. نفسُ غرفة البارحة.. أحسست بالخجل وأنا أرى عُريي على ذلك الفراش الملقي في الزاوية.

تفرست ملامحَ أم علي.. لا أستطيع تقدير عمرها.. قد تكون في العقد الثالث.. سمراء بفم متورم.. وأنف مُستوٍ.. وعينين غائرتين.. تبرز وجنتيها مع كـُـلِّ ابتسامة: ها أنت تأتي إليَّ وَحيداً. قالت تلك الجملة بشيء من السخرية.

كنت أود أن أقولَ لها ما قالته لي أم فاطمة.. أصابعها تتلمس كفي.. قالت: أعرف بأنك صحوت تبحث عمن حولك.. بينما كنا مشغولات بثورة صاحبك. هممت أن أستوضحها.. لكنها واصلت: حين صحا من نومه وجد نفسَه على فراش غريب وإلى جواره عري امرأة.. قالت بأنه وقف يبحث عما يلبسه.. وحين نهضت لتساعده.. أمسكها وطرحها أرضاً!. قالت له "أنا أم فاطمة" وأنها سعدت معه طوال الليل.. هاج وأخذ في ضربها حتى كاد يَقضي عليها.. سمعنا استغاثتها.. خرجنا إلى غرفتها.. وكان ما كان.. وحين عُدت لم أجدك.

تُجيدُ الملامسة.. تزاوج بين صوتها وحركة إصبعها.. تتلمس طريقَها إلى مواطن النشوة.. تتحسس بحميمية.. تتناغم ملامحُها وابتسامة فمها الكبير.. يرتفع خفقانُ قلبي وهي تقول :البارحة اكتشفت ما تخبئه تحت خيمة شعرك.. لك جسمٌ جميلٌ.. وبشرة بيضاء.. لك آثار جرح تحت سرتك حتى ذيلك المُغري لكني لم أفلح في استنهاضه. وها أنت تأتي لوحدك. ثم ضحكت وهي تحتضنني.. كنت خجلاً من كلامها الذي نزع حيرتي. قالت:

– أعرف بأنك تبحثُ عن فتاة اسمها شـَـوْذَب!. نظرت إليها

مندهشاً.. تبادر إلى ذهني جعدن.. واصلت وهي تلوك الكلمات: أم فاطمة حدثتني البارحة عن ذلك!. ولذلك سأصحبُك الليلة للسهر في إحدى الأخوانيات. قلت لها: لم آتِ للسهر.. ثم لماذا لا تسهرون هنا؟.. قالت: كُــلّ ليلة نسهرُ في أخوانية.. والأخوانيات كثر نتعرف على وجوه جديدة.. وسادة جُدُد.. وغانيات أبكار.. أنت على قرب موسم حج، وطالبي المتعة يتضاعفون.. هو موسم للقادمات من الشام ومصر والعراق والزنج.. النخاسون يَجلبون أفضل ما لديهم من الجواريَ والإماءَ والغلمان.. كما أن بعضَ سادة مكة يدفع بإمائه وغلمانه إلى تلك الإخوانيات طمَعاً في مزيد من المال.. وموسم الحج موسم كل السلع.. بل إن مقاهي المعلاة ترخص فيها تعميرة الحشيش بعد وصول حجاج مصرٍ.. سأريك زوارَ الليل على تلك المقاهي حتى الفجر.. وقد نجد ضالّتك هناك.

غمرتني السعادة وأنا أراقبُ جمْعاً من النساء.. كان المكان واسعاً تحيطه غرف مستطيلة بيضاء.. عُلقت على جدرانها قناديل أضاءت المكان.. نجلس على مقاعد خوص أطراف المكان.. لم تفارقني أم علي.. و لم تترك يدي.. يأتيها بعضُ الحضور.. يهمسون.. يتضاحكون.. يُشيرون إليّ ثم يعودون إلى مقاعدهم تسألني بين وقت وآخر: هل رأيتَ مَن تبحث عنها بين الحُضور؟. فأهز لها رأسي بالنفي.. تدفق الكثير من الفتيات إلى المكان.. يغلب على الحضور من الذكور كبار السن.. جاء من يهمس لأم علي.. لتنهض كالملسوعة.. حينها طلبت مني أن نعودَ إلى بيتها.

أشعلت السراجَ.. جلسَت ممسكةً بكفي.. ابتسمت دونَ أن تفتحَ فمَها.. قالت لي ساخرة:

– لم تسألـني لماذا عُدنا مبكرين؟.

– أشياء كثيرة لا نجدلها أجوبة!.

– ألا تخافُ العسَسَ وأنت تبحَـثُ عن جارية من جواري قصر الشريف؟.

هزت كلماتها بدني خوفاً.. ارتجفت كفي بين يديها.. قلت لها:

– ومَن قال لك بأني أبحثُ عن فتاة من جواري الشريف؟.

– أم فاطمة.. وأم فاطمة! ألا تعرف بأنها من عسَس الشريف.. حدثتني بأنك ورفيقك تقيمان في صرْح الكعبة.. لقد أدركت الليلة بأنك مراقب.. ولذلك طلبت منك العودة.

– كيف؟.

– رأيتُ مَن أعرفهم بين الحضور.. وهم لا يحضرون إلا إذا كانت هناك طريدة!.

كاد قلبي يتوقف. وهي تواصل حديثها: سأحاول أن أساعدَك حتى تجدَ فتاتك وترحل بها.. امسك لسانَك حتى من رفيقك.. الشريف لا يرحم.

أغلقت الأبوابَ، اقتربت بوجهها تداعبُني تزيل قلقي.. همستْ

بسؤال مباغت وهي تنظر في عيني: من سلخ ذلك الجزء من روحك؟!... لا عليك.. فقد عشقتك منذ أول لمسة.. لا يفعل ذلك إلا سكانُ الجبال العالية.. أنا لا أعشقُ الرجالَ، إنهم لا يُجيدون الملامسة.. لي عشيقاتي من الصبايا.. ليلة البارحة فاجأتني أصابعُـك.. وها أنا أعلن وَلَـهي بهن.. سأعلمُـك ما لدي.. وستعلمُني ما لديك.. فالليلة هي لنا.. لا تندهشْ من جُرأتي معك.. ولا تقل بأني أعشقُـك.. وبأني مخبولة، فالعشق خُبال.

طلبت منها إطفاءَ السراج.. استسلمتُ لأصابعها.. جاست جسدي حتى شعرت بأني أذوب.. ترتعشُ مسام جلدي.. تتغير كلماتي.. قالت لي: الآن جاء دورك.. كان الظلام يخفي ملامحَها.. فقط صوتها الصبياني يثير خيالاتي.. ارتعت أصابعي في شقوق جسدها وهضابه.. لم تترك جُزءاً من جسمها إلا وجاسته.. علمتني تلك الليلة أن الملامسة عشقٌ ولذة.. مع سماعنا مؤذن الفجر كانت رغبتي في ذروتها.. وكانت أصابعُها قد حولتني إلى جمر من اللذة.. تسرب الضوء إلينا.. ابتسمت فاتحةً فمَها، انتفخت عروقُ وجهها ورقبتها.. دون مقدمات ضَمَرَ عنفواني.. حاولت استنهاضَه.. حاولت بأصابعها.. بكيت بين يدَيها.. ضمتني إليها تهدهد نشيجي.. ذكرتني بتلك القرعاء.. حين قذفت بأشيائي وهي تصيحُ "أغلف.. رغل".. ليتجمعَ المارة ويقتادوني إلى حفل التطهير.. وهَا أنا اللحظة لا أعرف ما تضمرُ لي أمّ علي.. فاجأتني بكلامٍ عذب.. تُمسد ما تبقى مني.. نظرت إليّ بعطف.. همست وهي تلحسُ دموع عيني: لا تبك. أنا في غنى عن انتصابك.. ألم أخبرك بأني عشقت ملامسة

أصابعك.. وأن لي طريقتي التي تختلف عن طرائق النساء في المتعة.. تمدد وسأريك ما لدي.. ثم سأتمدد بدوري لتريني ما لديك.

كفكفت دموعي.. هذا أنا بين يديها لا أملك مقاومة اشتعال شهوتي .. عاد كل ما في.. كنت أحاول إبراز ما طرأ علي من ملامستها.. أن أستعرض عودة انتصابي.. تشير علي برأسها أن أنكفئ.. وهذا أنا أكتفي بإراقة ما لدي حيث ينتهي.. لم تكن أصابعها إلا رؤوس حيات تدغدغ جسمي.بمهارة من تعرف مواطن اللذة.

حين جاء دورها حاولت مجاراتها.. ركبت على ظهرها أمسد ما شاء لي من جسدها.. اقلبها.. أمتطيها ألامس مكامن استثارة شبقها.. تصرخ: زيدني زيييييدني.. لا ترفع أصابعك عني.. أتوسل إليك أن تضغط أكثر. أقلبها تركض أصابعي في ينابيع نشوتها.. انتصب من جديد.. أستغل ذوبانها أدخل اللحم في اللحم.. أتمكن من تكبيلها.. تصرخ شاتمة.. تمس به.. تتخلص مني غاضبة.. تقف عارية.. أرى ملامح جامدة وقد حملت عصى طويلة: هيا أخرج.. احمل ملابسك ولا تلبسها إلا خارجاً.. أنت عديم الإحساس.. هيا اخرج.

تسحبت مرعوبا.. انكمشت رغبتي.. خرجت أحمل دهشتي.. وصوت نحيبها يلاحقني.

الخندرية

عدت منهكاً ذلك المساء بعد بحث مضن عن شوذب، لأجد وجه جعدن يطفر بابتسامة وضّاءة.. بعد أن كان قد باح لي بأن أفعالي لا تعجبه.. وبأنه يفضل أن نفترق. غشتني دهشة من تقلب طباعه.. سريعاً ما عرفت السبب حين قال بصوت فرِح:

- شَوْذَب رحلت من مكة قبيل أيام.

لم أستوعب كلامة.. سألته

- كيف عرفت؟

لم يبذر كلماته.. اصطحبني إلى خان في أطراف حارة المسفلة.. هناك تجمع حولنا عبيدٌ وإماء ممن سمل الشريف عيونهم .. يحدثونا عن قسوة قلب شريف مكة.. وعما حصل.. يتحدثون بأصوات متداخلة تحكي حكاية واحدة.. يذكرون لنا تفاصيل كثيرة.. ثم ختموا كلامهم بأن أحد إماء لبسيدة أسماء زوجة مولانا الصليحي غادرت قبل أيام، بعد أن ظلت مختبئة في الخان منذ فرت من القصر.

انزويت جانباً غير مصدق ما أسمع.. أسأل نفسي: قد يكونون واهمين.. أو أنهم يتحدثون عن فتاة ليست شوذب.. هم عميان.. لماذا أشقى مع أمل يذوي لينبعث من جديد.. ثم يعاود لتعذيبي حين يبهت ويموت.. سأحمل أملي هذا على محمل الصدق.. ولا أملك غير أن أصدق كما أوصاني قانح.. علي أن أعيش لحظة سعادة.. وما الضير في أن أشعر بأني تحررت.. هكذا وجدتُني أحاكي نفسي.. أحاولتفتيح شرانق الفرَح .. أحدث نفسي صارخاً :ها هي تُبعَـثُ من جديد بعد أن نجت من مخالب الشريف.. لقد صدق ذلك النخاس.. وعلي بالعودة إلى مدينة الروح.

عُدتُ من خان المسفلة.. تركت فكرة المرور على أم فاطمة في الخندرية.. سعيداً بعودة جعدن للحديث معي.. أفكرُ في إقناعه بالرحيل.. قال: لم يتبقَّ إلا أيام سبعة للحج.. أبق وسنرحل معاً بعد الفريضة. هززت رأسي وأنا أحتضنه.. ابتسم يطبطب على ظهري.

أشعرُ بالوحدة تلاحقني رغم تزايد جموع المسجد من حولي.. بشر ينظرون إلى السماء.. أبحث عما يَرَون في السماء.. يتمسحون بالرداء الأحمر.. يتهافتون على تقبيل الحجر.. وتلمس الركن اليماني.. أريد أن أخرُجَ من غربتي.. من وحدتي.. أريد أن أسكن فيما يفكرون ويرون.. لكنني أبحث ولا أجد ما أبحث عنه. تكوَّمت بكآبتي جوار جعدن.. أنظر إلى ذلك البيت الذي تمور الجموعُ حوله في حركة لا تتوقف.

في ذلك الضحى لفتت انتباهي امرأة تشرئب بعُنقها.. توزع نظراتها هنا وهنا.. عرفتها رغم خمارها.. نهض جعدن وتركني وحيداً.. جلست

تتحدثُ دون أن تنظرَ إلى عيني.. لم تلتفت لجعدن الذي ابتعد.. تمسك بيدي.. تتلمسُها.. تنظر إليها وهي تحدثني كما لو كنا في أخوانيتها:

– اشتاق جسمي لملمس أصابعك.. سأدعو الله عليك تحت ميزاب بيته.. سأتعلق على كسوة بيته.

– ماذا تريدين مني؟

ألا تهجرني أصابعك.

دعتني لحضور أخويتها.. قالت بأن الأخوية ستستضيف العشاق الليلة في ساحتها.. وأنها تنتظرني كُـلَّ ليلة فلا أحضر.. وأنها الليلة ستفاجئني بشيء يسعدُني.

كنت أستمعُ إليها وحُمى أصابعها تنتشر في بدَني.. أتذكر كلامَها عن أم فاطمة وعسَس الشريف.. صراخُها وهي تبكي.

وعدتها وفي نيتي ألا أفي. في ضحى اليوم الثاني عادت مرة أخرى.. رأيتها وأم فاطمة.. ومجموعة من الفتيات يقفون على مقربة.. خفق قلبي لأم فاطمة.. كنتُ أشعـُرُ بمَيلٍ لها رغم ما قالته أم علي.. صدقها.. تعاملها العفوي.. نعم أعطيتها نظيرَ مساعدتها لي.. لكنها لم تطمعْ في الكثير.. هل يكون أولائك الفتيان من عسكر الشريف؟ كنت أقاوم نفسي التي تقودني إلى الخندرية.. ما إن أصل أطرافَ المقبرة.. أرى الأكواخَ حتى أعود من حيث أتيت حزيناً.. أسير في شوارع وأزقة أحياء أخرى.. عرفت إخوانيات عدة.. لم أكن أجرؤ على الدخول.. أظل أتسكع في

الأزقة المحيطة.. بحثتُ عن محلات شرب (السوبيا) في حارة المعلاة، حيث يسهر الغلمان مع معجبيهم حتى طلوع الفجر.. بحثت في تلك المقاهي في الأطراف الشمالية للمدينة.. لا سُلطان لأحد على أحد.. تعقد الصفقات المشبوهة.. ويتوافر المحظور.. يصلُ الحشيشُ من وادي النيل والعراق.. وفيها معاصرُ الزبيب والعنب الطائفي.

تعودان مرارا إلى صحن المسجد يتبعهن مجموعة من الفتيان تنظران يميناً وشمالاً.. أرى أم فاطمة أخرج من صحن المسجد هاربا.. أهيمُ في أزقة الأسواق.. لا أعودُ إلا بُعَيْدَ مغيبِ الشمس.. أتفرَّسُ زوايا باحة الكعبة.. أسيرُ بحذَر نحوَ زاوية جعدن.. قال: ماذا صنعت بهن حتى يبحثن عنك هكذا؟. ثم صمت، و لم أجب عليه.. لم أخبرْه بأني أعرفُ شطراً من حكايته مع أم فاطمة.. لم يقترِبْ أحدُنا مِن الآخر منذُ ليلة شِعب عامر.. و لم أحدثه عن طباع أم عَلِيٍّ الغريبة.. نَظر إليَّ وواصل حديثه: أخاف أن يكن من عسس الشريف!!

تكرر مجيئُهما إلى صحن الكعبة.. تارةً أم علي.. وتارة الاثنتان.. أراهن من زاويتي فألوذ بالفرار.. لم أكن أعلمُ ما كان يخبؤه لي القدر معهما.. أخبرني جعدن بأنهما ذهبتا إلى خان المسفلة للسؤال عنا.

* * *

في أول أيام الحج لم أذهبْ مع جعدن.. فضلت الهروب حافياً من مكةَ، صعدت جبل أبي قُبيس أبحَثُ في مغاراته.. خرج الناسُ باتجاه منى.. البعض يقرؤون القرآن فوق جمالهم والبعض سائرون.. رأيتهم

متجمعين على قمة جبل الرحمة.. شُعلة عظيمة من النار.. امتلأ الفضاء بأصواتٍ تُناجي السماء.. مع مغيب الشمس هرعت الجموع تسابق الغبار.. خلفت وراءها فراغ أصواتها.. تركت الجبلَ للصمت والظلام.

في صباح اليوم الثاني هبطتُ لأصعد ذلك الجبل.. أبحث عن سر شقائي.. بقايا رماد وعمود حَجَري أبيض.. مسجد مهجور.. أسيرُ بين أصوات أناس جلسوا ينتحبون، والبعض يهلل "لبيك اللـَّـهُـمَّ لبيك، إن الحمدَ والشكر لك والملك لا شريك لك..... وآخرون يصلون.. تساقطت حباتُ المطر مما زاد الليل إظلاماً وبرْداً.

صعدت جبلَ قعيقعان أبحث عن ذاتي.. رأيت الحجيج في جبل النور.. هبطت مسرعاً فلم أجدهم فيه.. تأملت حولي ،خواء، جبالاً جافة، عُدت إلى مكة لألتقي بجعدن الذي عاد لصمته.. لم يعد ذلك الكائن المرح.. كثير الحديث.. لم أجد فيه جعدن الذي عرفت لقد سُلبت روحه.. تركَني ومضى.. اخترت مكاناً لا أراه منه.

تكرر هطول الأمطار الغزيرة على مكة أغرقت بعضَ الأحياء.. وجرفت بعضهما.. تخللت أجزاء المسجد الحرام فتهدمت بعض الحوانيت والجدران.. قدمت أعداد كبيرة من عسكر الشريف لإخلاء المسجد.. رأيت الناس تتجمع حول بيت الله.. مالبث أن تعالت أصوات.. سرت مسرعاً باتجاههم والعسكر تطارد الكل.. رأيت أخاديد عميقة جرفت أتربة أساسات الكعبة.. لتظهر حول أساساتها مسارب تبتلع تلك المياه.. خلق كُثر تجمعوا حولها يتجادلون.. وقفت على أطراف الأخاديد الغائرة..

أتأمل الأساسات السفلى للبيت.. صفوفاً من تماثيل البلق الأبيض لنساء يركعن عاريات.. نقشت على رؤوسهن أهلة بارزة. يحملن فوق أكفهن المرفوعة أساسات المبنى. تحت أقدامهن رؤوس ثيران صُفت بإتقان.. كان منظراً مدهشاً. وقف رجل يقرأ معاني تلك الأحرف القديمة.. قال أن إحداها قُدمت للإله (إل مقه) إله القمر.. كقربان من قائد الجيش تقربا وشكراً للإله على نصرته له في حروبه مع أعداء شعبه.. وأخرى قربانا يتقرب به للإله لما أعطى شعبه من خيرات السماء.. وأن البيت قد بُني معبداً له.. وأنه أسمى المدينة باسمه (مقه). ثم أخذ يشرح للمتجمعين أن (إل مقه) معبوداً منذ عصور قديمة لسكان الجزيرة، وأن هناك أقواماً لا يزالون يعبدونه.

رأينا تماثيل جميلة من البرونز والحجر لحيوانات وفرسان ونساء يغمرهن الوحل. حضر عسكر الشريف ظننت بأنهم جاءوا من أجلي.. تواريت أبحث عن مخرج بين الجموع.. فرقوا الناس.. اقتادوا ذلك الرجل الذي وصفوه بالمهرطق.. وبقي عدد منهم يحرسون المكان.

لا أفهم ما يدور حولي.. ولا ما تعيشه تلك الجموع التي عادت تطوف حول الكعبة بعد أيام من ردم الأخاديد وتسوية ما حولها، ملامح الناس من أصقاع الأرض ينظرون إلى فراغ السماء باكين مناجين متضرعين.. البعض يتمرغ بين الوحل وآخرون يتعلقون بأستار الكعبة.. بالقرب من حوافر البهائم وأقدام المهرولين يزحف البعض.. وقلة يتعلقون ببابها. أبحثُ عن أجوبة بَينَ ذلك الصخب المهيب.. ليأتيني صوتُ جعدن:

- من اليوم علينا أن نفترقَ.. لم يعد شيءٌ يجمعُنا.. فأنت رجل غريب.. تحمل أفكاراً مخيفة.. ولا طاقة لي بك.. سأتركك تبحَثُ عن الوَهم الذي يعذبك.. هذا المكانُ يطهِّرُ النفوس.. ونفسُك ألم تتوق للتطهير.. سأتبع القائل ﴿وإن احكم بينهم بمآ أنزل الله ولا تتبع أهواءهم وَأَنْ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾

مددت يدي.. أنتظر أن يمُدَّ يَدَه لنتصافح .. تابع كلامه:

- لا أريد أن أنجس يدي بيدك.. اذهبْ غيرَ مأسوفٍ عليك.. وأنصحك أن تعود إلى تلك البلاد العالية.. حيث يعيش الوثنيون لتقضي بقية حياتك بينهم.. أفضل لك من أن تظل في غربة مما حولك.. أنت تحمل روحاً خبيثة ملعونة.. ولن تطهرها غير النار.

تركني وسار دون أن يلتفت.. أتبعه بعيني في مجرى خطواته.. وحول الكعبة وهو يكرر طوافه مع الجموع.. لا أحمل عليه حقداً أو كرها.. أراه وسط نهر الأصوات.. يسير وسط روائح الدموع والنشيج.. سمعت صوتَه يعلو.. ورأيت وجهه يدمع.. قلبي يخفق وأنا أتابعُه.. وجسدي يتفصَّدُ عرَقاً.. ذابت حواسي.. أسأل نفسي.. لماذا تغير جعدن ابن ظبية؟ لم يكن هكذا! كان رقيقاً.. لطيفاً.. أين الخلل؟ هل هو أنا أم المكان؟. لماذا روحي تشقى وغيري روحه تستكين؟. ماذا فعلت حتى يتغير هكذا؟. يا من أنت إمامي وبابي.. اظهر لي كما تُظهر المعاني من الأسماء.. ولا تجعل

بيني وبينك حجاب.. فأنا خادمٌ ضاعت روحه في أفقك الذي لا يحده حد ولا يجمعه جامع أو تدركه العقول.. يا سموات الأرواح ومخزنها.. لا تشقني بالبحث.. فلا تغبني بالضياع الأبدي.. لا تحبس روحي ببدنٍ تختنق فيه روحي.. ولا تجعلها في الهبوط الدائم.. أعدها إلى سابق عهدها.. لقد مللت ما أنا فيه من سجن.. مللت ضياعي وغربتي.. وهذا رفيقي جعدن الذي سأظل أحبه قد تغير.. وأنت لا تتغير.

* * *

هربت إلى لحظات حياتي الماضية.. أستنجد بصوت أمي.. شموع صلواتها.. طوافها وهي تحملُ مجمرة البخور داخل زوايا بيتنا في صَنْعَاء.. عيناها الدامعتان وهي تبتسمُ في وجهي مرددةً صلواتها "لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً؛ لأن الرب لا يبري من نطق باسمه باطلاً.. احفظ يومَ السبت لتقدسَه كما أوصاك الربُّ إلهك.. ستة أيام تشتغل وتعملُ جميعَ أعمالك.. وأما اليوم السابعِ فسبت للرب إلهك.. لا تعمل فيه عملاً ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأَمَتك وثورك وحمارك وكل بهائمك.. ونزيلك الذي في أبوابك.. لكي يستريحَ عبدُك وأَمَتُك مثلك.. أكرم أباك وأمك كما أوصاك الرب إلهك لكي تطولَ أيامَك.. ولكي يكونَ لك خيرٌ على الأرض التي يُعطيك الرب إلهك.. لا تقتل ولا تزن ولا تسرق ولا تشهد على قريبك شهادة زور.. ولا تشته امرأة قريبك.. ولا تشته بيتَ قريبك".

كانت لحظات إخراجها لفائف التوراة تبهج روحها، ممسكةً بأطراف

عيدانها.. تحرِصُ على أن لا تمس يدها الرقوق.. تتغنى بكتاباتها "فضعوا كلماتي هذه على قلوبكم.. ونفوسكم واربطوها علامةً على أيديكم.. ولتكن عصائب بين عيونكم.. وعلّموها لأولادكم.. متكلمين بها حين تجلسون في بيوتكم.. وحين تمشون في الطريق.. وحين تنامون وحين تقومون.. واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك.. لكي تكثُرَ أيامُكَ وأيامُ أولادك على الأرض التي أقسَمَ الرَّبُّ لآبائك أن يُعطيَهم إياها". تعيدُها بحرص إلى كوتها وصوتها يردد ترانيمَها.

أتذكر وجه المعلم.. ابتسامته.. لحظات اصطحابه لي إلى المسجد.. أصوات تلاوة المقرئين وهو بينهم" تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً× الذي له ملك السموات والأرض و لم يتخذ ولدا و لم يكن لهُ شريكٌ في الملك وخلق كل شيءٍ فقدره تقديرا ×..." أناشيد المنشدين.. اهتزاز المؤمنين في دوائر.. زخارف وألوان حُروف الحيطان والسقوف.. في الحانوت حين كان يُمسكُ بيدي لأرسم حرفاً.. أَوْ أنقش زخرفاً جديداً.. تسكنني تلك اللحظات.. حين ألقى فرسان الإمام الملثم بظلالهم المخيفة على باب الحانوت الصغير.. صرخ بي المعلم "اهرُب ياجَوْذَر بسُرعة.. انجُ بحياتك". رأيته يتلوى تحت ألسنة السياط.. تتهاوى قامتُه من الدكة الحَجَرية إلى الأرض.. يرفع وجهَه المخضب بالدم.. نظراته تستنجد.. تستغيث.. يرفع أذرعَه محاولاً حماية وجهه.. تمزق السياط جلدَ كفيه وزنده.. لم أسمع صوته.

تصهل الخيول.. العساكر الملثمة تصرُخ بمرَح.. حين أوثقوا ساقَيه

سحبوه خلفَ خيولهم.. كانت صرخاتُ الجموع تصُـــمُّ الآذان.. خرجوا عبرَ أزقة السوق.. باتجاه الجامع الكبير.. في البدء حاول أن يتشبثَ باحثاً عن شُقوق أحجار الأرض ونتوءاتها.. رفع وجهَه ينظر إلى ما حوله.. يصرُخُ الخيالُ.. تنتشي الخيل لصرخات الجموع.. تزيد من ركضها.. يُلهِبُ السوط جلدها يستحثُــها مزيدا من العَدْو.. يلوي الخيال عنقَه ليرى ذلك الجسد يتماوَجُ متمزقاً على صفحة الأرض وقد تمددت ذراعاه.. يلوحُ لتلك الجموع المتزايدة بسوطه.. تبادله صراخ الابتهاج.. تمزقت ملابسُه.. يركض بعضُهم بما بأيدهم من عصي وفؤوس والبعض التقط حصىً يقذفها على الجسد المتمزق، أخذت الحجارُ قطراتِ من دمه ومُضَغاً من جسده.. جلده يهترئ.. أمعاؤه بدأت تخرج.. فكه.. مفاصل كفيه.

دار الخيال ببقايا الجسد في دائرة واسعة.. يتبعه بقية الخيالة.. وقفوا وسط الساحة.. كوّموا الكتب التي جلبوها من الحانوت، وأدوات الكتابة والألوان أشعلوا النار.. هاجت الخيول وهم يدورون بها حول اللَّــهب المتصاعد ويصرخون في سعادة.. انتشرت رائحة الشواء.. استثيرت الجموع وارتفع صراخُها الهستيري.. تداخلت النار.. ثم خمدت رُوَيداً رُوَيداً.. انصرف الخيالة باتجاه باب اليمن ،تركوا كل شيء.. تقدم بعضُ الصبية ما لبث أن تبعَهم آخرون، تجمعوا حول بقايا الحريق.. تعبث به عصيُّهم وأقدامُهم.

وحيداً أتأملُ تفرق الجمع في كـُـلِّ اتجاه.. تدمع عيناي.. أسير قاطعاً

المسافة بيني وبينه.. أراه أمامي ينهض من بين الرماد بقامته.. يصعد من خيوط الدخان.. أتلمسُ مسحوقَ الرماد الذي تمازج فيه جسدُه وكتبُه.. أبحثُ بين الرماد.. وجدت جُمجُمتَه، بقايا عظام.. رياح تهب، هي روحه.. أحمل ما جمعته.. وأرحل متعثراً في خطاي الدامعة.

بعد مغيب شمس ذلك اليوم كنا في دار المعلم، خرجت وشَـوْذَب.. حفرنا له قبراً تحت شجرة فسحة الدار.. كان الظلام يُحيطنا ونحن في زاوية الفسحة.. ردمنا الترابَ على ما تبقى من عظامه.. بكت أمي وشَـوْذَب.. وحاولت أنا. كنتُ أسمعهن يهمهمن بصلوات.. وأدعية غير منتظمة.. ولا أعرفُ إلا ما علمني المعلم وعلمتني أمي.. هبت ريحٌ باردة.. تذكرت كلماته.. سمعت همسُه اللحظة يكرر "لا أريدُ أن أراك حزيناً.. دوماً كُن سعيداً.. ودع الملك للدَّيَّـان". ابتسمت وأنا أشعر بأصابعَ دافئة تلامس كفي.. هي أصابعه.

صوتُه يأتيني هامساً "اتركوه.. هذا يهودي تائه!". كلماتُـه أنقذت حياتي، وكتب لي بصوته حياةً جديدة.. هذه هي روحُه تُلازمُني.

توالت أيامي الماضية حضورها: ظلمة اللـّـه.. روائحُها.. أصواتهم.. أنينهم وصراخ تقرح أجسادهم.. القلعة وقانح.. الجبال العالية.. ذلك النخاس.. شِعب عامر.. كنت أئنُّ.. أصرخ.. أشعر بآلامي ومعاناتي تخرُجُ.. دمعت عيناي.. أطرافي ترتعش.. دارت مشاهدُ حياتي أمام عيني.. وحيدا أبحثُ عن إله المعلم.. ورب أمي في هذا المكان بعد أن نبذني كل من حولي.. فلا أجد أحداً.

أتأمل من سكوني.. دوامة لا تنتهي حول البيت.. ما إن يغادرَها أحَدٌ حتى يأتيَ قادمٌ جديدٌ ليدور.. هربت.. مررتُ وسط الميدان الكبير.. دوائر متعددة لعرض السلع على الحجاج: أقمشة.. جلود.. خيول وجمال، علف إلى جوار أخشاب.. وحبوب حنطة وذُرَة.. نبتعدُ نحوَ الساحات الخارجية.. دائرة اتسعت يُعرَضُ فيها غلمانٌ وجَوَارٍ، عبيدٌ غلاظ.. يصرُخُ المنادي مُمسكاً بإحدى الجواري: انظُرْ هذه الجارية البيضاء الفارسية.. لها صَوتُ ملاك.. وقدٌّ بان.. تجيدُ الرقصَ والغناء.. والعزف.. وإثارة سيدها.. وهذا الغلامُ ابن الرابعة عشرة أتينا به من الشام.. يُجيدُ ما تجيدُه النساء.. وهذا العبدُ أتينا به من بلاد الزنج له قوة البغال وصبر الجمال.. ويحسن إراحةَ سيده.. وهذه الجارية يمانية لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها.. كما تَرَون كالغزال في خفتها لها طلعة أميرة.. تسيرُ راقصة كالـمُهرة.. تستلقي مُبتسمةً.. وهذا..!. كان يستعرضُ بصوت متناغم.. لم أرَ أحداً يتقدمُ للشراء.. و لم يعلن المنادي عن ثمن أيٍّ مما يُعرَضُ.

انتشلني صوت من كابوس كنت فيه أهوي في فضاء بلا ملامح.. حين فتحت عيني رأيت باب غرفتي الحديدي مفتوح.. كان يقف فوق رأسي قال لي:هيا انفض كسل النوم واحمل أغراضك واتبعني. برودة منتصف ليل صنعاء تنخر عظامي وأنا أتبعه هابطا في درجات دار الإمام البدر.

شاب ببزته العسكرية يقف في طرف قاعة واسعة دون أثاث.. قال لي لقد تم الإفراج عنك.. و لم يتبقَ إلا أن تحضر من يضمنك لتذهب في حال سبيلك.

تهــــامة

اخترت طريق مغادرتي مكة طريقاً غير التي قدمنا منها.. سرت عبرَ شوارع حارة المسفلة.. حيث يتجمع المسافرون جنوبا في ساحة الخان الكبير الذي بناه أحدُ ملوك جزيرة اليمن، تخفيت ثلاثة أيام.. تعرفت على عدد من العبيد والإماء ممن سُملت عيونَهم بأمر من الشريفُ.

التحقتُ بقافلة من الحجيج والتجار.. كان ضمن المسافرين أولائك الإماءُ والعبيدُ العميان.

خرجت من مكةَ تحت شمس قائضة من أيام صيف 460 هجرية.. يحملني شوق لصَــنْـعَــاءَ، طريق وسط جبال غبراء.. غابت الشمسُ من قممها الصغيرة.. أمسينا عند سفح جبلِ (ملكان) اروينا الجمال والدواب من بئر عميقة.. الجبال هنا تشبهُ الجـمالَ الباركة متداخلة متجاورة.. دليلنا يشير مسمياً لنا بأسمائها.. كنت قلقَاً من ملاحقة عسس الشريف.. أتجنب الاختلاط بالمسافرين.

حين اعترضنا جبل (يَلَــمْــلَــم) بلونه الغامق الموحش.. صادفنا

في مقاهي المحطة من يسألون عن أسماء بعض المسافرين.. ،خفت أن يعيدوني مكبلاً إلى مكة.. هربت مع أناس شبه عُراة ممن ينقلون الحطب.. سرنا وسط هجير شمس لا ترحم.. حتى وصلنا محطة (دوقة) ثم (قنونا).. ثم عبرنا وادبي الخضراء والليث حيث انبسطت أرض جرداء، لسبعة أيام نسير دون توقف.. تركت جالبي الحطب بعد أن شعرت زوال خطر عسس الشريف.. نعتلي آكاماً لنهبط وُدْيَاناً حَصوية جافة سعياً.. تكتسب الأودية خُضرة الأشجار الشوكية.. وبعض الأحراش كواديي: يبه وحلي ووادي بيش الذي تجري فيه نهيراتٌ دائمة.. تزداد خُضرة الوُدْيَان وتتسع كلما اتجهنا جنوباً.. هناك انتظرت القافلة التي خرجت معها من مكة. حين وصلنا بلادَ الهجر بوادي ضمد.. واجهنا قتالاً محتدماً بين سُكان القرى.. ما بين مؤيد للنجاحي وآخر للصُليحي أحمد المكرم.. شاهدنا أكواخَ القشِ تشتعلُ ليفر مَن يفر.. وترتفعُ رائحة شواء ممن علقوا من بشر وبهائمَ وسطَ ذلك اللـهب الذي يلتهم كـلَّ شيء.

* * *

ترتفعُ بنا الطريقُ لنرى صفحة البحر القريبة إلى الغرب.. وجدارَ جبال السراة الشاهقة إلى الشرق.. حيث عبرنا إلى مكة فوق تلك الجبال العالية.. وعلى إحدى قممها تركنا النخاس هناك.. سمعنا أحاديثَ الناس يتحدثون عن رَجُـلٍ دَفَنَ نفسَه في مسجد بناه في أعلى تلك القمم (بركوك) بجبل (منعا) يتحدثون عن هجرانه للناسِ قبل أن يتوفاه الأجل.. ليعتكفَ في مسجده ذاك الذي بناه.. بعد أن انتشرت معاصي

الناس ومفاسدهم.. يتحدث السكان هنا عن بركات ذلك الولي.. ويقال أن سكان قرى الجبال العالية قد أعادوا بناءَ مسجده.. وصححوا من اتجاه قبلته.. وحول الناس القبرَ إلـى ضريح يحج إليه الـمَـرْضَى والعواقر. أينما وصلنا تسابقنا أخبار معجزاته.

لا حديثَ للناسِ إلا عن بركاته. يقال أن صخر الجبل لان له قبل أن يموت، ليخط عليه الحنش الأقرع وأمه الحية.. ليرى سكان القرى ذلك الحنش من مسافات بعيدة على وجه الصخر.. ويقال أن خلقا كُثر قد زاروه طلبا لبركاته.. هناك حيثُ تعشعش السحب.

* * *

حين كان الوادي جافاً والشمس تظللنا.. فاجأنا دَوِي وقعقعة مخيفة ونحن في منتصفه.. ما لبث أن ظهرت لنا مقدمة سيلٍ عظيم.. لتتعالى الاستغاثات.. وينفرط عقدُ قافلة الجمال والدواب، دَبَّـت الفوضى.. دفعني حبُّ البقاء لأن أفلت هارباً.. خرجت مع من نجا لنقفَ على ضفة الموت نتأمل تعاظُمَه.. ما لبث أن غمرَ أجزاءً كانت مرتفعة.. ويلتقي مع سُيول وُدْيَـان المضايا وخلب وتعشر.

فضّلنا السفرَ ليلاً بقية المسافة والنوم نهاراً.. اتقاء حرارة الشمس الحارقة.. عبرنا عدة أودية في سلام وفي ليلة ظلماء شاهدنا نيراناً تُضيءُ مرتفعاتِ وادي مَوْر.. كانت الطريق تسير بنا في بطن الوادي.. لتداهَمنا السيولُ بهدير أطاش العقول.. لم نعد نسمع أصواتنا.. جرفني السيل مغموراً قادني حب البقاء للتشبث بجذع شجرة عظيمة.. احتضنتها

بكل قواي.. عند خيوط شمس الصباح رأيت قلة من الجمال والمواشي.. وبعض المسافرين يلوّحون لي من على رَبوة قريبة.. كان السيل قد خف.. اجتازوا بي محمولاً.. أشعرُ بأن في جسدي شظايا نار وقد تغير لونُه.. وانتشرت الكدمات والجراح.. ساقي المعطوبة أخذت تؤلمني بعد أن تورمت.. أخذت ومَن نجا نبحث عمن افتقدناهم.. جرف السيلُ عدداً كبيراً من قافلتنا.. نرى جُثَثاً يأتي بها السيلُ من أعالي الجبال وبعض البهائم النافقة.. فقدنا جوقة الجواري والعبيد العميان.

في محطة الدكيم بوادي (المهجم) توقفنا لنتفقد أحوالنا.. لم يعد معي مركوب أَوْ متاع.. بعد أن جرف السيل أتاني وما يحمله من متاع.. كتب شـَوْذَب والمعلم ورقوقي ويراعي التي ظللت أحملها طوالَ أشهر رحلتي.. فقط ظلت دراهمي في ثنايا ثوبي.

* * *

يتحدث سكان مدينة المهجم بشيء من الخوف حول مقتل مولانا الملك عَلِيّ محمد الصُّلَيْحِي.. وخيانة عبده (فرح) وسلاطين جزيرة اليمن المرافقين إلى مكة.. يقولون بأنه أخطأ حين جعل حاميته من الفرسان تسبقه بمسيرة يوم حتى تفسح الطريق.

حدثتنا صاحبة مقهاية في الوادي.. وقد اكتسى وجهها بمسحة الرهبة:

رأيتُ خيلاً كثيرة.. تنحدر من الجبال السامقة نحو وادي سردود..

كانت تزيد عن ألف فارس ومائة هجان تردد الحيود العالية أصداء جلبتهم.. يتبعهم ما يزيد عن خمسمائة جمل وبغل تنوء بحمولتها.. يسوقها عبيد غلاظ.

كانت تلك هي عسكر ومونة المسجد الحرام من الملك علي محمد الصليحي..

ازدحم ليل الوادي بالخيول والبهائم الكثيرة وانعكست السنة اللهب على ألوان الخيام.

قبيل بزوغ الشمس شدوا الرحال شمالا مخلفين رماد المجامر.. وبقايا عظام عشائهم.

في اليوم التالي رأينا موكبا عظيما لأكثر من خمسين سلطاناً من سلاطين جزيرة اليمن وزعمائها.. يتبعهم الملك الصليحي وزوجته أسماء يحيط بهم ابنهما الموفق وإخوته عبداللـّـه وإبراهيم.. وكبار قادته وأقاربه وعبيده المرافقين لأداء مناسك الحج.

يهبطون بخيولهم من ذرى الجبال العالية على نفس الطريق إلى قاع الوادي.. ما أن بدأ العبيد ينزلون الأحمال وينصبون الخيام حول صخور الوادي حتى قدم من يخبرهم بأن سعيد الأحول على رأس جيش من العبيد قادم لمقاتلتهم.. على الفور أمر الملك العبد (فرح) وبقية العبيد بالتوجه لمقاتلة الأحول الحبشي.. كما أمر بقية حاشيته والسلاطين المرافقين له بشد الرحال والمسير قدما.

وقبل أن يبتعد فاجأته سلاطين ورؤساء اليمن بالارتداد عليه.. وأن فرح وبقيه عبيده على دراية بقدوم سعيد الأحول لمقاتلته وقد انضموا إلى صفه.. رافعين سيوفهم وحرابهم في وجهه.

اشتبك الطرفان ضربا وطعنا.. بال الصليحي على نفسه هلعاً.. و لم تدن الشمس إلا وقد أنجز العبيد ما عليهم فعله.. لتُترك جثث القتلى من أقارب الملك وكبار قادته تصبغ حصى الوادي بألوان دمائهم. أعلن سعيد الأحول تقسيم تلك الغنائم التي كانت محمولة كهدايا إلى مصر.. واحتفظ بالنصيب الأوفر.. وقبل أن يتحرك باتجاه زبيد أعلن استعادة إمارة أبيه. سُيقت النساء وفي مقدمتهن زوجة الملك أسماء باتجاه زبيد.. وقد عُلق رأس الملك ورؤوس أخوته وبنوه على مقدمة هودجها.

ليعود سلاطين وزعماء جزَيرة اليمن.. معلنين قيام إماراتهم ومشيخاتهم.. وتعلن قبائلُ كُحلان وعَنَس وزُبيد ويحصُب ورُعَين تمردها.. ويعلن الإمام الداعي حمزة بن أبي هاشم قيامَ إمامته في صعدةَ مواصلاً الزحفَ على صَنْعَاءَ.. ويعلن زُعَماءُ المعافر سلطنتهم.. وأبين ومشارق جزيرة اليمن حتى عمان إماراتِهم.. وتعودَ جزيرةُ اليمن إلى ماضي عهدها.

* * *

أمسينا بقايا قافلة بعد سيل (رماع).. نصعدُ سفوحَ الجبال العالية متسولين طعامنا.. لم أفصحْ عما تبقى معي من دراهم لأحد.. نصعدُ من محطة إلى أخرى حتى الجبال العالية في حَرَاز.

هنا أتنفس رائحة المعلم.. صوته وهو يتلو ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ۝١٨ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ يعيدني إلى ذلك اليوم البعيد.. يوم سرت معه على هذه الجبال العالية حين أراني الكونَ البعيد.. وعرفت أن صَـنْـعَـاءَ ليست كـُـلَّ الدنيا..

يوم أخذت الدواب تصعد سفوح الجبال.. تصطك أظلافها بحصى الأرض.. تحيطنا دوامات الريح.. أراقب كـُـلَّ ما حولي بفرح ونحن نصعد طرق مليئة بالصخور السوداء.. قرى من أحجار داكنة.. جُدران مشققة يخرج منها الفلاحون.

يومها خرجنا من صَـنْـعَـاءَ غرباً.. لأراها من ذُرَى الجبال صدفة بيضاء.. تتكئ على جبالها كطبق لؤلؤ يندلح نحو السهل الغربي.. تبرز مآذنها ودُورها المزخرفة.. حين أخذنا نصعد وهي تختفي، نصعد مبتعدين في طريق ترتفع غرباً.. على جبال أكثر علواً.. حيث جبل قبر النبي شعيب المعمم بالغمام.. قرى تتلحف برداً قارصاً.. تحفها أشجارُ اللوز والسفرجل.. تناثرت قرى أحجار الصوان هنا وهناك.. نعتلي جبالاً لتظهر أخرى.. كنت في حيرة.. أَيَّةَ جبالٍ عالية يقصدها المعلم ونحن كلما اعتلينا قمة تركناها لنعتلي أخرى؟...!. لم أكن أتخيل بأنه سيعبر بنا كـُـلَّ تلك الجبال.

الخُضرة تغطي كـُـلّ شبر.. أزيز الحشرات يصم الآذان.. سبعة أيام من السير في أرض محدودبة حتى ظهر لنا حائطٌ لجبال عالية .. عالية حد الخيال.. أشار المعلم يومها:

– تلك هي الجبال العالية التي نقصدُها يا صديقي الصغير.

– أنها تلامس السماء.

– بلى يا صغيري.. وغدا نقف على قممها نحن!.

مسالك صخرية ضيقة وأشجار متشابكة.. ممرات صاعدة على حَوَاف جُرُوف بازلتية شاهقة.. استمرينا نسير صاعدين خلفَ البهائم.. حين أخذت ظلال الأشجار والصخور تتضاعف قبيل المغيب.. أسراب العصافير تتداخل زقزقتها من كـُـلّ اتجاه.. وصلنا إلى قرية على قمة سنام جبال حراز.. دُورها تهامس القمر ليلاً.. بتنا ليلتنا في مغارة كبيرة.. أدخلنا البهائم إلى عُمقها.. لتلك المغارة مقهوية تقوم بخدمة من يصل إليها.. يبدو أنها تعرف المعلم.. فقد رحبت باسمه. جمر المواقد يومض.. همهمة ودمدمة هنا وهناك.. أشباحٌ تتحرك ثم تعود لسكونها.. تنعكس ملامحهم على وهج الجمر في هذه الزاوية أوْ تلك.. ثم يعم الهمس.. ليهدأ كـُـلّ شيء.

في الصباح الباكر نقف وفوقنا قمم مغلفة بغيوم تحجب الرؤية.. يسد الأفق غطاء أبيض.. نسير صاعدين.. نتسلق تلك الصخور والمسالك.. تغمرنا ذرات السحب المسافرة شرقاً.. كالعميان متراصين خلف بعضنا

نتشبث بأصابعنا.. حاملين على ظهورنا أوعية جمع براعم وزهور وأوراق نباتات وأشجار هذه القمم.. يقودنا دليل من سكان الجبال.. تصعد بنا.. جروفاً ملساء.. تعرف ثغراتها.. تبعناها حتى وصلنا فسحة صخرية يعلوها جرف شاهق ليرتفع صوت دليلتنا بأن علينا الاستعداد.. شرحت لنا أن مَن أراد الصعود يُربط بحبال ليسحب إلى قمة البلاد العالية.. كان المنظر غريباً وأنا أرى المعلم وقد رُبط من خاصرته ليتدلى في الهواء فارداً أطرافه كطير محلق بلحيته المتدلية.. يُسحب رُوَيداً حتى تبتلعه السحب في الأعلى.. وهكذا الواحد تلو الآخر.. جاء دوري.. حلقت مغمض العينين.. أقلد المعلم في فرد أطرافي اتقاء الاصطدام بصخور الجرف.. كادت خاصرتي تنقطع لحز الحبل عليها.

نحن على أطراف بلاد تجاوزت حدود السحُب.. هدوء غريب.. السماء فوق رؤوسنا بزرقة الفيروز.. سهل واسع.. قرى ووُدْيَـان.. أغنام ترعى.. بهائم وبشر يفلحون الأرض.. أسراب عصافير.. ينابيع جارية.. يسمون تلك البلاد سقف اللـَّـه.. حيثُ أقرب مكان إلى السماء.. هنا يعيش الناس في سلام مع البرد الشاهق.. لا توجد وسيلة للطلوع أو النزول غير الحبال.. حدثنا دليلنا حين يريدون بيع إحدى مواشيهم فإنهم يذبحونها في الأعلى ليسهل إنزالها أوصالاً لتباع لحماً في أسواق جبال (حراز).. وإن أرادوا شراء ماشية فإنهم يشترونها صغيرةً حتى يسهل سحبها بالحبال إلى بلادهم.. هنا أغلى السلع هي الحبال.. حيث تمثل صلة الوصل بينهم وبين غيرهم.

سرنا في وُدْيَـان مليئة بالشجيرات والنباتات الغريبة.. نقطف زهوراً غضة.. براعم صغيرة.. يساعدنا عمال محليون.. لم أرَ من قبل ما يُشبهها.. يقف المعلم مشيراً إلى أفق مليء برُكام السحب: إذا نظرت غرباً هناك البحر حيث تنتهي الأخاديد والجبال.. وإذا اتجهت بناظريك شرقاً قد ترى جبال صَـنْـعَـاء.. لكنها وُدْيَـان السحب تعشعش تحت أقدامنا تحجب عنا كُـلّ شيء.

من هُنا عاد المعلم يومها إلى صنعاء بشَـوْذَب.

وها أنا اليوم أهبط من جبال حراز عائداً من مكة.. بعد سبعة ليال.. نسير من جبل إلى جبل يشدنا الشوق.. أحلم برؤيتها.. أجهشت باكياً وأنا أطل عليها من جبل النبي شعيب.. أرى مناراتـها.. دُورَها.. سُورَها الأبيض.. طيورَها المحلقة.. سرت مهرولاً في المَنحدرات أحاول احتضانَها.. دخلت بابَ السبح.. استقبلني صوتُ مؤذن العصر.. المناراتُ هي المنارات.. تملكتني حيرة.. أين أذهب.. أين أجدُ أخبْارَ شَـوْذَب، وأمي؟!. كانت بي رَغبة أن أكونَ في الأمكنة كلها في وقت واحد.. دفعتني رغبةٌ مجنونةٌ أن أركضَ وأركض.. ركضت بكلِ قواي.. أود أن أرى صَـنْـعَـاءَ قبل أن تغيبَ شمسها.. ركضت قاصداً حانوتَ المعلم.. وجدتُه كما كان دونَ سقف وأكوام التراب ومخلفات آدمية تتكوَّمُ بداخله.. دارُ المعلم هو الآخر دون سُور دون باب.. وقد أبيدت الشجيرات حتى أن تراب قبره سوي بما حوله.. صرخت بأعلى صوتي أناديه، أنادي شوذب.. تضاحك الصبيانُ من حولي.. لم يجبني أحد..

رفعت صوتي صارخاً وأنا أصعد الدرج المهجورة.. فتشت، هبطتُ هارباً من الخراب الذي لحقه.. حين سرت مبتعداً سمعت صوتُ امرأة تقفُ عند باب بيتها المنخفض :هل أنت مجنون.. البيت مهجور؟! سرت أعدو بأقوى رغبتي.

طرقت بابَ منزلِ أُمِّ أمي وأنفاسي تتصاعد.. سمعت ما يشبه صوتَ أمي.. خفق قلبي.. أَطَلَّ من خلف مصراع الباب وجهُ فتاة لها أيضاً عيونُ وابتسامة أمي.. عرفت من حديثها بأن البيت يسكنه الابن، وأن أم أمي قد تُوفيت.. وأنها لا تعرفُ أن لها عمة بذلك الاسم.. سألتني بحياء:

– مَن أنت.. ولماذا كُـلُّ هذه الأسئلة؟.

– جَـوْذَر..!.

اتسعت عيناها حين نطقتُ باسمي.. أخذت تتأملُ عينَيَّ بملامحَ متحفزة.. ثم أغلقت البابَ دون أن تتفوَّهَ.

اجتاحتني رغبةٌ بالصراخ عالياً.. لا أحبذ النظرَ في عيون مَن حولي.. نظرتُ إلى أعالي السماء.. صرخت وأنا أركضُ محاذياً للكنيس.. فكرت في أن أدخلَه فأنا أعرفُ مداخلَه وقاعةَ الصلاة.. والحاخام الطيبَ الذي يعتني به.. واصلت الركض.. يحملُني شعورٌ بالأمان واللامبالاة.. أسمعُ أصواتَ المارة.. أمعنُ النظرَ في أعالي دُور صَـنْـعَـاءَ.. المنارات.. قباب المساجد.. أركضُ يُصابُ الصبيانُ بعدوى الركض.. يركضون ناشرين أصواتَ الفرح.. تزدادُ نشوتي.. يقفُ كبارُ السن هازِّين رؤوسَهم..

البعضُ يضربُ كفاً بكف وهو يُحَـوْقِـل.

كان الصبيان يركضون خلفي حتى كاد صدري يتمزق.. وصلت إلى شارعَ بيتنا.. هم نفسُ السكان الذين كانوا فيه منذُ آخر مرة.. تحلّق الصبيان حولي.. نهَرَهم ذلك الرجلُ الذي أطل من منزل أمي.. لكنهم هرولوا خلفي حين ركضت صارخاً يتضاحكون.. تشعّبنا في أزقة أعرفُها.. عجزوا عن مجاراتي.. حملوا الحصى لرجمي.

رحلت الشمسُ خلفَ جبال المدينة.. توقفت أمامَ مشاعل النار في ميدان القلعة.. أناساً راجلين وفرسان وهجّـانة.. حَمَـلةُ سيوف وحِـراب ونبال.. جمال محملة بالمؤن، الميدانُ الأمامي لقلعة القصر يزدحمُ بالصخَب.. يتحدث الناسُ عن استعدادات المكرم أحمد الصُّـلَـيْـحي لمقاتلة سعيد الأحول.. واسترداد أمه أسماء بنت شهاب من أسره. قالوا بأنها أرسلت إلى ابنها المكرم برسالة أخفتها وسَطَ قطعة خبز.. تفيد بأن الأحول الحبشي قد ضاجعها وأنها حاملٌ منه.. وترجوه أن يخلصها قبل أن يرى ما في بطنها النور.

عقلي دوماً يقودُني إلى هذا المكان.. يدفعُني إلى بوابة القلعة.. لكنها الوجوه هذه المرة غريبة.. لم يلتفت إليَّ أحد.. ألححتُ على أحد حُراس بوابتها أن يسمعَني.. استمعَ إليَّ ثم قال غاضباً: هيا ابتعد.. لا يُسمَـحُ لأحد بدخول القلعة.. ولا أعرفُ عن أيَّـة حكاية تتحدث عنها.. ولا نعرفُ أسماءَ نساء القصر أوْ القلعة.

كنتُ على يقين من أن شــوْذَب بالداخل.. وأن قانح بالداخل.. قررت أن أعود الصباح.. وسأدخلُ إلى القلعة حيث هناك من أبحث عنهم.. سيستمع إليّ جنودُ الحراسة.. قد أجد مَن يعرفُني.

أُحــسُّ بأن شــوْذَب قد نجحت بالوُصول إلى صَـنـْعَـاءَ.. و لم تعلق في إحَدى القرى أوْ جبال الطريق.. لا أريدُه أن يظل حُلماً يُشقيني.. أودُّ أن أشفى من التفكير بها.. لم أعد أفهمُ مشاعري نحوَها.. هلَ هو حُبٌّ أم إحساسٌ بالمسؤولية تجاهها؟.

ليلُ صَـنْـعَـاء أزقة خالية.. تسكنُها الكلابُ والبرد.. شعرت بآلام ساقي.. بحثت عن مكان آوي إليه.. أصوات حُراس الأسواق.. واااااو.. يعقبُه آخر وااااو.. يتعاقبون هكذا طوالَ الليل.. أبحَـثُ في دكاك الحوانيت.. وقفتُ أمام ظلمة حانوت المعلم.. طردتني روائحُ العفن.. اقترَبَ صوتُ أحدِ الحُراسِ.. سرتُ مبتعداً.. كلابٌ تسكنُ الأزقة والشوارع.. يتبعُني نباحُ أحدها.. لم ألتفت.. كنت على يقين من أنها مثلي تسيرُ دون هُــدَىً.. ما إن يقترِبَ النباحُ حتى يتحولَ إلى عواء.. ألتفتُ لأراه يتشممُ الأرض ثم يئن كما لو كان قد عرف بأني شريد مثله.. أبتسم وأنا أواصلُ بحثي عن مكان.. تقودني قدمي إلى دار المعلم.

عدت في الصباح الباكر، غُصَّتْ الساحة الأمامية بصُفوف الجُند والخيالة.. لا زالت بعضُ المشاعل في أركان الساحة.. جلبة الطبول تصُــمُّ الآذان.. تحركت صفوف الجُند باتجاه شارع القُطيع نحو البوابة الغربية.. نساء وأطفال على سطوح الدُور.. رجال وصبيان في صفوف على

جوانب الشارع.. خرج المكرم أحمد من باب القلعة في جُند وهجّانة كُثر.. يقالُ إن الملوكَ يتشابهون.. لكنني أرى المكرمَ أطولَ من أبيه الراحل، كأني أسمع تذمر الخيلُ لثقله.. خرجت جموع كثيرة تودعه باتجاه السهل الغربي للمدينة.. خفت الجلبة وتضاءلت المساحة التي يسيرون عليها.. يتوغلون في فضاء السهل الأخضر باتجاه جبل بلاد البستان.. ارأيت الحراس يغلقون مصاريع الباب الغربي للمدينة.. امتلأت أسطح الدُّور الملاصقة للسور بالصبايا والرجال يتابعون سيرَ المكرم وجُنده.

* * *

ثمانية أيام أتردد فيها على جند بوابة القلعة.. دونَ جدوى.. ما إن أقترب حتى يرتفعَ صوتُ أحدهم يزجُـرُني قبلَ أن يسمعَني.. أعودُ لأزقة المدينة أتسكع.. أبحثُ عن ظل أركن إليه.

قد يكون قلبُ ذلك الجندي رَقَّ لي.. أَوْ أنه لاحظ تردُّدي على البوابة.. رأيتُـه يُشيرُ لي بالتقدم.. تيقنت بأنه يعرفُني.. مَدَّ يدَه مصافحاً.. تحسست كفه كالغريق أنظر في عينيه.. شعرتُ بسعادة طفرت من عيني.. قال لي والابتسامة لم تفارق عينيه:

– أراك تقفُ منذُ أيامٍ بعيداً ناظراً إلينا. قلتُ له بصوتٍ خافت:

– أتعرفُـني؟.. أجابني بشكل سريع:

– لا.. لكن وجودَك بشكل دائم لفت نظري.. قال زملائي بأنك تتردد على البوابة .. فما حاجتُك؟.

ظللتُ مُتشبثاً بكفه وأنا أنظرُ إلى عينيه.. أصابعي تتزوَّدُ بدفء يديه:

– أريدُ مقابَلةَ صديق لي كنا نعيشُ مَعاً داخل القلعة!.

– ما اسمُه؟.

– قانح.. كنا في خدمة مولانا الملك الصُّلَيْحِي!.

– قانح!. هل أنت على يقين مما تقوله!.

– على يقين.

– ما اسمُك؟.

– جَوْذَر.

– تسأل عن إنسان قُتل منذ أشهر..؟!

– قُتل!

– قتله الحبشي سعيد الأحول وهو يدافعُ عن مولانا الملك!.

لم أعد أسمعُ بقية كلماته.. سحب كفه من بين يدي.. غامت عيناي.. خارت قواي عن الوقوف.. وكأني أسبحُ في عتمة لا لونَ أَوْ رائحة لها.. حين أفقتُ كان مجموعة يتحلقون حولي ،يتأملون هيئتي الممددة، يتهامسون.

حاولت أن أتكلمَ لكنه أشار عليَّ بالصمت.. قدَّمَ لي وعاءَ ماء..

أمسك بكفي يتأمل وجهي.. أحسست بأني استعدت عافيتي.. استويتُ في مكاني أنظر إليه وأنا أفكر في مصيبتي.

استعدت منظر ذلك المكان الذي دارت فيه المعركة بين عبيد الملك النجاحي ومرافقي مولانا الأجل.. تخيلت قانح يحمل عليهم مدافعاً عن ملكه، بل صديقه.. وهم يحاصرونهم.. يسددون سيوفهم وحرابهم إلى صدورهم.. يجزون رؤوسهم.. ليتركوا أجسادهم للضواري والنسور.. لماذا لم أشعر بوجود روحه تهيمُ هناك؟.. لماذا لم ألتقط راحته.. بقايا صوته بين تلك القفار والسهول الحارة؟. لهفي عليك يا صديقي.. لماذا خدعتني حواسي؟. كانت خيالاتُ أيام مضت تتزاحمُ في رأسي.. حين كنا سوياً في ظلمة اللــه.. وأثناء وجوُدي بداخل القلعة.. كنت قد تصورت ما سيجري بعدَ لـُقياه.. أحكيَ له كـُـلَّ ما جرى في طريقي إلى مكة.. ويحكيَ لي وقائعَ مرافقته لمولانا الملك إلى أبين وصعدةَ وحضرموت.. وإلى تهامة والمعافر.. ها هو يتجاوزُ كـُـلَّ شيء وكأن ما بيننا لم يكن.. وها أنا أعود لأقف دون أحد.

تدافعت دموعي.. أيقظني صوتُ ذلك الرجل ولا زالت يدي بين كفيه يواسيني:

– هل أنتَ بخير؟.

– نعم.. ويجزيك ربُـك الخير.

– هل ستنصرفُ الآن؟.

- تبقى لي سؤال!.

- ما هو؟.

-أثناءَ خدمتي في هذه القلعة كنتُ أبحثُ عن فتاة.. قيل لي بأنها كانت في خدمة السيدة أسماء زوجة الملك في حصن مسار في حراز.. أرسلتها إلى مكة لتكون في استقبالها عند قدومها للحج.. وحين وصل خبرُ مقتل الملك غادرت مكةَ عائدةً إلى صَـنْـعَـاءَ.. وأنا أحملُ لها أمانة.. فهل لي بأخبارها؟!.

- وما اسمُها؟.

- شَـوْذَب.

- لا أحد هنا يمكنه مساعدتك في هذا الشأن غيرَ امرأة قضت عمرَها في هذه القلعة.. وهي الآن تسكنُ في حارة الجديد.. يعرفها الناسُ بأم الجواري.. زُرْها.. قد تفيدُك.

أم الجـــواري

جلست أمامَ كائن لا يُشبهُ أحداً في شيء.. بشرة وجهها وكَفـَّـاها فاقعا الحُـمرة.. وقد اختفى لون بشرتها الذي عرفته.. جسدُها تضاءل وانكمش.. تتشبث أصابع يدُها اليُمنى ببُـقشة تضُـمُّها إلى جوارها.. وبكفها اليُسرى تمسكُ ذراعي دون أن تعي ما يدور حولها.. تتحدث بعيداً بعيدا.. أحاول ربط الكلمات ببعضها.. صوتها ترفعه وهي تتحدث باحتدام.. لتخفضه.. ثم تحتدمُ من جديد.. تتحدث في موضوع يبدو أنها بدأت به منذ سنين و لم تنهه بعد.

أَقتربُ من أذنها.. أَهمسُ لها بأني ابنها جوذر.. وقد عُدت إليها بعد ضياع سنين.. أرفع صوتي.. أبكي بين يدَيها.. أسمعُ ذلك الصوتَ الذي لا تخطئه أذني بمخارج حروفها التي أميز نطقها.. توالى حديثها بنفس الوتيرة دون توقف.. حتى بعد أن تركت معصمي.

في البدء أنكرت أن تكونَ أمي.. تأملتها مرة أخرى: وجهٌ صغير.. بشرة فاقعة.. جسدٌ يتوارى.. بقايا امرأة لا تعي ما حولها.. تنظرُ إليَّ لتخترقني

نظراتُها.. تنظرَ إلى البعيد.. إلى فراغ مُطلق وهي تواصل حديثها.. تستمر في تمتماتها بكلمات لا يفهمُها غيرُها. [3]

كان ذلك المنزل يقعُ في الدور الثاني فوقَ مطاهير وأحواض مياه الوضوء من مبنى مسجد الطاؤوس. تطلّ نوافذه على شارع ضيق.. هو نفسه الشارع الذي سرت فيه مراراً أبحث عنها بعد ظلمة الله.. أبحثُ عنها منذ سنين.. أسيرُ جوارَها.. لماذا كانت بعيدة؟ولماذا كان علي حتى أجدها أن أذهب إلى مكة؟.. ما قادني إلى تلك الديار الجدباء؟هل كنت أبحث بحثي عنها؟ أم عن شوذب.. أم عن روحٍ لا زالت في مجاهل الغيب تائهة؟

أجلس إلى نفسي مرارا.. أحاورها.. فأجدني أجلس معها غريباً لا أعرف نفسي.. فمن الغريب؟ وكيف أخرج من غربتي.. أم أن دنياي غربة كما قال لي قانح ذات يوم بوصف الحياة قيد.. وحين تتجاوزها الروح تكون قد تحررت من حبسها وقيودها.. إلى فضاء لا غربة فيه ولا شقاء.

* * *

حين خرجت إلى شوارع المدينة، كانت الشوارع مزدحمة بحركة السيارات.. دخلت صنعاء القديمة.. ضجيج الباعة والمتسوقين.. صدمني منظر حريق جزء من السوق.. اتجهت في الشارع المؤدي إلى حي الجامع العتيق.. آثار الحريق تزداد كلما توغلت.. عرجت على دار المخطوطات.. أذهلني حجم الحريق.. رأيت الدار أكوام رمادا.. لم يعد الجامع العتيق كما كان.. وكذلك الدور المجاورة وجزء كبير من الأسواق القديمة.

عرفت أن الأجهزة المختصة حققت في الأمر.. وقد توصلت إلى أن أسباب ذلك الحريق تماس في أسلاك كهرباء الدار.

حين طرقت البابَ سمعت من خلفه صوتَ صبي.. ما لبث أن ظهر.. نظر إليّ.. فتح فمَه وعيناه تضيقان.. صفق البابَ بشدة.. سمعتُ صوتَه يصعدُ الدرَجاتِ باكياً.. ما لبث أن أطل عليَّ من نافذة الدور الثاني رجلٌ:

- مَن بالباب؟.

نظر لبُرهة ثم رفع صوته: اللـّـه كريم!. وأغلق النافذة.

كررت الطرق.. سمعت هديرَ كلماته وهو ينهب السلم بخطواته نزولاً.. تفحص شكلي بوجه عَبوس:

- ألم تسمعني؟.. هيا.

كنتُ أود سؤاله.. وكان على أصابعي أن تلامس أصابعه.. مددت يدي لأصافحه.. ارتبك.. مد يدَه.. أمسكتُ بها.. حاولتُ النطق.. جاءت أمي من الماضي وكفه بين كفي.. غبت للحظات عما حولي: خرج صوتي مرتبكاً:

- أمي لديكم!.

- مَن أمُّـك؟.

- يائيل.. أرسلتني إليكم شوو... الحَـجَّـة فندة!.

- أنت جَـوْذَر!. انفرجت ابتسامة شفتيه.. فرد ذراعَيه يحتضنني.. يلهج:

- تفضل المعذرة .. نعم أمي يائيل في الأعلى.. لقد أعياها البحثُ عنك!.

ازداد طنينُ أذني.. ضرباتُ قلبي.. وأنا أتبَعُه صعوداً على سُلـَّـم طينيٍ مُستقيماً نحو الأعلى.. يردد الرجل: اللـَّـه.. اللـَّـه. ثم يلتفت إلي: زارتنا البركة.. أمك مباركة يا أخي يا جَـوْذَر.. منذ دخلت بيتنا حل رضا اللـَّـه علينا.. رُزقت بابني بعدَ سبع سنوات من الانتظار.. ثم بطفلتي الذي أسميتها باسمها، وشفيت أمي من مرض لازمها منذ سنين.. وزاد الرزقُ بفضل اللـَّـه.. أمك من أهل اللـَّـه.. يا مرحباً بأخي جَـوْذَر. رفع صوته وهو يردد:اللـــه.. اللـــه. ثم يعاود النظر إلي وهو يبتسم: حلت البركة يا جَـوْذَر.. يا أهلاً وسهلاً يا جَـوْذَر. يمط الراء جَـوْذَررر حين كنا في آخر الدرجات.. ضوء الشمس يدخل من كوة أعلى سقف حجرة مربعة.. امرأة مكومة تحت أشعتها.. وقف ذلك الرجل جوار تلك الكومة لإنسانة غير واضحة التفاصيل.. مبتسماً وهو يشير: هذه هي أمك!.

عرفتُ فيما بعدُ أن ذلك الرجلَ هو إمامُ مسجد الطاووس، ورث إمامة المسجد عن أبيه الذي قُتل في إحدى نوبات دُعاة الإمامة.. يسكنُ في المنزل الملحق بالمسجد هو وزوجتُه ووالدته وطفليه.. زوجته تطلق على أمي "أماه".. وهي مَن تقومُ بخدمتها والعناية بغسلها وتنظيفها.

أُمُّــه ظلت على اعتقادها بنجاسة اليهود.. لم يشفعْ لأمي معالجة آلامها المزمنة.. وإن كانت قد خف ذلك الاعتقاد لديها بعد أن رأتها عاجزةً حتى عن فهم ما يدور حولها.

* * *

حدثتني زوجة إمام المسجد الكثير من حكاياتها مع أمي: أعرفُ أمي يائيل منذُ كنتُ صبية.. في ذلك اليوم اصطحبتني أمي إليها كي تعالجني من رعشة الليل.. تقول لها أمي: ابنتي ترتجفُ وهي نائمة.. تصحو لتبكيَ بحُرقة.. بعد ذلك عرفت طريقي إلى بيتها.. طوال سنوات عمري أتردد عليها لخياطة ثوب.. أوْ علاج أحد الأقارب.. وكانت آخر مرة زُرتها من أجل زينة عُرسي.

انقطعت زيارتي بعدها، حتى ذلك اليوم الذي ذهبت أشكو لها الخلَف.. وعدتني أن تزورَني في بيتي.. بعد أيام هجمت قبائل إمام جديد، أغارت على المدينة.. ثلاثة أيام من السلب والنهب والاختطاف.. وحرق الحوانيت والدُّور.. قُتل مَن قُتل وهرب من صَـنْـعَـاءَ مَن هرب.. واختُطفت الكثيرُ من الفتيات والنساء.

خرجتُ في ذلك النهار لأزور إحدى قريباتي في حارة مجاورة.. أظلمت المدينة وأنا عند قريبتي.. ودَّعتُها قبل أن يهطل المطر.. فاجأتني السماءُ بمزنها منتصف الطريق.. اقتربت من رُكن المسجد الذي منزلنا هذا ملحقٌ به.. رأيتُ في الركن الآخر امرأةً تقعُ أرضاً وسَطَ وحل المطر، اتجهت نحوَها.. لم تكن إلا أمي يائيل ببُـقشتها تلك.. وقد ربطت ساقها المكسورة.

صعدت بها درَجات بيتي.. ومنذ ذلك النهار الماطر وهي بيننا.. تعافت من كسور ساقها وأضلاعها.. قالت لي بأن أحَـدَ الرّعَـاع من النّهابة كسر بابَ بيتها وأوسعها ضرباً.. كاد يقتلُـها حين لم يجدْ ما يسلبُه.. تركها

وخرج.. لتخرج خوف عودتهم،أخرجت أشياءَها من خزنة جدارها وهربت مرعوبةً وخائفة من البقاء في ذلك البيت.. تأتيها النساءُ طلباً لوَصفة أوْ تعويذة.. لم تعد قادرةً على التطريز.. تسأل عن ابنها جوذر هل جاء يسأل عنها.. تبكيه في صمت.. تنظُرُ إلى فراغ ما حولها.. تدعو رَبَّها.. مع مرور السنوات أخذت ذاكرتُها تتلاشى وحواسها تَتَبْهُت.

حين شكوتها عدم الخلفة، خمسَ سنوات تداويني حتى حملت وها هُو الصبي أمامك وتلك يائيل الصغيرة.

ترددت علينا في الأيام الأولى فتاةٌ اسمُها شَوْذَب وأُمها تبحثان عنها.. جاءتا لزيارتنا.. قالتا بأنهما سيعودان في أيام لاحقة لأخذها.. كان ذلك منذُ سنين بعيدة.. لكننا عرفنا بعد ذلك بأن لصوصَ الصبايا قد كسروا بابَ دارهما أثناءَ هُجوم قبائل أحد الأئمة وأخذوهما سبيتين.. مرت سنون طويلة دون أن نسمعَ عنهما خبراً.. وقبلَ أسابيع زارتنا امرأة عرفتنا بأنها عائدة للتو من مكة.. قالت بأن اسمها (فندة).. أوْ الحجة فندة.. كما تحب أن يُطلَقَ عليها تزور أمي يائيل، تهامسها كثيراً ثم تتركها وتذهب.. تصلي العصر في زاوية النساء بالمسجد.. يتحلقُ حولها نساء.. يسألنها.. تعظهن.. كان وجهُها يُذكرُني بشَوْذَب.. أتحَيَّنُ الفرصة لأسألها.. أتردد لطولها الفارع وجسامة بدنها.

* * *

قبل أن أستدل على بيت إمام مسجد الطاووس.. دلني صبيانُ حي السرار على حارة الجديد.. حيث بيت أم الجواري الذي يشبهُ بيتنا..

وإن كان بابُه عالياً قليلاً.. فتحت الباب امرأة طاعنة في السن.. نحيلة وقصيرة.. عيناها متوقدتان.. لها بشرةٌ بيضاءُ متغضنة.. صافحتها.. سألتني وابتسامة ساخرة على وجهها:

- ما هي حاجتُـكَ؟.

كان صوتُها حاداً.. كلماتها تَـمْشِـي ببقايا ثقة.. أتأملُ بشرةَ يدها المجعدة.. أشعُـرُ بتيقظ حواسها وهي تتفحصُ شكلي.. كَثيراً ما يُخطئُ إحساسي.. سألتني: أتشعُـرُ بشيء؟.. قالتها بحذر وشفقة.. لتمُـدَّ يدَها الأخرى تربِّـتُ على يدي.. نظرتُ إليها مُتوسِّلاً.. قالت وقد تغيرت تقاطيعُ وجهها:

- تكلمْ ماذا تريد؟.

خرج صوتي هامساً:

- جئتُكِ وكلي رجاءٌ أن تساعديني!.

- فيمَ؟.

- أبحث عن فتاة كانت في خدمة السيدة أسماء زوجة مولانا الملك قدَّسَ اللـّـهُ سِرَّه!.

- خادماتُ السيدة كُثر.. فما اسمها.

- اسمُها شَـوْذَب.. وقد عادت قبل أسابيع من مكةَ .

- لم أسمعْ بمثل هذا الاسم..

شعرتُ برَجفة صدري.. أبحثُ عن معنى لكلماتها.. قلتُ لها بصوت فيه التوسل:

- أرجوك اعطفي عليَّ.. لقد أشقاني البحث.. ساعديني.

- ما حكايتُك معها؟.

- كنتُ أجيراً لدى والدها.. ثم غِبت عنهم لسنوات.. وحين عُدت لم أجد أحداً منهم.. ثم عملت في خدمة مولانا الملك في قلعته.

قاطعتني بلهفة.. وهي تبتسم:

- وماذا كنتُ تعمل؟.

- نقاش..

- أنت من نقش جُدرانَ قاعات القلعة العليا؟.

- نعم.. أنا.

صوتُها لان كثيراً.. وتقاطيع وجهها تغيرت.. ودفءُ أصابعها يُمسكُ بمعصمي.. دعتني للدخول.. أجلستني جوارَها ممسكةً بيدي.. قالت بصوت ضاحك:

- كـلُّ هذا الشقاء؛ لأنك كنتَ أجيراً عند أبيها!.

- كَثيراً ما سألت نفسي هذا السؤال..!.

- هناك امرأة وليست فتاة، قدمت قبل فترة من مكة.. قد تكون هي أَوْ أنها تعرفُ حكاية مَن تبحث عنها.

- أيمكن أن أقابلــها؟.

- عُــد إليَّ غداً قـُبَيلَ غروب الشمس.

* * *

كانت أُم الجواري امرأة وحيدة.. وليس كما يوحي اسمها.. بل لم يكن حولها أي جوارٍ أو صبيان.. عرفت فيما بعد.. بأن ذلك الاسم خُلع عليها بعد أن تقدمت في السن.. وعُرفت بحذاقتها في تأديب صغيرات الجواري.. فكانت للصغار أماً وللكبار أختاً.

بعد أيام من ترددي على بيتها.. آوتني أم الجواري في بيتها.. تحب أن تحكي حكايات كثيرة عن ماضي حياتها.. وسط حشد من الجواري والغلمان.. حتى غرامها.. لكنها يوما لم تتطرق إلى أصل منبتها.. أو سبب خروجها من خدمة قصر القلعة.. وكذلك عدم وجود أبناء لها.

ظلت امرأة غامضة بالنسبة لي.. لكنها كانت صادقة دوما في كل شيء.. لم تكن تصلي صلاة عرفتها من أمي أو المعلم.. ودوما تردد علي "أن الله لا يريد منا إلا أن نكون أسوياء.. وأن نستقيم في معاملتنا مع كل الناس.. وأن العبادات واجبة حتى تذكر الغافل بأوامر الله كي يكون إنسانا مستقيماً" تقول لي " وأنا عرفت كيف أستقيم دون عبادة.. فمن وصلت للغاية دون وسيلة رفعت عنها العبادات الشعائرية".

تعترف لي أحيانا بأنها كانت تحضر حلقات درس فقه مذهب آل البيت.. وأنها هناك عرفت طريقاً قويماً لا يعرفه إلا القلة.. وأن الله الذي يبحث الضالون عنه.. ليس بعيدا عن أنفسهم.. حتى يفكرون بعيداً في البحث عنه.

كانت حين توغل فيما تحمله تبدو لي كائناً غير أم الجواري الذي عرفتها.. أم الجواري التي فتحت لي باب بيتها ذات يوم.

ولذلك مكثت أكرر أسئلتي أسيراً.. عسى يوما تجنح بحكاياتها.. لأعرف من تكون هي غير أم الجواري التي يعرفها الناس.. كان قلبي يحدثني بأنها قد تكون ظبية أم جعدن.. لكنها لا تفضل أي حديث يقود لما يخصها.

مسجد الطاووس

مع ربيع 461 للهجرة.. أخذت أخبارُ حرب المُكرم تتواصل من زبيد.. حين تواردت أخبار انتصاراته.. أُشعلت النيرانُ على أسطح الدُّور ونُفخ النفير من القلعة وأبراج أبواب صَـنْعَـاء الأربعة ابتهاجاً بانتصار المكرم على الحبشي الأحول.. بعد دخول جيشَه زبيد.. وفك أسر والدتَه السيدة أسماء من أسر الأحباش.. وهروب الأحول إلى إحدى الجزر بالبحر.. ومع بداية أشهر الصيف كانت أنحاء تهامة وحتى الحجاز بيد المكرم.

كنتُ قد عُدت إلى بيت أم الجواري في موعدها متلهفاً.. يخفقُ قلبي خوفاً وآملُ أن ينتهيَ شقائي.. رسمت ابتسامة عَطوفة على وجهها وهي تسحب يدي لأدخلَ بيتها.. ثبتت نظراتُها في عيني وقد ركعت أمامي قائلة: سأقودُك إليها اللحظة إن شئت.. وعليك تقديرُ ما أستحقه!. وجدتُ مُنادياً بداخلي يردد: إليها.. إليها. كانت قد نطقت كلماتها وهي تضغط على مخارج كـُـلّ حرف.. كمَن تقولُ أنها على يقين مما تعنيه.. ظلت تنتظر إجابتي وهي تدعكُ أصابعي بين يديها برفق.. ووجهُ شـَـوْذَب يأتيني باسماً.. صوتها.. همست كمن يحدثها هذا أنا جئت لملاقاتِك ولو

بعد سنين.. جئت حسب وعدي لك.. فهل ستقبلين عذري؟.

أمسكت بأكتافي تهزّني:

– لم ترد عليّ.. هاه كم ستدفعُ لي؟.

تُمعِنُ النظرَ فيّ وعيناها تتسعان.. وفمها يبتسم.. وأنا أفكر فيما سأقوله:

– أنت مَن تقدرين ذلك.. لكن اعلمي بأني لن أدفعَ إلا إذا كانت هي من أبحثُ عنها!.

– إذاً اتبعني أيها العاشق المشرد.

أغلقَت بابَها.. هززتُ رأسي وأنا أمُــدُّ يدي كالمسحور.. تسير بي.. لاحظتُ أنني في مثل نحافتها وقُصرها.. تشبثتُ بيدها كصغير يخافُ أن يتوه.. حتى أن يدَها تعرقت.. الشارع المؤدي إلى سوق الطعام.. سوق الملح.. أزقة خالية إلا من بعض المارة.. عبرنا تحتَ قناطر حَجَرية.. حين عبرنا ميدانَ الجامع الكبير.. بحثت عنها علها تنتظرُني.. لم أرَ أحداً.. عدا صراخ المارة وجموع الناس وخيال يسير على خيله بعنجهية.. ذكرني ذلك المنظر بيوم سحب عسكر الإمام الملثم المعلم.. حين كانت تعدو الخيل

بعد أيام من خروجي من السجن سُلمت قرار فصلي من عملي.. مبرر الفصل.. إفشاء أسرار العمل وخيانة الأمانة.
أصبحت شبه مشرد وعاطل وأضحى الوقت ملكي.. ولذلك أبحث عما أشغل به وقتي من قراءة.. كما أبحث عن عمل.

وبقايا جسد المعلم يتناثر على حصى الطريق.. يُصب القطران على كومة الكتب فوق جسده الممزق.. يشعلُ العسكرُ اللـَّـهَبَ ،يرتفعَ الصراخُ والتهليل من الجموع.. تجاوزنا الميدانَ لم أكن أعرفُ إلى أين ستذهبُ بي أُمُّ الجواري.. أُخمِّـنُ ولا يَصْدُقُ تخميني.. فكرتُ أن شَـوْذَب في دارهم.. ثم تذكرت بأنه مهجور.. قد تكون عادت.. لكن أم الجواري لم تسلك الأزقة التي تؤدي إليه.

وصلنا أطرافَ حي (المقابر) عبرن أزقة (الزُّمُر). دخلنا زقاقاً يؤدي طرفُه إلى خلاء مقفر.. طرقت بابَ بيت جُدرانه من الطين النيئ.. استقبلتنا فتاتان.. صالة مستطيلة بها مَرَايا على الجدران.. تكايا مرتفعة.. بُسُط مقلمة ومساند مزركشة.. أجلستني على أحد البسُط.. حولها الفتاتان يسايرانها حتى اختفت خلف أحد الأبواب.. ترتجفُ أطرافي من أن يكون ما أنا فيه وَهْماً.. أسئلة مرتابة بداخلي.. أستعجل النهاية.. أتأملُ ما حولي.. أتذكر أمل قانح.. أبتسم بخوف.. تكاد أطرافي تتجمد.. كفاي يتعرقان وأنا أواسي نفسي بدعكهما.. امتدَّ الوقتُ إلى أن سمعت أذانَ مغيب الشمس أحدِّثُ نفسي هل سأراها.. أيُعقلُ أن نهايةَ الشقاء اقتربت؟.

سرحت بي الذكرياتُ إلى آخر لقاء.. يوم أن تواعدنا أمام الجامع الكبير.. كنت أستعدُّ لأن أُعيدَ لها إشراقها وحيويتَها.. كانت صامتة.. ذابلة.. وكنت أسعى لمعرفة سر ذلك التحول.

عادتا الفتاتان.. تتبعهما عدة فتيات.. ثم صوت أم الجواري: هيا

أفسحوا لها!. دخلت ممسكةً بمعصم امرأة طويلة..!. تبحثُ في عيني عن شيء ما.. وجهُها يُشبهُ وجهَ شـَوْذَب.. لكنه أكثر استدارةً.. عيناها الصغيرتان.. فمُها اتسع قليلاً.. تبتسمُ لي.. وقفتُ مرتبكاً.. هل هي السنون؟.. سمعت نقرَ أظافر على جلد دُف.. رأيتُ أجسادَ مَن حولي تتمايلُ في دوائر.. لم أجرؤ على نطق أيَّــة كلمة.. كمَن يحلُم.. سمعت هديراً قادماً من بعيد.. أرى ذلك اليوم.. أرى أمي.. أريد أن أسألها: هل لا تزال على قيد الحياة؟. جلست جِواري ترمُقُني بطرف عينها الغنجاء.. وجهها أكثر امتلاء.. تهتزُّ مع إيقاع الدُّف.. تمنيتُ أن تمسكَ بكفي.. كانت منطربةً بتلويح راقص.. تهتز بخفر.. أصابعي ترتجف.. تصطك مفاصلي.. تجرأت وأمسكت بكفها.. لم تهتم لذلك.. ترمُقُني بنظرات نشوى.. هذه يدها تحت يدي.. رائحتها تقتحمُ مسامي.. زادت دموعُ عيني وأنا أراها جواري.. لم أكن أصدق.. همست أجرِّبُ صَوتي متضرعاً لها:

- شـَوْذَب!.

خنقتني عَبرةٌ مفاجئة.. لم تسمعني لارتفاع إيقاعات الدفوف.. كررتُ :شـَوْذَب. التفتت باسمة وهي تهتز.. لتتأكد من أنها سمعت صوتاً.. قطبت حاجبيها تسأل. رفعت صوتي.. مالت برأسها.. رفعت صَوتي: شـَوْذَب. التفتت وهي تهُـزُّ رأسَها.. همست ضاحكة في دلال: (فندة). ماذا تعني فندة؟ همستُ في أُذُنها: أريدُ أن أتحدث إليك.. أن نكونَ لوحدينا!. استجابت واقفة.. وقد تخلصت من قبضة يدي..

رفعت كفها حتى ظهر إبطها تصفق.. قائلة: الضيفُ يريدُ أن يرتاح.. أَوْ أن لديه كلام سرٍ. وارتفعت ضحكةً عاليةً ممطوطة. هتملت أسأل نفسي: هي شوذب!

غُرفة بالدور الثاني.. نافذة تطل على سُكون الليل.. بُسُطٌ مرتبة.. مخدات.. مسرجة يتمايل لهبُ فتيلها لنسيم النافذة.. سُفرة تزاحمت عليها أوعية الطعام.. إبريق وكؤوس.. مجمرة يتراقصُ من عليها شذا بخور.. غابت قليلاً.. أشعُرُ بحرارة وجهي.. صوان أذني.. شيء بداخلي يُبعثر تفكيري.. التقطتُ الإبريق.. استنشقت محتواه.. رائحة خمر.. كنتُ بحاجة إلى ذلك، يُزيلُ ارتباكي.. عادت تقفُ أمام مرآة.. أسترق النظرَ إليها وقد تخففت من بعض ملابسها.. قالت دون أن تلتفت: أتريد الاغتسال؟.. هُناك مُغتسل. شعرت بخفة بعد أن اغتسلت.. تبتسمُ لي بدَلال.. جلسنا متجاورَين.. مدت ذراعَيها وقد مالت عليَّ بقَوام فارع وممتلئ، قالت بشفة ملوية:

– الآن نحن لوحدنا.. هيا أرني ما تخبئه تحت هذا الشعر!.

تتحدثُ وهي تنغمُ صوتَها.. أبحثُ عن كفها.. تعبثُ بشعر رأسي.. تنظر إلى عيني بخجَل.. أسأل نفسي: هل الخجَلُ يُلازِمُ النساءَ طوالَ أعمارهن؟.. أم أنهن يتصنعْنه بخبرة الاشتهاء؟!. أمسكت بأصابعها.. أحسستُ بجفاف حلقي.. تأملتُ ذلك الإبريق.. التقطته.. ملأت كأساً.. تتابع صمتي.. كنت أريدُ التخلصَ من ارتباكي.. أن أحدثَها كَثيراً.. أن أعرفَ حكاياتها.. أخذت هي تملأ الكأس.. أرشف من يدها لتعقب هي

الرشفة.. قلت وقد بدأت رغبة الحكي تستعر: تعبت بحثاً عنك.. ذهبت وراءَك إلى مكة. وضعت كفها على فمي: لا وقت للحديث.. قل لي ما هو الذي يريحُك حتى أفعله؟!. حاولت أن أقول لها ما يُريحُني أن أسمعَك وتسمعيني. لكنها كانت أسرعَ حين ملأت كأساً ثالثة.. قلتُ لنفسي: الليل طويلٌ وها هي إلى جواري ولِمَ الاستعجال؟.. أمسكُ بوجهها.. كتفيها.. صدرها.. أتأمل تلك الزنودَ الممتلئة.. تبدو أضخمَ مما كانت.

تمددت جواري، تزيلُ ملابسي.. مررت راحةَ يدها على أضلعي.. بقايا رَهبة تسكنُني.. تلتصق خلفي.. تتكئُ على كُوعها.. تُدخل أصابعَها تحت شعري.. تتلمسُ كتفي.. رقبتي.. همست لي: أريدُك أن تخبرَني عما يعجبك في النساء؟.. لم أجبها.. كنت منتشياً أو هو الخمر.

أتلذذُ بإحساس بدأ يجتاحُ جسدي.. تلتصقُ مُثنيةً فخذَها بين فخذي.. تُدخلُ يدَها من تحت إبطي.. تمسكُ بشفة الكأس.. أتواطأُ معها.. تسحبُه.. تُعيدُه بعدَ لحظة فارغاً.. فاجأتني كلماتها: تشرب كَثيراً؟. ملأته من جديد.. أشعرُ ببلل شفتيها على ظهري.. أطرافها تطوِّقُني.. تعبَثُ ببشرة بطني.. تلامس آثار جرح عانتي.. ارتشفت عدةَ رشفات.. كلمات ملونة.. أحسُّ بها تحملني.. سمعت صوتي يُسافرُ في الطريق إلى ظلمة اللـّه.. لا أدري لماذا تذكرت عفونة وحلها.. صراخ ساكنيها.. قسوة عراكهم.. حين كان طيف شوذب يزورني.. ارتفع صوت لا يشبه صوتي أحدث ذاتي باكياً: كنتِ أنيسة كُربتي. أصمت لأرتشف من الكأس.. أعاود حديثي: يطفو صوتي في أزقة صَنعَاء بعد خروجي

أجدُ كـُـلَّ شيء ولا أجدك.. تردِّد الدُّورُ صدى أشواقي ولا تُردين.. أرى أناساً يسكنون الدار.. بيت أمي.. ولا أجد أحداً يعرفني.. سنوات من شقاء الأزقة وقاعات القلعة. لم أعُـدْ أفرّقُ بينك وبين الوهم.. طوال طريق مكة وحتى اللحظة أبحث بين ملامح من أصادف.. والآن لا أميز بين ما أعيشه وبين السراب.. هذا أنا بين يديك أشك فيما أنا فيه.. أشك في ذاتي.. تداخَلَ الوهمُ بالحقيقة ولم تعُد من فواصل.. تداخَلَ الأمسُ باللحظة.. والحاضرُ بالغد.. تداخل كـُـلُّ شيء في اللاشيء.

كانت كلماتي تطيرُ من فمي.. أراها تحلقُ فأتبعها بكلمات جذلى.. كنت أتحدث وأتحدث.

لا أدري أأبحثُ عنها وعن أمي أم أني أبحثُ عن نفسي؟.. هل أبحث من أجل نفي الوَهْــم الذي يحتل مساحاتِ يقيني؟. أم لإقراره؟.. تحدثت كَثيراً بسعادة لم أطعمْها يوماً.

وقفت عاريةً ترقُص.. كان رأسُها يُلامسُ السقفَ أَوْ هكذا بدت لي في تلك اللحظات.. مدت يدها لتساعدني على الوقوف.. جسدُها متناسقٌ وهي تتلوى.. تغطي وجهَها بشعر رأسها.. تنظر إليّ من خلفه.. ترقص.. وحين مدت يدَها كي أشاركَها.. رقصت ووجهي يكادُ يصلُ أثداءَها.. سكبت كأساً على صدرها.. لحست أثدائها لساني.. على ظهرها تابعت مصه وهي تضحك.. على مؤخرتها.. كانت لهبة السراج قد ماتت.. ظلام يحملُ روحي بنشوة لذيذة.. أتحدث بغبطة لا متناهية.

أسمعُ صوتي لم يعد يهمني إلا أن أبوحَ.. صمتُها يُحيرُني.. خـُيِّـلَ إليَّ أنني أسمعُ همسَها: أمن أجلي كـُـلُّ ذلك العذاب؟. صرخت أرُدُّ على ذلك الهمس: أقسمُ بأني على استعداد لأن أُنهيَ حياتي من أجلك! أمـلكُ الدنيا بأطرافها ونحن معاً. صمتُّ قليلاً لأسمع صدى كلماتي.. واتتني رَغبةٌ بالصراخ "شـَوْذَب.. شوو". أحسستُ بكف يلجمُ فمي.. لم يدعني أواصلُ نشوتي.. سمعتُ صوتاً باكياً: "كفى.. كفى".. ليغرَقَ في نحيب مؤلم. اتكأت على ساعدي لأستدير.. كان جسمي ثقيلاً.. ورأسي يتدلى.. تحسستُها بيدي.. جسمُها الممدد بارد.. أبحث بأصابعي عن وجهها.. بطنها.. صدرها المندلق.. شعرها.. أنفها.. انكفأت أحتضنها.. كانت أكبرَ من أن أحتضنَها.. شعرت بأن يدَيها تقذفان بي.. بدأت أصحو.. أتحسس أوانيَ الطعام حولي.. عُدت أبحثُ عنها.. جسمها المديد.. تعاركنا في ظلام دامس.. لتضعَني تحتها.. تعبثُ بوجهها على بطني وهي تبكي.. أصابعُها تتلمس آثار جرح عانتي.. شعورٌ بالرضا يجتاحني.. لا أدري كم سافرت في جسمها أو أنني واهم.. كم تحدثت.. وكم غبت فيها.. تسلل ضوءٌ من النافذة الوحيدة.. أختلسُ النظرَ إليها، تجلسُ عاريةً باتجاه النافذة.. منشغلةً بوعاء بين فخذيها.. اقتربت برأسي.. تغمسُ أصابعَـها بقطن في وعاء له رائحة الخمر أَوْ الخل.. تدُسُّه بإصبعها في فرجها. تسللت أصابعي تداعب صدرَها المنسدل.. تبادلني بضحكات رَخوة.. أُداعبُ ذوائبَ شعرها.. أُمرر كفي بردفِها.. عادت تحتضنني.. تلصقُ جسمي كطفل في صدر أُمه.. هدأ كـُـلُّ شيء.. شعرت بأنها غطست في بركة النوم من جديد.

تمددت جوارها أسالُ نفسي: هل تضاجعنا.. أم هو الوهم؟. أم هو الشوق؟!. أشعُـرُ بأني إنسان آخر.. لا أعرف ما حصل.. هل كنت فحلاً أم خُـيِّـلَ لي؟!. لو لم أكن لما سكت نحيبُها.. لكررت ما فعلته القرعاء.. وطردتني عارياً.. ها هي عادت تغـطُّ في سُبات التشبع.. جسد يُشبهُ جسدَ رجل في قوامه.. صدر مترجرج ومؤخرة ضخمة.. قد تكون السنون.. هذا القوام لا يشبه قوام شَـوْذَب.. لكنه وجهها.. لا أريد أن أجزم بأنها امرأة أخرى.. تعبت.. تعبت بحثاً عن الحقيقة.

صحَت من نومها على سماع بكائي.. احتضنتني.. صغرُ حجمي جعلني أُهنهنُ على صدرها وأصابعُها تداعبُ شعرَ وجهي.. سألتها:

– هل أمي تعيش؟.

– وستراها اليوم!.

سحبت رأسي برفق: إذاً أنتِ شَـوْذَب لم أكن واهماً.. وإلا ما أدراك بأُمي؟. أنظر إلى وجهها المليء بالنوم.. عينيها.. حاولت أن ترسُمَ ابتسامة بشفتيها.. قلت لها بصوت فيه رجاء:

– أنت متيقنة مما تقولين.. أم أنكِ ترسمين لي وَهْـم.. وما أعيشُه وأسمعُه منكِ خيال؟!.

– انهض من تَـوِّكَ.. اذهبْ إلى مسجد الطاووس.. سَـلْ عن منزل إمام المسجد، الملحق فوق المطاهير.. قل لمن تجدُه أنا جَـوْذَر وأرسلتني الحجة فندة لأرى أمي.

- لا تقولي فنده.

- أنا فندة.. وهذا ليس مهماً.. هيا قم.

- لكنكِ لم تحدثيني عن نفسك.. ولم تجبِ عن أسئلتي.. أريد أن تحدثيني عما صنعتيه بسنين غيابي.

- الأيام كثر .. الأهم أنك عرفت الطريقَ إليَّ.. وعرفت الطريق إلى أمك.

* * *

أتردد على أمي.. أستمعُ إلى حكايات زوجة إمام المسجد، دَوماً ما تصفني بأخيها.. تقول لابنها بأني خاله.. كانت متمسكةً بأمي وكنت متردداً في أن أطلبَ اكتشافَ محتويات تلك البقشة(الصرة).. خجلاً من سؤالها أن نفتحَها.. لكنها فاجأتني في إحدى زياراتي بالسؤال عما أنوي فعله بأيامي.. أخبرتُها بأني لا أجيدُ غيرَ رسم الحروف ونقش الصور على الورق.. قالت لي: لديك كنزٌ تستطيعُ أن تأخذَه لتبدأ حياتَك به.. في البدء لم أفهم ما تقوله.. أخذ زوجُها دفة الحديث. قال باسماً: تلك البُقشة التي تتشبث بها أمي يائيل ليست بُقشتها.. فقد أبدلنا بقشتها يَوْماً ببُقشة أخرى خوفاً على كنزك لا يضيع.

* * *

تحكي لي زوجة إمام المسجدِ عن أمي، أصغي إليها باهتمام كنت أسمع في صوتها نبرة أمي: قالت لي أمك أنها كانت تطوفُ أحياءَ صَنْعَاءَ وأسواقها بحثاً عنك.. تزورُ مَن عرفت من النساء إن كُن قد سمعن عنك.. تسأل المارة باكيةً عمن رأى صديقها.. تعودُ إلى البيت لا لكي تدخُلَه بل لتجلسَ علىٍ عتبته تنتظرُ عودتك.. ثم تعاود التجوالَ في الشوارع والأزقة.. تسألُ مَن تصادفه، تشرح لهم ملامحَ وجهك ولون ثوبك وتبكي.. قالت لي بأن شَوْذَب تلك التي جاءت إلينا لتأخذها.. هي مَن كانت تواسيها في غيابك. حكت لي أمك بعض حكاياتها مع شوذب.. قالت هي بمثابة ابنتها.. وإنها بعد موت زوجها عرفت رجلاً اسمه صعصعة.. كان كريماً معها، وكان عزاءها أمام الناس.. لم يكن ينجب أولاداً لكنه لا يعترف.. ولذلك تزوج الكثيرات.. ليطلق كُلَّ مَن تكمل السنة بعد أن ينعتها بالعاقر.

قالت لي أمك ذات يوم: كنت أعرفُه شهماً.. تعرفت عَلَى آخر زوجاته التي تزوجها صغيرة.. وقعت في حيرة من زواجها.. هو بتجربة الرجل الكبير قد أسر قلبها.. وهي تبحثُ عن سبب يبقيها وكان ينتظر منها خلفاً.. بحثت عمن يُعينها على ما يريد.. لتلجأ إليّ.. وكانت شَوْذَب قُرة عين والديها.. يُقتل الأب وقد أمست شَوْذَب صبية فاتنة.

جاءت إليَّ شَوْذَب ذات يَوْم باكية.. تقول لي بأن أُمَّها جُنت.. وأنها أنكرت أُمومتها.. تسألني باكيةَ: هل أنت أمي؟. احتضنتها محتارة.. لم أفهم الأمر.. هدأتها.. طلبت منها أن تحكيَ لي.. كنت أعتقد أن المسألة

سطحية.. لكنني اكتشفتُ بأنها جُنت بالفعل.. قالت لي شـَـوْذَب: إن أُمي تُلاحقُ جَـوْذَر وتغارُ عليه مني.. تهيمُ به عِشقاً.. وتتهمُني بأنني أريدُه لي.. صرخت في وجهي أنت لست ابنتي.. اذهبي واسألي أمك يائيل.. فعندها الخبرُ الدفين.. وعليك بعد اليوم أن تعرفي بأنك لست ابنتي وأن صعصعة لم يكن ذا نسل.. ثم طردتني من دارنا!

تستطرد زوجة إمام الجامع، تغيب ملامحها وتتلاشى، لا أسمع إلا صوت أمي يسافر في أرجائي المتعبة تحكي:

وقفتُ أمام شـَـوْذَب كالصنم.. شلت لساني المفاجأة.. عُدت فاحتضنتها وأنا أفكرُ في مَخرَج لهذه الفتاة المجروحة.. لم يكن أمامي إلا نفيُ كـُـلِّ ما ذكرته وإنكارُ كـُـلِّ ما سمعت.. أكدت لها بأن تخمينَها عن فقدان عقل أمها حقيقة.. وأني قادرة على معالجتها.. طلبتُ من المسكينة أن تنتظرَني في بيتي حتى أعود.. ذهبت إلى زوجة صعصعة التي حاولت إقفالَ الباب حين رأتني.. كانت في َهيَجان عنيف.. شتمتني.. حاولت ضربي.. استطعت تهدئتها.. لم أعنفها أوْ أخطئها.. بل بررت لها كـُـلَّ أفعالها.. فأنا امرأةٌ وأعلمُ كيف تكونُ المرأة حين تعشق.. لم أقل لها أنها تفسد ابني بتلك العلاقة.. أوْ أنها امرأة كبيرة وهو لا يزال صغيراً.. بل أبديت تعاطُفي لمشاعرها.. وأظهرت لها بأن القلبَ وما يريد.. أوضحت لها بأن شـَـوْذَب لو أَخرجت ما دار بينهما وعرف الناسُ بأنها ليست أمها ستكونُ الخاسرة.. ورجوتها أن تعيشَ كما تريد.. لكن عليها أن تستسمحَ شـَـوْذَب وتُعيدَ إليها ثقتها بأُمومتها.. وألا تخشى على جَـوْذَر

من شـَوْذَب.. فحين تدرك البنت حُبَّ أُمِّها لشخص فإن نظرتها إليه تختلفُ وعاطفتها تتوارى.

هدأت تلك العاصفة.. لتتعايشَ المرأتان على مَضَض.. كانت شـَوْذَب تخرُجُ مبكرةً صباحَ كـُـلِّ جمعة.. تذهبُ لتفرغ جو الدار لأمها حين يأتيها.. تبكيه وتبكي أمها.. لتعودَ بعدَ خروج جَـوْذَر من دارهم.. لكن اختفاءَ جَـوْذَر المفاجئ جعلهن يبدءان حياةً جديدةً حياة أم بابنتها.. وبعاطفة قوية.

من لحظة اختفائه أمست المدللة لديهن.. وكان رجائي بربي كبيراً في عودة ابني.. أخشى ما أخشى عليه الموت.. أخافُ عليه من العُبودية.. كانت تداعبُني شـَوْذَب حين تزورُني بقولها: ابنك أغوته فتاةٌ وسحرته عقاباً له!. وتارة تقولُ لي: سيعودُ ليس من أجلك بل من أجلنا جميعاً!. كانت كلماتُها تعيدُ لي الأمل.. أما أُمُّها فقد تحولت إلى امرأة أخرى.. قل حديثُها وعادت للخروج من دارها دون رقيب.. كنتُ أمازحُها حين أقول لها: مَن ينظر إليكما يعتقدُ بأنكما أُختان.. ظلت بشرتها نظرة وعينها صافية وساحرة.. وظل جسمها مشدوداً ومتناسقاً".

* * *

حين فُتحت بقشة أمي أدركت أنها لم تتركني قط، لا أعرف كيف استطاعت جمع كـُـلِّ تلك الدراهم.. كان إلى جوار ذلك لفافة توراتها.. وشمعدان نحاسي.. ومجموعة من الشموع المهترئة.. مناديل

وقطع قماش.. ورق كتبت عليه وصيتها بحروف عبرية.. عرفتُ فيما بعدُ بأنها ذكرت أن تسلم الوصية وكل ما في البقشة لابنها جَـوْذَر.. وإن لم يعُـدْ تُسلـَّـم لحاخام صَـنْـعَـاء.. ومن وصيتها أن تُدفنَ حسبَ الشريعة جوار قبور اليهود.

بكيت وأنا أحتضنُ أمي.. قبلتُ قدمَيها ويدَيها.. تشبعت برائحتها.. بينما كانت أصابعها تتشبث ببُـقشتها المزيفة.. لا تعي ما يدور.

قبلَ أن أخرُجَ حدثتهم بأن لا أحد غيرهم مسئول عنها.. وعن تنفيذ وصيتها وأن كـُـلَّ ما فيها يخصهم ولا يخصني في شيء.. خرجت أبحثُ عما ينقصني.. أفكر بإعادة بناء حانوت المعلم.. ومواصلة العمل به.

ترددت على بيت شوذب، أو كما تقول فندة.. يرُدُّ عَـلـَيَّ الفتيات بأنها لا تريد رؤية أحد.. لجأت لأم الجواري.. وعدتني بمقابلتها.. يَـوْماً بعد يوم ترصدت لها في شارع ذلك المسجد. أخبرني الإمام بأن (الحجة) فندة انقطعت عن الحضور إلى المسجد.. وأخبرتني زوجتُه بأنها ستأتي لزيارة أمها يائيل.

تواترت أخبارُ عَودة المكرم من تهامة.. بعد أن قتل الأحول سعيد الحبشي قاتل أبيه.. قيل بأنه طهَّرَ كـُـلَّ تهامة.. وهو عائدٌ بجيشه ترافقه أمّـــه السيدة أسماء بنت شهاب.. وعدة توابيت لبقايا جثامين أبيه ومَن قُتِل معه في المهجم.

خرجت صَـنْـعَـاءُ لاستقبال الملك المكرم أمير الأمراء أحمد.. كان

الوقت قبيلَ مغيب الشمس.. تسابق إليه مشايخُ المدينة ووجهاؤها أمام بوابة القلعة.. خر المكرم ساجداً يُقبلَ الأرض حمداً لله.. رأى وجهه من رأى من المصطفين لاستقباله.. قيل أنهم رأوا وجهه وقد أصابه الشلل.. وقال آخر بأنه كان يحاول مواراة ملامحه حين أخذت الريح غطاء وجهه بعيدا وهو يهم بالوقوف بعد سجوده.

تبع دخوله باب القلعة جواد أبيض.. عليه شابة بوجه وضاء.. تنقل ناظريها بين الوجوه.. تتراقص حولها عدة خيول.. تُشرق ابتسامتها ملوحة للأكف المرفوعة تحيةً لها.. حين دخلت جوار الملك.. قيل أن تلك الفارسة هي زوجته أروى بنت أحمد الصليحي.

ثم دخلت أُمه أسماء تلوّحُ من هودج مُغطى بالحرير.. ورأيت عدة نساءً يتقدمنها بالمباخر والدفوف.. وأخريات يلتففن حولها حين نزلت من هودجها.. ورأيت بينهن شـَوْذَب أَوْ أ فندة تدخل مع سيدتها أسماء بوابة القلعة.. و لم أرَها بعدَ ذلك.

نـُفخت أبواق الفرَح.. وأشعلت نيرانُ الانتصار فوقَ جبال صَـنـْعَـاء ودُورها.. وهللت منارات مساجدها.

بعد أيام أعتزل الملك المكرم الناس ولجأ إلى حصن جبل.. ترك لزوجته أروى إدارة شؤون الحكم.. بعد أن تكلس نصف وجهه وجسده.

أعدت ترتيب تفكيري.. وجدت أن الحياة تستحق أن تعاش.. وأن علي أن أسير حتى أقتنع بأنها حبس كما قال لي يوما قانح.. أحصيت ما

تبقى لدي من دراهم ذلك النخاس.. قررت إعادة بناء حانوت المعلم.. كان ذلك الجارُ يرمقني باستمرار.. يأتي وبعض أصحاب الحوانيت عارضين علي خدماتِهم.. يُحاولُ التقرب.

أَعدتُ بناء الحانوتَ كما كان في زمن المعلم.

أجلسُ في زاوية المعلم.. أستعد لاستقبال ما يُطلب نسخه.. أفكرُ في كتب الغُرفة الخلفية.. أنتظر اليوم الذي أستطيع اكتشاف أسرار الكُتب المخبوءة بأمان.. الكتب التيَ دفع المعلم حياته ثمنا لها.. أتأملُ السائرين في أزقة السوق.. أشعُـرُ بأن علـَيَّ أن أنشغل بنسخ الكتب ونقشها بالزخارف.. وكتابة ما أعيشه.. أنتظر ظهور من أنتظر قدومها.. أترصد كـُـلِّ اتجاهٍ.. وأنتظر بشوق. أقتنص لحظات صفاء لأدون ما عشته.

لم تمض أيام حتى انتشرت أخبار في أزقة المدينة عن ظهور إماما جديدا من بلاد صعدة.. يدعو القبائل لنصرة دعوته.. سريعا ما وصلت الأخبار عن تجمع القبائل.. رعب قبائل يسكن أزقة المدينة.. بعد أيام رأى سكان صنعاء من أعالي دورهم ومنارات المساجد جحافل القبائل تقترب من أسوارها.. ارتفعت وتيرة الذعر أخذ السكان يفرون.. صراخ وعويل.. صخب وعويل.. تسربت روائح الحريق والغبار.. طعم الموت عم سماء المدينة.....

محمد الغربي عمران

- صنعاء.
- متفرغ للكتابة.
- عضو الأمانة العامة لإتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين.
- رئيس نادي القصة.
- الأمين العام لإتحاد البرلمانيين اليمنيين السابقين.
- رئيس مركز الحوار لثقافة حقوق الإنسان.

صدر له:

- الشراشف 1997 قصص قصيرة.. دمشق.. اتحاد الأدباء العرب.
- الظل العاري 1998 قصص قصيرة.. صنعاء.. الهيئة العامة للكتاب.
- الظل العاري 1999ط2.. بيروت.
- حريم أعزكم الله 2000 قصص قصيرة.. صنعاء.. نادي القصة.
- حريم أعزكم الله 2001 ط2 قصص قصيرة.. القاهرة.. مركز الحضارة العربية.
- ختان بلقيس.. 2002.. قصص قصيرة.. صنعاء.. نادي القصة.
- منارة سوداء 2004.. قصص قصيرة.. صنعاء.. اتحاد الأدباء اليمنيين.
- مصحف أحمر 2010.. رواية.. بيروت.. رياض الريس.

للتواصل بالكاتب

إيميل:

algarby@gmail.Com

الصفحة على الفيسبوك:

الغربي عمران

هاتف:

00967777411120

الطريق إلى مكة

لم أدر من هو في حاجة إلى عَون الآخر، ولا في أي أرض تقفُ قدمي، ولا أين يسكن ذلك الرب، أفي تلك المساجد ومصليها ؟ أم في كنس أبناء ملة أمي ؟ أم أنه يقبع في بيت ألوهيم ؟ في لفائف التوراة، أم هو في صفحات القرآن ؟ من سيسكن رضا اللـــَّــه ؟ ملكوت اليهود في السماء، أم جنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟ هذه أمي تخاف من زلات أفكارها، من إغضاب ربها، فما أصنعه أنا بعقلي، وما يسافر به ذهني دون دليل، أين سيكون مكاني منهم ؟ أم أن لي معبوداً غير معبوداتهم ؟ معبود يقودني دون أن أدرك، تشدني تلك الألوان، الحروف والتخريمات، الزخارف، تقود روحي أصوات الصلوات المتداخلة، مع أشكال رُسمت ونُقشت في أزمنة متداخلة، حتى لكأني أشعر بتداخل الصوت والضوء والنقش مع روحي، أيّ طريق تسلكه روحي وقد سلبتها تلك المشاهد حريتها ؟

غلاف: محمد عبدالعزيز


9 789774 902185

